سعيد حوى

الأساس في التفسير

المجلد الخامس

وفيه تفسير المجموعة الأولى من قسم المثين

وهي سور:

يونس، هود، يوسف، الرعد، إبراهيم

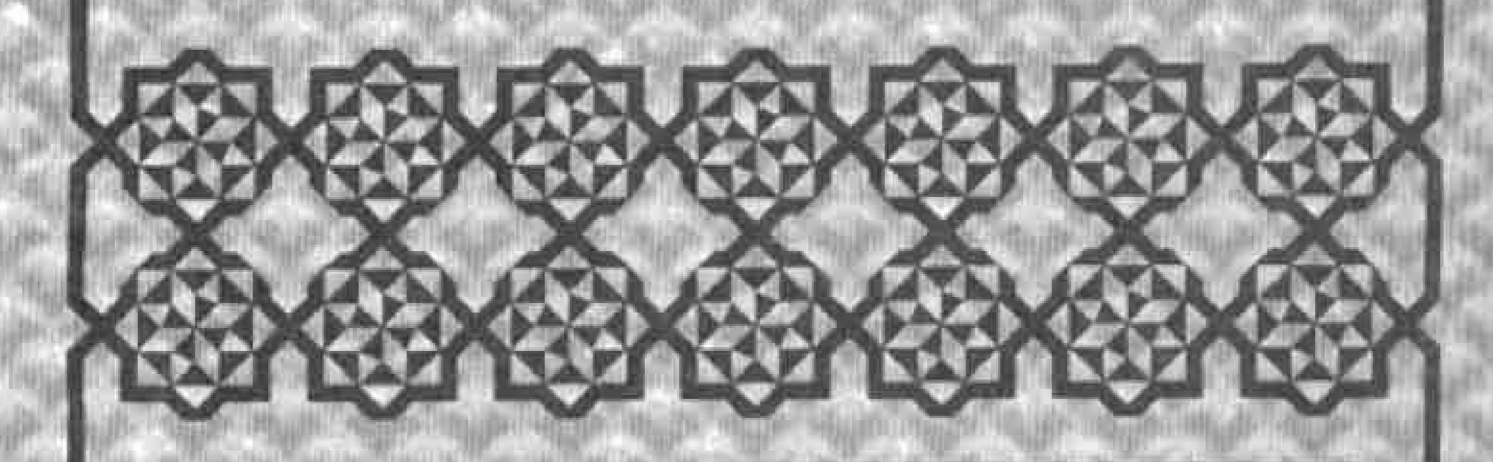
دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ



القسم الثاني من أقسام القرآن

قسم المثين

ويتضمن سور

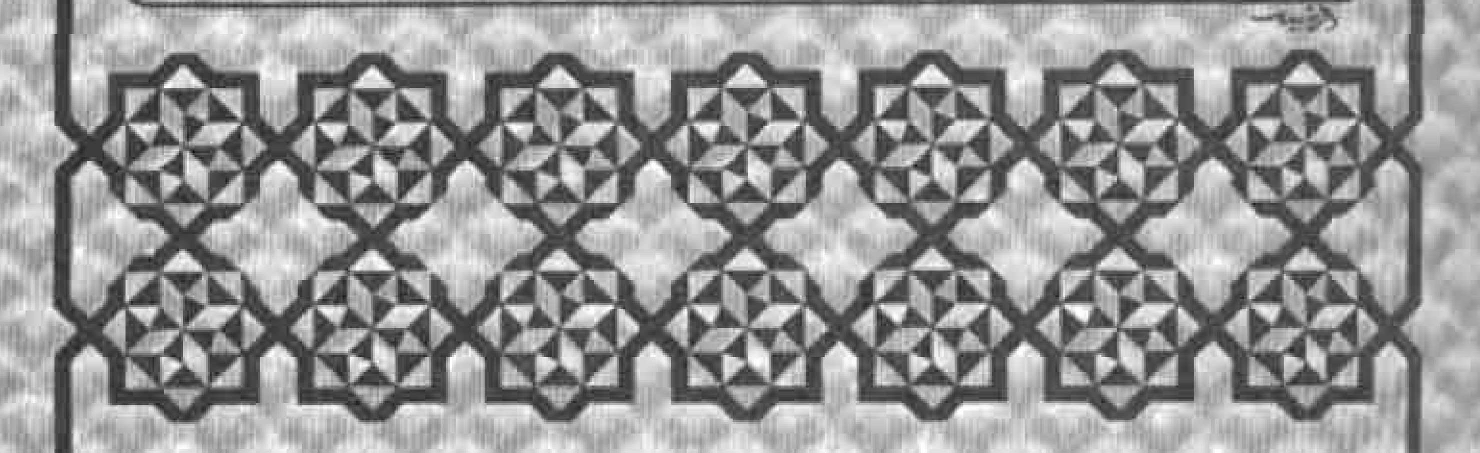
يونس، هود، يوسف، الرعد، ابراهيم، الحجر، النحل، الإسراء،

الكهف، مريم، طه، الأنبياء، الحج،

المؤمنون، النور، الفرقان،

الشعراء، النمل،

القصص.



كلمة في قسم المئين :

مع أن تقسيم القرآن إلى أربعة أقسام : قسم الطِّوال ، وقسم المئين ، وقسم المثاني ، وقسم المفصَّل قد ورد في حديث حسن - كما رأينا - فإننا لا نعلم أن أحداً قد حدّد قسم المئين وقسم المثاني ، إن هناك تحديداً لقسم الطوال ، ولقسم المفصَّل ، على خلاف في قسم المفصَّل ، وواضح أن قسم المثاني ينتهي حيث ابتدأ قسم المفصل ، كما أنه من الواضح أن قسم المئين يبدأ حيث انتهى قسم الطوال ، وقسم الطوال ينتهي بسورة (براءة) . وإذن فقسم المئين يبدأ بسورة يونس فأين ينتهي ؟ .

إن هناك علامتين بارزتين تدلاننا على أنه ينتهي بسورة القصص :

العلامة الأولى : أن سورة القصص وسورة النمل - قبلها - وسورة الشعراء - قبلهما - تكاد تشكّل زمرة واحدة من قسْم واحد ؛ إذ الثلاثة مبدوءة بالطاء والسين ، وسورة الشعراء مئتان وسبع وعشرون آية ، وسورة النمل ثلاث وتسعون ، وسورة القصص ثمان وثمانون آية ، فهي قريبة من المئة التي أخذ قسم المئين اسمه منها ، والسورة التي تأتي بعد سورة القصص هي سورة العنكبوت ، وآياتها تسع وستون ، فهي بداية قسم المثاني والله أعلم .

العلامة الثانية : إنه منذ سورة آل عمران لم نعد نرى الأحرف ﴿ الٓمٓ ﴾ تتصدر سورة بشكل منفرد . رأينا ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ ورأينا ﴿ الٓمٓر ﴾ ولأول مرة بعد سورة آل عمران ، ولآخر مرة تأتي ﴿ الٓمٓ ﴾ بداية لأربع سور هي : العنكبوت ، والروم ، ولقمان ، والسجدة ، مما يمكن أن يستأنس به بأن سورة العنكبوت بداية قسم جديد هو قسم المثاني . وبالتالي فإن سورة القصص هي نهاية قسم المئين .

فقسم المئين يبدأ بسورة يونس ، وينتهي بسورة القصص . والله أعلم

* * *

ومن خلال تتبع المعاني نجد أن قسم المئين يتألف من ثلاث مجموعات :

المجموعة الأولى : هي يونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم .

والمجموعة الثانية : هي الحجر ، والنحل ، والإسراء ، والكهف ، ومريم .

والمجموعة الثالثة : هي طه ، والأنبياء ، والحج ، والمؤمنون ، والنور ، والفرقان ،

والشعراء ، والنمل ، والقصص .

وسنرى كيف أن المعاني هي التي حددت بداية المجموعات ونهايتها ، وهي التي عرّفتنا أن هذا القسم ينقسم إلى ثلاث مجموعات .

• • •

ولقد رأينا في قسم الطّوال أن المعاني في سورة البقرة تسلسلت على طريقة ، ثم جاءت السور اللاحقة ففصّلت في معان وَرَدَت في سورة البقرة على نفس التسلسل الذي جاء في سورة البقرة على غير تعاقب ، ففصّلت آل عمران في مقدمة سورة البقرة ، وفصّلت النساء والمائدة والأنعام في المقطع الأول من القسم الأول ، وفصّلت سورة الأعراف في المقطع الثاني من القسم الأول ، وكان تفصيل هذه السور لمحاورها تفصيلا له ولامتداداته من سورة البقرة ، ولذلك فإن سورتي الأنفال وبراءة فصّلتا في آية فريضة القتال والآيتين بعدها من سورة البقرة بعد عشرات الآيات .

وإذن فالسور التي جاءت بعد سورة البقرة من قسم الطّوال فصّلت في معان من سورة البقرة على ترتيب ما ، وإن قسم المثين يأتي بعد ذلك لتفصّل كل مجموعة من مجموعاته في سورة البقرة من بدايتها على ترتيب،وكل ذلك سنراه تفصيلاً بإذن الله .

• • •

لقد فصّلت سورة آل عمران في مقدمة سورة البقرة نوع تفصيل . وفي المجموعة الأولى من قسم المثين تأتي سورة يونس لتفصّل في مقدمة سورة البقرة تفصيلاً آخر .

وفصّلت سور : النساء والمائدة والأنعام في المقطع الأول بعد المقدمة نوع تفصيل ، وتأتي في المجموعة الأولى من قسم المثاني : سور هود ، ويوسف ، والرعد ، لتفصل في المقطع الأول تفصيلاً آخر .

وكما أن سورتي الأنفال وبراءة فصّلتا في محور بعيد من المقطع الثاني في سورة البقرة فإن سورة إبراهيم هنا تفصل في محور بعيد من المقطع الثاني في سورة البقرة .

ثم تأتي المجموعة الثانية من قسم المثين لتفصّل في سورة البقرة من بدايتها إلى نهايتها ، بتفصيلها محاور من سورة البقرة تختلف أو تتفق مع ما فصلته سور أخرى ، ولكن على حسب ترتيب ورودها في سورة البقرة دون اشتراط التعاقب

إن مجموعة ما عندما تفصّل في سورة البقرة فإنها تفصّل في محاور على ترتيب سورة البقرة ، ولكن ليس شرطاً أن تكون هذه المحاور وراء بعضها مباشرة في سورة البقرة . فقد يكون هناك فاصل بين المحور والمحور ، ولكن من الملاحظ أن مجموعة ما عندما تفصل في محاور متعددة فإن هذه المحاور من سورة البقرة تربطها مع بعضها روابط متينة في عالم المعنى ، وسنرى ذلك بشكل واضح أثناء التفصيل - إن شاء الله - وههنا سنقدم نموذجاً :

• • •

لقد كان أكثر ما انصبّ عليه تفصيل سورة آل عمران من مقدمة سورة البقرة هو توضيح صفات المتقين والكافرين . وسنرى أن سورة يونس سينصبّ تفصيلها على الآية الأول من مقدمة سورة البقرة ﴿ **الٓمٓ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين** ﴾ .

ولقد انصبّ تفصيل سورة النساء على الآيات الخمس الآتية بعد مقدمة سورة البقرة وخاصة على التقوى من قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ .

وسنرى أن سورة هود سينصبّ تفصيلها على قوله تعالى : ﴿ **اعبدوا** ﴾ من قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ وأن سورة يوسف سترينا مصداق قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله** ﴾ .

فسورتا:هود ويوسف تفصّلان في الآيات الخمس التي فصّلت فيها سورة النساء ، ولكنهما تركزان على نقاط بعينها ، بينما ركّزت سورة النساء على نقاط أخرى ، وسورة الرعد تفصّل في نفس المحور الذي فصّلت فيه سورة المائدة ، مع تركيزها على نقاط بعينها .

ثم تأتي سورة إبراهيم فتفصّل في آية بعيدة في سورة البقرة هي : ﴿ **الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات** ﴾ . ولو أنك أتيت إلى محاور هذه المجموعة كلها من سورة البقرة ووضعتها بجانب بعضها لرأيت أنك أمام موضوع متكامل .

فمع أن سورة البقرة لها سياقها ، وتترابط آياتها بعضها ببعض ترابطاً واضحاً فإن المجموعات التي تفصّل في محاور من سورة البقرة تربط المعاني في سورة البقرة إلى بعضها برباط جديد ، تريك أن هناك صلات بين آيات سورة البقرة ذات الموضوع الواحد ولو تباعد ما بين هذه الآيات .

وهذه قضايا تظهر للإنسان من خلال التتبع والتأمل ، ولذلك نذكرها هنا لمجرد الإشارة إليها ، وسيأتي التفصيل إن شاء الله تعالى

*

تأتي المجموعة الأولى من قسم المثين موطّئة لمعاني المجموعة الثانية ، وتأتي المجموعة الثانية وتبدأ بسورة الحجر التي تكاد أن تكون عرضاً سريعاً لكل الأوليات ، ثمّ تأتي سور المجموعة الثانية لتفصّل في معان من سورة البقرة لم تأت سور من قبل تفصّلها ، وبذلك يوضع في قسم المثين أساسان يوطّئان المجموعة الثالثة .

ثمّ تأتي المجموعة الثالثة في قسم المثين فتكمّل بناء القسم في تفصيلها لمحاورها من سورة البقرة تفصيلًا يكمّل عمل المجموعتين السابقتين .

وتتشابه المجموعات الثلاث في هذا القسم في أن كلًّا منها تفصّل في محور من سورة البقرة من الابتداء حتى الانتهاء ، كما تتشابه في أن كلاً منها تنطلق انطلاقات متشابهة في تأكيد الإيمان بالقرآن ، ثمّ تسير في طريق تعميق الالتزام ، ثمّ تصل إلى الوعظ والتذكير ، ثمّ إن هذه المجموعات الثلاث كل منها يكمّل الآخر ومن ثمّ كانت قسماً واحداً

* * *

وهذا أوان عرض المجموعة الأولى من قسم المثين وهي سور : يونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم .

وسنرى بعد عرضها ما الذي دلنا على أنها مجموعة متكاملة ضمن قسم المثين

سورة يونس

وهي السورة العاشرة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الأولى من المجموعة الأولى من
قسم المثين ، وآياتها مائة وتسع
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

كلمة في سورة يونس ومحورها :

يلاحظ أن أول آية في سورة يونس هي قوله تعالى ﴿ **الر تلك آيات الكتاب الحكيم** ﴾ ثم يأتي قوله تعالى : ﴿ **أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشّر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين** ﴾ وفي الآية (٣٨) نجد قوله تعالى ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ . ألا ترى أن هذا يقابل قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **الٓمٓ . ذلك الكتاب لا ريب فيه** ﴾ ثم نجد قوله تعالى في سورة يونس الآية : ٥٧) : ﴿ **يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين** ﴾ ألا ترى أن هذا يقابل قوله تعالى في خاتمة الآية الأولى من سورة البقرة ﴿ **هدى للمتقين** ﴾ وإذا نظرت إلى ما ختمت به سورة يونس وهي قوله تعالى : ﴿ **واتبع ما يوحىٰ إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين** ﴾ .

فأنت ترى - ابتداءً - أن محور سورة يونس هو قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **الٓمٓ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين** ﴾ فإذا كانت سورة آل عمران قد فصّلت مقدمة سورة البقرة كلها ، فإن سورة يونس تفصّل الآية الأولى من سورة البقرة ، ويكون مجيء ﴿ **الر** ﴾ في السور الأولى من هذه المجموعة فيه إشارة إلى نوع جديد من التفصيل ، فالسورة إذاً تقرر كيف أن هذا القرآن لاريب فيه ، وتناقش المرتابين الذين هم أحد اثنين : إما مستغربون أن ينزل الله وحياً ، أو متهمون لرسول الله ﷺ بالكذب . وترد على هؤلاء وهؤلاء ، ولكن لا بطريقة البشر في الردّ ، إنها تردّ بأسلوب هو وحده كافٍ ليدل على أن الريب في غير محله ، ثم تقرر السورة كيف أن القرآن هدى ، ثم تختم السورة بالتذكير والتلخيص لمضمونها كله .

فالسورة تتألف من مقدمة هي آية واحدة تشعر بموضوع السورة كله ، ثم يأتي جسم السورة وهو يتألف من ثلاثة أقسام ينتظمها محور السورة العام .

* * *

إنه ليس من المصادفة أن تكون سورة يونس على مثل هذا الترابط مع أول آية من سورة البقرة لولا أن ما اتجهنا إليه في الربط بين سور القرآن كان صحيحاً :
إن أول سورة البقرة هو : ﴿ **الٓمٓ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين** ﴾ تأمل هذه

الآية ، وتأمل المسرى العام لسورة يونس من خلال تأمل الآيات التالية :

﴿ الر تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾

﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم .. ﴾

﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من العالمين ﴾ لاحظ كلمة ﴿ لا ريب فيه ﴾

﴿ أم يقولون افتراه .... ﴾

﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ لاحظ كلمة ﴿ وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾

﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ﴾ لاحظ كلمة ﴿ في شك ﴾ ﴿ قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ﴾

لاحظ كلمة ﴿ في شك ﴾

﴿ قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ﴾

﴿ واتبع ما يوحى إليك واصبر ... ﴾

* * *

لو أنك نظرت هذه الآيات بتأمل لوجدتها : إما أنها تتحدث عن الشك وتزيل أسبابه ، أو أنها تتحدث عن هداية القرآن والاهتداء به ، وكل ذلك مرتبط بقوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ﴾

....

إنه بسورة يونس يبدأ التفصيل الثاني لسورة البقرة بتفصيل أول آية فيها ، ولكن - كما رأينا من قبل - أن السورة عادة لا تفصل محورها فقط بل تفصل محورها وامتداداته وارتباطاته من سورة البقرة نفسها ، وهذا الذى نراه في سورة يونس .

* * *

ولقد فطن الألوسي إلى مجموعة روابط تربط بين سورة يونس وسورة براءة التي سبقتها فقال : (ووجه مناسبتها لسورة براءة أن الأولى ختمت بذكر الرسول ﷺ

وهذه ابتدئت به ، وأيضاً أن في الأولى بياناً لما يقوله المنافقون عند نزول سورة من القرآن وفي هذه بيان لما يقوله الكفار في القرآن حيث قال سبحانه : ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله** ﴾ الآية وقال جل وعلا ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بَدِّله** ﴾ وأيضاً في الأولى ذمّ المنافقين بعدم التوبة والتذكر إذا أصابهم البلاء في قوله سبحانه : ﴿ **أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مَرّة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون** ﴾ على أحد الأقوال . وفي هذه ذم من يصيبه البلاء فيرعوي ثم يعود وذلك في قوله تعالى : ﴿ **وإذا مسَّ الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضرّه مَرّ كأن لم يدعُنا إلى ضُرمسّه** ﴾ وفي قوله سبحانه : ﴿ **حتى إذا كنتم في الفلك وجَرَيْن بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أُحيط بهم دعَوُا الله مخلصين له الدين** ﴾ إلى أن قال سبحانه : ﴿ **فلما أنجاهم إذاهم يبغون في الأرض بغير الحق** ﴾ وأيضاً في الأولى براءة الرسول ﷺ من المشركين مع الأمر بقتالهم على أتم وجه ، وفي هذه براءته ﷺ من عملهم ، ولكن من دون أمر بقتال ، بل أمر فيها عليه الصلاة والسلام أن يظهر البراءة فيها على وجه يشعر بالإعراض وتخلية السبيل ، كما قيل على ضد ما في الأولى ، وهذا نوع من المناسبة أيضاً ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون** ﴾)

كما فطن صاحب الظلال رحمه الله إلى الصلة بين بداية سورة يونس وخاتمتها فقال :

(والترابط في سياق السورة يوحّد بين مطلعها وختامها . فيجيء في المطلع قوله تعالى : ﴿ **الر تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشّر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين** ﴾ .. ويجيء في الختام : ﴿ **واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين** ﴾ .. فالحديث عن قضية الوحي هو المطلع وهو الختام . كما أنه هو الموضوع المتصل المتلاحم بين المطلع والختام)

القسم الأول من سورة يونس

ويمتد حتى نهاية الآية (٥٦) حيث يأتي بعد ذلك قوله تعالى ﴿**يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة ...**﴾ وهذا القسم يتألف من آية هي مقدمة السورة ، ومقطعين يناقشان الريب في القرآن :

المقطع الأول بدايته : ﴿ **أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم** ﴾ فهذا المقطع يناقش الكافرين بأصل الوحي

والمقطع الثاني بدايته : ﴿ **أم يقولون افتراه ..** ﴾ فهذا المقطع يناقش المكذبين بالقرآن ، فالقسم بمجموعه يناقش الريب في القرآن ، فهو إذن يصبُّ في تفصيل قوله تعالى ﴿ **ذلك الكتاب لاريب فيه** ﴾

فهذا القسم في السورة يؤكد أن هذا القرآن لاريب فيه ، ثمّ يأتي القسم الثاني ليؤكد أن هذا القرآن هدى ويجب أن يهتدى به

• • •

تبدأ السورة بآية تدلّ على مضمون السورة وهي : ﴿ **الّر تلك آيات الكتاب الحكيم** ﴾ فالآية الأولى في السورة تذكر حكمة الكتاب ، وذلك يؤكد أنه لا ريب فيه ، وأنه هدى يجب أن يهتدي الناس به ، فهذه الآية التي هي مقدّمة السورة تشير إلى مضمون السورة ، كما أنها في محلها تحقق ما يسمى في علم البلاغة (براعة الاستهلال) على أعظمه وأروعه ، ولله ولكتابه المثل الأعلى ، وتنزّه كتابه وكلامه أن يشبه كلام البشر .

وسنعرض مقدمة السورة مع المقطع الأول من القسم الأول معاً وهذا أوان الشروع في ذلك

مقدمة السورة والمقطع الأول من القسم الأول

المقدمة آية واحدة ثم يأتي المقطع ويستمر حتى نهاية الآية (٣٧) وهذا هو مع المقدمة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ

ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ
﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ
لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ * وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ
لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾
وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ
ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ
خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ
مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ
إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ
وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ

ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا

فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ * لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ
سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ
قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ
جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ
شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن
كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ
مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ
اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ
حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن
شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ

تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾

ملاحظة حول طريقتنا في تفسير ما سيأتي من القرآن :

في ما مرّ معنا من التفسير حرصنا أن نأتي بالمعاني العامّة للآيات المفسَّرة ، ثمّ نتبعها بالتفسير الحرفي ، وكان ذلك يضطرنا إلى التكرار ، وقد ألجأنا إلى ذلك حرصنا على عرض معاني ما نفسره متسلسلاً ؛ لتأكيد وحدة المقطع ، أو القسم ، أو المجموعة ، ونعتقد أنّ ما مرّ كان كافياً لتأكيد ما أردناه ، ولذلك ورغبة في الاختصار فإننا لن نسير بعد الآن على مبدأ ذكر المعنى العام ثمّ المعنى الحرفي ، بل سنكتفي بذكر المعنى الحرفي .

كلمة بين يدي الآيات :

إن الناس الذين ينكرون الوحي إنما يفعلون ذلك لأن تصوراتهم عن أمور كثيرة مغلوطة ومن ثَمّ ، وهذه الآيات تناقش هؤلاء فإنها تصحّحُ كل المفاهيم التي تؤدي إلى إنكار الوحي ، وهذا شيء لابدّ من تذكره لإدراك الصلة بين الآيات

قلنا : إن القسم الأول من سورة يونس يناقش المرتابين في هذا القرآن ، ويؤكد أن هذا القرآن لاريب فيه ، وقلنا : إن المقطع الأول من القسم الأول يناقش الذين ينكرون أصل الوحي ، وههنا نقول : إن مناقشة المنكرين لأصل الوحي إنما كانت كجسر يوصل إلى مناقشة المرتابين في القرآن ، لذلك نجد في هذا المقطع قوله تعالى : ﴿ **وإذا تتلى عليهم**

آياتنا بيّنات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بَدِّله قل ما يكون لي أن أبدِّله من تلقاء نفسي إن أتّبع إلا ما يوحى إليّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل لوشاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثتُ فيكم عُمُراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ كما نجد أن المقطع قد ختم بقوله تعالى ﴿ **وما كان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين ﴾**

فهذا يؤكد أن مناقشة المنكرين لأصل الوحي إنما هو جسر لإقامة الحجة على المرتابين في هذا القرآن

المعنى الحرفي لمقدمة السورة وللمقطع الأول من القسم الأول فيها :

﴿ **الر** ﴾ قد تقدّم الكلام عن هذه الحروف أكثر من مَرّة وأقوى الأقوال فيها : أنها تدل على اسم من أسماء الله ، أو صفة من صفاته ، أو أنها أسماء للسور التي استهلت بها ، أو أنها إشارة إلى التحدي والإعجاز ، أو أنها للتنبيه بين يدي المعاني ، أو أنها مفاتيح لجرس السورة ونغمتها ، أو أنها مفاتيح لفهم الوحدة القرآنية ، أو أنها إشارة إلى وجود نسبة معينة لهذه الحروف في سورها ولا يمنع أن يكون ذلك كله مراداً من الاستفتاح بها . والله أعلم . ﴿ **تلك آيات الكتاب الحكيم** ﴾ أي هذه آيات القرآن المحكم البيّن الحكمة ، فالقرآن حكيم لاشتماله على الحكمة ، والقرآن محكم لخلوه عن الكذب والافتراء والزيادة والنقصان ، هذه الآية هي مقدمة هذه السورة ، وفيها إشارة إلى الحكمة والإحكام في القرآن ، فهو حكيم في اختيار ألفاظه ، حكيم في ترتيب كلماته ، حكيم في ترتيب آياته في السورة الواحدة ، حكيم في ترتيب سوره في المجموعة أو القسم أو فيه كله ، حكيم فيما تضمنه من معان وتوجيهات ، وتربية وتشريع وتعليم ، محكم في هذا كله لا يمكن نقضه ، ولا يمكن أن يوجد فيه خلل ، فكما أن في هذا الكون حكمة لأنه خَلْقُ الله الحكيم ، ففي هذا القرآن حكمة لأنه كلام الله الحكيم ، وكما أن الحكمة في هذا الكون لا يحيط بها إلا خالقها ، فالحكمة في هذا القرآن لا يحيط بها إلا مُنَزِّل هذا القرآن ، وإنما يرى الخلق منها بقدر نور بصائرهم ، وإذ كان القرآن حكيماً فذلك دليل على أنه من عند الله ، وذلك يقتضي من الخلق أن يهتدوا ، وهذا هو مضمون السورة التي جاءت الآية الأولى فيها مقدمة لها . ثمّ يبدأ المقطع الأول وتعرض الآية الأولى منه عجب الكافرين أن ينزل الله وحياً ، ويبعث رسولاً مع تعجيبها من هذا العجب فتقول ﴿ **أكان**

للناس عجباً ﴾ الهمزة لإنكار التعجب منه ﴿ أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشّر الذين آمنوا أن لهم قَدَم صدق ﴾ أي سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة ﴿ عند ربهم قال الكافرون إنّ هذا لساحر مبين ﴾ أي إن هذا الرسول واضح السحر .

فوائد :

١ ــ أنكر الله تعالى في هذه الآية على من تعجّب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر ، وذلك دأب الناس من كل رسالة ، بما في ذلك رسالة رسولنا ﷺ قال ابن كثير : قال الضحاك عن ابن عباس : لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك – أو مَن أنكر منهم – فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد فأنزل الله عز وجل : ﴿ أكان للناس عجبا ﴾ قال النسفي : (فقد كانوا يقولون : العجب أن الله لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب . واستتبع عجبهم هذا ؛ العجب من ذكر البعث والإنذار بالنيران ، والتبشير بالجنان) وقد ردّ النسفي هذا العجب فقال : وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب ، لأن الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشر مثلهم . وإرسال اليتيم أو الفقير ليس بعجب أيضاً ؛ لأن الله تعالى إنما يختار للنبوة من جمع أسبابها ، والغنىٰ والتقدم في الدنيا ليس من أسبابها ، والبعث للجزاء على الخير والشر هو الحكمة العظمىٰ ، فكيف يكون عجباً ؟ إنما العجب والمنكر في العقول تعطيل الجزاء .

٢ ــ عبّر بالآية عن السابقة والفضل والمنزلة الرفيعة بالقدم الصدق ؛ لأن السعي والسبق إنما يكون بالقدم ، ولذلك سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدماً ، كما سميت النعمة يدا لأنها تعطىٰ باليد ، وإضافة القدم إلى الصدق فيه دلالة على زيادة الفضل المعطاة لأصحاب ذلك من الله ، ويمكن أن يفسر قدم الصدق بمقام الصدق أو سبق السعادة .

وقد توسّع الألوسي في هذا المقام مبيّنا معنى (قدم صدق) ثمّ استطرد في ذكر استعمالات العرب لكلمة « القدم » مجازاً فقال : ﴿ قدم صدق ﴾ أي سابقة ومنزلة رفيعة ﴿ عند ربهم ﴾ وأصل القدم العضو المخصوص ، وأطلقت على السبق مجازا مرسلاً لكونها سببه وآلته ، وأريد من السبق الفضل والشرف ، والتقدم المعنوي إلى المنازل الرفيعة مجازاً أيضاً ، فالمجاز هنا بمرتبتين ، وقيل : المراد تقدمهم على غيرهم في دخول الجنة لقوله ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة » وقوله ﷺ : « إن الجنة محرمة على الأنبياء حتى

أدخلها أنا ، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتي » وقيل : تقدمهم في البعث ، وأصل الصدق ما يكون في الأقوال ، ويستعمل - كما قال الراغب - في الأفعال فيقال : صدق في القتال إذا وفّاه حقّه ، وكذا في ضدّه يقال : كذب فيه ، فيعبّر به عن كل فعل فاضل ظاهراً أو باطناً ، يضاف إليه كمقعد صدق ، ومدخل صدق ، ومخرج صدق ، إلى غير ذلك .)

كلمة في السياق :

محور هذه السورة كما قلنا من قبل-أول آية في سورة البقرة وهي قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين** ﴾ فهي تفصيل لهذه الآية ، ومن ثم فإن هذه السورة تستأصل الشك ، وتهيّجُ على اتّباع القرآن ، ووصف القرآن بالحكمة في الآية الأولى ، والبدء في هذا المقطع بعرض عجب الكافرين من الوحي ، والتعجب منه ، هو سير في هذا الطريق ، فالشك بالقرآن تعود أسبابه إما إلى الشك بأصل الوحي ، أو الشك بالموحَىْ إليه . وهذا المقطع الذي بين أيدينا ينسف الشك بأصل الوحي بتبيان أن وحي الله وإرسال الرسل ضرورة لامحيص عنها . فكيف تكون مستغربة ! وقد ذكر المقطع عدّة مجموعات من الآيات ، كل مجموعة تنسف العجب من إنزال الوحي بشكل من الأشكال ، فلننتقل الآن إلى عرض المجموعة الأولى لنرى ما قلناه واضحاً :

المجموعة الأولى

﴿ **إن ربكم الله** ﴾ فهو مربيكم وسيّدكم ومالككم ، ومن كان كذلك فكيف يتركَكم بدون هداية ووحي وإنذار ! ﴿ **الذي خلق السمٰوات والأرض في ستّة أيام** ﴾ وهل هي كأيامنا ، أو كل يوم منها بألف سنة ، أو المراد غير هذه وهذه ؟ أقوال للمفسرين وستأتي . ﴿ **ثم استوى على العرش** ﴾ قال ابن كثير : (والعرش أعظم المخلوقات وسقفها) أقول : العرش مخلوق غيبي ، يجب الإيمان به ، ونمسك عن التفصيل في شأنه ، إلا في الحدود التي فصّلت فيها النصوص ، والنصّ في سياقه يفيد أنّ من كانت السمٰوات والأرض خلقه ، والعرش في سلطانه ، فكيف يستغرب أن يوحي إلى خلقه ليوجّههم ويأمرهم وينهاهم . ﴿ **يدبّر الأمر** ﴾ أي أمر الخلق كله . وأمر ملكوت السمٰوات والأرض والعرش . ومعنى (يدبّر) يقضي ويقدّر على مقتضى الحكمة . بدأ بالتذكير بربوبيته وما يدل على عظمته وملكه ، من خلقه السمٰوات والأرض ، وأتبعها بتذكيره بتدبير أمر الخلق كله ؛ ليعلم الجاحدون رسالاته أن الذي يدبّر السمٰوات والأرض يدبّر البشر بإرساله رسلاً لهم ، وإنزاله وحياً عليهم . ﴿ **ما من**

شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ أي : لا يشفع شافع عنده إلا إذا إذنَ له ، وهذا تذكير بكمال عزته وكبريائه ، وإذا كان كذلك فكيف يتوهّم الجاحدون ألّا ينزل وحياً ، وألا يطالب عباده بتكليف . ﴿ ذلكم ﴾ العظيم الموصوف بما تقدم ﴿ الله ربكم ﴾ وإذ كان ربكم فإنه سيأمركم وينهاكم عن طريق الوحي . ﴿ فاعبدوه ﴾ أي أفردوه بالعبادة وحده لاشريك له ، فهو الذي يستحق العبادة لا غيره من إنسان أو ملك ، أو طبقة ، فضلًا عن غير ذلك من معنى أو جماد . وإذ كان هو المستحق للعبادة التي يدخل فيها معرفته وطاعته ، والقيام بوظائف العبودية له ، فكيف الطريق إلى ذلك إلا بواسطة الوحي . ﴿ أفلا تذكّرون ﴾ أي أيها الجاحدون إنزال الوحي وإرسال الرسل ، وأيها المشركون به غيره ، ألا تتدبرون فتستدلون بوجود هذا الخلق على الخالق ، وتعرفون بذلك صفاته ، وتتذكرون أن مَنْ هذا شأنه لا يترك عباده بلا وحي وأمر ونهي ، وثواب وعقاب ، وهكذا ، وبآية واحدة هدم الشبهة الأولى التي تحول دون الإيمان بهذا القرآن ، وهي شبهة مَنْ يستبعد أصلًا أن ينزل الله وحياً .

فوائد :

١ ـ قال ابن كثير ، وقال الدراوردي عن سعد بن إسحق بن كعب بن عجرة أنه قال حين نزلت هذه الآية ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السمٰوات والأرض ﴾ الآية لقيهم ركب عظيم لا يرون إلا أنهم من العرب . فقالوا لهم : من أنتم ؟ قالوا : من الجن ، خرجنا من المدينة ، أخرجتنا هذه الآية . رواه ابن أبي حاتم .

٢ ـ رأينا أن السورة بعد مقدمتها عرضت لشبهة وردّتها ، ولنتساءل الآن عن مظنة وجود هذه الشبهة في الفكر العالمي ؟.

نقول : إن من درس تاريخ الفلسفة يجد أن هذه الشبهة تكاد تكون أحد أركان الفكر الفلسفي في العالم ، فمنذ أريسطو - بل من قبله حتى الآن - تجد الفكر الفلسفي - بما في ذلك الفكر الذي يثبت وجود الله - يعتقد أن الله لا يتدخل في شؤون خلقه ، بل كان أريسطو يتصور أن الله منصرف عن خلقه أصلًا ، لا يعنيه من أمورهم شيئاً ، فهو مشغول بكونه سعيداً - تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً - ومن درس وضع العالم المعاصر يجد أن أكثر الخلق هذا شأنهم ، فأكثر المجتمعات ، وأكثر المفكرين ، لا ينكرون وجود الله ، ولكن إيمانهم بوجوده يرافقه عدم استعداد للتلقي عنه ، أو على الأصح استغراب أن ينزل وحيه ،وأن يكون وحيه ملزماً وموجّهاً ، وخذ مثلًا أمريكا ،

فأمريكا تكتب على دولارها « بالله نؤمن » ولكن دستورها يعتبر من الجرائم حمل المجتمع الأمريكي على دين يكون هو الحاكم ، فماذا يعني هذا وأمثاله . وقد أصبح مثل هذا هو المسيطر على التفكير البشري ، إلا أن البشر في عصرنا تواضعوا على أن الله لا علاقة له بشؤونهم ؟ وهل هذا إلا ما عرضته الآية الأولى في المقطع وهل الجواب عليه إلا ما جاء في الآية الثانية

٣ ـــ من الشبهات التي يثيرها الرافضون لتحكيم كتاب الله ، ولتحكيم شريعته ؛ أن هناك دعاوى كثيرة في هذا الشأن ، وأن هناك اختلافات كثيرة ، وهذا من أكبر الجهل والظلم ، فكثرة الخلاف لا تعني فقدان الحق ، ثم لا تقتضي تركه ، بل كثرة الخلاف تبعث على العلم وبذل الجهد للوصول إلى اليقين ، ومن بذل أدنى جهدعرف أن ديناً هذا القرآن كتابه هو الحق الخالص .

* * *

وبعد أن هدّم الله شبهة المنكرين لأصل الوحي ، ذكّر الله عباده ووعظهم ، فأخبر أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة ، لا يترك منهم أحداً إلا ويعيده كما بدأه . وأنّ حكمته في إرجاع الخلق إليه وبعثهم هو مجازاة المكلفين . فمقتضى عدله أن يثيب المطيع ويعاقب العاصي ، ومن ثم اقتضى ذلك أن يكون هناك يوم آخر . وإذ كان الأمر كذلك فكيف يستغرب المستغربون أن ينزل وحياً ينذر الناس بما أمامهم ، ويبشر الصالحين بما أعد لهم ، بعد أن يدلّهم على طريق الإيمان والعمل الصالح . قال تعالى : ﴿**إليه مرجعكم جميعاً**﴾ أي إلى الله رجوعكم ومآلكم كلكم ، فلا ترجعون في العاقبة إلا إليه ؛ فاستعدّوا للقائه باتباع وحيه ﴿ **وعد الله حقاً** ﴾ أي هذا وعده الجازم المؤكّد أن يعيدكم إليه جميعاً . ﴿ **إنه يبدأ الخلق ثم يعيده** ﴾ هذا تعليل لإمكان العودة وقد شاءها الله فما المانع من ذلك . وتعليل لوجوب المرجع إليه فمَنْ بدأ الخلق قادر على أن يعيده وقد أوجب الرجوع إليه ﴿ **ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط** ﴾ أي العدل والجزاء الأوفى ، أي ليكافأهم بعدله ويوفيهم أجورهم ، أو لكافأهم بسبب عدلهم إذ آمنوا ولم يظلموا ، وهذا بيان للحكمة من ابتداء الخلق وإعادته ، فالحكمة هي جزاء المكلّفين على أعمالهم ﴿ **والذين كفروا لهم شراب من حميم** ﴾ أي بالغ نهاية الحرارة ﴿ **وعذاب أليم بما كانوا يكفرون** ﴾ أي بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب من سَموم وحميم ، وإذا كان هذا وعده ، وإذا كان هذا كائناً لا محاله ، فكيف يستغرب الجاحدون أن ينزل وحياً ؟ وكيف يتهمون رسوله بالسحر ! فالآية وعظ

وتذكير وتدليل وهي – في الوقت نفسه – تحطيم لإنكار الكافرين أصل الوحي

فائدة :

إن الإيمان بالله يلازمه الإيمان باليوم الآخر ، فمن عَرَف الله آمن باليوم الآخر ، إنّ من عرف علم الله وقدرته لم يستغرب الإعادة والحساب ، ومن عَرَف عدل الله لم يستغرب أن يوجد يوم لتحقيق العدل المطلق ، ومن عَرَف انتقامه لم يستغرب أن يوجد يوم آخر يعذب به أعداءه . ومن عَرَف كرمه لم يستغرب أن يعد لأوليائه جنته ، كيف وقد أرسل الرسل للتبشير بجنته والإنذار بناره ، فكيف يستغرب المستغربون ؟؟

إن علّة عصرنا الرئيسية هي الغفلة عن الله واليوم الآخر ، والغفلة عما تقتضيه معرفة الله واليوم الآخر ، من التزام بوحي الله ، واتباع رسوله ﷺ وشريعته ، ولا دواء لهذه الغفلة إلا بالذكر ، وتلاوة القرآن ، وبالعلم ، وإلّا بصحبة الذاكرين ، والعلماء العاملين ، الطالبين لوجه الله ، الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة .

• • •

﴿ **هو الذي جعل الشمس ضياءً** ﴾ أي ذات ضياء ﴿ **والقمر نوراً** ﴾ أي ذا نور ، والضياء أقوى من النور ، ولذا جعله للشمس ، جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياءً ، وجعل شعاع القمر نوراً ؛ ممّا يشعر بأن هناك فارقاً ما ، وقد ظهر في عصرنا بوضوح الفارق بين الشمس والقمر . إذ أن نور القمر انعكاس لضياء الشمس . فالشمس نورها منها ، والقمر نوره مستمَد من الشمس . وهكذا تظهر معجزات القرآن يوماً فيوماً ، ففي كل يوم جديد ﴿ **وقدّره منازل** ﴾ أي وقدّر سير القمر منازل : أو قدّره ذا منازل : فأوّل ما يبدو صغيراً ، ثم يتزايد نوره حتى يستوسق ويكمل إبداره ، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى . وهكذا كل شهر قمري ﴿ **لتعلموا عدد السنين والحساب** ﴾ أي لتعلموا بالشمس والقمر عدد السنين والشهور والأيام ، وحساب الآجال والمواقيت المقدّرة بالسنين والشهور . قال ابن كثير : (فالشمس تُعرف الأيام ، وبسير القمر تُعرف الشهور والأعوام) . **أقول** :وبالشمس تُعرف السنون الشمسية ، وبالقمر تُعرف السنون القمرية ﴿ **ما خلق الله ذلك إلا بالحق** ﴾ أي ما خلق الله المذكور إلا متلبساً بالحق الذي هو الحكمة البالغة ولم يخلقه عبثاً ﴿ **يفصّل الآيات** ﴾ أي يبيّن الحجج والأدلّة ﴿ **لقوم يعلمون** ﴾ أي لقوم عندهم علم بدقائق هذا الكون ، فإذا كان لهم تدبر وتأمّل ينتفعون بهما . وإذا كان الله عز وجل يفعل مثل هذا

لمصلحة عباده ، فكيف يهملهم ، فلا يهديهم ولا ينزل عليهم وحياً يبشّرهم وينذرهم ، ألا إن عجب الناس من أن ينزل الله وحياً في غير محله . وهكذا نرى أن الشبهة الأولى ضد هذا القرآن تتحطم بشكل ثم بآخر ﴿ **إن في اختلاف الليل والنهار** ﴾ أي في مجيء كل واحد منها خلف الآخر ، أو في اختلاف لونيهما ، أو في تعاقبهما ، إذا جاء هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب هذا جاء هذا ، لا يتأخر عنه ، أو اختلافهما بالذهاب والمجيء والزيادة والنقصان ﴿ **وما خلق الله في السمٰوات** ﴾ أي من الآيات الدالة على عظمته من ظاهر للجميع أو ظاهر للبعض ﴿ **والأرض** ﴾ من الخلائق والعجائب والدلائل ﴿ **لآيات** ﴾ أي دلالات على قدرته تعالى ﴿ **لقوم يتقون** ﴾ أي يتقون الله باتقاء عقابه وسخطه وعذابه ، خصّهم بالذكر لأنهم يحذرون الآخرة فيدعوهم الحذر إلى النظر ، كأن الله عز وجل بعد أن أقام الحجة على ضرورة إنزال الوحي من خلال ذكْره عنايتَه بخلقه ، نبّه تعالى أن الآيات في هذا الكون التي تدل على كمال عنايته لا يعرفها ولا ينتفع بها إلا المتقون ، فلا يستغرب إذن أن يكون كثير من الناس بمنأىً عن الانتفاع ، وبالتالي فهم مبتعدون عن الوحي المنزل .

ثمّ عقّب الله عز وجل بخمس آيات تبيّن السبب الرئيسي للكفر بالوحي وهو الكفر بالآخرة والاطمئنان للدنيا ، وتدل على الطريق الصحيح للوصول ، وتذكر بعض الأسباب التي تجعل الناس يكفرون ، فالكفر أثر عن الجهل بالله وسننه . ففي الآيات الخمس الآتية مزيد بيان في شأن الكفر بالوحي والإيمان به

• • •

ويلاحظ أن المقطع الذي بين أيدينا بدأ بقوله تعالى ﴿ **أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا ...** ﴾ وهي تنتهي بإنذار الكافرين وتبشير المؤمنين . وكما أن ذكر الإنذار في الآية الأولى سبق ، فإن الإنذار هنا يسبق التبشير

....

﴿ **إن الذين لا يرجون لقاءنا** ﴾ بالبعث ، أي لا يتوقعونه أصلًا ، ولا يخطرونه ببالهم ؛ لغفلتهم عن التفطّن للحقائق ، أو لا يؤمّلون حسن لقائنا كما يؤمّله السعداء ، أو لا يخافون خطر لقائنا الذي يجب أن يخاف ﴿ **ورضوا بالحياة الدنيا** ﴾ أي بدل الآخرة ، بإنكارهم للآخرة وإيثارهم القليل الفاني على الكثير الباقي فجعلوا الحياة الدنيا منتهى

رضاهم ﴿ واطمأنوا بها ﴾ أي واطمأنت إليها نفوسكم حتى لم يبق بها أيّ مزعج يحركها نحو الآخرة . قال النسفي (أي : وسكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها فبنوا شديداً وأمّلوا بعيداً) أو وتصرفوا بحرية كأنهم أرباب وفروا من العبودية ومن التذكير بها : وهذا وضع أكثر الخلق الآن ، بل على هذا النوع من التفكير تقوم الحضارة العالمية والمدنية العالمية بمؤسساتها وصورها وفروعها ، كل شيء في عصرنا يقوم على تعظيم الدنيا وتمجيدها ، وبالتالي التهالك على كسبها وملاذها ومفاتنها ولهوها دون النظر إلى الآخرة . ثم كمل وصف هذا النوع من الناس ﴿ والذين هم عن آياتنا ﴾ أي دلائل وحدانيتنا ﴿ غافلون ﴾ أي تاركون النظر فيها فلا يتفكرون . فهؤلاء ما جزاؤهم ؟ ﴿ أولئك مأواهم النار ﴾ أي مقرهم ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ أي بسبب كسبهم فهي عقوبة في مقابل ذنب . قال الحسن البصري واصفاً حال هؤلاء أخذاً من الآية : (والله ما زينوها ولا رفعوها حتى راضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية ، فلا يتفكرون فيها ، والشرعية فلا يأتمرون بها بأن مأواهم يوم معادهم النار جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والجرائم ، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر)

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ أي يسددهم بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوك الطريق السوي المؤديّ إلى الثواب ، أو يهديهم ربهم في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة . وفي الآية بشارة لمن آمن وعمل صالحاً بأن الله يتولى أمره ويكمّل عليه نعمته ﴿ تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم . دعواهم فيها ﴾ أي دعاؤهم فيها ﴿ سبحانك اللهم ﴾ أي يدعون الله بقولهم سبحانك اللهم تلذّذاً بذكره . ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ أي يحيي بعضهم بعضاً بالسلام ، أو هي تحية الملائكة إياهم ، أو تحية الله لهم سلام ﴿ وآخر دعواهم ﴾ أي وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح أن يقولوا ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال النسفي : قيل أول كلامهم التسبيح وآخره التحميد . فيبتدئون بتعظيم الله وتنزيه ، ويختمون بالشكر والثناء عليه ، ويتكلمون بينهما بما أرادوا .

قال ابن جريج : أخبرت أن قوله ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم ﴾ قال : إذا مرّ بهم الطير يشتهونه ، قالوا : سبحانك اللهم وذلك دعواهم ؛ فيأتيهم الملك بما يشتهونه فيسلم عليهم فيردون عليه ، فذلك قوله ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ قال : فإذا أكلوا حمدوا

الله ربهم ، فذلك قوله : ﴿ **وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين** ﴾ وقال سفيان الثوري : إذا أراد أحدهم أن يدعو بشيء قال : ﴿ **سبحانك اللهم** ﴾ .

وختم ابن كثير الكلام على الآية الأخيرة بقوله : « هذا فيه دلالة على أنه هو المحمود أبداً ، المعبود على طول المدى ، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره ، وفي ابتداء كتابه ، وعند تنزيله حيث يقول تعالى : ﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب** ﴾ (الكهف : ١) ﴿ **الحمد لله الذي خلق السموٰات والأرض** ﴾ (الأنعام : ١) إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها ، وأنه المحمود في الأولى الآخرة ، في الحياة الدنيا وفي الآخرة في جميع الأحوال ، ولهذا جاء في الحديث : « إن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس » وإنما يكون ذلك لما يرون من تزايد نعم الله عليهم ، فتكرر وتعاد وتزداد فليس لها انقضاء ولا أمد ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه)

ثم أخبر تعالى عن حكمته ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم ، أو على أموالهم ، أو على أولادهم بالشر ، في حال ضجرهم وغضبهم ، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك . فلهذا لا يستجيب لهم - والحالة هذه - لطفاً ورحمة ، كما يستجيب لهم إذا ادعوا لأنفسهم ، أو لأموالهم ، أو لأولادهم بالخير والبركة والنماء ، فيسبب من ذلك يبقى الكافرون بالآخرة مترددين متحيرين كأثر من آثار استجابة الدعاء أحيانا ، وعدم استجابته أحيانا كأثر من حلمه عز وجل ، وصبره وإمهاله لعباده ، وعدم التعجيل لهم . وختم هذه المجموعة بهذه الآية فيه استكمال للحجج الواردة في هذه المجموعة ، فإنكار الوحي أثر عن أشياء كثيرة ، منها الكفر باليوم الآخر ، وهذه الآية تذكر سبباً من أسباب كفر الكافرين باليوم الآخر ، فالله رحيم بعباده لطيف بهم ، ومن ثم فإنه لا يعجّل لهم الشر ، وهذا كله تخفى حكمته على من لا يؤمن باليوم الآخر ، ومن ثم فإنهم يستمرون فيما هم فيه من طغيان ، متحيرين مترددين ، بدلًا من أن يؤمنوا ويتابعوا الوحي قال تعالى : ﴿ **ولو يُعجّل الله للناس الشرَّ استعجالهم** ﴾ أي كاستعجالهم ﴿ **بالخير لقضي إليهم أجلهم** ﴾ بأن يهلكهم ولكن يمهلهم ﴿ **فنذر** ﴾ أي نترك ﴿ **الذين لا يرجون لقاءنا** ﴾ أي لا يؤمنون بالآخرة ﴿ **في طغيانهم** ﴾ في تجاوزهم حدود الله ﴿ **يعمهون** ﴾ أي يترددون ويتحيرون . فصار المعنى : ولو عجّلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجّل لهم الخير ونجيبهم لأميتوا وأُهلكوا ، وقد تضمّن هذا نفي التعجيل ، فبسبب

من ذلك يبقى الكافرون في شركهم وضلالهم ويترددون مما بينهم الله ، ويفيض عليهم النعمة - مع طغيانهم - إلزاماً للحجة عليهم .

ملاحظة :

لاحظ الصلة بين قوله تعالى ﴿ **إن الذين لا يرجون لقاءنا** ﴾ الآية الثانية من الآيات الخمس الأخيرة وبين قوله تعالى ﴿ **فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون** ﴾ في الآية الحادية عشرة التي هي آخر آية في المجموعة الأولى من المقطع ، مما يشير إلى أن الآيات الخمس الأخيرة متكاملة في مجموع تقريراتها ، وقد ذكرنا من قبل محلّ هذه التقريرات في السياق

فائدة :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولو يعجّل الله للناس الشرّ استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم** ﴾ ذكر ابن كثير ما رواه البزار في مسنده عن جابر قال رسول الله ﷺ : « لا تدعوا على أنفسكم ، لا تدعوا على أولادكم لاتدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم » .

كلمة في السياق :

رأينا أن سورة يونس مبدوءة بمقدمة هي الآية الأولى منها،ثمّ ذكرت موقفاً من مواقف الكافرين من الوحي والرسول والقرآن ﴿ **أكان للناس عجباًأن أوحينا إلى رجلٍ منهم أن أنذر الناس وبشّر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إنّ هذا لساحر مبين** ﴾ ثم جاءت المجموعة الأولى من المقطع الأول وهي التي مّرت معنا فهدّمت عجبهم ، وهدّمت دعواهم ، والآن تأتي مجموعة أخرى تهدم العجب والاستبعاد ، وتهدّم اتهام الرسول ﷺ بالسحر

فلنر المجموعة الثانية من المقطع الأول من القسم الأول من سورة يونس :

المجموعة الثانية

﴿ **وإذا مسّ الإنسان الضُّرُّ** ﴾أي أصابه الضر ﴿ **دعانا** ﴾ أي دعا الله لإزالته ﴿ **لجنبه أو قاعداً أو قائماً** ﴾ معناه أن المضرور لا يزال داعياً لا يفتر عن الدعاء حتى

يزول عنه الضر ، فهو يدعونا في حالاته كلها ، سواء كان مضطجعاً عاجزاً عن النهوض ، أوقاعداً لا يقدر على القيام ، أو قائماً لا يطيق المشي ﴿ **فلما كشفنا عنه ضرَّه** ﴾ أي أزلنا ما به ﴿ **مرّ كأن لم يدعُنا إلى ضُرّ مسّه** ﴾ أي مضى على طريقته الأولى قبل مسّ الضر ونسي ، أو مَرّ عن موقف الابتهال والتضرع لا يرجع إليه كأنه لا عهد له به ، كأنه لم يدعنا ، أخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا أصابه الضر وأصابته الشدة ، وكيف أنه يجزع ويكثر الدعاء عند ذلك . فإذا فرّج الله شدته ، وكشف كربته ، أعرض وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء . ثم ذم تعالى مَن هذه صفته وطريقته ﴿ **كذلك** ﴾ أي مثل ذلك التزيين ﴿ **زُيّن للمسرفين** ﴾ أي للمجاوزين الحد في الكفر ، والمزيِّن هو الشيطان بوسوسته ﴿ **ما كانوا يعملون** ﴾ من الإعراض عن الذكر ، والصدّ عن سبيل الله ، واتباع الكفر .

وهكذا بدأت هذه المجموعة تكمّل الحجج على الكافرين في إنكارهم الوحي . فكأنها قالت : أنتم أيها الكافرون إذا أصابكم الضر تجأرون إلى الله في الدعاء ، مما يدلل على أنكم تعتقدون أن الله لا يهملكم ، فكيف إذن تتعجبون أن ينزل وحياً ويرسل رسولاً ؟! فكما أنكم إذا دعوتموه فأجابكم تنسون نعمته عليكم فهكذا هنا تنسون وحيه وتعجبون منه هذا شأنكم الإسراف في كل شيء .

وفي هذا السياق ذكّرهم بأن إرسال الرسل سنّته في الأمم السابقة ، وهدّدهم أن إهلاك المكذبين كذلك سنته ، وذكّرهم أنهم سائرون في الطريق نفسه فليحذروا .

﴿ **ولقد أهلكنا القرون** ﴾ أي الأمم ﴿ **من قبلكم لمّا ظلموا** ﴾ أي لما أشركوا وظلموا بالتكذيب ﴿ **وجاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ أي المعجزات الدالات على صدقهم ﴿ **وما كانوا ليؤمنوا** ﴾ ولذلك استحقوا الهلاك ، فمهما بقوا فإنهم مصرُّون على الكفر يعني : أنّ السبب في إهلاكهم تكذيبهم للرسل ، وعلم الله أنه لا فائدة في إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثة الرسل ، ففي الآية إخبار عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاؤوهم من البينات والحجج الواضحات ﴿ **كذلك** ﴾ أي مثل ذلك يعني الإهلاك ﴿ **نجزي القوم المجرمين** ﴾ وهو وعيد لمن كذّب برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ **ثم جعلناكم** ﴾ يا من بُعث إليهم محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ **خلائف في الأرض من بعدهم** ﴾ أي استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكناها ﴿ **لننظر كيف تعملون** ﴾ أي لننظر أتعملون خيراً أو شراً ، فنعاملكم على حسب عملكم ، أي

أنتم بمنظر منا فانظروا كيف تعملون أبالاعتبار بماضيكم ، أم الاغترار بما فيكم ، وبهاتين الآيتين تقوم حجة أخرى على من تعجّبوا من أن يرسل الله رسولاً مبشراً ونذيراً ، وذلك من خلال التذكير بأن الله أرسل رسلاً من قبل ، وعذّب من كذبهم ، فمن درس ونظر علِم أنه لا محل للتعجب أن يبعث الله محمداً ﷺ بهذا القرآن ، وفي هذا السياق ذكّرهم وحذّرهم وخوّفهم وأنذرهم ، وبهذا تنتهي المجموعة الثانية في هذا المقطع وقد أكملت صَرْح الردّ على الكافرين في التعجب من إرسال محمد ﷺ بشيراً ونذيراً ، لتأتي المجموعة الثالثة لتهدم عجبهم بشكل آخر .

فوائد :

١ ـ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضُرَّه مَرَّ كأن لم يَدْعُنا إلى ضر مَسَّه** ﴾ قال الألوسي :

« وفي الآية ذم لمن يترك الدعاء في الرخاء ويهرع إليه في الشدة ، واللائق بحال الكامل ، التضرع إلى مولاه في السراء والضراء ، فإن ذلك أرجى للإجابة ففي الحديث « تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة » .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي الدرداء قال : ادعُ الله تعالى يوم سرائك يستجب لك يوم ضرائك . وفي حديث الترمذي عن أبي هريرة ورواه الحاكم عن سلمان وقال صحيح الإسناد « من سرّه أن يستجيب الله تعالى له عند الشدائدوالكروب فليكثر الدعاء في الرخاء » والآثار في ذلك كثيرة) .

٢ ـ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم** ﴾ نذكر ما يلي : ذكر مسلم في صحيحه عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء » .

وروى ابن جرير عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن عوف بن مالك قال لأبي بكر : رأيت فيما يرى النائم كأن سبباً دلي من السماء ، فانتشط رسول الله ﷺ ، ثم أعيد فانتشط أبو بكر ، ثم ذرع الناس حول المنبر ، ففضل عمر بثلاث أذرع حول المنبر ، فقال عمر : دعنا من رؤياك لا أرب لنا فيها ، فلما استخلف عمر قال : يا عوف رؤياك ؟ قال : وهل لك في رؤياي من حاجة أوَ لم تنتهرني ؟ قال : ويحك إني كرهت

أن تنعى خليفة رسول الله ﷺ نفسه ، فقصّ عليه الرؤيا حتى إذا بلغ ذرع الناس إلى المنبر بهذه الثلاث الأذرع قال : أما إحداهن فإنه كان خليفة ، وأما الثانية فإنه لا يخاف في الله لومة لائم ، وأما الثالثة فإنه شهيد ، قال :فقال : يقول الله تعالى ﴿ **ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون** ﴾ فقد استخلفت يا ابن أم عمر ، فانظر كيف تعمل ، وأما قوله : فإني لا أخاف في الله لومة لائم فيما شاء ، وأما قوله (شهيد) فأنّى لعمر الشهادة والمسلمون مطيفون به ؟

كلمة في السياق :

١ ــ نذكّر هنا بما ذكرناه من قبل أكثر من مرة . وهو أن القرآن يعطي معاني من خلال المعنى الحرفي ، ومن خلال السياق الجزئي ، ومن خلال السياق الكلي ، ونحن نلاحظ في هذه السورة كيف أن كل آية – أو عدة آيات – تسجل معنى ، وكل مجموعة تسجل معاني محققة هدفاً معيناً ، فأنت عندما تقرأ المجموعة الأولى ، أو المجموعة الثانية تلاحظ أنها تهدم شبهة الكافرين ، وتلاحظ أنها تنذر وتبشر ، وتلاحظ أن كل آية منها تعلّم وتربي وهكذا ... ومن ثم كان إعجاز هذا القرآن لا ينتهي

٢ ــ رأينا أن المجموعة الأولى والثانية قد هدّمت نفي الكافرين لأصل الوحي ، ومن جملة ما رأيناه أن سبباً من أسباب الإنكار للوحي هو الاطمئنان للدنيا ، وعدم رجاء لقاء الله : ﴿ **إنّ الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا ...** ﴾ وسنرى أن الآية الأولى في المجموعة الثالثة تحدّثنا عن إنكار الذين لا يرجون لقاء الله هذا القرآن : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدّله** ﴾ مما يؤكد أن السياق ماض في مناقشة الكافرين بالوحي ، ومما يؤكد أن إقامة الحجة على الكافرين في أصل الوحي هو الجسر للوصول إلى مناقشة المرتابين بهذا القرآن

المجموعة الثالثة

﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا** ﴾أي القرآن ﴿ **بيّنات** ﴾ أي ظاهرات واضحات ﴿ **قال الذين لا يرجون لقاءنا** ﴾ أي لا يخافون البعث ﴿ **ائت بقرآن غير هذا** ﴾ أي من نمط آخر ﴿ **أو بدّله** ﴾ بأن تضع شيئاً مكان شيء ، وحكماً مكان حكم ﴿ **قل ما يكون لي** ﴾ أي ما يحل لي ﴿ **أن أبدّله من تلقاء نفسي** ﴾ أي من قِبَل نفسي ، أي ليس هذا إليّ ؛ إنما أنا عبد مأمور ورسول مبلّغ عن الله ﴿ **إن أتبع إلا ما يوحى إليّ** ﴾ أي لا اتبع

إلا وحي الله من غير زيادة ولانقصان ، ولا تبديل ، لأن الذي أتيت به هو من عند الله لا من عندي فأبدله ﴿ **إني أخاف إن عصيت ربي** ﴾ بتبديله ﴿ **عذاب يوم عظيم** ﴾ أي يوم القيامة ﴿ **قل لو شاء الله ما تلوته عليكم** ﴾ يعني أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله ، وإظهاره عجباً خارجاً عن العادات ، وهو أن يخرج رجل أمي لم يتعلم ولم يشاهد العلماء فيقرأ عليكم كتاباً يغلب كل كتاب ، وكلاماً يغلب كل كلام ، يعلو ولا يُعلَى ، فيه من مظاهر الإعجاز ، ومن المعجزات مالا يحيط به أحد ﴿ **ولا أدراكم به** ﴾ أي ولا أعلمكم الله بالقرآن على لساني ، فصار معنى الآية : أي هذا القرآن إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ، ومشيئته وإرادته ، والدليل على أني لستُ أتقوّله من عندي ، ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته،وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل ، لا تنتقدون عليّ شيئاً تغمصوني به ولهذا قال : ﴿ **فقد لبثت** ﴾ أي مكثت ﴿ **فيكم عُمُراً** ﴾ أربعين سنة ﴿ **من قبله** ﴾ أي من قبل نزول القرآن ، أي فقد أقمت بينكم أربعين سنة ولم تعرفوني متعاطياً شيئاً من نحوه ، ولا قدرت عليه ، ولا كنت موصوفاً بعلم وبيان فتتهموني باختراعه ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أي أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل ، فتعلموا أنه ليس إلا من عند الله لا من عندي ﴿ **فمن أظلم** ﴾ أي لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراماً ﴿ **مِمَّن افترى على الله كذباً** ﴾ أي ممن تقوّل على الله كذبا ، وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك ، فليس أحد أكبر جرما ، ولا أعظم ظلما من هذا ﴿ **أو كذّب بآياته** ﴾ أي القرآن ، ففيه بيان أن الكاذب على الله ، والمكذب بآياته في الكفر سواء ﴿ **إنه لا يفلح المجرمون** ﴾ أي الكاذبون والمفترون على الله كذباً : وبهذه الآيات الثلاث من هذه المجموعة أقام الله عز وجل الحجة على أن هذا القرآن من عنده ، من خلال عبودية الرسول والتزامه بهذا القرآن . ومن خلال التعريف على شخصية رسول الله ﷺ ، ومن خلال فلاحه عليه الصلاة والسلام ، وكل ذلك يدل على أنه رسول الله ، وأن هذا القرآن من عند الله . فما محل هذه الآيات في السياق الذي يحطّم العجب من أن يرسل الله رسولًا وينزل وحياً ؟.

إن كثيراً من الكافرين تصورهم خاطىء عن الذات الإلهية وعن صفاته عز وجل ، ونتيجة لذلك فهم يتصورون أن الوحي الذي ينزله الله ينبغي أن يكون على شكل معيّن كأن يكون خالياً عن التدخل في شؤون البشر ، أو كأن يكون فيه ترغيب فقط بلا ترهيب ، ونتيجة لذلك فهم يتعجبون أن يكون هذا القرآن على هذه الشاكلة من التبشير

والإنذار ، والوعظ والترغيب والترهيب ، وقد عبّر عن هذا المعنى عرب الجاهلية بسذاجتهم فطالبوا رسول الله ﷺ أن يأتي بقرآن ليس فيه ما يغيظهم من ذم عبادة الأوثان ، والوعيد لأهل الطغيان ، وأن يبدله بأن يجعل مكان آية عذاب آية رحمة ، وعبّر عن هذا المعنى كثيرمن الفلاسفة بشكل أو بآخر ، فاستبعدوا أن يكون هذا القرآن من عند الله ، لأنهم يتصورون أن الله إذا أنزل وحياً فينبغي أن يكون على شاكلة أخرى ، كأن لا تظهر فيه صفات الجلال ، وهؤلاء في منتهى السفاهة . فقد جعل الله في هذا القرآن من الآيات والمعجزات مالا يستطيع المنصف إلا أن يسلم بأنه من عند الله وقد جعل الله في شخصية رسوله ﷺ من الأمور ما لا يبقى معه شك أن هذا القرآن من عند الله . وبهذا يتبين لنا أن هذه المجموعة سائرة على نفس النسق في تحطيم العجب من أن يرسل الله رسولًا .

فوائد :

١ ــ الملاحظ من قوله تعالى﴿ **قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا ...** ﴾ أن الذين يتعنّتون في مواقفهم إنماهم الذين لا يعرفون إلا الحياة الدنيا ، وليس عندهم رجاء لليوم الآخر أصلًا . فداء الأدواء إذن هذه العلة . ومن ثَم كان من واجب الدعاة تحريك همة الإنسان ، وتحريك عقله لرجاء اليوم الآخر .

٢ ــ إن اقتراح الكافرين على الرسول ﷺ الإتيان بقرآن آخر ، أو تبديل هذا القرآن فيه معنى ضمني ، وهو أنهم يعتقدون أن هذا القرآن من عند رسول الله ﷺ ، وأنه قادر على مثله ، ولذلك طالبوه بالتغيير والتبديل . وهذا تأكيد لأصل الشبهة التي بدأ فيها هذا المقطع ، وهي استبعاد أن ينزل الله وحياً على أحد من خلقه ، وجاء الردّ حاسماً وحازماً : ﴿ **قل ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي إن أتّبع إلا ما يوحى إليّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم * قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عُمراً من قبله أفلا تعقلون** ﴾ . وفي تفسير قوله تعالى ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ من الآية الأخيرة يقول الألوسي : أي ألا تلاحظون ذلك فلا تعقلون امتناع صدوره عن مثلي ، ووجوب كونه منزّلًا من عند الله العزيز الحكيم ، فإن ذلك غير خافٍ على من له عقل سليم ، وذهن مستقيم ، بل لعمري أن من كان له أدنى مسكة من عقل إذا تأمّل في أمره ﷺ ، وأنه نشأ فيما بينهم هذا الدهر الطويل ، من غير مصاحبة العلماء في شأن من الشؤون ، ولا مراجعة إليهم في فن من الفنون ، ولا مخالطة للبلغاء في

المحاورة والمفاوضة ، ولا خوض معهم في إنشاء الخطب والمعارضة ، ثم أتى بكتاب بهرت فصاحته كل ذي أدب ، وحيّرت بلاغته مصاقع العرب ، واحتوى على بدائع أصناف العلوم ، ودقائق حقائق المنطوق والمفهوم ، وغدا كاشفاً عن أسرار الغيب التي لا تنالها الظنون ، ومعرباً عن أقاصيص الأولين وأحاديث الآخرين من القرون ، ومصدّقاً بين يديه من الكتب المنزلة ، ومهيمناً عليها في أحكامه المجملة والمفصّلة ، لا يبقى عنده اشتباه ، في أنه وحي منزل من عند الله جلّ جلاله وعمت أفضاله .

٣ ـ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كَذَّب بآياته إنه لا يفلح المجرمون** ﴾ ذكر ابن كثير أن الرسول الصادق ، ومدّعي النبوة الكاذب ، لابد أن ينصب الله من الأدلة على برِّ الصادق ، أو فجور الكاذب ، ما هو أظهر من الشمس - وقد دلّل على فكرته بالكلام عن محمد ﷺ عليه السلام ومسيلمة الكذاب فقال : (فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مُسيلَمة الكذاب - لمن شاهدهما - أظهر من الفرق بين وقت الضحى ، وبين نصف الليل في حندس الظلماء ، فمن سيما كل منهما وأفعاله وكلامه يستدل من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب ،وسجاح ،والأسود والعَنْسي . قال عبد الله بن سلام : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس (أي اليهود) فكنت فيمن انجفل (أي هرب) ، فلمّا رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب ، قال : فكان أول ما سمعته يقول : « يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصِلُوا الأرحام ، وصلّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » ولما وفد ضمام ابن ثعلب على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله ﷺ فيما قال له : من رفع هذه السماء ؟ قال : « الله » قال : ومن نصب هذه الجبال ؟ قال : « الله » ، وقال ومن سطح هذه الأرض ؟ قال : « الله » قال : فبالذي رفع هذه السماء ، ونصب هذه الجبال ، وسطح هذه الأرض ، آلله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ قال : « اللهم نعم » ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام ، ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين ، ويحلف له رسول الله ﷺ فقال له : صدقت ، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ، ولا أنقص . فاكتفى الرجل بمجرد هذا » وقد أيقن بصدقه - صلوات الله وسلامه عليه - بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه . كما قال حسان بن ثابت :

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... كانت بديهته تأتيك بالخبر

وأما مسيلمة فمَن شاهده من ذوي البصائر علم أمره لا محالة ، بأقواله الركيكة التي

ليست بفصيحة ، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة . وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة . وكم من فرق بين قوله تعالى ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم** ﴾ إلى آخرها ، وبين قول مسيلمة - قبحه الله ولعنه -: يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقي كم تنقين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين . وقوله - قبحه الله -: لقد أنعم الله على الحبلى ، إذ أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشى . وقوله - خلده الله في نار جهنم وقد فعل -: الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وبيل وخرطوم طويل . وقوله - أبعده الله من رحمته -: والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزاً ، واللاقمات لقماً ، إهالة وسمناً ، إن قريشاً قوم يعتدون ... إلى غير ذلك من الخرافات والهذيانات التي يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها إلا على وجه السخرية والاستهزاء ، ولهذا أرغم الله أنفه ، وشرب يوم حديقة الموت (١) حتفه ، ومزق شمله ، ولعنه صحبه وأهله ، وقدموا على الصديق تائبين ، وجاؤوا في دين الله راغبين ، فسألهم الصديق خليفة الرسول ﷺ أن يقرأوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة - لعنه الله - فسألوه أن يعفيهم من ذلك ، فأبى عليهم إلا أن تقرأوا شيئاً منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس ، فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم . فقرؤوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه ، فلما فرغوا ، قال لهم الصديق رضي الله عنه : ويحكم ؟ أين كان يُذهب بعقولكم ؟ والله إن هذا لم يخرج من إل (٢) . وذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة - وكان صديقاً له في الجاهلية . وكان عمرو بن العاص لم يسلم بعد ، فقال له مسيلمة : ويحك يا عمرو ماذا أنزل على صاحبكم ؟ - يعني رسول الله ﷺ في هذه المدة فقال : لقد سمعت أصحابه يقرؤون سورة عظيمة قصيرة ، فقال : وما هي ؟ فقال : ﴿ **والعصر إن الإنسان لفي خسر** .... ﴾ إلى آخر السورة ففكر مسيلمة ساعة ثم قال : وأنا قد أنزل علي مثله ، فقال : وما هو ؟ فقال : يا وبر (٣) ، إنما أنت أذنان وصدر ، وسائرك حفر نقر ، كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : الله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب . فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه لم يشتبه عليه حال محمد ﷺ وصدقه ، وحال مسيلمة لعنه الله وكذبه ، فكيف بأولي البصائر والنهى ، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى) اهـ

فإذا ثبت أن عجب الكافرين من أن ينزل الله وحياً ، ويرسل رسولاً في غير محله ، يمضي السياق الآن في المجموعة الثالثة ليعجّب من مواقف هؤلاء الكافرين وأقوالهم ،

---

(١) حديقة الموت : اسم البستان الذي قتل فيه في حرب اليمامة .

(٢) أي من ربوبية أي غير صادر عن الله عز وجل

(٣) الوَبْر : دويبة صغيرة .

وكلها سفه ، وكلها في غير محلها ؛ وكلها لا حجة فيها ، فعجبهم في غير محله ، وطلبهم تغيير القرآن أو تبديله في غير محله ، وكذلك كثير من شؤونهم ، ومن ذلك : ﴿ **ويعبدون من دون الله مالا يضرُّهم** ﴾ إن لم يعبدوه ﴿ **ولا ينفعهم** ﴾ إن عبدوه . أليس هذا هو العجب يرفضون أن يعبدوا الله ، ويعبدون خلقه ، يرفضون أن يعبدوا من ينفع ومن يضر ، ويعبدون مالا ينفع ولا يضر . ﴿ **ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله** ﴾ هذا منطق المشركين وفلسفتهم في الشرك ، فهم مثبتون لوجود الله الذي لا ينكره عاقل أصلاً ، ولكنهم يشركون بعبادته ، وهو الحقيق بالعبادة وحده ، ويفلسفون ما هم عليه ، وهذه هي فلسفة كل مشرك ، سواء أشرك بالله صنماً أو بشراً أو غير ذلك ، حتى الذين يشركون عيسى أو نبياً آخر أو ولياً هذه فلسفتهم ، ويأتي الجواب ﴿ **قل** ﴾لهم ﴿ **أتنبئون الله** ﴾ أي أتخبرونه ﴿ **بما لا يعلم في السمٰوات ولا في الأرض** ﴾ إذ لو كان له شريك لعلمه. قال ابن جرير معناه : أتخبرون الله بما لا يكون في السمٰوات ولا في الأرض ، وقال النسفي تفسيراً للآية : أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده وهو إنباء بما ليس بمعلوم لله ، وإذا لم يكن معلوماً له – وهو عالم بجميع المعلومات – لم يكن شيئاً . وقوله : في السمٰوات ولا في الأرض تأكيد لنفيه ، لأن ما لم يوجد فيهما معدوم . ثمّ نزّه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم فقال : ﴿ **سبحانه وتعالى عمّا يشركون** ﴾ أي عن الشركاء الذين يشركونهم به ، أو عن إشراكهم ، وهكذا حطّم فلسفتهم التي – من أجلها ومن أجل الدفاع عنها – حاربوا الوحي ، وحاربوا رسول الله ﷺ ، وحاربوا القرآن ، ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس بعد أن لم يكن ، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد هو الإسلام . قال ابن عباس : (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام) ثم وقع الاختلاف بين الناس ، وعُبدت الأصنام والأنداد والأوثان ، فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة ، وبراهينه الدامغة ﴿ **وما كان الناس إلا أمة واحدة** ﴾ أي حنفاء مُتفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا ، وذلك إما في عهد آدم – والقرون العشرة بعده – أو بعد الطوفان حين لم يبق على الأرض من الكافرين ديار – على أحد القولين – ﴿ **فاختلفوا** ﴾ أي فصاروا مللاً ، منهم أهل الحق ، ومنهم أهل الباطل ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك** ﴾ وهي تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة ﴿ **لقضي بينهم** ﴾ عاجلاً ﴿ **فيما فيه يختلفون** ﴾ أي فيما اختلفوا فيه ولَتميّز المحق من المبطل . قال ابن كثير : أي لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، وأنه قد أجل الخلق إلى أجَل معدود ، لقضي بينهم فيما

اختلفوا فيه ، فأسعد المؤمنين ، وأعنت الكافرين . قال النسفي : وسبقت كلمته لحكمة ، وهي أن الدار دار تكليف . وتلك الدار دار ثواب و عقاب . اهـ . وعلى هذا فبعثة الرسول ﷺ وإنزال الوحي إذن إنما هي لإرجاع الناس إلى ما كانوا عليه في الأصل ، فكيف يتعجب الكافرون من ذلك ، فلا يغر الكافر بعدم تعجيل العذاب له ، فإن ذلك لحكمة ، ثم عجّب الله منهم مرّة أخرى ، فهؤلاء تقوم عليهم الحجة بمعجزة هذا القرآن وبشخصية الرسول ﷺ ،وبمحتوى هذه الدعوة التي هي دعوة الفطرة ، ومع ذلك يطلبون آية ﴿ **ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه** ﴾ أي من الآيات التي يقترحونها مما ذكره في أكثر من مكان في كتابه ، وقد جرت سنته تعالى أنه إذا أعطى الكافرين ما اقترحوه من الآيات ، ثم أصرُّوا على كفرهم ، أن يستأصلهم فهو يعطي الآية أحياناً وأحياناً لا يعطيها ، وفي كل فعل من أفعاله حكمة ﴿ **فقل إنما الغيب لله** ﴾ أي هو المختص بعلم الغيب ، فهو العالم بالصارف عن إنزال الآيات المقترحة لاغير . قال ابن كثير : (أي الأمر كله لله وهو يعلم العواقب في الأمور) . ﴿ **فانتظروا إني معكم من المنتظرين** ﴾ أي إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم الله فيّ وفيكم . وبهذا انتهت المجموعة الثالثة ، وقد أقامت الحجة على الكافرين ، على أن القرآن حق ، وأن الرسول حق ، وأن ما هم فيه باطل ، وأن ما يطلبونه سفه ، فإذا كان هذا كله فتعجّبهم من الوحي ، والرسول ، وفحوى الرسالة باطل ، وكلامهم عن الرسول أنه ساحر زور .

وهكذا هدّمت هذه المجموعة شبهاً حول الرسالة والرسول . وفنّدت تصرفات متعنتة ، وأقوالًا ظالمة ، ومواقف سفيهة ، والآن تأتي المجموعة الرابعة في هذا السياق لتعطينا معاني جديدة تحطِّم عجب الكافرين من أن ينزل وحياً ويرسل رسولًا .

كلمة في السياق :

١ ـــ بدأ المقطع الذي بين أيدينا بذكر تعجيب الكافرين أن ينزل الله وحياً على أحد من خلقه ، وبذكر اتهام الكافرين للرسول ﷺ بأنه ساحر ، وسار المقطع مفنّداً هذه الأباطيل ، ومؤكداً على أن الوحي حق ، وأن محمداً ﷺ صادق ، والمجموعة التي مرّت معنا آتية في هذا السياق : إن الكافرين يطلبون آية ليؤمنوا بالوحي وبالرسول ، وقد ردّت المجموعة عليهم مبينة : أن الكافرين خالفوا أصل الفطرة وعبدوا غير الله ، وهذا يقتضي تصحيحاً بوحي وبرسول ، ولقد كان هذا الوحي هو القرآن ، وكان الرسول

محمداً ﷺ ، وكل الأدلة تثبت أن هذا القرآن وحي ، وأن محمداً صادق فكيف يكفرون بما ثبت صدقه وبمن يعرفون صدقه ؟ ألا يكفيهم ما يعرفونه عن شخصية رسول الله ﷺ قبل البعثة ليعرفوا أن مَنْ كان هذا شأنه ما كان ليكون كما يتهمونه به .

٢ ــ من الملاحظ أن المجموعة الرابعة التي ستأتي معنا والمجموعتين السابقتين عليها كل منها مبدوءة بكلمة « وإذا » وأن في كل مجموعة إقامة حجة على من ينكر الوحي ويكفر بالرسول

المجموعة الرابعة

﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مَسَّتهم ﴾ أي خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم ﴿ إذا لهم مكر في آياتنا ﴾ أي إذا لهم استهزاء وتكذيب ودفع وإنكار لآيات الله ، والمكر : إخفاء الكيد وطيُّه . يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مَسَّتهم كالرخاء بعد الشدة ، والخصب بعد الجدب ، والمطر بعد القحط ، لم يلبثوا أن يطعنوا في آيات الله ويعادون دينه ﴿ قل الله أسرع مكراً ﴾ أي مجازاة أي أشد استدراجاً وإمهالاً حتى يظنّ الظانّ من المجرمين أنه ليس بمعذب وإنما هو في مهلة ثم يؤخذ على غرّة ، وأفاد التعبير أنهم يسارعون إلى المكر قبل أن يغسلوا رؤوسهم من مسّ الضراء ﴿ إنّ رسلنا ﴾ أي الحفظة ﴿ يكتبون ما تمكرون ﴾ أي الكرام الكاتبين يكتبون عليهم جميع ما يفعلونه ، ويحصونه عليهم ، ويعرضونه على عالم الغيب والشهادة ــ وهو أعلم ــ فيجازيهم على الجليل والحقير ، والنقير والقطمير . أعلمت الجملة الأخيرة أن ما يظنونه خافياً لا يخفى على الله ، وهو منتقم منهم ، ثم أخبر تعالى أنه ﴿ هو الذي يسيِّركم في البر والبحر ﴾ أي يجعلهم قادرين على قطع المسافات بالأرجل ، والدواب والفلك الجارية في البحار ، وغير ذلك مما سخره الله للإنسان ، أو يخلق فيكم السير ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك ﴾ أي في السفن ﴿ وجرين ﴾ أي وسارت السفن ﴿ بهم ﴾ أي بمن فيها ﴿ بريح طيبة ﴾ أي لينة الهبوب لا عاصفة ولا ضعيفة ﴿ وفرحوا بها ﴾ أي بتلك الريح للينها واستقامتها لما يترتب على ذلك من سرعة سيرهم رافقين ، فبينما هم كذلك إذ ﴿ جاءتها ﴾ أي تلك السفن ﴿ ريح عاصف ﴾ أي شديدة الهبوب تكسر كل شيء ﴿ وجاءهم الموج من كل مكان ﴾ من البحر أو من جميع أمكنة الموج ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ أي أهلكوا ، جعل إحاطة العدو بالحي مثلا في الإهلاك ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ أي من غير إشراك به ، لأنهم لا يدعون حينئذ معه غيره ، ففي مثل

تلك الساعة لا يدعون صنماً ولا وثناً ولا نبياً ولا رسولاً ولا ولياً ولا بشراً ، بل يفردون الله بالدعاء والابتهال ، قائلين لله : ﴿ **لئن أنجيتنا من هذه** ﴾ الأهوال أو هذه الريح أو هذه الحال ﴿ **لنكونَنَّ من الشاكرين** ﴾ لنعمتك مؤمنين بك متمسكين بطاعتك لا نشرك بك أحداً ، مفردين لك العبادة هناك كأفردناك بالدعاء ههنا ﴿ **فلما أنجاهم** ﴾ أي من تلك الشدّة ﴿ **إذا هم يبغون في الأرض** ﴾ أي يفسدون فيها ﴿ **بغير الحق** ﴾ أي باطلاً أي مبطلين . كأن لم يكن من ذلك شيء ﴿ **يا أيها الناس إنما بغيكم** ﴾ أي الظلم ﴿ **على أنفسكم** ﴾ أي إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحداً غيركم ﴿ **متاع الحياة الدنيا** ﴾ تمتعون فيها قليلاً،أي إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿ **ثم إلينا مرجعكم** ﴾ أي مصيركم ومآلكم بعد الموت ﴿ **فننبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ أي فنخبركم بجميع أعمالكم ، ونجازيكم بها ، ونوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ الانفسه . ذكر الله في هذه الآية طبيعة الإنسان في ضراعته إلى الله في الضراء ، وإعراضه في السراء ، بل محاربته لله في السراء ، ثم زهّد تعالى بمتاع الدنيا ، وحذّر من الآخرة ، ثم يأتي الآن مَثَل للحياة وزهرتها وزينتها ، وسرعة انقضائها وزوالها ﴿ **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء** ﴾ أي من السحاب ﴿ **فاختلط به** ﴾ أي بالماء ﴿ **نبات الأرض** ﴾ أي فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً ﴿ **مما يأكل الناس** ﴾ من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها ﴿ **والأنعام** ﴾ أي ومما تأكل الأنعام من عشب وغير ذلك ﴿ **حتى إذا أخذت الأرض زخرفها** ﴾ أي بهجتها وزينتها بالنبات واختلاف ألوانه ﴿ **وازّيّنت** ﴾ أي وحسنت بما خرج في رُباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان ، جعلت الأرض وهي آخذة زخرفها كالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها وتزينت بألوان الزينات ﴿ **وظن أهلها** ﴾ أي أهل الأرض ﴿ **أنهم قادرون عليها** ﴾ أي متمكّنون من منفعتها محصّلون لثمرتها ، رافعون لغلتها . فبينا هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها ، قال تعالى ﴿ **أتاها أمرنا** ﴾ أي عذابنا وهو هنا ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم ﴿ **ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً** ﴾ أي فجعلنا زرعها شبيها بما يحصد من الزرع في قصّه واستئصاله . أي جعلنا زرعها يابساً بعد الخضرة والنضارة كالمحصود بالمناجل ﴿ **كأن لم تغن بالأمس** ﴾ أي كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك ، أو كأن لم يغن زرعها أي لم يلبث بالأمس،وذكر الأمس هنا مثل على الوقت القريب كأنه قيل : كأن لم تغن آنفاً

قال قتادة : كأن لم تغن كأن لم تنعم . قال ابن كثير : وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن ﴿ كذلك نفصّل الآيات ﴾ أي نبيّن الحجج والأدلة ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فيعتبرون وينتفعون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعاً مع اغترارهم بها ، وتمكّنهم وثقتهم بمواعيدها ، وتفلتها عنهم ، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها ، والطلب لمن هرب منها ، وهكذا انتهت هذه المجموعة . فكيف أدّت دورها في السياق العام في تحطيمها دعاوى الكافرين ، في نفيهم أن ينزل الله وحياً ويبعث رسولاً ؟ إن الفطرة البشرية تتوجه إلى الله حق التوجّه في الأزمات ، وتعِد الله في هذه الأزمات أن تستقيم على أمره ، فإذ كان الأمر كذلك فهذا يدلل على أن الإنسان يعرف أن الله يرعاه وينقذه ، فلماذا إذن يرفض رعايته في الهداية ، مع أن الشكر لله لا يعرف طريقه إلا بواسطة الرسل ، فلِمَ يستغرب الإنسان إرسال الرسل ؟ وفي المجموعة تعزية للرسول الذي يُكفر به ، ويردّ عليه إذ تبين له طبيعة الإنسان وحرصه على الدنيا وكفره بعد كل وعوده بالاستقامة ، وفي الآيات تزهيد بالدنيا التي بسبب الحرص على التمتع بها ينأى الكافرون عن اتباع الوحي والعمل للآخرة أو نقول : كأن الآيات تقول للكافرين إن كنتم صادقين في أن الله يهمل الإنسان فلا يبعث له رسولاً فلماذا تدعونه في لحظات الضيق ؟ إنّ دعوتكم له في لحظات الضيق دليل على أنكم تعرفون أن الله لا يهمل الإنسان فلماذا تستغربون أن يرسل رسولاً ؟ ويمكن أن يقال في مؤدى السياق : إنكم أيها الكافرون قد أعطيتم الله في لحظة ضيق أن تستقيموا على أمره فاتبعوا رسوله وقرآنه بدلاً أن تحاربوا وتستغربوا ، ولا تغرنكم الحياة الدنيا . وهكذا من خلال تقرير حقيقة الإنسان ، وحقيقة الدنيا ، يحذّر وتقام الحجة على أصحاب فكرة استغراب إرسال الرسول النذير وإنزال الوحي .

كلمة في السياق :

تحدّثنا في آخر تفسير المجموعة الرابعة عن صلة المجموعة في سياق مقطعها ، ولم نتحدث عن صلة المجموعة بما قبلها مباشرة ، وههنا نحب أن نقول : لقد سبقت المجموعة الرابعة بقوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم .. ﴾ وقد جاءت المجموعة الرابعة تقيم الحجة على المشركين بواقعهم إذا أحيط بهم ، فهذا محل المجموعة في السياق القريب . ولقد ختمت المجموعة الأولى بقوله تعالى : ﴿ ولو يعجّل الله للناس الشرّ استعجالهم بالخير ... ﴾ ثم بدأت المجموعة الثانية بقوله تعالى : ﴿ وإذا مسّ الإنسان الضرّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ﴾ وهذه المجموعة الرابعة بدأت بقوله تعالى :

﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مسّتهم إذا لهم مكر في آياتنا... ﴾ فالسياق يتكامل بين المجموعات في تبيان حال الإنسان ، وفي تبيان افتقاره إلى الله ، وإظهار هذا الافتقار ساعة الشدة ، ويدلل ذلك على عمق قضية التوحيد في ذاته ، ومع ذلك فإنه يشرك ، إن الصلات بين الآيات وبين المجموعات أكثر من أن يُحاط بها وما ذكرناه نموذج

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ قال الألوسي : (أي دَعَوْه سبحانه من غير إشراك لرجوعهم من شدة الخوف إلى الفطرة التي جُبل عليها كل أحد من التوحيد ، وأنه لا متصرف إلا الله سبحانه ، المركوزة في طبائع العالم ، وروى ذلك عن ابن عباس ومن حديث أخرجه أبو داود والنسائي وغيرهما عن سعد بن أبي وقاص : « لما كان الفتح فرّ عكرمة بن أبي جهل فركب البحر ، فأصابتهم عاصف ، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً ، فقال عكرمة : لئن لم ينجيني في البحر إلا الإخلاص ، ما ينجيني في البر غيره ، اللهم إن لك عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه آتي محمداً حتىٰ أضع يدي في يده ، فلأجدنه عفواً كريماً قال : فجاء فأسلم » وفي رواية ابن سعد عن أبي مليكة « أن عكرمة لما ركب السفينة وأخذتهم الريح فجعلوا يدعون الله تعالى ويوحّدونه قال : ما هذا ؟ قالوا : هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله تعالى قال : فهذا إله محمد ﷺ الذي يدعونا إليه ، فارجعوا بنا فرجع . وأسلم » وظاهر الآية أنه ليس المراد تخصيص الدعاء به سبحانه ، بل تخصيص العبادة به تعالى أيضاً ، لأنهم بمجرد ذلك لا يكونون مخلصين له الدين .

وأيا ما كان فالآية دالّة على أن المشركين لا يدعون غيره تعالى في تلك الحال . وأنت خبير بأن الناس اليوم إذا اعتراهم أمر خطير ، وخطب جسيم ، في بر أو بحر ، دعوا مَن لا يضر ولا ينفع ، ولا يرىٰ ولا يسمع ، فمنهم من يدعو الخضر وإلياس ، ومنهم من ينادي أبا الخميس والعباس ، ومنهم من يستغيث بأحد الأئمة ، ومنهم من يضرع إلى شيخ من مشايخ الأمة ، ولا ترىٰ أحداً فيهم يخصّ مولاه بتضرعه ودعائه ، ولا يكاد يمر له ببال أنه لو دعا الله تعالى وحده ينجو من هاتيك الأهوال ، فبالله تعالى عليك قل لي أي الفريقين من هذه الحيثية أهدىٰ سبيلًا ؟ وأي الداعيين أقوم قيلًا ؟ وإلى الله تعالى المشتكىٰ من زمان عصفت فيه ريح الجهالة ، وتلاطمت أمواج الضلالة ، وخرقت سفينة

الشريعة ، واتخذت الاستغاثة بغير الله تعالى للنجاة ذريعة ، وتعذر على العارفين الأمر بالمعروف ، وحالت دون النهي عن المنكر صنوف الحتوف)

أقول : لعلّ في كلام الألوسي الأخير شفاء من الداء العياء ، الذي أعيا الأطباء ، وهو ما استشرى عند طبقات من الأمة ، إذ يدعون غير الله ويستغيثون به ، وإذا نصحتهم أو وعظتهم جادلوا متأوّلين ، وكأنك تدعوهم إلى شرك أو ضلال ، لا إلى التوحيد الخالص .

٢ ـ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ قال الألوسي : (هذا وفي الآية من الزجر عن البغي مالا يخفى . وقد أخرج أبو الشيخ وأبو نعيم ، والخطيب والديلمي وغيرهم عن أنس قال : « قال رسول الله ﷺ ثلاث هن رواجع على أهلها : المكر والنكث والبغي ، ثم تلا عليه الصلاة والسلام ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ ﴿ ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ وأخرج البيهقي في الشعب عن أبي بكرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من ذنب أجدر أن يعجّل لصاحبه العقوبة من البغي وقطيعة الرحم » وأخرج أيضاً من طريق بلال بن أبي بردة عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال : « لا يبغي على الناس إلا ولد بغي أو فيه عرق منه » وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، وابن عمر رضي الله عنهم قالا : قال رسول الله ﷺ : « لو بغى جبل على جبل لدكّ الباغي منهما » وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين لأخيه

يا صاحب البغي إن البغي مصرعة	فاربع فخير فعال المرء أعدله
فلو بغى جبل يوماً على جبل	لاندك منه أعاليه وأسفله

وعقد ذلك الشهاب فقال :

إن يعدُ ذو بغي عليك فخلّه	وارقب زماناً لانتقام باغي
واحذر من البغي الوخيم فلو بغى	جبل على جبل لدك الباغي)

٣ ـ وبمناسبة الكلام عن الدنيا في المجموعة نذكّر بالحديث : « يؤتى بأنعم أهل الدنيا فيغمس في النار غمسة فيقال : هل رأيت خيراً قط ؟ هل مرّ بك نعيم قط ؟ فيقول : لا ، ويؤتى بأشد الناس عذاباً في الدنيا فيغمس في النعيم غمسة ثم يقال له : هل رأيت بؤساً قط ، فيقول : لا » .

٤ - وبمناسبة قوله تعالى: ﴿ وظن أهلها أنهم قادرون عليها ﴾نقول: إن الآية يمكن أن تفهم فهمين: فهماً قريباً، وفهماً بعيداً، أما الفهم القريب فهو ما ذكرناه، وأما البعيد فإنما يدلنا عليه ما نراه في عصرنا، فإن الأرض كلها في عصرنا تتطور نحو التحسين والتزيين بشكل كبير، وأصبح أهل الأرض قريبين من الشعور بأنهم مسيطرون عليها، متمكنون منها، حتى لو أرادوا أن يفنوا ما على الأرض بالقنابل الذرية والهيدروجينية وغيرهما لفعلوا، ولا يبعد أن يأتي يوم يزداد هذا الشعور، وعلى هذا الفهم فقد يكون ما نحن فيه علامة على أن عمر الأرض أصبح قريباً، وأن الساعة أصبحت قريبة، وهي قريبة بنص القرآن، ولكن المراد أن الأمر قد شارف، وعندئذ تكون الأرض كلها كأن لم تَغْنَ بالأمس. وهكذا نجد النص القرآني يسع الزمان والمكان والإنسان، فهذه الآية فيها إنذار للفرد والجماعة، وفيها إنذار للبشرية كلها

٥ ــ عقّب النسفي على ما ضرب الله من مثل للحياة الدنيا بقوله: (وهذا من التشبيه المركّب: شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال، بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعد ما التفّ وتكاثف وزيّن الأرض بخضرته ورفيفه، وحكمة التشبيه التنبيه على أن الحياة صفوها شبيبتها، وكدرها شيبتها، كما أن صفو الماء في أعلى الإناء، قال:

ألم تر أن العمر كأس سلافة فأوّله صفو وآخره كدر

وحقيقته: تزين جنة الطين، بمصالح الدنيا والدين، كاختلاط النبات على اختلاف التلوين، فالطيّبة تنبت بساتين الأنس، ورياحين الروح، وزهرة الزهر، وكروم الكرم، وحبوب الحب، وحدائق الحقيقة، وشقائق الطريقة، والخبيثة تخرج خلاف الخلف، وثمام الإثم، وشَرَك الشِّرْك، وشبح الشّح، وحطب العطب، ولُعاع اللعب، ثم يدعوه معاده، كما يحين للحرث حصاده، فتزايله الحياة مغتراً، كما يهيج النبات مصفراً، فتغيب جنته في الرمس، كأن لم تغن بالأمس، إلى أن يعود ربيع البعث، وموعد العرض والبحث. وكذلك حال الدنيا، كالماء ينفع قليله ويهلك كثيره، ولابد من ترك مازاد، كما لابد من أخذ الزاد، وآخذ المال لا يخلو من زلة، كما أن خائض الماء لا ينجو من بلة، وجمعه وإمساكه تلف صاحبه وإهلاكه، فمادون النصاب كضحضاح ماء يجاوز بلا احتياط، والنصاب كنهر حائل بين المجتاز، والجواز إلى المفاز لا يمكن إلا بقنطرة وهي الزكاة، وعمارتها بذل الصلات، فمتى اختلت القنطرة غرّقته

أمواج القناطير المقنطرة . وعن هذا قال عليه السلام : « الزكاة قنطرة الإسلام » وكذا المال يساعد دون الأمجاد ، كما أن الماء يجتمع في الوهاد دون النجاد ، وكذلك المال لا يجتمع إلا بكف البخيل ، كما أن الماء لا يجتمع إلا بسدّ المسيل ، ثم يفنى ويتلف ولا يبقى كالماء في الكف)

* * *

ولننتقل إلى المجموعة الخامسة في هذا المقطع ولنقدم لهذه المجموعة بكلمة :

إن هذه الحياة الدنيا يختلط خيرها بشرها ، وشقاؤها بسعادتها ، وألمها بلذتها ، والله الذي خلق الخلق ، وجعل هذه الدنيا على ما هي عليه ، شاء أن يجعل داراً يتمحض فيها الخير واللذة والسعادة ، بلا شر ولا شقاوة . وهذا يقتضي ثمناً . وتلك الدار تحتاج إلى أهلها ، والله عز وجل يدعو إلى هذه الدار بواسطة الرسل ، فإذا كان الأمر كذلك فكيف يستغرب أن يرسل الله رسولاً نذيراً و بشيراً ، وهكذا تبدأ المجموعة الخامسة بقوله تعالى : ﴿ **والله يدعو إلى دار السّلام** ﴾ إنه بعد أن ضرب الله مثلاً للحياة الدنيا ، وبعد أن ذكّرنا بأن هذه الدنيا شأنها ما رأينا ، فإنّه بعد ذلك يذكّرنا بجنته ، ويذكّرنا بالطريق إليها

وباختصار نقول : إن المجموعة الخامسة ترتبط بسياق المقطع . وترتبط بالسياق المباشر ، فارتباطها بالسياق المباشر من حيث إنها حديث عن الآخرة يأتي بعد حديث عن الدنيا ، وارتباطها بالمقطع من حيث إنّ المقطع يرد على المنكرين للوحي ، فالله يحدثنا عن ذاته جل جلاله أنّه يدعو إلى دار السّلام ، وهذا يقتضي أن يرسل رسلاً ، وأن ينزل وحياً ، فكيف ينكر المنكرون الوحي وبعثة الرسل ؟

المجموعة الخامسة

﴿ **والله يدعو إلى دار السلام** ﴾ دار السلام : هي الجنة ، أضافها الله إلى اسمه تعظيماً لها ، وقد يراد بالسلام السلامة لأن أهلها سالمون من كل مكروه ، وقد يكون سميت دار السلام لفشو السلام فيها ﴿ **ويهدي من يشاء** ﴾ أي ويوفق من يشاء ﴿ **إلى صراط مستقيم** ﴾ أي إلى الإسلام أو إلى طريق الجنة . والمعنى : والله يدعو العباد كلهم إلى دار السلام ولا يدخلها إلا المهديون ، فدعوة الله عامة على لسان رسول الله ﷺ بالدلالة ،

وأما الهداية فهي خاصة من لطف المرسل بالتوفيق والعناية . فإذا كان الأمر كذلك فكيف لا يرسل الله رسولًا وينزل وحياً ، وكيف يتعجب الكافرون من إرسال الرسول ، وإنزال الوحي ﴿ للذين أحسنوا ﴾أي آمنوا بالله ورسله ، وعبدوا الله كما أمر ﴿ الحسنى ﴾أي المثوبة الحسنى وهي الجنة ﴿ وزيادة ﴾قال ابن كثير : هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وزيادة على ذلك أيضاً ، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور والرضا عنهم ، وما أخفاه لهم من قرة أعين ، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم ، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته .. ثم عدّد مَن فسّر الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم حتى ليكاد يكون إجماعاً . قال النسفي بعد أن ذكر القول السابق : وقيل : الزيادة المحبة في قلوب العباد . وقيل : الزيادة مغفرة من الله ورضوان ﴿ ولا يرهق ﴾ أي ولا يغشى ﴿ وجوههم قَتَرٌ ﴾ أي سواد ﴿ ولا ذِلّة ﴾ أي ولا كآبة ، والمعنى: لا يرهقهم ما يرهق أهل النار من غبرة فيها سواد ، ولا أثر هوان ، لا في عرصات القيامة ولا بعدها ، أو تقول : المعنى : أنه لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ ثم بين حال الكافرين فقال :

﴿ والذين كسبوا السيئات ﴾أي الشرك والكفر وما يستتبع ذلك ، أي وللذين كسبوا السيئات ﴿ جزاء سيئة بمثلها ﴾ أي جزاء سيئة ، سيئة مثلها أي مقدر بمثلها ﴿ وترهقهم ذِلّة ﴾أي وتعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها ﴿ مالهم من الله ﴾أي من عقابه ﴿ من عاصم ﴾أي مانع أي لا يعصمهم أحد من سخطه وعقابه ﴿ كأنما أغشيت ﴾أي ألبست ﴿ وجوههم قطعًا ﴾جمع قطعة ﴿ من الليل مظلما ﴾ هذا إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة والمعنى : كأنما جعل على وجوههم أغطية من سواد الليل ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ فإذا كان الأمر كذلك فكيف لا يبعث الله رسلًا وينزل وحياً ﴿ ويوم نحشرهم جميعًا ﴾أي الكفار وغيرهم أي أهل الأرض كلهم من جن وإنس ، وبَرّوفَاجِر ﴿ ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم ﴾أي الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً امتازوا فيه عن مقام المؤمنين ، وهذا يكون إذ جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء ﴿ فزيلنا ﴾ أي ميّزنا ﴿ بينهم ﴾ وبين المؤمنين ، أي فرّقنا بينهم ، وقطعنا كل صلة كانت بينهم في الدنيا ﴿ وقال ﴾ لهم ﴿ شركاؤهم ﴾أي مَن عبدوه من دون الله من أولي العقل ، أو الأصنام ينطقها الله عز وجل ﴿ ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ وهكذا أنكروا عبادتهم وتبرأوا منهم ، فما كانوا

يعبدون إلا الشياطين بطاعتهم إياهم ﴿ **فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم** ﴾إننا ما دعوناكم إلى عبادتنا ، ولا أمرناكم بها ، ولا رضينا بذلك منكم ﴿ **إن كنا عن عبادتكم لغافلين** ﴾أي إننا كنا عن عبادتكم غافلين ، فما كنا نشعر بها ولا نعلم بها ، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم أصلاً . وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره ، ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئاً ، ولم يأمرهم بذلك ، ولا رضي به ، ولا أراده ، بل تبرأ منهم وقت أحوج ما يكونون إليه ، وقد تركوا عبادة الحي القيوم السميع البصير القادر على كل شيء ، العليم بكل شيء ، وقد أرسل رسله وأنزل كتبه آمراً بعبادته وحده لا شريك له ، ناهياً عن عبادة ما سواه . فأي الأمرين أعجب أمرهم ، أوأن ينزل الله وحياً ويرسل رسولاً ؟! ﴿ **هنالك** ﴾أي في ذلك المكان أو في ذلك الزمان ﴿ **تبلوا كل نفس** ﴾أي تختبر وتذوق ﴿ **ما أسلفت** ﴾أي ما قدّمت من العمل فتعرف كيف هو أقبيح أم حسن ، أنافع أم ضار ، أمقبول أم مردود ، هنالك في موقف الحساب يوم القيامة الاختبار الحقيقي لقيمة كل عمل ﴿ **وردوا إلى الله مولاهم الحق** ﴾ إلى ربهم الصادق في ربوبيته لأنهم كانوا يتولّون ما ليس لربوبيته حقيقة ، والمعنى : ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل ﴿ **وضل عنهم** ﴾ أي وغاب عنهم ، أو وذهب عنهم ﴿ **ما كانوا يفترون** ﴾أي وضاع عنهم ما كانوا يعبدون من دون الله افتراءً عليه ، أو بطل عنهم ما كانوا يختلقون من الكذب وشفاعة الآلهة ، فليترك هؤلاء الافتراء ، وليعودوا إلى مولاهم الحق ، وليعبدوا من يستحق العبادة قبل أن يأتي ذلك اليوم ، وذلك بالإيمان برسول الله ﷺ والإيمان بوحي الله بدلاً من الإنكار والتعجب والاتهام ، وهكذا انتهت هذه المجموعة ، وفيها دعوة لترك التعجب من أن ينزل الله وحياً من خلال الإنذار والتبشير .

فبعد أن ذكر الله تعالى في المجموعة الرابعة الدنيا وسرعة زوالها ، رغّب في هذه المجموعة في الجنة ودعا إليها ، وسمّاها دار السلام ؛ لأنها خالية من الآفات والنقائص والنكبات ، ثم أخبر أنها لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح ، وبيّن ما أعده للكافرين بعد ذلك ، وفي هذا السياق - المبشر المنذر - ردّ ضمني على المتصورين أن الله يدع هذا الخلق وشأنهم ، فلا سؤال ولاحساب ولا عقاب ، ولا رسل ولا وحي ، ولا ميزان ولا عدل . ألا ما أحمق الإنسان الذي يفر من اتباع الوحي إلى الهوى .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام** ﴾ نذكر هذين الحديثين اللذين رواهما ابن جرير .

أ - عن جابر رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال : « إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي ، وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلاً ، فقال : اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك . وإنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً ، ثم جعل فيه مأدبة ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ، ومنهم من تركه ، فالله الملك والدار الإسلام ، والبيت الجنة ، وأنت يا محمد الرسول ، فمن أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنّة ، ومن دخل الجنة أكل منها » رواه ابن جرير . أقول : هذا الحديث يؤكد ما ذهبنا إليه من أن السياق العام للمقطع مرتبط بالردّ على التعجب من أن يرسل الله رسولاً

ب - وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من يوم طلعت فيه الشمس إلا وبجنبيها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ، وإن ما قلّ وكفىٰ خير مما كثر وألهىٰ » قال : وأنزل في قوله : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام** ﴾ الآية رواه ابن أبي حاتم وابن جرير .

٢ - وفي تفسير الزيادة في قوله تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ نذكر هذه الأحاديث : روى الإمام أحمد ... عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ وقال : « إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ ، وأهل النارِ النارَ ، نادى منادٍ : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو ؟ ألم يثقّل موازيننا ؟ ألم يبيّض وجوهنا ويدخلنا الجنة ، ويُجِرْنا من النار ؟ - قال : فيكشف لهم الحجاب ، فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم » وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة .

- روى ابن جرير .. عن أبي تميمة الهجيمي أنه سمع أبا موسى الأشعري يحدث عن رسول الله ﷺ : « إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي : يا أهل الجنة - بصوت

يسمع أولهم وآخرهم — إن الله وعدكم الحسنى وزيادة . فالحسنى الجنة . والزيادة النظر إلى وجه الرحمن عز وجل » .

روى ابن جرير ... عن عطاء بن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ قال : « الحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل » ورواه ابن أبي حاتم أيضاً .

كلمة في السياق :

١ — نلاحظ أن من أهمّ ما انصبّ عليه الكلام في هذا المقطع قضية العبادة لله ؛ ففي الآية الثالثة ورد قوله تعالى ﴿ **ذلكم الله ربكم فاعبدوه** ﴾ وفي الآية الثانية عشرة ورد قوله تعالى ﴿ **ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم...** ﴾ وذلك في سياق مناقشة المنكرين للوحي ، والحكمة في ذلك — و الله أعلم — أن السياق يقيم الحجة على ضرورة بعثة الرسل ، من خلال أمور متعددة أحدها : أن عبادة الله وحده ضرورية لابدّ منها ، وأن طريق معرفة ذلك الوحي وبعثة الرسول .

٢ — ونلاحظ ملاحظة رئيسية في السياق وهو أن النقاش منصبّ على المشركين ، والحجج تتلاحق ضدهم مرة بعد أخرى ، والسبب واضح ، لأن التعجب من أن ينزل الله وحياً ويبعث رسولاً لا يكون من أهل الكتاب ؛ لأنهم يؤمنون بالنبوة والوحي ، ولا يكون من ملحد ؛ لأنه لا يؤمن بوجود الله أصلاً ، فلا يكون إلا من مشرك إذن ، ومن ثم نجد إنكار فكرة النبوة يظهر في البيئات المشركة ، وعلى هذا نجد أن السياق يقيم الحجة تلو الحجة على المشركين في هذا المقطع ، ألا أنّ من مظاهر العظمة في هذا القرآن أنه — وهو يناقش المشركين أو الكافرين — يذكّر ويربي المؤمنين ، فالسياق القرآني يؤدي دوراً ودوراً وأدواراً ، فهو يؤدي دوره في إقامة الحجة العقلية ، ويؤدي دوره في التربية السليمة ، ويؤدي دوره بما يسع المكان ، وبما يسع الزمان ، وبحيث يجد أهل كل جيل وأهل كل مكان وكأن القرآن أنزل لهم خاصة ، فإذا اتضح هذا فلننتقل إلى المجموعة الأخيرة في هذا المقطع التي تنهي مناقشة الذين تعجبوا أن يكون الله قد أوحى إلى أحد من خلقه ، وهي المجموعة السادسة في هذا المقطع .

وتتميز المجموعة بأنها تأمر رسول الله ﷺ أن يجيب أجوبة مباشرة ، وأن يناقش مناقشة مباشرة لهؤلاء الذين ينكرون الوحي ، ولذلك نجد أن كلمة (قل) تتكرر كثيراً

في هذه المجموعة . والحجج تتلاحق في هذه المجموعة على منكري الوحي والرسالة . فالله عز وجل يرزق ، ويعطي السمع والبصر ، ويعطي الحياة ، ويدبّر الأمر ، فكيف يترك الإنسان بلا هداية . والله يبدأ الخلق ثم يعيده ، فكيف يكفر الكافرون بالبعث ، وكيف بالتالي - يكفرون بالوحي الذي ينذر بالبعث . والله يهدي والأصنام لا تهدي ، فكيف تنكر هدايته ولا تُتّبع . ثمّ تُختم المجموعة بتقرير أن هذا القرآن ما كان ليكون على ما هو عليه لولا أنه من عند الله ، وأن من خصائص هذا القرآن التي تدل على أنه وحي ، تصديقه للكتب السابقة ، وتفصيله لفرائض الله ، فالحجة فيه قائمة على أنه وحي الله ، وهي بالتالي حجة على كل من ينكر الوحي ، إن الحجة في هذا القرآن قائمة ، إنْ في إعجازه ، أو في مضمونه . فلنر المجموعة السادسة .

المجموعة السادسة

﴿ **قل من يرزقكم من السماء** ﴾ بإنزال المطر وما يترتب عليه ﴿ **والأرض** ﴾ بما أودع فيها ﴿ **أمّن يملك السمع والأبصار** ﴾ أي من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحدّ الذي سويا عليه من الفطرة العجيبة ؟ أو من يحميهما من الآفات مع كثرتها في المدد الطوال وهما لطيفان يؤذيهما أدنى شيء ؟ أو من يملكهما فيعطيهما من شاء من خلقه ؟ ﴿ **ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي** ﴾ الحيوان من التراب ، والتراب من الحيوان ، والعالم من الجاهل ، والجاهل من العالم ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ﴿ **ومن يدبّر الأمر** ﴾ أي ومن يلي تدبير أمر العالم كله ؟ فصّل ثمّ أجمل ﴿ **فسيقولون الله** ﴾ أي فسيجيبونك عن هذا السؤال أن القادر على هذه هو الله ، فهم يعلمون ذلك ويعترفون به ﴿ **فقل أفلا تتقون** ﴾ أي أفلا تخافون منه أن تعبدوا غيره بآرائكم وجهلكم ؟ أفلا تتقون الشرك في العبودية إذ اعترفتم بالربوبية . أو أفلا تتقون أن تتصوروا أنه لا يبعث رسولًا ولا ينزل وحياً ؟ إنّ الله الذي هذا شأنه من رزق وعطاء وتدبير-كيف لا يرسل رسولًا وينزل وحياً ؟ وهكذا أقام الله عز وجل الحجة على المشركين في كل مذاهبهم من خلال ما يعترفون به وما يقرون به ، ثم أتمّ الحجّة عليهم فقال : ﴿ **فذلكم الله** ﴾ أي مَن هذه قدرته هو الله ﴿ **ربكم الحق** ﴾ أي الثابتة ربوبيته ثباتاً لاريب فيه لمن حقّق النظر ، وإذ كان هو الرب لأنه الإله باعترافكم ، والمعطي باعترافكم ، والمدبّر باعترافكم ، فينبغي أن تكون له العبادة والطاعة ، وكيف تعرف العبادة والطاعة له إلا عن طريق رسوله ، فكيف تعجبون أن يرسل رسولًا .

فائدة:

ننقل هنا ما قاله صاحب الظلال في الآية التي بدأت بها المجموعة قال: ﴿ **قل من يرزقكم من السماء والأرض** ﴾.. من المطر الذي يحيي الأرض وينبت الزرع، ومن طعام الأرض نباتها وطيرها وأسماكها وحيوانها، ثم سائر كانوا يحصلون عليه من الأرض لهم ولأنعامهم. وذلك بطبيعة الحال ما كانوا يدركونه حينذاك من رزق السماء والأرض. وهو أوسع من ذلك بكثير. وما يزال البشر يكشفون كلما اهتدوا إلى نواميس الكون - عن رزق بعد رزق في السماء والأرض يستخدمونه أحياناً في الخير ويستخدمونه أحياناً في الشر حسبما تسلم عقائدهم أو تعتل. وكله من رزق الله المسخّر للإنسان. فمن سطح الأرض أرزاق ومن جوفها أرزاق. ومن سطح الماء أرزاق ومن أعماقه أرزاق. ومن أشعة الشمس أرزاق ومن ضوء القمر أرزاق. حتى عفن الأرض كشف فيه دواء وترياق! ﴿ **أم من يملك السمع والأبصار** ﴾.. يهبها القدرة على أداء وظائفها أو يحرمها، ويصححها أو يمرضها. ويصرفها إلى العمل أو يلهيها، ويسمعها ويريها ما تحب أو ما تكره.. ذلك ما كانوا يدركونه يومئذ من ملك السمع والأبصار. وهو حسبهم لإدراك مدلول هذا السؤال وتوجيهه. وما يزال البشر يكشفون من طبيعة السمع والبصر، من دقائق صنع الله في هذين الجهازين ما يزيد السؤال شمولاً وسعة. وإن تركيب العين وأعصابها وكيفية إدراكها للمرئيات، أو تركيب الأذن أوجزائها وطريقة إدراكها للمذبذبات، لعالَم وحده يدير الرؤوس، عندمايقاس هذا الجهاز أو ذاك إلى أدق الأجهزة التي يعدّها الناس من معجزات العلم في العصر الحديث! وإن كان الناس يهولهم ويروعهم ويبهرهم جهاز يصنعه الإنسان، لا يقاس في شيء إلى صنع الله. بينا هم يمرون غافلين بالبدائع الإلهية في الكون وفي أنفسهم كأنهم لا يبصرون ولا يدركون! ﴿ **ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي** ﴾.. وكانوا يعدون الساكن هو الميت والنامي - أو المتحرك - هو الحي. فكان مدلول السؤال عندهم مشهوداً في خروج النبتة من الحبة، والحبة من النبتة، وخروج الفرخ من البيضة، والبيضة من الفرخ.. إلى آخر هذه المشاهدات. وهو عندهم عجيب. وهو في ذاته عجيب، حتى بعد أن عرف أن الحبة والبيضة وأمثالهما ليست في الموتى بل في الأحياء، بما فيها من حياة كامنة واستعداد. فإن كمون الحياة بكل استعداداتها ووراثاتها وسماتها وشياتها لأعجب العجب الذي تصنعه قدرة الله.. وإن وقفة أمام الحبة والنواة، تخرج منهما النبتة والنخلة، أو أمام البيضة والبويضة يخرج منهما الفرخ والإنسان لكافية

لاستغراق حياة في التأمل والارتعاش !

وإلا فأين كانت تكمن السنبلة في الحبة ؟ وأين كان يكمن العود ؟ وأين كانت تلك الجذور والساق والأوراق ... ؟

وأين في النواة كان يكمن اللب واللحاء ، والساق السامقة والعراجين والألياف ؟ وأين كان يكمن الطعم والنكهة واللون والرائحة ، والبلح والتمر ،والرطب والبسر ... ؟

وأين في البيضة كان الفرخ ؟ وأين كان يكمن العظم واللحم ، والزغب والريش ، واللون والشيات ، والرفرفة والصوات ... ؟

وأين في البويضة كان الكائن البشري العجيب ؟ أين كانت تكمن ملامحه وسماته المنقولة عن وراثات موغلة في الماضي متشعبة المنابع والنواحي ؟ أين كانت نبرات الصوت ، ونظرات العين ، ولفتات الجيد ، واستعدادات الأعصاب ، ووراثات الجنس والعائلة والوالدين ؟ وأين كانت تكمن الصفات والسمات والشيات ؟ .

وهل يكفي أن نقول : إن هذا العالم المترامي الأطراف كان كامناً في النبتة والنواة وفي البيضة والبويضة ، لينقضي العجب العاجب الذي لا تفسير له ولا تأويل إلا قدرة الله وتدبير الله ؟ .

وما يزال البشر يكتشفون من أسرار الموت وأسرار الحياة ، وإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي ، وتحول العناصر في مراحل إلى موت أو حياة ، ما يزيد مساحة السؤال وعمقه وشموله كل يوم وكل لحظة . وإن تحول الطعام الذي يموت بالطهي والنار إلى دم حي في الجسم الحي ، وتحول هذا الدم إلى فضلات ميتة بالاحتراق ، لأعجوبة يتسع العجب منها كلما زاد العلم بها . وهي بعد كائنة في كل لحظة آناء الليل وأطراف النهار . وإن الحياة لأعجوبة غامضة مثيرة تواجه الكينونة البشرية كلها بعلامات استفهام لاجواب عليها كلها إلا أن يكون هنالك إله ، يهب الحياة . ﴿ **ومن يدبر الأمر؟** ﴾ ..

في هذا الذي ذكر كله وفي سواه من شؤون الكون وشؤون البشر ؟ من يدبّر الناموس الكوني الذي ينظم حركة هذه الأفلاك على هذا النحو الدقيق ؟ ومن يدبّر حركة هذه الحياة فتمضي في طريقها المرسوم بهذا النظام اللطيف العميق ؟ ومن يدبّر السنن الاجتماعية التي تصرف حياة البشر ، والتي لا تخطىء مرة ولا تحيد ؟ ومن .. ومن ؟ ..

﴿ فسيقولون الله ﴾.. فهم لم يكونوا ينكرون وجود الله ، أو ينكرون يده في هذه الشؤون الكبار . ولكن انحراف الفطرة كان يقودهم مع هذا الاعتراف إلى الشرك بالله ، فيتوجهون بالشعائر إلى سواه ، كما يتبعون شرائع لم يأذن بها الله .

﴿ فقل أفلا تتقون؟ ﴾.. أفلا تخشون الله الذي يرزقكم من السماء والأرض ، والذي يملك السمع والأبصار ، والذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، والذي يدبِّر الأمر كله في هذا وفي سواه ؟ إن الذي يملك هذا كله هو الله ، وهو الرب الحق دون سواه : ﴿ فذلكم الله ربكم الحق ﴾ . اهـ)

....

﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ أي لا واسطة بين الحق والضلال ، فمن تخطى الحقوق وقع في الضلال ، فالله الحق وكل معبود سواه باطل ، ورسوله الحق فكل ما يناقض ذلك باطل . ووحيه الحق فكل ما خالفه باطل ، والعبودية له هي الحق فكل عبودية لغيره باطلة ﴿ فأنَّى تُصرفون ﴾ عن الحق إلى الضلال والباطل ، عن التوحيد إلى الشرك ، عن اتباع الرسول إلى اتباع الشيطان ، عن اتباع الوحي إلى اتباع الهوى ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الحق أو كصرف هؤلاء عن الحق ﴿ حَقَّت ﴾ أي وجبت وثبتت ﴿ كلمة ربك على الذين فسقوا ﴾ أي على الذين تمردوا في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه ﴿ أنهم لا يؤمنون ﴾ هذي هي كلمة الله الأزلية أن الفاسق لا يستأهل الهداية ، ولا يهديه الله ، فكما حقت على هؤلاء كلمة الله أنهم لا يؤمنون بسبب من تعنّتهم وإصرارهم على محاربة الحق ، فكذلك حقت كلمة الله على كل فاسق أن لا يؤمن . نسأل الله العافية . وإذن فهؤلاء المشركون لا يؤمنون بالرسول والوحي لفسوقهم . إن عقوبة الفسوق أن لا يهدي الله صاحبه إلى الإيمان مع قيام الحجج فيه . فمن أراد الإيمان فعليه أن يُطهِّر نفسه من الفسوق بترك مظهره الأول وهو الكبر .

وبعد أن أقام الله تعالى الحجة على ربوبيته من خلال الكلام عن ألوهيته يقيم الحجة الآن على المشركين من خلال عجز شركائهم ﴿ قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده ﴾ يعيد الليل بعد النهار ، ويعيد الجيل بعد الجيل ، أو يبدؤ خلق السموات ثم يعيد خلقها مرة أخرى . أو يبدؤ خلق الإنسان والحيوان ثم يعيده يوم القيامة ، ومع أنهم غير مُقرِّين بالإعادة يوم القيامة ، إلا أنها لظهور برهانها جعلت كأنها أمر مُسَلَّم ﴿ قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده ﴾ لم يقل فسيقولون الله بل قال لرسوله : قل الله لأنهم لا تدعهم

مكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق هذه؛ فأمر الله نبيه ﷺ أن ينوب عنهم في الجواب، وإلا فالمفروض أن يجيبوا هم بالإيجاب؛ فهم يقرُّون أن الله بدأ الخلق، ومن ثم فمن بدأ الخلق ينبغي أن يُقَرَّ له بأنه قادر على إعادته، ومن كان كذلك فينبغي أن يُسلِّم له ويُخضع ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أي فكيف تُصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل، وبعد أن أقام الحجة على أن اليوم الآخر كائن، فإنه في الآية اللاحقة يقيم الحجة على هدايته ووحيه وقرآنه وهو الموضوع الرئيسي في السياق ﴿ قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق ﴾ أي يرشد إليه؟ الجواب لا ﴿ قل الله يهدي للحق ﴾ أولاً: بما ركّب في المكلفين من العقول وأعطاهم من التمكين للنظر في الأدلة التي نصبها لهم، وثانياً بإرسال الرسل وإنزال الشرائع وثالثاً: بما يوفق ويلهم لاتباع الشرائع والرسل ﴿ أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يُتبع أمَّن لا يَهِدِّي إلا أن يُهدى ﴾ أي أمَّن لا يهتدي إلا أن يُهدَى؟ فمعنى النص كله: من الجدير بالاتباع الهادي أم العاجز عن الهداية لغيره، المحتاج إلى الهداية بنفسه؟ فإذا كان الجدير بالاتباع هو الهادي فمن أكثر هداية من الله الذي ليس من هادٍ غيره، فإذا هو الهادي وحده فكيف تتعجبون أن ينزل الله وحياً، ويرسل رسولاً ليهديكم، أم كيف تتركون هدايته ﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ أي فما بالكم تصدرون مثل هذه الأحكام الفاسدة إذ تسوون بين الله وخلقه فتقيسون الله على أصنامكم، فكما أن أصنامكم لا تهدي تظنون أن الله لا يهدي، فتستغربون أن يرسل رسولاً، وينزل وحياً يهدي به الله من شاء. هلا رجعتم إلى صوابكم، فاهتديتم بنور الله، وتركتم ما أنتم فيه من أوهام وضلالات. ومن ثم قال: ﴿ وما يتبع أكثرهم ﴾ أي كلهم ﴿ إلا ظناً ﴾ أي توهماً وتخيلاً، فلا دليل عندهم ولا برهان ﴿ إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ فيما المطلوب فيه العلم. أي لا يغني من العلم أي إغناء، فلا قيمة له في هذا المقام ﴿ إن الله عليم بما يفعلون ﴾ من اتباع الظن وترك الحق، وهو تهديد ووعيد شديد على اتباعهم الظن وتركهم هداية الله العظيمة المتمثلة في القرآن.

وفي هذه الآية قال الألوسي: (أي ما يتبع أكثرهم في معتقداتهم ومحاوراتهم إلا ظناً واهياً مستنداً إلى خيالات فارغة وأقيسة باطلة، كقياس الغائب على الشاهد، وقياس الخالق على المخلوق، بأدنى مشاركة موهومة، ولا يلتفتون إلى فرد من أفراد العلم، فضلاً عن أن يسلكوا مسالك الأدلة الصحيحة الهادية إلى الحق فيفهموا ويقفوا على صحتها وبطلان ما يخالفها، فالمراد بالاتباع: مطلق الانقياد الشامل لما يقارن القبول والانقياد وما لا يقارنه، وبالقصر ما أشير إليه من أن لا يكون لهم في أثنائه اتباع لفرد من أفراد العلم والتفات إليه.

وتنكير (ظناً) للنوعية وفي تخصيص هذا الاتباع بالأكثر الإشارة إلى أن منهم من قد يتبع فيقف على حقيقة التوحيد لكن لا يقبله مكابرة وعناداً . وفيه دليل لمن قال : إن تحصيل العلم في الاعتقاد واجب ،و إن إيمان المقلد غير صحيح ، وإنما لم يؤخذ عاماً للعمليات لقيام الدليل على صحة التقليد والاكتفاء بالظن فيها كما قرر في موضعه)

ولما نعى الله على السائرين وراء الظنون والأوهام ، ولما كان الطريق للخلاص من ذلك هو القرآن فقد قال تعالى بعد ذلك : ﴿ **وما كان هذا القرآن أن يُفترىٰ من دون الله** ﴾أي ما صح وما استقام في منطق العقل أن يكون مثل هذا القرآن في علو أمره ، وإعجازه ، وكثرة معجزاته ، منسوباً إلى الله كذباً ، فهذا القرآن بفصاحته وبلاغته وحلاوته واشتماله على ما اشتمل عليه لا يكون إلا من عند الله ﴿ **ولكن** ﴾أنزل ﴿ **تصديق الذي بين يديه** ﴾ أي من الكتب المتقدمة ، مصدقاً لها ومهيمناً عليها ، ومبيناً لما وقع من التحريف والتبديل ﴿ **وتفصيل الكتاب** ﴾ أي وتبيين الكتاب ، أي وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع ﴿ **لاريب فيه** ﴾ أي لا شكّ فيه ﴿ **من رب العالمين** ﴾ أي وبيان الأحكام والحلال والحرام بياناً شافياً كافياً حقاً لا مرية فيه من الله رب العالمين ، فصار المعنى:إن هذا القرآن في علو شأنه ما كان أن يفترىٰ من دون الله ، ولكن كان تصديقاً للوحي السابق وتفصيلاً للفرائض منتفياً عنه الريب ، كائناً من رب العالمين ، أو لكن كان تصديق من رب العالمين للكتب السابقة ، وتفصيلاً منه لاريب في ذلك ، وبهذا تقرر في هذه الآيات الثلاث أن الله هو الهادي ، وأن من مظاهر هدايته هذا القرآن ، وأن من يتبع غير هدايته فهو في ضلال ، فيا أيها المتعجّبون أن ينزل الله وحياً ويرسل رسولاً أعلموا ذلك،فالحجة قائمة عليكم أن هذا القرآن من عند الله ، فلا تتعجبوا ، فإن عجبكم في غير محله ، وهكذا أقامت هذه المجموعة الحجة على الكافرين في موضوع الوحدانية واليوم الآخر والرسول والقرآن ، وتوضيح الحق في هذه الأشياء ضروري لتحطيم فكرة الكافرين في العجب من أن ينزل الله وحياً ويرسل رسولاً مبشراً ومنذراً . وبهذا ينتهي عرض المقطع الأول من القسم الأول من سورة يونس وقبل أن ننتقل إلى المقطع الثاني في هذا القسم فلنتكلم كلمة حول السياق .

كلمة حول السياق:

رأينا أن محور سورة يونس هو قوله تعالى من سورة البقرة ﴿ **الٓمٓ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين** ﴾وذكرنا أن سورة يونس تتألف من مقدمة وثلاث أقسام وخاتمة . وههنا

نقول : إن القسم الأول من سورة يونس يفصّل في قوله تعالى : ﴿ **ذلك الكتاب لاريب فيه** ﴾ والقسم الثاني يفصّل في قوله تعالى ﴿ **هدى للمتقين** ﴾ وسنرى مجالات تفصيل القسم الثالث .

إن القسم الأول يفصل في قوله تعالى ﴿ **ذلك الكتاب لاريب فيه** ﴾ وهذا القسم يتألف من مقطعين :

المقطع الأول : وهو الذي مرّ معنا ويبدأ بقوله تعالى : ﴿ **أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشّر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم** ﴾

والمقطع الثاني : وهو الذي سنعرضه بعد قليل : ويبدأ بقوله تعالى : ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله ...** ﴾ ومن خلال النظر إلى بداية المقطعين ندرك أن الله عز وجل يقيم الحجة بهذين المقطعين على المرتابين في هذا القرآن . فالمرتابون أحد نوعين : نوع لايتصورون أن ينزل الله وحياً على بشر ، ونوع يتصورون أن محمداً كذاب ، وقد ناقش المقطع الأول النوع الأول ، وأقام الحجة عليه ، وسينصبُّ المقطع الثاني على مناقشة النوع الثاني ويقيم الحجة عليه ، والصلة بين المقطع الأول والمقطع الثاني في غاية القوة ؛ فهما قسم واحد لأنهما جميعاً يقيمان الحجة على نفي الريب في أن يرسل الله بشراً رسولا وينزل عليه وحياً ، لذلك انتهى المقطع الأول بقوله تعالى ﴿ **وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين** ﴾ . ويبدأ المقطع الثاني بعده مباشرة بقوله تعالى : ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله ...** ﴾ وبمجموع المقطعين تقوم الحجة على أن هذا الكتاب لاريب فيه ، وليست في الحقيقة حجة واحدة ، وإنما هي حجج ؛ فكتاب في مثل هذا الإحكام ، وفي مثل هذه المواطأة للكتب السابقة ، وفي مثل هذا البيان للأحكام والعقائد والتصورات الصحيحة ، وفي مثل هذا الإعجاز وكثرة المعجزات من أين يأتيه الريب ؟ فإلى المقطع الثاني من القسم الأول وهذا هو :

المقطع الثاني من القسم الأول

ويمتد من الآية (٣٨) إلى نهاية الآية (٥٦) وهذا هو :

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾

قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

هذا هو المقطع الثاني من القسم الأول ويتألف من مجموعتين ، كل مجموعة تخدم السياق العام ، وتذكر معاني مرتبطة بالسياق الجزئي ، وسنرى كل ذلك أثناء استعراض المجموعتين .

المجموعة الأولى

﴿ أم يقولون افتراه ﴾ أي أم يقولون اختلقه **﴿ قل فأتوا بسورة مثله ﴾** أي قل إن كان الأمر كما تزعمون فأتوا على وجه الافتراء بسورة مثله أي شبيهة به في البلاغة وحسن النظم فأنتم عرب مثلي **﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله ﴾** أي وادعوا من دون الله من استطعتم من خلقه للاستعانة به على الإتيان بمثله **﴿ إن كنتم صادقين ﴾** أي في دعواكم أنه مفترى والمعنى : إن ادعيتم وافتريتم وشككتم في أن هذا من عند الله ، وقلتم كذباً إن هذا من عند محمد ، فمحمد بشر مثلكم وقد جاء — فيما زعمتم — بهذا

القرآن فأتوا أنتم بسورة من جنس هذا القرآن ، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان ، فإذ لم تفعلوا فقد قامت عليكم الحجة أن هذا القرآن من عند الله ، ولم يبق إلا الإيمان والتسليم إن كنتم منصفين ، ولكن هل تكذيبهم أثر عن تفكير وتدبُّر وعلم وعقل ؟ لا . قال تعالى : ﴿ **بل كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه** ﴾ أي بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره ، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه ، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم ، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم ، فتكذيبهم إذن تكذيب بما لم يعرفوا ولم يفهموا ﴿ **ولمّا يأتهم تأويله** ﴾ أي ولم يأتيهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب ، أي عاقبته حتى يتبيّن لهم أهو كذب أم صدق ، يعني : أنه كتاب معجز من جهتين : من جهة إعجاز نظمه ، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب ، فتسرَّعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حد الإعجاز ، وقبل أن يُجرِّبوا إخباره بالمغيبات وصدقه . والآية تفيد أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ، ومعرفة التأويل تقليداً للآباء ، واستعمال كلمة لمّا في هذا المقام يفيد أنهم علموا من بعدُ علوّ شأنه وإعجازه ، وبقوا مصرِّين على التكذيب بغياً وحسداً ، وإذن فهؤلاء كذبوا بهذا القرآن ، ولم يفهموا ولم يعرفوا ولم يستوعبوا ما فيه من الهدى ودين الحق سفهاً وجهلاً ﴿ **كذلك** ﴾ أي مثل ذلك التكذيب الذي لا يقوم على دليل ﴿ **كذَّب الذين من قبلهم** ﴾ من الأمم السالفة أي كذلك كذبوا رسلهم قبل النظر في معجزاتهم ، وقبل تدبُّرها عناداً أو تقليداً للآباء ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة الظالمين** ﴾ أي فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وما كذبوهم إلا وعلواً وكفراً وعناداً وجهلاً ، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم .

﴿ **ومنهم من يؤمن به** ﴾ أي ومنهم من يصدِّق بالقرآن في نفسه ، ويعلم أنه حق ولكنه يعاند بالتكذيب ﴿ **ومنهم من لا يؤمن به** ﴾ أي ومنهم من لا يصدِّق به ويشك فيه ﴿ **وربك أعلم بالمفسدين** ﴾ أي بالمعاندين المصرِّين الصادِّين عن سبيل الله ، ويحتمل أن يكون المعنى : ومن هؤلاء الذين بُعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك بما أرسلت به ، ومنهم من لا يؤمن به ويموت على ذلك ويبعث عليه ، وربك أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ، ومن يستحق الضلالة - وهم المفسدون ـــ فيضله ، فهو العادل الذي لا يجور ، بل يعطي كلّاً من هؤلاء ما يستحق تبارك وتعالى وتقدس وتنزه لا إله إلا هو ، ويحتمل أن يكون المعنى : ومنهم من سيؤمن به ، ومنهم من سيصرّ ، وربك أعلم بالمفسدين الذين يستحقون الضلال بسبب من إفسادهم ، وهكذا

عرفنا من خلال الآيتين اللتين مرّتا أن سبب الريب والكفر بهذا القرآن الظلم والإفساد في الأرض ، فمن كان ظالما ومن كان مفسداً فهذا وحده الذي يرتاب في هذا القرآن ويشك به ويكفر ، أما القرآن فليس فيه ريب ولا شك ، لأن الحجة قائمة فيه أنه من عند الله ، جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال « ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً » فالرسل السابقون معجزاتهم شاهدة على صحة رسالتهم ، وأما رسالة رسولنا ﷺ فالقرآن شارحها ، والمعجزة في القرآن نفسه ،فكيف يكون فيه ريب **﴿ وإن كذبوك ﴾** أي وإن استمروا على تكذيبك ويئست من إجابتهم بعد قيام الحجة عليهم فتبرأ منهم ومن عملهم **﴿فقل لي عملي ولكم عملكم﴾** أي لي جزاء عملي ولكم جزاء أعمالكم **﴿أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾** فكلّ مؤاخذ بعمله **﴿ ومنهم من يستمعون إليك ﴾** أي ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلمّت الشرائع ، فهم يسمعون كلامك الحسن ، والقرآن العظيم ، والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأديان والأبدان ، وفي هذا كفاية عظيمة للإيمان ، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون ، فهم كالصم **﴿ أفأنت تسمع الصمّ ولو كانوا لا يعقلون ﴾** أي أتطمع أنك تقدر على إسماع الصم ولو انضم إلى صممهم انعدام عقولهم ، لأن الأصم العاقل ربما تفرّس واستدل إذا وقع في صماخه دويُّ الصوت ، فإذا اجتمع سلب العقل والسمع فقد تمّ عدم الفهم ، وإذن فالصمم وانعدام العقل عاملان آخران من عوامل الضلال والكفر بهذا القرآن وهذا الرسول **﴿ ومنهم من ينظر إليك ﴾** أي ومنهم ناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوة ، ولكنهم لا يصدقون ، أو كما قال ابن كثير : (أي ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة ، والسمت الحسن ، والخلق العظيم ، والدلالة الظاهرة على نبوتك لأولي البصائر والنهى . وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم ، ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم ، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار ، وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار) فكيف يؤمنون بك ، وكيف ينتفعون منك وهم لا يرون حقيقتك أصلًا لعماهم **﴿ أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون ﴾** أي أتحسب أنك تقدر على هداية العمي ولو انضم إلى فقد البصر فقد البصيرة ، لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يَحدِس ، وأما العمى مع الحمق فجهد البلاء ، فتحصّل من الآيتين أنهم في اليأس من أن يقبلوا ويصدّقوا كالصمّ والعمي الذين لا عقول لهم ولا بصائر . فحصل

من الآيات السابقة أن سبب الكفر بالقرآن والرسول الظلم والإفساد والصمم والعمى ، وليس السبب احتمال الريب في القرآن أو في شخصيّة الرسول ﷺ، كما أن السبب ليس ظلم الله لهم في إضلالهم وإبقائهم في الضلال . وهذا الذي تقرّره الآية الخاتمة في هذه المجموعة ﴿ **إن الله لا يظلم الناس شيئًا ولكنّ الناس أنفسهم يظلمون** ﴾أي : لم يظلمهم بسلب آلة الاستدلال ، ولكنهم ظلموا أنفسهم بترك الاستدلال وبالظلم والإفساد والعمى والصمم ، فهم إذن الظالمون لأنفسهم .

فائدة :

قال ابن كثير بمناسبة قوله تعالى ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله ...** ﴾: (وهذا هو المقام الثالث في التحدي، فإنه تعالى تحدّاهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد ﷺ فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده ، وليستعينوا بمن شاؤوا ، وأخبرأنهم لا يقدرون على ذلك ، ولا سبيل لهم إليه فقال تعالى : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾(الإسراء :٨٨) ثم تقاصرمعهم إلى عشر سور منه ، فقال في أول سورة هود : ﴿**أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ ثم تنازل إلى سورة فقال في هذه السورة : ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ وكذا في سورة البقرة - وهي مدنية - تحدّاهم بسورة منه ، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً فقال :﴿ **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار** ﴾ الآية(البقرة ٢٤) ، هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم ، وأشعارهم ومعلقاتهم ، إليها المنتهى في هذا الباب . ولكن جاءهم من الله ما لا قِبَل لأحد به ، ولهذا آمن من آمن منهم من بلاغة هذا الكلام وحلاوته وجزالته وطلاوته وإفادته وبراعته ، فكانوا أعلم الناس وأفهمهم له ، وأتبعهم له وأشدهم له انقياداً ، كما عرف السحرة بعلمهم بفنون السحر أن هذا الذي فعله موسى عليه السلام لا يصدر إلا عن مؤيّد ، مسدّد ، مرسل من الله ، وأن هذا لا يستطاع لبشر إلا بإذن الله ، وكذلك عيسى عليه السلام بعث في زمن علماء الطب ، ومعالجة المرضى ، فكان يبرىء الأكمه والأبرص ، ويحيي الموتى بإذن الله ، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه ، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله) اهـ .

كلمة في السياق :

١ ـــ أقام الله عز وجل الحجة عليهم بأن هذا القرآن لاريب فيه بتحديهم أن يأتوا بسورة من مثله ، ثمّ بيّن لهم العلل الحقيقية لريبهم ، وهي: ظلمهم ، وإفسادهم ، وأعمالهم السيئة ، وصممهم عن سماع كلمة الحق ، وعدم استعمال عقولهم ، وعمى أبصارهم عن رؤية الحق ، وعمى بصائرهم عن التدبر ، وظلمهم لأنفسهم ، وبعد أن أقام عليهم الحجة وبيّن لهم علل تكذيبهم ، تأتي بعد ذلك مجموعة واعظة تعظ وتنذر

٢ ـــ رأينا أنّه قد مرّ معنا في هذه المجموعة من هذا المقطع قوله تعالى ﴿ **بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله** ﴾ والمراد بتأويله هنا ـــ والله أعلم ـــ تفسيره العملي ، وتفسيره العملي هو وقوع ما أخبر عنه من غيوب ، وهذا الذي أخبر عنه من الغيوب سيقع شيئاً فشيئاً ، وآخر هذا الوقوع هو ما سيكون يوم القيامة ، ومن ثمّ فإنّ المجموعة الثانية في هذا المقطع تحدثنا عن بعض جوانب التفسير العملي الكائن لما أخبر عنه هذا القرآن من غيوب ، وفي ذلك إقامة حجة على من كذب وإنذار له ، وقبل أن ننتقل إلى عرض المجموعة الثانية فلننقل بعض ما قاله صاحب الظلال بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قل: فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ .

قال: (وقد ثبت هذا التحدي ، وثبت العجز عنه . وما يزال ثابتاً ولن يزال . والذين يدركون بلاغة هذه اللغة ، ويتذوقون الجمال الفني والتناسق فيها ، يدركون أن هذا النسق من القول لا يستطيعه إنسان .

وكذلك الذين يدرسون النظم الاجتماعية ، والأصول التشريعية ، ويدرسون النظام الذي جاء به هذا القرآن ، يدركون أن النظرة فيه إلى تنظيم الجماعة الإنسانية ومقتضيات حياتها من جميع جوانبها ، والفرص المدّخرة فيه لمواجهة الأطوار والتقلبات في يسر ومرونة .. كل أولئك أكبر من أن يحيط به عقل بشري واحد ، أو مجموعة العقول في جيل واحد أو في الأجيال . ومثلهم الذين يدرسون النفس الإنسانية ووسائل الوصول إلى التأثير فيها وتوجيهها ، ثم يدرسون وسائل القرآن وأساليبه .

فليس هو إعجاز اللفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده ، ولكنه الإعجاز المطلق الذي يلمسه الخبراء في هذا ، أو في النظم والتشريعات ، والنفسيات وما إليها ..

والذين زاولوا فن التعبير ، والذين لهم بصر بالأداء الفني ، يدركون أكثر من غيرهم

مدى ما في الأداء القرآني من إعجاز في هذا الجانب . والذين زاولوا التفكير الاجتماعي والقانوني والنفسي ، والإنساني بصفة عامة ، يدركون أكثر من غيرهم مدى الإعجاز الموضوعي في هذا الكتاب أيضاً .

ومع تقدير العجز سلفاً عن بيان حقيقة هذا الإعجاز ومداه ، والعجز عن تصويره بالأسلوب البشري . ومع تقدير أن الحديث المفصّل عن هذا الإعجاز — في حدود الطاقة البشرية — هو موضوع كتاب مستقل . فسأحاول هنا أن ألم إلمامة خاطفة بشيء من هذا ..

إن الأداء القرآني يمتاز ويتميز من الأداء البشري .. إن له سلطاناً عجيباً على القلوب ليس للأداء البشري ؛ حتى ليبلغ أحياناً أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية حرفاً .. وهناك حوادث عجيبة لا يمكن تفسيرها بغير هذا الذي نقول — وإن لم تكن هي القاعدة — ولكن وقوعها يحتاج إلى تفسير وتعليل .. ولن أذكر نماذج عما وقع لغيري ؛ ولكن أذكر حادثاً وقع لي وكان عليه معي شهود ستة ، وذلك منذ حوالي خمسة عشر عاماً .. كنا ستة نفر من المنتسبين إلى الإسلام على ظهر سفينة مصرية تمخر بنا عباب المحيط الأطلسي إلى نيويورك ؛ من بين عشرين ومائة راكب أجانب ، ليس منهم مسلم .. وخطر لنا أن نقيم صلاة الجمعة في المحيط على ظهر السفينة ، والله يعلم أنه لم يكن بنا أن نقيم الصلاة ذاتها أكثر مما كان بنا حماسة دينية وإزاء مبشّر كان يزاول عمله على ظهر السفينة ؛ وحاول أن يزاول تبشيره معنا !.. وقد يسّر لنا قائد السفينة — وكان إنجليزياً — أن نقيم صلاتنا ؛ وسمح لبحارة السفينة وطهاتها وخدمها — وكلهم نوبيون مسلمون — أن يصلي منهم معنا من لا يكون في « الخدمة » وقت الصلاة ! وقد فرحوا بهذا فرحاً شديداً ، إذ كانت المرة الأولى التي تقام فيها صلاة الجمعة .. وقمت بخطبة الجمعة وإقامة الصلاة ؛ والركاب الأجانب — معظمهم — متحلقون يرقبون صلاتنا !.. وبعد الصلاة جاءنا كثيرون منهم يهنئوننا على نجاح « القدّاس » !!! فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا ! ولكن سيدة من هذا الحشد — عرفنا فيما بعد أنها يوغسلافية مسيحية هاربة من جحيم « تيتو » وشيوعيته ! — كانت شديدة التأثر والانفعال ، تفيض عيناها بالدمع ولا تتمالك مشاعرها . جاءت تشد على أيدينا بحرارة ؛ وتقول : — في إنجليزية ضعيفة — إنها لا تملك نفسها من التأثر العميق بصلاتنا هذه وما فيها من خشوع ونظام وروح !.. وليس هذا موضع الشاهد في القصة .. ولكن ذلك كان في قولها : أيّ لغة هذه

التي كان يتحدث بها « قسيسكم » ؟! فالمسكينة لا تتصور أن يقيم « الصلاة » إلا قسيس . أو رجل ديني – كما هو الحال عندها في مسيحية الكنيسة – ! وقد صححنا لها هذا الفهم !.. وأجبناها .. فقالت : إن اللغة التي يتحدث بها ذات إيقاع موسيقي عجيب . وإن كنت لم أفهم منها حرفاً .. ثم كانت المفاجأة الحقيقية لنا وهي تقول : ولكن هذا ليس الموضوع الذي أريد أن أسأل عنه .. إن الموضوع الذي لفت حسي ، هو أن « الإمام » كانت ترد في أثناء كلامه – بهذه اللغة الموسيقية – فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه ! نوع أكثر موسيقية وأعمق إيقاعاً .. هذه الفقرات الخاصة كانت تحدث فيّ رعشة وقشعريرة ! إنها شيء آخر ! كما لو كان – الإمام – مملوءاً من الروح القدس – حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها – وتفكّرنا قليلاً . ثم أدركنا أنها تعني الآيات القرآنية التي وردت في أثناء خطبة الجمعة وفي أثناء الصلاة ! وكانت – مع ذلك – مفاجأة لنا تدعوا إلى الدهشة ، من سيدة لا تفهم مما تقول شيئاً .

وليست هذه قاعدة كما قلت . ولكن وقوع هذه الحادثة – ووقوع أمثالها مما ذكره لي غير واحد – ذو دلالة على أن في هذا القرآن سراً آخر تلتقطه بعض القلوب بمجرد تلاوته . وقد يكون إيمان هذه السيدة بدينها ، وفرارها من الجحيم الشيوعي في بلادها ، قد أرهف حسها بكلمات الله على هذا النحو العجيب .. ولكن ما بالنا نعجب وعشرات الألوف ممن يستمعون إلى القرآن من عوامنا لا يطرق عقولهم منه شيء ، ولكن يطرق قلوبهم إيقاعه – وسره هذا – وهم لا يفترقون كثيراً من ناحية فهم لغة القرآن عن هذه السيدة اليوغسلافية .

ولقد أردت أن أقدم للحديث عن القرآن بسلطانه هذا الخفي العجيب . قبل أن أتحدث عن الجوانب المدركة التي يعرفها أكثر من غيرهم من يزاولون فن التعبير . ومن يزاولون التفكير والشعور .

إن الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيّز يستحيل على البشر أن يعبّروا فيه عن مثل هذه الأغراض ، وذلك بأوسع مدلول ، وأدق تعبير ، وأجمله وأحياه أيضاً ، مع التناسق العجيب بين المدلول والعبارة والإيقاع والظلال والجو ، ومع جمال التعبير دقة الدلالة في آن واحد ، بحيث لا يغني لفظ عن لفظ في موضعه ، وبحيث لا يجور الجمال على الدقة ولا الدقة على الجمال . ويبلغ من ذلك كله مستوى لا يدرك إعجازه أحد ، كما يدرك ذلك من يزاولون فن التعبير فعلاً ؛ لأن هؤلاء هم الذين يدركون حدود

الطاقة البشرية في هذ المجال . ومن ثم يتبيّنون بوضوح أن هذا المستوى فوق الطاقة البشرية قطعاً .

وينشأ عن هذه الظاهرة ظاهرة أخرى في الأداء القرآني .. هي أن النص الواحد يحوي مدلولات متنوعة متناسقة في النص ؛ وكل مدلول منها يستوفي حظه من البيان والوضوح دون اضطراب في الأداء واختلاط بين المدلولات ؛ وكل قضية وكل حقيقة تنال الحيز الذي يناسبها . بحيث يستشهد بالنص الواحد في مجالات شتى ؛ ويبدو كل مرة أصيلاً في الموضع الذي استشهد به فيه ؛ وكأنما هو مصوغ ابتداء لهذا المجال ولهذا الموضع ! وهي ظاهرة قرآنية بارزة لا تحتاج منا إلى أكثر من الإشارة إليها .

وللأداء القرآني طابع بارز كذلك في القدرة على استحضار المشاهد ، والتعبير المواجه كما لو كان المشهد حاضراً ، بطريقة ليست معهودة على الإطلاق في كلام البشر ؛ ولا يملك الأداء البشري تقليدها . لأنه يبدو في هذه الحالة مضطرباً غير مستقيم مع أسلوب الكتابة ! وإلا فكيف يمكن للأداء البشري أن يعبر عن طريقة الأداء القرآني مثلاً في مثل هذه المواضع : ﴿ **وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده ــ بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين..** ﴾(وإلى هنا هي قصة تحكى) .. ثم يعقبها مباشرة خطاب موجه في مشهد حاضر .. ﴿ **آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين؟! فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية** ﴾.. ثم يعود الأداء للتعقيب على المشهد الحاضر : ﴿ **وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون** ﴾..

﴿ **قل : أي شيء أكبر شهادة قل الله ، شهيد بيني وبينكم ، وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ** ﴾.. وإلى هنا أمر يوجّه ورسول يتلقى .. ثم فجأة نجد الرسول يسأل القوم : ﴿ **أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى؟** ﴾.. وإذا به يعود للتلقي في شأن هذا الذي سأل عنه قومه ــ وأجابوه :﴿ **قل : لا أشهد قل : إنما هو إله واحد، وإنني بريء مما تشركون** ﴾.

وكذلك هذه الالتفاتات المتكررة في مثل هذه الآيات : ﴿ **ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس.. وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا. قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله، إن**

ربك حكيم عليم .. وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون .. يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصُّون عليكم آياتي، وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا: شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾ .

وأمثالها كثير في القرآن كله . وهو أسلوب متميز تماماً عن الأسلوب البشري وإلا فمن شاء أن يماري فليحاول أن يعبر عن هذا النحو ثم ليأت بكلام مفهوم مستقيم ؛ فضلاً على أن يكون له هذا الجمال الرائع ، وهذا الإيقاع المؤثر ، وهذا التناسق الكامل .

هذه بعض جوانب الإعجاز في الأداء نلمّ بها سراعاً . ويبقى الإعجاز الموضوعي ، والطابع الرباني المتميز من الطابع البشري فيه .

إن هذا القرآن يخاطب الكينونة البشرية بجملتها ، فلا يخاطب ذهنها المجرد مرة . وقلبها الشاعر مرة . وحسّها المتوفز مرة . ولكنه يخاطبها جملة ، ويخاطبها من أقصر طريق ، ويطرق كل أجهزة الاستقبال والتلقي فيها مرة واحدة كلما خاطبها .. وينشيء فيها بهذا الخطاب تصورات وتأثرات وانطباعات لحقائق الوجود كلها ، لا تملك وسيلة أخرى من الوسائل التي زاولها البشر في تاريخهم كله أن تنشئها بهذا العمق ، وبهذا الشمول ، وبهذه الواقعية وبهذا الوضوح ، وبهذه الطريقة وهذا الأسلوب أيضاً .

ونستعير هنا فقرات مقتبسة من القسم الثاني من كتاب : (خصائص التصور ومقوماته) تعين على توضيح هذه الحقيقة ؛ وهي تتحدث عن (المنهج القرآني في عرض مقومات التصور الإسلامي) في صورتها الجميلة الكاملة الشاملة المتناسقة المتوازنة ، وأبرز خصائص هذا المنهج في العرض :

« أنه يمتاز عن كل المناهج :

• أولاً: بكونه يعرض الحقيقة ــ كما هي في عالم الواقع ــ في الأسلوب الذي يكشف كل زواياها ، وكل جوانبها ، وكل ارتباطاتها ، وكل مقتضياتها .. وهو ــ مع هذا الشمول ــ لا يعقّد هذه الحقيقة ، ولا يلفها بالضباب ، بل يخاطب بها الكينونة البشرية في كل مستوياتها .. ولم يشأ الله ــ سبحانه ــ رحمةً منه بالعباد أن يجعل مخاطبتهم بمقومات هذا التصور وإدراكهم لها ، متوقفاً على سابق علم لهم .. إطلاقاً .. لأن العقيدة هي حاجة حياتهم الأولى ، والتصور الذي تنشئه في عقولهم وقلوبهم هو

الذي يحدد لهم طريقة تعاملهم مع الوجود كله . ويحدد لهم كذلك طريقة اتجاههم لتعلم أي علم ، ولطلب أية معرفة .. لهذا السبب لم يجعل الله إدراك هذه العقيدة متوقفاً على علم سابق . ولسبب آخر هو أن الله يريد أن يكون هذا التصور الذي تنشئه حقائق العقيدة هو قاعدة علم البشر ومعرفتهم — بما أنه هو قاعدة تصورهم وتفسيرهم للكون من حولهم ، ولما يجري فيه ولما يجري فيهم — كي يقوم علمهم وتقوم معرفتهم على أساس من الحق المستيقن الذي ليس هنالك غيره حق مستيقن . ذلك أن كل ما يتلقاه الإنسان وكل ما يصل إليه — عن غير هذا المصدر — هو معرفة — « ظنية » ونتائج « محتملة » لا « قطعية » حتى ذلك « العلم التجريبي » . فطريق العلم التجريبي هو القياس — لا الاستقراء والاستقصاء — فما يتسنى للبشر الاستقصاء والاستقراء في أية تجربة . هذا على فرض صحة جميع الملاحظات والاستنتاجات ، والأحكام البشرية على الظواهر ، إنما قصارى « العلم » أن يقوم بعدد من التجارب ، ثم يقيس على نتائجها . والعلم نفسه يسلّم بأن النتائج الناشئة عن هذا القياس ظنيّة محتملة ، لا يقينية قطعية (وذلك بالإضافة إلى أن كل تجربة على حدة ، تقوم على ترجيح أحد « الاحتمالات » لا على القطع الحتمي) .. فلم يبق من علم مستيقن يمكن أن يحصل عليه البشر إلا العلم الذي يأتيهم من عند العليم الخبير . والذي يقصّه من يقصّ الحق وهو خير الفاصلين .

وثانياً : بكونه مبرّأً من الانقطاع والتمزق الملحوظين في الدراسات « العلمية » والتأملات « الفلسفية » والومضات « الفنية » جميعاً . فهو لا يفرد كل جانب من جوانب (الكل) الجميل المتناسق بحديث مستقل كما تصنع أساليب الأداء البشرية . وإنما هو يعرض هذه الجوانب في سياق موصول ؛ يرتبط فيه عالم الشهادة بعالم الغيب . وتتصل فيه حقائق الكون والحياة والإنسان بحقيقة الألوهية . وتتصل فيه الدنيا بالآخرة . وحياة الناس في الأرض بحياة الملأ الأعلى في أسلوب تتعذر مجاراته أو تقليده ، لأن الأسلوب البشري عند ما يحاول تقليده في هذا الخاصية تبدو فيه الحقائق مختلطة مضطربة غامضة ، غير واضحة ولا محددة ولا متسقة ، كما تبدو في المنهج القرآني .

« وهذا الاتصال والارتباط في عرض جملة الحقائق في السياق القرآني الواحد قد يختلف فيه التركيز على أي منها بين موضع وموضع . ولكن هذا الترابط يبدو دائماً . فعندما يكون التركيز في موضع من السياق القرآني مثلاً على تعريف الناس بربهم الحق ، تتجلى هذه الحقيقة الكبيرة في آثار القدرة الإلهية الفاعلة في الكون والحياة والإنسان . في

عالم الغيب وعالم الشهادة سواء .. وعندما يكون التركيز في موضع آخر على التعريف بحقيقة الكون تتجلى العلاقة بين « حقيقة الألوهية » و « حقيقة الكون » ويتطرق السياق كثيراً إلى حقيقة الحياة والأحياء ، وإلى سنن الله في الكون والحياة .. وعندما يكون التركيز على « حقيقة الإنسان » يتجلى ارتباطها بحقيقة الألوهية وبالكون والأحياء ، وبعالم الغيب وعالم الشهادة على السواء .. وعند ما يكون التركيز على الدار الآخرة تذكر الحياة الدنيا وترتبطان بالله وبسائر الحقائق الأخرى .. وكذلك عند ما يكون التركيز على قضايا الدنيا .. إلى آخر النسق من العرض ، الواضح الملامح في القرآن .

وثالثًا: بكونه — مع تماسك جوانب « الحقيقة » وتناسقها — يحافظ تماماً على إعطاء كل جانب من جوانبها — في الكل المتناسق — مساحته التي تساوي وزنه الحقيقي في ميزان الله — وهو الميزان — ومن ثم تبدو « حقيقة الألوهية » وخصائصها ، وقضية « الألوهية والعبودية » بارزة مسيطرة محيطة شاملة ؛ حتى ليبدو أن التعريف بتلك الحقيقة وتجلية هذه القضية هو موضوع القرآن الأساسي . وتشغل حقيقة عالم الغيب — بما فيه القدر والدار الآخرة — مساحة بارزة . ثم تنال حقيقة الإنسان ، وحقيقة الكون ، وحقيقة الحياة ، أنصبة متناسقة تناسق هذه الحقائق في عالم الواقع . وهكذا لا تدغم حقيقة من الحقائق ، ولا تهمل ، ولا تضيع معالمها في المشهد الكلي الذي تعرض فيه هذه الحقائق . وكما أن هذه الحقائق لا يطغى بعضها على بعض في التصور الإسلامي في ذاته — كما بينا في فصل « التوازن » في القسم الأول — حيث لا ينتهي الإعجاب بالكون المادي ودقة نواميسه وتناسق أجزائه وقوانينه إلى تأليهه — كمؤلهة العوالم المادية والأكوان الطبيعية قديماً وحديثاً — ولا ينتهي الإعجاب بعظمة الحياة واهتدائها إلى وظائفها وتناسقها مع نفسها ومع المحيط الكوني إلى تأليهها — كأصحاب المذهب الحيوي — ولا ينتهي الإعجاب بالإنسان ، وتفرده في خصائصه والاستعدادات الكامنة في كياناته المنطلقة في تعامله مع الكون ، إلى تأليه الإنسان — أو العقل — في صورة من الصور — كالمثاليين في عمومهم — ولا ينتهي الإجلال للحقيقة الإلهية في ذاتها إلى إنكار وجود العوالم المادية أو احتقارها أو احتقار الكائن الإنساني — كالمذاهب الهندوكية والبوذية والنصرانية المحرفة — كما أن هذا التوازن هو طابع التصور الإسلامي ذاته ، فكذلك هو طابع منهج العرض القرآني لمقومات هذا التصور والحقائق التي يقوم عليها بحيث تبدو كلها واضحة في المشهد الفريد الذي يرسمه للكل في السياق القرآني الواحد . وهي خاصية قرآنية لا يملكها الأداء الإنساني .

«رابعاً: تلك الحيوية الدافقة المؤثرة الموحية ـــ مع الدقة والتقرير والتحديد الحاسم . وهي تمنح هذه الحقائق حيوية وإيقاعات وروعة وجمالاً ، لا يتسامى إليها المنهج البشري في العرض ولا الأسلوب البشري في التعبير . ثم هي في الوقت ذاته تعرض في دقة عجيبة ، وتحديد حاسم ؛ ومع ذلك لا تجور الدقة على الحيوية والجمال ، ولا يجور التحديد على الإيقاع والروعة .

«ولا يمكن أن نصف نحن في أسلوبنا البشري ، ملامح المنهج القرآني . فتبلغ من ذلك ما يبلغه تذوق هذا المنهج . كما أنه لا يمكن أن نبلغ بهذا البحث كله عن «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» شيئاً مما يبلغه القرآن في هذا الشأن . وما نحاول تقديم هذا البحث للناس إلا لأن الناس قد بعدوا عن القرآن ببعدهم عن الحياة في مثل الجو الذي تنزّل فيه القرآن . ولم يعودوا يزاولون تلك الملابسات ، ولا يعانون تلك الاهتمامات التي كان يزاولها ويعانيها من كان يتنزّل عليهم القرآن . بينما يشنون المجتمع المسلم في وجه كل الملابسات القائمة حينذاك والاستمتاع بخصائصه ومذاقاته» . انتهت المقتطفات .

والقرآن يقدم حقائق العقيدة ـــ أحياناً ـــ في مجالات لا يخطر للفكر البشري عادة أن يلم بها ، لأنها ليست من طبيعة ما يفكر فيه عادة أو يلتفت إليه على هذا النحو .

من هذا القبيل ما جاء في سورة الأنعام في تصوير حقيقة العلم الإلهي ومجالاته .

﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾.

فهذه المطارح المترامية ، الخفية والظاهرة ، ليست مما يتوجه الفكر البشري إلى ارتيادها على هذا النحو ؛ وهو في معرض تصوير شمول العلم ، مهما أراد تصوير هذا الشمول . ولو أن فكراً بشرياً هو الذي يريد تصوير شمول العلم لاتجه اتجاهات أخرى تناسب اهتمامات الإنسان وطبيعة تصوراته ....

وإن آية واحدة من القرآن كهذه الآية لما يوحي بأن هذا القرآن ليس من قول البشر . فمثل هذا الخاطر الكوني لا يخطر بطبيعته على قلب بشر . ومثل هذا التصور الكوني لا دوافع إليه من طبيعة تصور البشر ....

كذلك يبدو الطابع الإلهي في هذا القرآن في طريقة استدلاله بأشياء وأحداث مثيرة

صغيرة في ظاهرها ؛ وهي ذات حقيقة ضخمة تناسب الموضوع الذي يستدل بها عليه . كما يبدو في قوله تعالى من سورة الواقعة : ﴿ **نحن خلقناكم فلولا تصدقون . أفرأيتم ما تمنون؟ . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى، فلولا تذكرون** ﴾ ﴿ **أفرأيتم الماء الذي تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون. أفرأيتم النار التي تورون؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ . نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم** ﴾.

إن هذا القرآن يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرورة قضايا كونية كبرى يكشف فيها عن النواميس الإلهية في الوجود ، وينشىء بها عقيدة ضخمة شاملة وتصوراً كاملاً لهذا الوجود ، كما يجعل منها منهجاً للنظر والتفكير ، وحياة للأرواح والقلوب ، ويقظة في المشاعر والحواس . يقظة لظواهر هذا الوجود التي تطالع الناس صباح مساء وهم غافلون عنها ، ويقظة لأنفسهم وما يجري من العجائب والخوارق فيها .

إنه لا يكل الناس إلى الحوادث الفذّة الخارقة ، والمعجزات الخاصة المعدودة . كذلك لا يكلفهم أن يبحثوا عن الخوارق والمعجزات والآيات والدلائل بعيداً عن أنفسهم ، ولا عن مألوف حياتهم ، ولا عن الظواهر الكونية القريبة منهم المعروفة لهم . إنه لا يبعد بهم في فلسفات معقّدة ، أو مشكلات عقلية عويصة ، أو تجارب علمية لا يملكها كل أحد . لكي ينشىء في نفوسهم عقيدة وتصوراً للكون والحياة قائماً على هذه العقيدة .

إن أنفسهم من صنع الله ، وظواهر الكون حولهم من إبداع قدرته ، والمعجزة كامنة في كل ما تبدعه يده . وهذا القرآن قرآنه . ومن ثم يأخذهم إلى هذه المعجزات الكامنة فيهم ، والمبثوثة في الكون من حولهم . يأخذهم إلى هذه الخوارق المألوفة لهم التي يرونها ولا يحسون حقيقة الإعجاز فيها . لأنهم لطول ألفتهم بها غفلوا عن مواضع الإعجاز فيها . يأخذهم إليها ليفتح عيونهم عليها ، فتطّلع على السّر الهائل المكنون فيها . سرّ القدرة المبدعة ، وسرّ الوحدانية المفردة . وسرّ الناموس الأزلي الذي يعمل في كيانهم أنفسهم كما يعمل في الكون من حولهم ، والذي يجعل دلائل الإيمان ؛ وبراهين العقيدة فيبثها في كيانهم ، أو يوقظها في فطرتهم بتعبير أدق .

وعلى هذا المنهج يسير ، وهو يعرض عليهم آيات القدرة المبدعة في خلقهم هم أنفسهم . وفي زرعهم الذي تزاوله أيديهم . وفي الماء الذي يشربون . وفي النار التي

يوقدون وهي أبسط ما يقع تحت أبصارهم من مألوفات حياتهم ، كذلك يصور لهم لحظة النهاية . نهاية الحياة على هذه الأرض وبدء الحياة في العالم الآخر . اللحظة التي يواجهها كل أحد ، والتي تنتهي عندها كل حيلة ، والتي تقف الأحياء وجها لوجه أمام القدرة المطلقة المتصرفة وقفة فاصلة . لا مداورة فيها ولا محال . حيث تسقط جميع الأقنعة وتبطل جميع التعلات .

إن طريقة القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية تدل بذاتها على مصدره . إنه المصدر الذي صدر منه الكون . فطريقة بنائه هي طريقة بناء الكون ، فمن أبسط المواد الكونية تنشأ أعقد الأشكال . وأضخم الخلائق . الذرة يظن أنها مادة بناء الكون ، والخلية يظن أنها مادة بناء الحياة . والذرة على صغرها معجزة في ذاتها ، والخلية على ضآلتها آية في ذاتها . وهنا في القرآن يتخذ من أبسط المشاهدات المألوفة للبشر مادة لبناء أضخم عقيدة دينية وأوسع تصور كوني .. المشاهدات التي تدخل في تجارب كل إنسان : النسل . والزرع والماء . والنار . والموت .. أي إنسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات في تجاربه ؟ أي ساكن كهف لم يشهد نشأة حياة جنينية ، ونشأة حياة نباتية . ومسقط ماء . وموقد نار . ولحظة وفاة ؟..

من هذه المشاهدات التي رآها كل إنسان ينشيء القرآن العقيدة ، لأنه يخاطب كل إنسان في كل بيئة . وهذه المشاهدات البسيطة الساذجة بذاتها هي أضخم الحقائق الكونية ، وأعظم الأسرار الربانية ، فهي في بساطتها تخاطب فطرة كل إنسان وهي في حقيقتها موضوع دراسة أعلم العلماء إلى آخر الزمان ..)

هذا بعض شأن القرآن فمن أين يستطيع الإنسان أن يأتي بسورة من مثل سور القرآن ؟ وكيف يبقى مع هذا الإعجاز شك بهذا القرآن ؟

ولننتقل إلى المجموعة الثانية من المقطع الثاني :

المجموعة الثانية

بعد أن قامت عليهم الحجة في المجموعة الأولى وتبين استحقاقهم للضلال بسبب ما هم عليه من خسة الصفات ، تأتي الآن المجموعة الثانية لتبين قضية ، وتجيب على سؤالين . القضية هي : ما أعد لهم في الدنيا والآخرة :

﴿ ويوم يحشرهم كأن ﴾ أي كأنهم ﴿ لم يلبثوا ﴾ في الدنيا أو في القبور ﴿ إلا

ساعة من النهار ﴾أي يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا أو في قبورهم لهول ما يرون ، والتقدير : ويوم يحشرهم مشبهين بمن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار ﴿ **يتعارفون بينهم** ﴾أي يعرف بعضهم بعضاً كأن لم يتعارفوا إلا قليلا وذلك عند خروجهم من القبور ، ثم ينقطع التعارف بينهم لشدة الأمر عليهم ﴿ **قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله** ﴾وأي خسارة أكبر من خسران الأنفس والأهل ، شبهوا بالتاجر الخاسر لأنهم باعوا الإيمان بالكفر ﴿ **وما كانوا مهتدين** ﴾ في ما ساروا فيه وسلكوه إذ وصلوا إلى النار ﴿ **وإما نرينك بعض الذي نعدهم** ﴾من العذاب أي وإما تنتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم ﴿ **أو نتوفينك** ﴾قبل عذابهم أي إما نرينك بعض الذي نعدهم في الدنيا فذاك ، أو نتوفينك قبل أن نريكه فنحن نريكه في الآخرة ﴿ **فإلينا مرجعهم** ﴾ أي مصيرهم ومنقلبهم ﴿ **ثم الله شهيد على ما يفعلون** ﴾أي والله شهيد على أفعالهم بعدك ، أي وهو يعاقبهم عليها ، فهم إذن لا يفلتون من العقاب الأخروي ، وإن شاء الله أن يعذبهم في الدنيا فعل ، فإنهم يستحقون ذلك ، والآية الثانية أشارت ضمناً أن العذاب الدنيوي لاحق بمن يكذب الرسل ، إما في حياة الرسل ، أو بعد وفاتهم ، تلك سنة الله التي سجلها في الآية اللاحقة ﴿ **ولكل أمة رسول** ﴾أي يبعث إليهم لينبههم على التوحيد ويدعوهم إلى دين الحق ﴿ **فإذا جاء رسولهم** ﴾ بالبينات فكذبوه ولم يتبعوه ﴿ **قضي بينهم** ﴾أي بين الرسول ومكذبيه ﴿ **بالقسط** ﴾ أي بالعدل لا يظلمون ،بل يعذبون عدلاًوينجي الله الرسول ومن صدقه ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾بما عذبوا لأنهم مجرمون ، فليحذر هؤلاء المكذبون عذاب الدنيا والآخرة . وبعض المفسرين اتجه في الآية إلى أنها في الآخرة ومعناها عندهم : ولكل من الأمم يوم القيامة رسول تنسب . إليه وتُدعى به ، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان قضي بينهم بالقسط ، وهم لا يظلمون ، لأنه لا يعذب أحد بغير ذنبه .

كلمة في السياق :

لقد أنذرت الآيات الثلاث وحذّرت ، وعرضت علينا بعض الغيوب التي أخبر عنها القرآن مما سيأتي تأويلها فيما بعد ، فأرتنا سخافة هؤلاء الذين سارعوا إلى التكذيب دون تدبّر وعقل ، مع أن الأمر من الخطورة بمثل هذا الذي ذكرته الآيات ، وبعد الآيات يأتي في المجموعة سؤالان وجوابهما ، إن الكافرين بدلاً من أن يسارعوا إلى التصديق بهذا القرآن وبما أخبر عنه بعد قيام الحجة ، - إنهم بدلاً من ذلك - يسألون سؤال المكذّب والمشكّك ، ومن ثمّ تعرض علينا المجموعة شأنهم

هذا من خلال أسئلتهم :

السؤال الأول وجوابه :

﴿ **ويقولون** ﴾ بعد إذ أخبروا ما أعدّ لهم من العذاب ﴿ **متى هذا الوعد** ﴾ أي وعد العذاب ﴿ **إن كنتم** ﴾ أيها النبي والمؤمنون ﴿ **صادقين** ﴾ أن العذاب نازل ، يسألون هذا السؤال استعجالاً للعذاب واستبعاداً . وقد أمر الرسول ﷺ أن يرد عليهم بالرد الآتي ﴿ **قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله** ﴾ فأنا عبد الله يجري عليّ أمره ومشيئته ، فمتى شاء شيئاً كان ﴿ **لكل أمة أجل** ﴾ أي وقت معلوم للعذاب مكتوب في اللوح المحفوظ ﴿ **إذا جاء أجلهم** ﴾ أي فإذا جاء وقت عذابهم ﴿ **فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾ أي لا يتقدمون ساعة ولا يتأخرون فلا تستعجلون ، فأنا عبد أمين عن الله ما أمر به ، ولا أعلم شيئاً مما استأثر به إلا أن يطلعني الله عليه ، وليس من جواب أوقع في هذا المقام من هذا الجواب . ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم كلاماً آخر ﴿ **قل أرأيتم** ﴾ أي أخبروني ﴿ **إن أتاكم عذابه** ﴾ الذي تستعجلونه ﴿ **بياتاً** ﴾ أي وقت بيات وهو الليل وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون ﴿ **أو نهاراً** ﴾ أي وأنتم مشتغلون بطلب المعاش والكسب ﴿ **ماذا يستعجل منه** ﴾ أي من العذاب ﴿ **المجرمون** ﴾ والمعنى : أن العذاب كله مكروه موجب للنفور ، فأي شيء منه تستعجلونه وليس شيء منه يوجب الاستعجال ؟ والمعنى : أخبروني إذا جاء العذاب ماذا يستعجل منه المجرمون ؟ والجواب : إلا الندامة على الاستعجال ومعرفة الخطأ فيه ﴿ **أثم إذا ما وقع آمنتم به** ﴾ أي إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان ، ويقال لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب تبكيتاً : ﴿ **آلآن وقد كنتم به تستعجلون** ﴾ أي وقد كنتم تستعجلون بالعذاب تكذيباً واستهزاء ﴿ **ثم قيل للذين ظلموا** ﴾ بالكفر والتكذيب والشك والرد ﴿ **ذوقوا عذاب الخلد** ﴾ أي الدوام ﴿ **هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون** ﴾ من الشرك والتكذيب والاستهزاء ، وبهذا ينتهي الجواب الأول منها هؤلاء إن كان هناك من ينتبه وتعقيباً على هذا الجواب يطرحون سؤالاً آخر :

السؤال الثاني وجوابه :

﴿ **ويستنبئونك** ﴾ أي ويستخبرونك فيقولون : ﴿ **أحق هو** ﴾ أي المعاد والقيامة والعذاب أو العذاب الموعود سابقاً ، والتقدير : ويستخبرونك أحق ما وعدتنا من

العذاب والبعث ؟ ولا شك أن سؤالهم على جهة الإنكار والاستهزاء ، أو على جهة الشك ﴿ قل إي وربي ﴾. أي قل نعم والله ﴿ إنه لحق ﴾أي العذاب كائن لا محالة ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾أي بفائتين العذاب وهو لاحق بكم لا محالة ، أو وما أنتم بفائتين الله أن يبعثكم ، فليس صيرورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من عدم ، ثم بيّن لهم هول ما سيصادفونه أمامهم ﴿ ولو أن لكل نفس ظلمت ﴾أي كفرت أو أشركت أي ولو أن لكل نفس ظالمة ﴿ ما في الأرض ﴾أي ما في الدنيا اليوم من خزائنها وأموالها ﴿ لافتدت به ﴾ أي لجعلته فدية لها ، فافتدوا الآن أنفسكم إذن ﴿ وأسرّوا الندامة لمّا رأوا العذاب ﴾أسروا من الأضداد وعلى هذا فتحتمل هنا أنهم يظهرون الندامة ، وتحتمل أنهم يخفونها عجزاً عن النطق لشدة الأمر وهوله ﴿ وقضي بينهم ﴾أي بين الخلائق ﴿ بالقسط ﴾أي بالعدل ﴿ وهم لا يظلمون ﴾شيئاً . ثم يختم الله هذه المجموعة بهذا التقرير : ﴿ ألا إن لله ما في السمٰوات والأرض ﴾فهو المستحق للعبادة وحده ﴿ ألا إن وعد الله حق ﴾أي ثابت وكيف لا تكون مواعيده كذلك وهو رب كل شيء ﴿ ولكن أكثرهم ﴾أي أكثر الناس ﴿ لا يعلمون ﴾ذلك لأنهم جاهلون بالله ﴿هو يُحيي ويميت ﴾ فانتظروا فعله بكم ﴿ وإليه ترجعون ﴾ فيجازيكم . وهكذا ختم الله هذه المجموعة بالتعريف على ذاته الكريمة ، إذ الجهل بها هو سبب كل فساد ، فأخبر أنه مالك السمٰوات والأرض ، وأن وعده حق كائن لا محالة ، وأنه يحيي ويميت وإليه المرجع ، وأنه القادر على ذلك ، العليم بما تفرّق من الأجسام ، وتمزّق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار . وبهذا انتهت المجموعة الثانية ، وانتهى المقطع الثاني من القسم الأول ، وانتهى القسم الأول من سورة يونس ، وقد تقرر فيه أن هذا القرآن لاريب فيه من رب العالمين .

كلمة في السياق:

بعد القسم الأول مباشرة يأتي قوله تعالى ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ فبعد أن عالج القسم الأول الريب يأتي القسم الثاني ليبين بعض خصائص القرآن ، كما يبين ضرورة الاهتداء به

فالقسم الأول كان في قوله تعالى ﴿ ذلك الكتاب لاريب فيه ﴾

والقسم الثاني كان في قوله تعالى ﴿ هدى للمتقين ﴾وقبل أن ننتقل إلى القسم الثاني فلنذكر بعض الفوائد حول المجموعة التي مرّت معنا .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك** ﴾ يذكر ابن كثير حديثاً يرويه الطبراني ليس له علاقة مباشرة في الآية نذكره لما فيه من فائدة :

روى الطبراني عن حذيفة بن أسيد عن النبي ﷺ قال : « عرضت عليّ أمتي البارحة لدى هذه الحجرة أولها وآخرها » فقال رجل : يا رسول الله عرض عليك من خُلق فكيف من لم يخلق ؟ فقال : « صوروا لي في الطين حتى إني لأعرف بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه » .

٢ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿**ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي** ﴾يذكر ابن كثير أنه لم يرد القسم على اليوم الآخر في القرآن إلا في ثلاثة مواطن هذه إحداها . قال ابن كثير : وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد :

في سورة سبأ ﴿ **وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم** ﴾وفي التغابن : ﴿ **زعم الذين كفروا أن لن يُبعثوا قل بلى وربي لتُبعثُنّ ثم لتُنبّؤنّ بما عملتم وذلك على الله يسير** ﴾.

٣ - لاحظنا أن القسم الأول في مقطعيه قد قطع دابر كل شبهة يمكن أن تعرض في أمر هذا القرآن ، وخلال ذلك وعظ وأنذر وحذّر وبشّر ليجمع مع إقامة الحجة على أن القرآن لاريب فيه ، الدعوة إلى الإيمان به ، والآن يأتي القسم الثاني وإذا كان القسم الأول كما قلنا في تفصيل قوله تعالى : ﴿ **ذلك الكتاب لاريب فيه** ﴾فإن القسم الثاني بدايته في تفصيل قوله تعالى : ﴿ **هدى للمتقين** ﴾ ولذلك فهو مبدوء بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين** ... ﴾فبعد أن أقام الله الحجة على الناس جميعاً بأن هذا القرآن لاريب فيه بين لهم جميعاً ما هو هذا القرآن ، وما هي خصائصه . ثم أتبع ذلك بما يناسبه .

فلننتقل إلى القسم الثاني .

القسم الثاني من سورة يونس عليه السلام

يمتد هذا القسم من الآية (٥٧) إلى نهاية الآية (١٠٣)

وهو يتألف من ثلاثة مقاطع ، المقطع الأول فيه حديث عن القرآن، وفيه نماذج على هدايته ، وفيه تصحيح لانحرافات ، والمقطع الثاني : فيه بعض قصص الأنبياء التي تبين أن هذا القرآن ليس بدعاً من الهدى ، والمقطع الثالث : وفيه عودة إلى مناقشة الشك والريب ليكون ذلك مقدمة للقسم الثالث الذي يدعو إلى ترك الشك ، وإلى اتباع الحق ، وبذلك يكون التفصيل لقوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين** ﴾ قد تم .

المقطع الأول من القسم الثاني

ويمتدُّ من الآية (٥٧) إلى نهاية الآية (٧٠) وهذا هو :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى

كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ۝ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ۝ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ۝ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ۝ *

التفسير :

« يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم » أي كتاب فيه ما لكم وما [illegible]
[illegible]

كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١) أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)
الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ
لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ
الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ
إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا
فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا
سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ
سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى
اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ
الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) *

التفسير:

﴿ **يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم** ﴾ أي كتاب فيه ما لكم وما عليكم، قد جعله الله لمن تلاه وتدبره زاجراً عن الفواحش، ومربياً وحاضاً على الخير، وهذا من خصائص هذا القرآن، فإنه تكلم عن كل معنى من المعاني بأسلوب الوعظ، وهذا من مظاهر إعجازه، إن أحداً من البشر لا يستطيع أن يتكلم عن الكون، وعن التشريع، وعن القصة، وعن التاريخ، وعن المستقبل، وعن التربية، بأدق المعاني

وبأسلوب وعظي يصل إلى كل قلب ، فأن يكون هذا القرآن هكذا فهذا وحده دليل على أنه من عند الله ، وأن يكون كذلك فذلك من فضل الله ﴿ **وشفاء** ﴾ أي دواء شاف ﴿ **لما في الصدور** ﴾ أي القلوب من العقائد الفاسدة ، والشبه والشكوك ، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس ، فهذه خاصية ثانية من خواصّ هذا القرآن : أنه مطهِّر للقلب البشري من كل مرض ، فالقلب البشري يمرض بالكفر والشك ، والحقد والحسد وغير ذلك ، هذا القلب في القرآن شفاؤه ، إذا أقبل صاحبه على هذا القرآن بالتلاوة والتدبُّر والرغبة الصادقة ﴿ **وهدى ورحمة للمؤمنين** ﴾ أي ومن خصائصه أنه هدى ، وأنه رحمة ، ولكن للمؤمنين المصدِّقين ، فهؤلاء الذين تحصل لهم الهداية ، وتنالهم الرحمة به ، فهم المستفيدون الوحيدون به ومنه ، وهذا كذلك من خصائص هذا القرآن ، فإن الإنسان يأخذ منه على قدر استعداده وإيمانه ، أما الكافرون والمنافقون فليس لهم في هذا القرآن نصيب ﴿ **قل بفضل الله** ﴾ الذي مظهره الهداية للإيمان والإسلام ﴿ **وبرحمته** ﴾ أي القرآن ﴿ **فبذلك فليفرحوا** ﴾ أي بهذا الذي منّ الله عليهم به من الهدى ودين الحق والكتاب الهادي فليفرحوا ؛ فإنه أولى ما يفرحون به ﴿ **هو خير مما يجمعون** ﴾ أي من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة ، وهذا أدب عظيم لا يتحقق به إلا الموفّقون الذين عرفوا القيمة الحقيقية للأشياء ، أما الذين طاش لديهم الميزان فيعطون السعر الكبير لذي القيمة الحقيرة ، والسعر الرخيص لذي القيمة الكبيرة ، فهؤلاء بعيدون عن التوفيق وبعيدون عن حقيقة الإيمان .

أخرج ابن أبي حاتم عن أيفع بن عبد الكلاعي قال : لما قدم خراج العراق إلى عمر رضي الله عنه خرج عمر ومولى له فجعل عمر يعدّ الإبل فإذا هي أكثر من ذلك ، فجعل عمر يقول : الحمد لله تعالى . ويقول مولاه : هذا والله من فضل الله ورحمته ، فقال عمر : كذبت ليس هذا هو الذي يقول تعالى ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته** ﴾ الآية ، وهذا مما يجمعون . رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني ، فانظر هداك الله إلى نظرات الموفّقين وتقييمهم للأشياء واقتد بها ولا يَسْرِيَنَّ إلى قلبك داء العصر (المادية) أي حب الدنيا والركون إليها ، والاطمئنان إليها ، وجعلها المقياس الوحيد ، ومن هذا المقام ندرك الفارق الكبير بين التصور الإسلامي والتصورات الكافرة المعاصرة . إن أضخم دولتين في العالم الآن الاتحاد السوفيتي وأمريكا ، يقوم مجتمعهما على فلسفة مادية بحتة ؛ تقيِّم الأشياء من خلال مردودها المادي . الاتحاد السوفيتي ينطلق من الفلسفة الماركسية التي تعتبر الإنتاج هو كل شيء ، والاقتصاد هو كل شيء في حياة البشر . والمجتمع الأمريكي يقوم على فلسفة البراجماتزم : أي فلسفة

المنفعة ، وهي تعني أن قيمة الشيء بقدر ما يقدم من نفع مادي للإنسان . وشتان بين هذا كله وبين تربية القرآن .

فإذا استقر ما مرّ - وهو أن هذا القرآن هدى للمؤمنين - فماذا يترتب على ذلك ؟ يترتب على ذلك أن لا يتلقى الإنسان في باب التشريع ، أو في باب العقائد والتصورات ، إلا عن الله ، ويترتب على ذلك أن يصوغ الإنسان نفسه صياغة قرآنية كاملة ، ولذلك نلاحظ أن الله أمر رسوله عليه الصلاة والسلام أن يصحح فيما يأتي مفاهيم ، وفيما بين التصحيحات قرر الله تقريرات ، وفي التصحيحات والتقريرات نرى نموذجاً على كون القرآن موعظة وشفاء وهدى ورحمة . فلنر بقية المقطع :

﴿ **قل أرأيتم** ﴾ أي أخبروني ﴿ **ما أنزل الله** ﴾ أي خلق ﴿ **لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً** ﴾ أي حرّمتم وأحللتم بمجرد الأهواء والآراء التي لا مستند عليها ولا دليل ، والرزق رزقه ، والمال ماله ، والملك ملكه ، فهو الذي يحرّم ويحلّ ، وعنه يتلقى التحريم والتحليل ، وكل تحريم وتحليل غير متلقى عنه فهو باطل ، وكذب وافتراء ﴿ **قل الله أذن لكم** ﴾ في ذلك التحريم والتحليل ؟ ﴿ **أم** ﴾ أي بل ﴿ **على الله تفترون** ﴾ أي تكذبون بنسبة ذلك إليه ﴿ **وما ظنّ الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة** ﴾ أي ما ظن هؤلاء الذين يحرّمون ويحلّلون بأهوائهم ، مفترين على الله أن يصنع الله لهم يوم مرجعهم إليه يوم القيامة ، أيحسبون أنه لا يعاقبهم وهم يكذبون عليه . لا ، بل سينالون جزاء أعمالهم ﴿ **إن الله لذو فضل على الناس** ﴾ إذ أحل لهم ما ينفعهم وحرّم ما يضرهم ، وأمهل الظالمين ﴿ **ولكن أكثرهم لا يشكرون** ﴾ بالأخذ عن الله ، وتطبيق شرع الله ، والإقبال على الله ، وتسخير ما أعطى الله في طاعة الله ، وبعد هذا التصحيح لمفهوم التحليل والتحريم ، وأنه لا يجوز أن يكون تحليل أو تحريم إلا من الله ، وأن كل تحليل غير ذلك كذب وافتراء على الله ، يذكّر الله ويعظ ويبشر ﴿ **وما تكون في شأن** ﴾ أي في أمر ﴿ **وما تتلوا منه** ﴾ أي من الشأن أو من الله ﴿ **من قرآن وما تعملون من عمل إلا كنّا عليكم شهوداً** ﴾ أي رقباء ﴿ **إذ تفيضون** ﴾ أي تأخذون ﴿ **فيه** ﴾ أي العمل ﴿ **وما يعزب** ﴾ أي يغيب ﴿ **عن ربك من مثقال** ﴾ أي وزن ﴿ **ذرة** ﴾ أصغر جزء متكامل من المادة ﴿ **في الأرض ولا في السماء** ﴾ وذكرهما دليل على إحاطة علمه تعالى ﴿ **ولا أصغر من ذلك** ﴾ كالألكترون أو البروتون أو النيوترون ﴿ **ولا أكبر** ﴾ كالجزيء وما هو أكبر ﴿ **إلا في كتاب مبين** ﴾ أي بيّن وهو اللوح

المحفوظ ، أخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم أحواله وأحوال أمته ، وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة ، وأنه لا يغيب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات والأرض ولا أصغر منها ولا أكبر ، إلا في كتاب ، فمن كان كذلك فهو أهل الخشية وأهل التقوى ، وأهل لأن يُتلقى عنه في التحليل والتحريم ، وأهل لأن يعبد وحده ، ولذلك عقب هذه الآية بقوله ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم** ﴾ أي فيما يستقبلونه من أحوال الآخرة ﴿ **ولا هم يحزنون** ﴾ على ما وراءهم من الدنيا ، ثم فسّر تعالى من هم أولياؤه فقال : ﴿ **الذين آمنوا** ﴾ بكل ما يجب الإيمان به ﴿ **وكانوا يتقون** ﴾ الله بامتثال أمره ونهيه ، فمن كان تقياً كان لله ولياً ولا ولاية إلا بهذا ، فبحسبنا المنحرفون عن أمر الله المفرطون في تطبيق شرعه ﴿ **لهم البشرى في الحياة الدنيا** ﴾ هي الرؤيا الصالحة للرجل الصالح ، يراها أو ترى له - كما سنرى - أو بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة ﴿ **وفي الآخرة** ﴾ عندما تتلقاهم مبشرة : ﴿ **هذا يومكم الذي كنتم توعدون** ﴾.. ﴿ **بشراكم اليوم جنات...** ﴾ ﴿ **لا تبديل لكلمات الله** ﴾ أي لا خلف لمواعيده أي هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغيّر ، بل هو مقرّر مثبت كائن لا محالة ﴿ **ذلك** ﴾ أي المذكور ﴿ **هو الفوز العظيم** ﴾ وبعد أن بيّن الله عز وجل أن أولياءه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وجّه لرسوله ﷺ نهياً عن نوع من الحزن على ما عند الناس من عقائد أهل الكفر وأقوالهم وكلامهم وما يجهرون من ذلك فقال : ﴿ **ولا يحزنك قولهم** ﴾ أي قول هؤلاء الكافرين والمشركين ، أي اعتقاداتهم ، وما يجهرون به ، وما يؤذون به ، مبيناً له ﴿ **إن العزة لله جميعاً** ﴾ أي فاستعن بالله ، وتوكل عليه وثق به فإن له العزة : أي القوة كلها ، وقد جعلها لرسوله ﷺ وللمؤمنين ﴿ **هو السميع** ﴾ لأقوال عباده ﴿ **العليم** ﴾ بأحوالهم فيجازيهم ، وينصرك في الدنيا والآخرة ، ثم عرض الله عز وجل نماذج من أقوال هؤلاء الكافرين مفنداً إياها ، مبيناً كذبها من خلال تقرير العقيدة الحق ﴿ **ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض** ﴾ عبيداً وملكاً وخلقاً ، فالكل ملكه ﴿ **وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء** ﴾ أي والمتبوعون الذين يعبدهم المشركون من دون الله هم كذلك مملوكون لله ، وإذ كان الأمر كذلك فكيف يكون هؤلاء شركاء لله ؟ ومَنْ أخبر المشركين أن آلهتهم شريكة لله في ألوهيته وربوبيته ؟ الحقيقة أن المشركين يعبدون مالا دليل لهم على عبادته ، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرصهم وكذبهم وإفكهم ﴿ **إن** ﴾ أي ما ﴿ **يتبعون** ﴾ في ذلك ﴿ **إلا الظن** ﴾ أي ظنهم أنها آلهة تشفع لهم ﴿ **وإن** ﴾ أي وما ﴿ **هم إلا**

يخرصون ﴾ أي يكذبون في ذلك ، ثم أخبر تعالى أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه أي يستريحون فيه من تعبهم وكلالهم وحركاتهم ، والنهار مبصراً مضيئاً لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم ، فمن كان كذلك كيف يشرك به ؟ ﴿ **هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن في ذلك لآيات** ﴾ أي لدلالات على وحدانيته ﴿ **لقوم يسمعون** ﴾ أي يسمعون سماع تدبّر واتعاظ لهذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها ، ويستدلون على عظمة خالقها ومقدّرها ومسيّرها ، ثمّ عرض الله نموذجاً على أقوالهم الفاسدة ﴿ **قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني** ﴾ أي تقدّس عن ذلك ؛ هو الغني عن كل ما سواه ، وكل شيء إليه فقير ، والولد مظهر من مظاهر الافتقار والحاجة ، فإنما يَطلب الولد مَن يحتاج إليه ﴿ **له ما في السموات وما في الأرض** ﴾ فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شيء مملوك له عبد له ! ﴿ **إن** ﴾ أي ما ﴿ **عندكم من سلطان** ﴾ أي حجة ﴿ **بهذا** ﴾ الذي تقولون . ﴿ **أتقولون على الله مالا تعلمون** ﴾ أي ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان ، فكيف تتقوّلون على الله بلا علم ، وهو إنكار ووعيد أكيد ، وتهديد شديد وتوبيخ لهم . ثم أوعد الله هؤلاء المفترين عليه ، الناسبين له ما يليق به . ﴿ **قل إن الذين يفترون على الله الكذب** ﴾ بنسبة الولد له وغير ذلك . ﴿ **لا يفلحون** ﴾ أي لا يسعدون ، ثم بيّن وجه عدم فلاحهم ﴿ **متاع في الدنيا** ﴾ أي لهم متاع قليل في الدنيا يتمتعون به طول حياتهم . ﴿ **ثم إلينا مرجعهم** ﴾ بالموت ﴿ **ثم نذيقهم العذاب الشديد** ﴾ أي المؤلم الموجع ﴿ **بما كانوا يكفرون** ﴾ أي بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله ، فيما ادّعوه من الإفك والزور . وبهذا انتهى المقطع بعد أن قرر الله فيه كذب الذين يخرّصون - بدون علم — ويعتقدون عقيدة الشرك ، وينسبون إليه ولداً . وبيّن الحق في صفاته ووحدانيته ، وذكّر برحمته بأوليائه ، وذلك كله بأبلغ درجات الوعظ ، فكان ذلك نموذجاً على كيفية كون هذا القرآن موعظة وشفاء وهدى ورحمة .

وهكذا بيّن الله عز وجل في هذا المقطع خصائص القرآن ، ثمّ بيّن ما يترتب على كون القرآن له هذه الخصائص ، وهو الاهتداء به في أمر التحليل والتحريم ، وفي أمر التصورات والمواقف ، وفي أمر العقائد اعتقاداً وشعوراً . وقبل أن ننتقل إلى المقطع الثاني فلننقل فوائد لها علاقة بهذا المقطع .

فوائد:

١ - بمناسبة قوله تعالى عن القرآن: ﴿ **وشفاء لما في الصدور** ﴾ يقول صاحب الظلال: « إن هذا القرآن شفاء لما في الصدور بكل معنى من معاني الشفاء، إنه يدبُّ في القلوب فعلاً دبيب الشفاء في الجسم المعلول. يدبّ فيها بإيقاعه ذي السلطان الخفي العجيب. ويدبّ فيها بتوجيهاته التي توقظ أجهزة التلقي الفطرية، فتهتز وتتفتح وتتلقى وتستجيب. ويدبّ فيها بتنظيماته وتشريعاته التي تضمن أقل احتكاك ممكن بين المجموعات البشرية في الحياة اليومية. ويدبّ فيها بإيحاءاته المطمئنة التي تكسب الطمأنينة في القلوب إلى الله، وإلى العدل في الجزاء، وإلى غلبة الخير، وإلى حسن المصير.

وإنها لعبارة تثير حشداً من المعاني والدلائل، تعجز عنها لغة البشر ويوحي بها هذا التعبير العجيب.

٢ - وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا** ﴾ قال صاحب الظلال: فبهذا الفضل الذي آتاه الله عباده، وبهذه الرحمة التي أفاضها عليهم من الإيمان. فبذلك وحده فليفرحوا. فهذا هو الذي يستحق الفرح لا المال ولا أعراض هذه الحياة. إن ذلك هو الفرح العلوي الذي يطلق النفس من عقال المطامع الأرضية والأعراض الزائلة، فيجعل هذه الأعراض خادمة للحياة لا مخدومة؛ ويجعل الإنسان فوقها وهو يستمتع بها لا عبداً خاضعاً لها. والإسلام لا يحقّر أعراض الحياة الدنيا ليهجرها الناس ويزهدوا فيها. إنما هو يَزِنها بوزنها ليستمتع بها الناس وهم أحرار الإرادة طُلقاء اليد، مطمحهم أعلى من هذه الأعراض، وآفاقهم أسمى من دنيا الأرض. والإيمان عندهم هو النعمة، وتأدية مقتضيات الإيمان هي الهدف. والدنيا بعد ذلك مملوكة لهم لا سلطان لها عليهم.

هكذا كان الرعيل الأولون ينظرون إلى قيم الحياة. كانوا يعدّون الفضل الأول والرحمة الأولى هي ما جاءهم من الله من موعظة وهدى. فأما المال، وأما الثراء، وأما النصر ذاته فهو تابع. لذلك كان النصر يأتيهم، وكان المال ينثال عليهم، وكان الثراء يطلبهم .. إن طريق هذه الأمة واضح. إنه في هذا الذي يسنه لها قرآنها، وفي سيرة الصدر الأول فهموه من رجالها. هذا هو الطريق.

إنّ الأرزاق المادية، والقيم المادية، ليست هي التي تحدّد مكان الناس في هذه الأرض، في الحياة الدنيا فضلاً عن مكانهم في الحياة الأخرى. إن الأرزاق المادية،

والتيسيرات المادية ، والقيم المادية ، يمكن أن تصبح من أسباب شقوة البشرية ــ لا في الآخرة المؤجلة ولكن في هذه الحياة الواقعة ــ كما نشهد اليوم في حضارة المادة الكالحة . إنه لابد من قيم أخرى تحكم الإنسانية ، وهذه القيم الأخرى هي التي يمكن أن تعطي للأرزاق المادية والتيسيرات المادية قيمتها في حياة الناس ؛ وهي التي يمكن أن تجعل منها مادة سعادة وراحة لبني الإنسان .

إن المنهج الذي يحكم حياة مجموعة من البشر هو الذي يحدد قيمة الأرزاق المادية في حياتهم . هو الذي يجعلها عنصر سعادة أو عنصر شقاء . كما يجعلها سبباً للرقي الإنساني أو مزلقاً للارتكاس .

ومن هنا كان التركيز على قيمة هذا الدين في حياة أهله . والذين يركّزون على القيم المادية ، وعلى الإنتاج المادي ، ويغفلون تلك القيمة الكبرى الأساسية ، هم أعداء البشرية الذين لا يريدون لها أن ترتفع على مستوى الحيوان وعلى مطالب الحيوان .

وهم لا يطلقونها دعوة بريئة ، ولكنهم يهدفون من ورائها إلى القضاء على القيم الإيمانية ، وعلى العقيدة التي تعلق قلوب الناس بما هو أرفع من مطالب الحيوان ــ دون أن تغفل ضروراتهم الأساسية ــ وتجعل لهم مطالب أساسية أخرى إلى جوار الطعام والمسكن والجنس التي يعيش في حدودها الحيوان .

وهذا الصياح المستمر بتضخيم القيم المادية ، والإنتاج المادي ؛ بحيث يطغى الانشغال به على حياة الناس وتفكيرهم وتصوراتهم كلها . وبحيث يتحول الناس إلى آلات تلهث وراء هذه القيمة ، وتعدّها قيمة الحياة الكبرى ؛ وتنسى في عاصفة الصياح المستمر .. الإنتاج .. الإنتاج .. كل القيم الروحية والأخلاقية وتدوس هذه القيم كلها في سبيل الإنتاج المادي .. هذا الصياح ليس بريئاً ؛ إنما هو خطة مدبّرة لإقامة أصنام تُعبد بدل أصنام الجاهلية الأولى ، وتكون لها السيادة العليا على القيم جميعاً .

وعند ما يصبح الإنتاج المادي صنماً يكدح الناس حوله ويطوفون به في قداسة الأصنام ؛ فإن كل القيم والاعتبارات الأخرى تداس في سبيله وتنتهك الأخلاق . الأسرة . الأعراض . الحريات . الضمانات .. كلها .. كلها إذا تعارضت مع توفير الإنتاج يجب أن تداس . فماذا تكون الأرباب والأصنام إن لم تكن هي هذه ؟ إنه ليس من الحتم أن يكون الصنم حجراً أو خشباً . فقد يكون قيمة واعتباراً ولافتة ولقباً .

إن القيمة العليا يجب أن تبقىٰ لفضل الله ورحمته المتمثلين في هداه ، الذي يشفي الصدور ، ويحرر الرقاب ، ويعلي من القيم الإنسانية في الإنسان . وفي ظل هذه القيمة العليا يمكن الانتفاع برزق الله الذي أعطاه للناس في الأرض ؛ وبالتصنيع الذي يوفر الإنتاج المادي ؛ وبالتيسيرات المادية التي تقلل من شدة الكدح ؛ وبسائر هذه القيم التي تدق الجاهلية حولها الطبول في الأرض وبدون وجود تلك القيمة العليا وسيادتها تصبح الأرزاق والتيسيرات والإنتاج لعنة يشقىٰ بها الناس ، لأنها يومئذ تستخدم في إعلاء القيم الحيوانية والآلية ، على حساب القيم الإنسانية العلوية .

٣ ــ وصف الله عز وجل أولياءه بأنهم الذين اجتمع لهم :الإيمان والتقوى ، ولأصحاب هذه المقامات علامات ، هي أثر عن تحققهم بمقامات الولاية ، وهذه نصوص تدلّ على هذه السّمات :

قال عبد الله بن مسعود وابن عباس ، وغير واحد من السلف (أولياء الله الذين إذا رؤوا ذُكِرَ) الله ، وقد ورد هذا في حديث مرفوع كما روى البزار ... عن ابن عباس قال : قال رجل يا رسول الله : مَن أولياء الله ؟ قال : « الذين إذا رؤوا ذكر الله » وروى ابن جرير .. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن من عباد الله عبادا يغبطهم الأنبياء والشهداء » قيل مَن هم يا رسول لعلنا نحبهم ؟ قال : « هم قوم تحابّوا في الله من غير أموال ولا أنساب ، وجوههم نور ، على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس . ولا يحزنون إذا حزن الناس » ثم قرأ ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ورواه أيضاً أبو داود بإسناد جيد . وفي حديث الإمام أحمد .. عن أبي مالك والأشعري قال : قال رسول الله ﷺ « يأتي من أفناء الناس ، نوازع القبائل قوم لم تتصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابّوا في الله ، وتصادقوا في الله ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور ، فيجلسهم عليها ، يفزع الناس ولا يفزعون ، هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

أقول : في موضوع الولاية وقعت أخطاء كثيرة وانحرافات خطيرة ، وعلىٰ بذلك أقوام كثيرون حتى كفروا ، واعتمد كثيرون من الناس قواعد في موضوع الولاية لا أصل لها ، وللألوسي تحقيق في هذا المقام ننقله لما فيه من فوائد :

قال الألوسي : (وبالجملة متى رأينا الشخص مؤمناً متقياً حكمنا عليه بالولاية نظراً لظاهر الحال ، ووجب علينا معاملته بما هو أهله من التوقير والاحترام ، غير غالين فيه

بتفضيله على رسول أو نبي أو نحو ذلك مما عليه العوام اليوم في معاملة من يعتقدونه ولياً التي هي أشبه شيء بمعاملة المشركين من يعتقدونه إلهاً نسأل الله تعالى العفو والعافية . ولا يشترط فيه صدور كرامة على يده ، كما يشترط في الرسول صدور معجزة ، ويكفيه الاستقامة كرامة ، كما يدل عليه ما اشتهر عن أبي يزيد رحمه الله : بل الولي الكامل لا التفات له إليها ، ولا يودّ صدورها على يده ، إلا إذا تضمنت مصلحة للمسلمين خاصة أو عامه . وفي الجواهر والدرر للشعراني سمعت شيخنا يقول : إذا زلّ الولي ولم يرجع لوقته عوقب بالحجاب ، وهو أن يحبب إليه إظهار خرق العوائد المسماة في لسان العامة كرامات ، فيظهر بها ويقول : لو كنت مؤاخذاً بهذه الزلة لقبض عني التصرُّف ، وغاب عنه أن ذلك استدراج ، بل ولو سلم من الزلة ، فالواجب خوفه من المكر والاستدراج ، وقال بعضهم : الكرامة حيض الرجال ، ومن اغتر بالكرامات بالكرى مات . وأضرّ الكرامات للولي ما أوجب الشهرة فإن الشهرة آفة ، وقد نقل عن الخوّاص : أنها تنقص مرتبة الكمال ، وأيد ذلك بالأثر المشهور « خص بالبلاء من عرفه الناس » نعم ذكر في أسرار القرآن أن الولاية لا تتم إلا بأربعة مقامات : الأول : مقام المحبة ، والثاني : مقام الشوق ، والثالث : مقام العشق ، والرابع : مقام المعرفة ، ولا تكون المحبة إلا بكشف الجمال ، ولا يكون الشوق إلا باستنشاق نسيم الوصال ، ولا يكون العشق إلا بدنو الأنوار ، ولا تكون المعرفة إلا بالصحبة ، ولحصول ذلك آثار وعلامات مذكورة فيه ، فليراجعه من أرادها ؛ والكلام في هذا المقام كثير ، وكُتب القوم ملأى منه ، وما ذكرناه كفاية لغرضنا . وأحسن ما يعتمد عليه في معرفة الولي اتباعه الشريعة الغراء ،وسلوك المحجة البيضاء . فمن خرج عنها قيد شبر بَعُدَ عن الولاية بمراحل . فلا ينبغي أن يطلق عليه اسم الولي ولو أتى بألف ألف خارق ، فالولي الشرعي اليوم أعز من الكبريت الأحمر . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نسائها)

٤ – مما يساعد على فهم قوله تعالى ﴿ لهم البشرىٰ في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ هذه النقول :

روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿**لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة**﴾ قال : « الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له » .

روى ابن جرير عن أبي الدرداء في قوله تعالى ﴿**لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة**﴾ قال : سأل رجل أبا الدرداء عن هذه الآية فقال : لقد سألت عن شيء ما سمعت أحداً سأل عنه بعد رجل سأل عنه رسول الله ﷺ فقال : « هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم أو ترىٰ له ، وهي جزء من أربعة وأربعين - أو سبعين - جزءاً من النبوة » .

وروى الإمام أحمد ... عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال : ﴿ **لهم البشرى في الحياة الدنيا** ﴾ قال :«الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن جزء من تسعة وأربعين جزءاً من النبوة ، فمن رأى ذلك فليخبرها ، ومن رأى سوى ذلك فإنما هو من الشيطان ليحزنه فلينفث عن يساره ثلاثا ، وليكبر ، ولا يخبر بها أحداً » .

وروى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ﴿**لهم البشرى في الحياة الدنيا** ﴾ الرؤيا الصالحة التي يبشرها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » .

وروى ابن جرير عن أبي هريرة أنه قال : « الرؤيا الحسنة بشرى من الله وهي من المبشرات »

وروى ابن جرير عن أم كريز الكعبية أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ذهبت النبوات وبقيت المبشرات » .

وهناك اتجاه لتفسير معنى البشرى بيّنه ماجاء في حديث البراء رضي الله عنه : أن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب ، فقالوا : أخرجي أيتها الروح الطيبة ، إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان ، فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء . وهناك اتجاه ثالث لمعنى البشرى ورد في حديث أبي ذر التالي :

وروى الإمام أحمد ... عن أبي ذر أنه قال : يا رسول الله الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ، ويثنون عليه به فقال رسول الله ﷺ « تلك عاجل بشرى المؤمن » ورواه مسلم .

٥ ـــ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً** ﴾ يقول صاحب الظلال : (والمنهج القرآني يستخدم المشاهد الكونية كثيراً في معرض الحديث عن قضية العبودية . ذلك أن هذا الكون بوجوده وبمشاهده شاهد ناطق للفطرة

لا تملك لمنطقه رداً . كذلك يخاطب الناس بما في علاقتهم بهذا الكون من تناسق . وهم يجدون هذا في حياتهم فعلاً . فهذا الليل الذي يسكنون فيه ، وهذا النهار الذي يبصرون به ، هما ظاهرتان كونيتان شديدتا الاتصال بحياتهم . وتناسق هذه الظواهر الكونية مع حياة الناس يحسونه هم — ولو لم يتعمقوا في البحث و « العلم » . ذلك أن فطرتهم الداخلية تفهم عن هذا الكون لغته الخفية .

وهكذا لم يكن البشر في عماية عن لغة الكون حتى جاءتهم « العلوم الحديثة » لقد كانوا يفهمون هذه اللغة بكينونتهم كلها . ومن ثم خاطبهم بها العليم الخبير منذ تلك القرون . وهي لغة متجددة بتجدد المعرفة ، وكلما ارتقى الناس في المعرفة كانوا أقدر على فهمها ، متى تفتّحت قلوبهم بالإيمان ، ونظرت بنور الله في هذه الآفاق)

كلمة في السياق :

ناقشت السورة حتى الآن الشك في القرآن من ناحيتين : **أولاً**: من ناحية ما ادّعاه الكافرون : أن الله أعظم من أن ينزل وحياً ، وبالتالي فهذ القرآن ليس وحيه ، وفنّدت ذلك ، **وثانياً** من ناحية كون الرسول ﷺ مفتريا على الله بنسبة هذا القرآن إليه ، وفنّدت ذلك . وإذ تبين أن هذا القرآن لاشك فيه أنه من عند الله ، فقد بيّن الله عز وجل خصائص كتابه ممتناً على خلقه بأن أنزل لهم هذا القرآن ، والآن يأتي مقطعان من القسم الثاني :**الأول**: يقصّ علينا قصة نوح ومن جاء بعده من الرسل عليهم السلام ، ثم قصة موسى وهارون عليهما السلام ، وهذه القصص في هذا المقام نموذج على أن الله قد أرسل رسلاً قبل محمد ﷺ ، وأنزل عليهم وحياً ، وقد بشروا وأنذروا ، فكأن الله عز وجل بعد أن أقام الحجة على نفي العجب أن يرسل رسولاً ، يضرب الأمثال هنا على أن إرسال محمد ﷺ ليس بدعاً . ثم يأتي المقطع الأخير من القسم الثاني ليناقش الشك بهذا القرآن ، وبهذا الرسول مرة ثانية ، ليختم السورة بالدعوة إلى اتّباع القرآن وترك الشك . وبهذا تختم السورة بعد أن فصلّت أن هذا القرآن لاريب فيه ، وأن فيه الهدى فليهتدوا . وهذا هو المقطع الثاني من القسم الثاني :

المقطع الثاني من القسم الثاني

ويمتد هذا المقطع من الآية (٧١) إلى نهاية الآية (٩٣)

كلمة بين يدي هذا المقطع:

١ ـ فيما مضى من السورة ذكر الله ناساً يتعجّبون من أن ينزل الله وحياً ويرسل رسولًا ، وقد فنّد الله مزاعم هؤلاء ، وفي هذا المقطع يقصّ الله علينا قصص رُسل بعثوا ، وفي ذلك تفنيد من نوع ثان لمن يكذب بالوحي وببعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام

٢ ـ وفيما مرّ من السورة حذّر الله وأنذر من يكذب الرسل بالعذاب الدنيوي قبل الأخروي ، وفي هذا المقطع يقصّ الله علينا من أنباء أقوام كذّبوا فعُذّبوا

٣ ـ وفيما مرّ من السورة بشر الله عز وجل أهل الإيمان في الدنيا والآخرة ، وفي هذا المقطع يقصّ الله علينا كيف تكون عاقبة أهل الإيمان حميدة :

فقال عن نوح عليه السلام : ﴿ **فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف** ﴾ ، وختم المقطع بقوله : ﴿ **ولقد بوّأنا بني إسرائيل مبَوأ صدق ورزقناهم من الطيبات** ﴾

وفي المقطع نماذج من الهدى وهذا هو المقطع :

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم

بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ

رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

التفسير:

﴿ **واتل عليهم** ﴾ أي أخبرهم واقصص عليهم ﴿ **نبأ نوح** ﴾ أي خبره مع قومه كيف ذكّرهم وأنذرهم ، فكذّبوه ؛ فأهلكهم الله ودمّرهم بالغرق عن آخرهم ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك ، وليعلموا أنها سنة الله أن يرسل رسلًا مبشرين ومنذرين ، فلا يتعجبون من إرسالك ﴿ **إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبُرَ عليكم** ﴾ أي عظم وشقّ عليكم ﴿ **مقامي** ﴾ أي لبثي فيكم بين أظهركم ﴿ **وتذكيري** ﴾ أي وعظي إياكم ﴿ **بآيات الله** ﴾ أي بحججه وبراهينه ﴿ **فعلى الله توكلت** ﴾ فإني لا أبالي ولا أكف عنكم ، سواء عظم عليكم أو لا ﴿ **فأجمعوا أمركم**

وشركاءكم ﴾أي فاعزموا أمركم مع شركائكم على أمر تفعلونه بي ﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ﴾أي مستوراً ، أظهروه وجاهروني به ﴿ ثم اقضوا إلي ﴾أي امضوا فيما أردتموه ﴿ ولا تنظرون ﴾أي تمهلون فإني لست مبالياً بكم ، أي مهما قدرتم فافعلوا فإني لا أباليكم ، ولا أخاف منكم لأنكم لستم على شيء ﴿ فإن توليتم ﴾أي كذبتم وأدبرتم عن تذكيري ، وعن تقوى الله وطاعتي ﴿ فما سألتكم من أجر ﴾أي ثواب أي لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئاً ﴿ إن أجري إلا على الله ﴾أي ما ثوابي إلا على ربي ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾أي وأنا متمثل ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل ، الذي هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم ، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهلهم ﴿ فكذبوه فنجيناه ومن معه ﴾أي على دينه ﴿ في الفلك ﴾أي السفينة ﴿ وجعلناهم ﴾هو ومن معه ﴿ خلائف ﴾أي في الأرض ﴿ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾ بالطوفان ﴿ فانظر ﴾أي يا محمد ، وكذلك أيها المخاطب ﴿ كيف كان عاقبة المنذرين ﴾أي كيف كانت نهايتهم من الإهلاك ، فكذلك نفعل بمن كذب الرسل وأنتم منهم ، ومن خلال السياق ندرك حكمة مجيء هذه القصة . محمد ﷺ أرسل مأموراً أن ينذر الناس ، وقد أنذر ، فكان موقف الناس العجب أن يرسل الله رسولاً . فهذه القصة تبين أن أمر الإنذار جد ، وأن عاقبة المنذرين – إذا لم يؤمنوا – رهيبة في الدنيا فضلاً عن الآخرة – ، وأن عجب الكافرين في غير محله ، لأن الله من سنته العصور أن يرسل رسلاً .

كلمة في القصة القرآنية:

نلاحظ هنا أنه جاءت قصة نوح عليه السلام ، ثم قصة موسى عليه السلام وفرعون ، ومن قبل هذه في سورة الأعراف ذكرت قصة نوح ، وقصة موسى مع فرعون ، وستتكرر قصة موسى وفرعون ، وقصة نوح أكثر من مرة في القرآن ، مرة بشكل مطول ، ومرة بشكل مختصر فلم تتكرر القصة الواحدة ؟ أذكر ههنا شيئين :

الأول: إن كل مكان ترد فيه فإنها تخدم سياق السورة التي وردت فيها موضوعها ومحلها في الترتيب القرآني . وقد لاحظنا هنا أن قصة نوح خدمت السياق العام لسورة يونس ، وهو نفي العجب ، وجدية الإنذار كجزء من معالجة الشك في القرآن ، بينما قصة نوح في سورة الأعراف خدمت سياق سورة الأعراف في قضية إنزال الهدى وموقف الناس منه وعاقبة ذلك . وهكذا في كل مكان ، فإن القصص تخدم سياق السورة وموضوعها العام

ومحورها في الترتيب القرآني الكبير .

الثاني: إن القرآن الذي من خصائصه - كما ذكرت هذه السورة - أنه ﴿ **موعظة من ربكم** ﴾ هذا القرآن تأتي القصة فيه في إطار تحقيق العظة ، والقصة الواعظة ترد مرة في السورة الطويلة ، ومرة في السورة المتوسطة ، ومرة في السورة القصيرة ، ومرة في قسم ، ومرّة - أو مرتين أو أكثر - في قسم آخر ليأخذ التالي من حيث تلا العظة من الحادثة البليغة ، فإذا استقر هذان الشيئان في الذهن نقول : إن قصة نوح عليه السلام في هذا المقام تخدم سياق سورة يونس : فهي تخدم نفي العجب عن إرسال الرسول المنذر ، وهي تخدم قضية كون القرآن موعظة وهدى ، وهي تخدم قضية شفاء القلب من الشك - كما سنرى - وهي في الوقت نفسه تربي المؤمن على المواقف الصحيحة تجاه الكافرين ، وهي المواقف التي تمليها الإيمان بالوحي المنزّل .

فائدة:

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأمرت أن أكون من المسلمين** ﴾ يذكر ابن كثير أنّ الإسلام هو دين كل رسول وكل نبي ، ويذكر أدلة ذلك من القرآن فيقول : (كما قال تعالى ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً** ﴾ (المائدة : ٤٨) قال ابن عباس : سبيلاً وسنة ، فهذا نوح يقول : ﴿ **وأمرت أن أكون من المسلمين** ﴾ وقال تعالى عن إبراهيم الخليل : ﴿ **إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ (البقرة ١٣١ ، ١٣٢) وقال يوسف : ﴿ **رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين** ﴾ (يوسف : ١٠١) وقال موسى : ﴿ **يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾ وقالت السحرة ﴿ **ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين** ﴾ (الأعراف : ١٢٦) وقالت بلقيس : ﴿ **رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** ﴾ (النمل : ٤٤) وقال تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا** ﴾ (المائدة : ٤٤) وقال تعالى : ﴿ **وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون** ﴾ (المائدة : ١١١) وقال خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ : ﴿ **إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا**

شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾(الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣) أي من هذه الأمة ، ولهذا قال في الحديث الثابت عنه : « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » أي وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإن تنوعت شرائعنا ، وذلك معنى قوله « أولاد علات » وهم الإخوة من أمهات شتى والأب واحد)

* * *

﴿ **ثم بعثنا من بعده** ﴾ أي من بعد نوح ﴿ **رسلاً إلى قومهم** ﴾ كهود وصالح وشعيب عليهم السلام ﴿ **فجاءوهم بالبينات** ﴾ أي بالمعجزات والأدلة والبراهين على صدق ما جاؤوهم به ﴿ **فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل** ﴾ أي قبل بعث الرسل إليهم ، أو المعنى : فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم ﴿ **كذلك نطبع** ﴾ أي نختم ﴿ **على قلوب المعتدين** ﴾ فلا تقبل قلوبهم الإيمان كما طبعنا على قلوب أولئك فلم تقبل الإيمان ، فكما طبع الله على قلوب المكذبين من الأمم الغابرة بسبب تكذيبهم العدواني المحض ، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم ، ويختم على قلوبهم ، وفي هذا إنذار عظيم لمن يكذب سيد الرسل محمداً ﷺ الذي هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما أصابهم فماذا يظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من ذلك .

كلمة في السياق :

بدأ المقطع الثاني من القسم الأول بقوله تعالى ﴿ **أم يقولون افتراه ...** ﴾ وكانت الآية الثانية فيه ﴿ **بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه** ﴾ إلى قوله ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة الظالمين** ﴾ وكانت الآية الثالثة فيه ﴿ **ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين** ﴾ وههنا حدثنا الله عن أمم سابقة كيف كذبت رسلها ﴿ **فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين** ﴾ فالموقف واحد ، والأسباب التي تؤدي إلى تلك المواقف واحدة ، وصلة هذه الآية بالسياق واضحة ، وكونها نموذجاً على المعاني التي مرت من قبل لا يحتاج إلى تأمل كبير

فائدة :

نلاحظ أن الآية ذكرت أن عقوبة الطبع على القلوب كانت - على أحد وجهي التفسير - بسبب الرفض للحق عندما عرض على القلوب أول مرة - وفي هذا إنذار

كبير لمن يرفض الحق وقد اتضح لقلبه - كما أن قوله تعالى : ﴿ **كذلك نطبع على قلوب المعتدين** ﴾ يشير إلى أنه لا طبع إلا بسبب اعتداء ، وهذا إنذار كبير للإنسان ، ألا يقف موقف اعتداء أبداً . والآية بعد هذا كله تؤدي دورها في السياق العام لسورة يونس في نفي العجب من رسالة محمد ﷺ ؛ لأن بعثة الرسل وإرسالهم سنة الله في العصور والأمم .

* * *

﴿ **ثم بعثنا من بعدهم** ﴾ أي من بعد تلك الرسل ﴿ **موسى وهارون إلى فرعون وملائه** ﴾ أي قومه ﴿ **بآياتنا** ﴾ أي حججنا وبراهيننا ومعجزاتنا ﴿ **فاستكبروا** ﴾ عن اتباع الحق والانقياد له والإيمان به ﴿ **وكانوا قوماً مجرمين** ﴾ في الأصل ، ومن ثم وقفوا هذا الموقف المنسجم مع إجرامهم ، أو كانوا قوماً مجرمين لموقفهم من موسى ورسالته ﴿ **فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين** ﴾ أي بيّن ظاهر ، والآية تشير إلى أنهم أكدوا كونه سحراً بكل أنواع المؤكدات باستعمال كلمة (إن) ، ومجيء اللام في خبرها ، ووصف السحر بالوضوح ، والصيغة تشير إلى استعمال القسم في كلامهم ، ولذلك قال ابن كثير : كأنهم - قبّحهم الله - أقسموا على ذلك وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان . اهـ وهكذا دأب أهل الإجرام إذ يحاربون الدعاة إلى الله يصمونهم بكل وصمة مستعملين أبلغ صيغ التأكيد .

فائدة حول السياق :

تلاحظ كيف أن القصة هنا تؤدي دورها في السياق العام لسورة يونس ، فلو تذكّرنا بداية سورة يونس فإننا نجد : ﴿ **أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين** ﴾ فكما اتهم محمد ﷺ بالسحر بأبلغ صيغ التأكيد في الاتهام ، اتهم موسى من قبل ، فقصة موسى هنا تأتي لتؤدي دورها في نفي العجب من الإرسال ، وفي تبيان المواقف الخاطئة من الرسل ، ولتبين نهايات المكذبين الغابرين ، ليحذر المكذبون الجدد

* * *

﴿ **قال موسى** ﴾ لهم منكراً عليهم ﴿ **أتقولون للحق لما جاءكم** ﴾ إنه لسحر ﴿ **أسحر هذا** ﴾ كيف وقد أفلح من أتى به ، وأبطل الله به سحر السحرة ، مع أن سنة

الله ﴿ ولا يفلح الساحرون ﴾ كما هو مشاهدٌ محسّ في كل العصور ﴿ قالوا أجئتنا لتلفتنا ﴾ أي لتردنا وتثنينا ﴿ عمّا وجدنا عليه آباءنا ﴾ أي عن الدين الذي كانوا عليه ﴿ وتكون لكما ﴾ أي لك يا موسى وهارون ﴿ الكبرياء ﴾ أي العظمة والرئاسة والملك ﴿ في الأرض ﴾ أرض مصر ، وهكذا دأب المفسدين في كل عصر يتهمون المصلحين بنياتهم ، وأنهم لا يريدون وجه الله في دعواتهم الإصلاحية ، وما أقبحها من حجة وأظهر بطلانها ، لأن الدعاة إلى الله يدعون الناس إلى الطريق الأصعب ، ويتحملون من أجل ذلك كل قاس من الأمر ، ولو كانوا يريدون الدنيا لحصلوا عليها عن طريق الممالئة والمداهنة والسكوت وخدمة الطواغيت ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ أي بمصدقين ، هذا هو القرار النهائي أعلنوه بعد أن ذكروا حيثيات الرفض وأسبابه في زعمهم وتصورهم ، وليدلل فرعون على سلامة موقفه الظالم بالبهرجة على الناس ، بمعارضة ما جاء به موسى ، أمر بدعوة السحرة ليبرهن أن ما جاء به موسى سحر فانعكس عليه النظام ﴿ وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم ﴾ أي فائق في علم السحر ﴿ فلما جاء السحرة قال لهم موسى ﴾ بعد ما قالوا : إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين ﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ أراد موسى أن تكون البداءة منهم ليري الناس ما صنعوا ، ثم يأتي بالحق بعده فيدفع باطلهم ﴿ فلما ألقوا ﴾ أي حبالهم وعصيّهم ﴿ قال موسى ما جئتم به السحر ﴾ أي الذي جئتم به السحر ، فكلمة السحر بدل من اسم الموصول (ما) وهو مبتدأ ، وخبره ﴿ إن الله سيبطله ﴾ أي سيمحقه ﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ هذه سنة من سنن الله أن المفسد لا يقبل عمله الإصلاح ، ومن ثم فإن علينا أن لا ننسب المفسد إلى الإصلاح ، ولا نغتر بأعماله ، وكل داع إلى شيء يخالف شرع الله فهو مفسد ، وكل من يحارب الدعوة إلى الله وأهلها فهو مفسد ، فلا نغتر بعمل من أعماله ، لأن سنة الله أن لا يصلح عمل المفسدين ، ثم ذكر الله سنة أخرى متممة لهذه السنة ﴿ ويحق الله الحق ﴾ أي يثبته ويظهره ﴿ بكلماته ﴾ أي بمواعيده ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ فالمجرمون يكرهون الحق وظهوره وظهور أهله ، والله يريد ذلك وما أراده الله كان ، ولكنه له - جل جلاله - حِكَم في تأخير الظهور ، من تمحيص للصف ، وإقامة للحجة ، وغير ذلك كما نراه أكثر من مرّة في كتاب الله

كلمة في السياق :

نذكر مرّة ثانية بما جاء في أوائل المقطع الثاني من القسم الأول : ﴿ ومنهم من يؤمن

به **ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين** ﴾ لاحظ كلمة (بالمفسدين) ولاحظ قوله تعالى هنا ﴿ **إن الله لا يصلح عمل المفسدين** ﴾ ليتأكد لك أن هذه القصة هنا تأتي بما يخدم سياق سورة يونس فهي تأتي نموذجاً على المعاني التي قررها الله من قبل .

° ° °

﴿ **فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه** ﴾ أي إلا طائفة من أولاد قومه وهل الضمير في (قومه) يعود إلى موسى أو إلى فرعون ؟ قولان للمفسرين ، فعلى القول الأول يكون المراد – والله أعلم – أن الذين آمنوا لموسى ، وتحمّسوا له ، وأظهروا هذا الإيمان ، هم الشباب من قومه ، وإن كان كل بني إسرائيل قد آمنوا لموسى نوع إيمان ، وعلى القول الثاني : يكون الذين آمنوا بموسى من قوم فرعون هم طائفة من الشباب كمؤمن آل فرعون التي تمر قصته معنا في سورة غافر ﴿ **على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم** ﴾ أي يصرفهم عن دين الله بتعذيبهم ، وعلى القول بأن الذرية من قوم فرعون يكون المعنى : أن هؤلاء آمنوا لموسى على خوف فرعون وأشراف قومهم أن يفتنهم فرعون أي وهؤلاء الأشراف معه أي وجنده وحاشيته ، وعلى القول بأن الذرية من قوم موسى يكون المعنى : أن هؤلاء آمنوا لموسى على خوف من فرعون أن يفتنهم ، وأن أشراف قومهم كانوا خائفين عليهم كذلك أن يفتنهم فرعون ، وهذا الاتجاه الثاني هو الذي يحس في الواقع ، فعندما يقوم مصلح إلى الله ويصارع الطواغيت لا يستجيب له في الغالب إلا الشباب ، وبهذا يعرّض هؤلاء الشباب أنفسهم للمحنة ، فيبقون في خوف من السلطة الظالمة ، وأهلوهم كذلك يخشون عليهم ، فهم خائفون أن يفتنوا ، وأهلوهم خائفون عليهم أن يفتنوا ﴿ **وإن فرعون لعالٍ** ﴾ أي متكبر ﴿ **في الأرض** ﴾ ﴿ **وإنه لمن المسرفين** ﴾ أي المتجاوزين الحدّ بادعاء الربوبية .

فوائد :

١ – يلاحظ من قوله تعالى : ﴿ **فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه** ﴾ أن الذين يستجيبون للدعوات الإصلاحية هم الشباب ؛ لسلامة فطرتهم ، فنفوس الشباب أقرب لأن تقبل الحق ، ومن ثمّ فعلى أصحاب الحق أن يدركوا معدن النصرة ، وألا يتطلعوا إلى أجيال ليست مرشحة لأن تفعل شيئاً ؛ لأنها تجاوزت دور الفاعلية ، على أن صاحب الدعوة عليه أن يبلّغ دعوته للجميع .

بالعبادة ، ويعوّدوهم عليها ليتحققوا بالتوكل ليستطيعوا تحمل أعباء مراحل الحياة وما فيها .

....

﴿ **وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا** ﴾أي اتخذا ﴿ **لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة** ﴾أي مصلى فيه لتأمنوا من الخوف ، وكان فرعون منعهم من الصلاة ، وقال سعيد بن جبير في تفسير قوله تعالى : ﴿ **واجعلوا بيوتكم قبلة** ﴾أي يقابل بعضها بعضاً ﴿ **وأقيموا الصلاة** ﴾أي أتموها ﴿ **وبشر المؤمنين** ﴾أي بالنصر والجنة .

فائدة:

هذه الآية فيها الكثير من فقه الدعوة ، فعلى القول الأول في تفسير القبلة نفهم أنّ البيوت تنوب مناب الأماكن العامة ، إذا حيل بين الدعوة وهذه الأماكن ، فمثلًا في كثير من بلدان العالم الإسلامي – وخاصة في البلدان التي خضعت للأنظمة الشيوعية – نجد كلمة الحق محظورة في المسجد ، ومضيَّقاً عليها ، حتى حلقات العلم يحال دونها ، وفي مثل هذا الظرف فالبيوت تقوم مقام المسجد ، والدور العامة ، ولكن لا ننسىْ أن المساجد هي حوانيت الإسلام ومعاقله ، فلا نتخلى عنها إلا كتخلينا عن معقل ، وإلا فالأصل أن نحيي المسجد ورسالته . وإنما هي حالة الاضطرار كما هنا . قال النووي في الآية : كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم ، ومن تفسير ابن جبير للقبلة نعرف أن لقرب بيوت أهل الحق من بعضهم مصلحة – بل مصالح — وفي تذييل الآية بالأمر بالصلاة والبشارة بالنصر ندرك دور الصلاة في المساعدة على التحمل ، ودور التفاؤل وإشاعته في تجاوز أهل الحق المحنة وارتباط هذا بهذا ، ومن ثم أمر الله المؤمنين بقوله ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ...** ﴾(البقرة : ١٥٣)ومن ثم كان عليه الصلاة والسلام : « إذا حَزَبه أمر صلى » أخرجه أبو داود . والحاصل أن هذه الآية فيها الكثير من فقه الدعوة فقد رسمت لبني اسرائيل الطريق قال ابن كثير فيها : (يذكر تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه ، وكيفية خلاصهم منه) .

أقول : وهي ترسم الطريق لكل حالة مشابهة ، ومن كلام صاحب الظلال في هذه الآية ، آية : ﴿ **وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً، واجعلوا بيوتكم قبلة، وأقيموا الصلاة، وبشر المؤمنين** ﴾:

(وتلك هي التعبئة الروحية إلى جوار التعبئة النظامية . وهما معاً ضروريتان للأفراد والجماعات ، وبخاصة قبيل المعارك والمشقات . ولقد يستهين قوم بهذه التعبئة الروحية ، ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة تنبىء بأن العقيدة هي السلاح الأول في المعركة ، وأن الأداة الحربية في يد الجندي الخائر العقيدة لا تساوي شيئاً كثيراً في ساعة الشدة .

وهذه التجربة التي يعرضها الله على العصبة المؤمنة ليكون لها فيها أسوة ليست خاصة لبني إسرائيل ، فهي إيمانية خالصة . وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم مطارَدين في المجتمع الجاهلي ، وقد عمّت الفتنة وتجبّر الطاغوت ، وفسد الناس ، وأنتنت البيئة — وكذلك كان الحال على عهد فرعون في هذه الفترة — وهنا يرشدهم الله إلى أمور :

* اعتزال الجاهلية بنتنها وفسادها وشرها — ما أمكن في ذلك — وتجمع العصبة المؤمنة الخيّرة النظيفة على نفسها ، لتطهرها وتزكيها ، وتدرّبها وتنظمها ، حتى يأتي وعد الله لها .

* اعتزال معابد الجاهلية ، واتخاذ بيوت العصبة المسلمة مساجد تحس فيها بالانعزال عن المجتمع الجاهلي ؛ وتزاول عبادتها بها على نهج صحيح ، وتزاول بالعبادة ذاتها نوعاً من التنظيم في جو العبادة الطهور ..)

أقول : لقد فهم بعض قراء الشهيد سيد — رحمه الله — من هذه الفقرة ما لم يرده منها ، فاعتزلوا الجمَع والجماعات ، واعتزلوا مساجد المسلمين بحجّة أنها أصبحت معابد جاهلية ، ويجب اعتزالها ، وهذا فهم خاطىء ، فالمساجد للإسلام وأهله ، والأصل في المسلم صحة العقيدة حتى يتبين العكس ، والأصل أن نحسّن الظنّ في المسلم حتى يتبين العكس ، والأصل أن نحسّن الظنّ في رواد المساجد حتى يتبين العكس ، وإذا ما ثبت لنا أن إمام مسجد أو خطيبه كافر فساعتئذ نتحاماه إلى غيره ، وإذا ما ثبت لنا أنه مبتدع فالأولى أن نتجنبه

* * *

ثم أخبر تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملئه لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم ؛ معاندين جاحدين ظلماً وعلواً وتكبراً وعتواً **﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة ﴾**من أثاث الدنيا ومتاعها **﴿ وأموالا ﴾**أي

جزيلة كثيرة ﴿ **في** ﴾هذه ﴿ **الحياة الدنيا ربنا** ﴾ آتيتهم ذلك ﴿ **ليضلوا** ﴾ في عاقبته ﴿ **عن سبيلك** ﴾ عن دينك ، والمعنى : آتيتهم وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم ، استدراجاً منك لهم ، فيفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك ، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم ، واعتنائك بهم . ﴿ **ربنا اطمس على أموالهم** ﴾ أي أهلكها ﴿ **واشدد على قلوبهم** ﴾ أي اطبع عليها واستوثق ﴿ **فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ أي المؤلم ﴿ **قال** ﴾ الله تعالى : ﴿ **قد أجيبت دعوتكما** ﴾ مع أن الداعي موسى ، إلا أن هارون كان يُؤمّن : أي أجبناكما فيما سألتما في شأن فرعون وآله . ﴿ **فاستقيما** ﴾ على الرسالة والدعوة إلى أن يأتيهم العذاب . والمعنى : كما أجبت دعوتكما فاستقيما على أمري لأن النعمة تقتضي شكراً ﴿ **ولا تتبعانّ سبيل الذين لا يعلمون** ﴾ في استعجال القضاء ، وترك الشكر وفقدان البصر .

فوائد :

١ - قال الألوسي في الآية : واستدل بعضهم بالآية على أن الدعاء على شخص بالكفر لا يعد كفراً إذا لم يكن على وجه الاستجاز والاستحسان للكفر ، بل كان على وجه التمني لينتقم الله تعالى من ذلك الشخص أشدّ انتقام ، وإلى هذا ذهب شيخ الإسلام خواهر زداه ، فقولهم : الرضا بكفر الغير كفر ليس على إطلاقه عنده ، بل هو مقيّد بما إذا كان على وجه الاستحسان ، لكن قال صاحب الذخيرة : قد عثرنا على رواية عن أبي حنيفة رضي الله عنه أن الرضا بكفر الغير كفر من غير تفصيل ، والمنقول عن علَم الهدى أبي منصور الماتريدي التفصيل ، ففي المسئلة اختلاف ، قيل : والمعوّل عليه أن الرضا بالكفر من حيث أنه كفر كفر ، وأن الرضا به لا من هذه الحيثية بل من حيثية كونه سبباً للعذاب الأليم ، أو كونه أثراً من آثار قضاء الله تعالى وقدره - مثلاً - ليس بكفر ، وبهذا يندفع التنافي بين قولهم : الرضا بالكفر كفر . وقولهم : الرضا بالقضاء واجب بناء على حمل القضاء فيه على المقضي ، ومن هذا التحقيق يعلم ما في قولهم : إن من جاءه كافر ليسلم فقال : اصبر حتى أتوضأ أو أخره يكفر ؛ لرضاه بكفره في زمان ؛ فيه النظر ، ويؤيده ما في الحديث الصحيح في فتح مكة أن ابن أبي سرح أتى به عثمان رضي الله تعالى عنه إلى النبي ﷺ وقال : يارسول الله بايعه فكفّ ﷺ يده عن بيعته ، ونظر إليه ثلاث مرات ، كل ذلك يأبى أن يبايعه ، فبايعه بعد الثلاث ، ثم أقبل ﷺ على أصحابه فقال : « أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث كففت يدي عن بيعته فيقتله ؟ » قالوا : وما يدرينا يارسول الله ما في نفسك ألا أومأت إلينا بعينك فقال عليه

الصلاة والسلام : « إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة أعين » وقد أخرجه ابن أبي شيبة . وأبو داود . والنسائي . وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص وهو معروف في السير ، فإنه ظاهر في أن التوقف مطلقاً ليس كما قالوه كفراً فليتأمل.

أقول : قد استشكل بعض الناس دعوة موسى على فرعون وآله بعدم الإيمان ، والجواب أنه دعا بعد إعلام الله إياه أنهم لا يؤمنون . قال ابن كثير : وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه على فرعون وملائه ، الذين تبيّن له أنهم لاخير فيهم ، ولا يجيء منهم شيء كما دعا نوح عليه السلام .

٢ - قال ابن كثير : « وقد يحتج بهذه الآية (أي : قد أُجيبت دعوتكما) من يقول : إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة ينزل منزلة قراءتها لأن موسى دعا وهارون أمّن .

٣ - يذكر بعض المفسرين أنه كان بين التبشير باستجابة الدعوة وبين تحقيقها أربعون سنة ، وليس هناك من نص في الكتاب والسنة يحدّد مثل هذا غير أن التوراة الحالية وهي مُحرّفة - كما نعلم - تذكر أن موسى عليه السلام عندما كلّمه فرعون كان عمره ثمانين عاماً . وتذكر أنه عندما توفي كان عمره (١٢٠ سنة) ، وقد توفي موسى عليه السلام في أواخر أيام التيه ، وعلى هذا فمثل هذه الرواية - إن كان مرجعها بني إسرائيل - فالمصدر الأول لبني إسرائيل بنقضها فالأولى عدم التحديد وعدم ذكر شيء من هذا القبيل في هذا المقام .

٤ - في سفر الخروج من أسفار التوراة الحالية حديث طويل عما جرى بين موسى وهارون عليهما السلام من جهة ، وبين فرعون من جهة ، ونلاحظ أن هلاك كثير من الأموال قد حدث أكثر من مرة .

ففي سفر الخروج الإصحاح التاسع - (فها يَدُ الرب تكون على مواشيك التي في الحقل على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم وباءً ثقيلاً جداً .. فماتت جميع مواشي المصريين) .

(فضرب البرد في كل أرض مصر جميع مافي الحقل من الناس والبهائم وضرب البرد جميع عشب الحقل وكسر جميع شجر الحقل) .

وفي الإصحاح العاشر (ولما كان الصباح حملت الريح الشرقية الجراد . فصعد الجراد

على كل أرض مصر وحلّ في جميع تخوم مصر شيء ثقيل جداً لم يكن قبله جراد هكذا مثله ولا يكون بعده كذلك . وغطى وجه كل الأرض حتى أظلمت الأرض . وأكل جميع عشب الأرض وجميع ثمر الشجر الذي تركه البرد . حتى لم يبق شيء أخضر في الشجر ولا في عشب الحقل في كل أرض مصر) .

ويتردد في هذا المقام تعبير (ولكن شدَّدَ الرب قلب فرعون فلم يطلق بني إسرائيل) .

(ولكن شدد الرب قلب فرعون فلم يسمع لهما كما كلم الرب موسى) قد يكون في هذه الروايات الإسرائيلية مظهر من مظاهر إجابة دعوة موسى وهارون في الطمس على الأموال والتشديد على القلوب إن صَحَّت .

* * *

﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر** ﴾ هذه المجاوزة المعجزة التي مرت معنا في سورة الأعراف وغير من بعد ﴿ **فأتبعهم** ﴾ أي فلحقهم ﴿ **فرعون وجنوده بغياً وعدواً** ﴾ أي ظلماً وعدواناً ﴿ **حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين** ﴾ . فآمن حيث لا ينفعه الإيمان ﴿ **ءآلآن وقد عصيت قبل** ﴾ أي هذا الوقت تؤمن وقد عصيت الله قبل هذا ﴿ **وكنت من المفسدين** ﴾ بضلالك وإضلالك عن الإيمان ﴿ **فاليوم ننجّيك** ﴾ أي نخرجك من البحر ﴿ **ببدنك** ﴾ أي جسدك الذي لا روح فيه ﴿ **لتكون لمن خلفك** ﴾ أي لمن بعدك ﴿ **آية** ﴾ أي عبرة وعظة فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك ﴿ **وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون** ﴾ أي لا يتعظون بها ولا يعتبرون .

فوائد :

١ - انعقد إجماع الأمة الإسلامية على عدم نجاة فرعون وأن إيمانه لا يقبل ، وسبب ذلك أن سنة الله إذا جاء العذاب قوماً قبل أن يؤمنوا فإن إيمانهم لايقبل ساعتئذ ﴿ **فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعُهم إيمانهم لمَّا رأوا بأسنا سُنَّة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون** ﴾ (غافر : ٨٤ ، ٨٥) .

٢ - عند قوله تعالى : ﴿ **ءآلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين** ﴾ قال الألوسي : (والقائل له ذلك قيل : هو الله تعالى ، وقيل : هو جبريل عليه السلام ،

وقيل : إنه ميكائيل عليه السلام . فقد أخرج أبو الشيخ عن أبي أمامة قال : « قال رسول الله ﷺ قال لي جبريل عليه السلام : ما أبغضت شيئاً من خلق الله تعالى ما أبغضت إبليس يوم أمر بالسجود فأبى أن يسجد ، وما أبغضت شيئاً أشد بغضاً من فرعون فلما كان يوم الغرق خفت أن يعتصم بكلمة الإخلاص فينجو ، فأخذت قبضة من حمأة فضربت بها في فيه ، فوجدت الله تعالى عليه أشد غضباً مني ، فأمر ميكائيل فأتاه فقال «آلآن» الخ وما تضمنه هذا الخبر من فعل جبريل عليه السلام جاء في غير ماخبر . ومن ذلك ما أخرجه الطيالسي ، وابن حبان . وابن جرير . وابن المنذر . وابن مردويه . والبيهقي في الشعب . والترمذي . والحاكم وصححاه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « قال رسول الله ﷺ قال لي جبريل : لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسّه في في فرعون مخافة أن تدركه الرحمة » .

قال بعض المحققين : إنما فعل جبريل عليه السلام مافعل غضباً عليه لما صدر منه ، وخوفاً أنه إذا كرر ذلك ربما قبل منه ، على سبيل خرق العادة ؛ لسعة بحر الرحمة الذي يستغرق كل شيء ، وأما الرضا بالكفر فالحق أنه ليس بكفر مطلقاً ، بل إذا استحسن ، وإنما الكفر رضاه بكفر نفسه ، كما في التأويلات لعلم الهدى . انتهى .

والطيبي بعد أن أجاب بما أجاب أردف ذلك بقوله : على أنه ليس للعقل مجال في مثل هذا النقل الصحيح إلا التسليم ونسبة القصور إلى النفس) انتهى كلام الألوسي بشيء من الاختصار .

أقول : إن إساءة فرعون وعتوّه قد بلغت مبلغاً جسيماً استحق به ما فعله به جبريل .

٣ - روى البخاري عن ابن عباس قال : قدم النبي ﷺ المدينة ، واليهود تصوم يوم عاشوراء ، فقال : « ما هذا الذي تصومونه ؟ فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . فقال النبي ﷺ : « أنتم أحق بموسى منهم فصوموه » .

وهذه إحدى الملاحظات التي تسجل ، والتي تشكل بمجموعها قاعدة هي : أن الرسول ﷺ كان يتبنّى كل مناسبة لها علاقة برسول سابق ؛ لأننا نحن أولى الناس بكل رسول .

٤ - يلاحظ أن التوارة قد سجّلت غرق فرعون في البحر الأحمر ، ولم تسجل نجاة

جسده ، وكل الفراعنة الذي هم مظنة أن يكونوا فرعون موسى موجودة جثثهم محنَّطة . وهذا الذي دعا كثيراً من المؤرخين الغربيين إلى أن يشككوا بصحة رواية التوراة الحالية ، فإذا رأينا ما ذكره القرآن هنا من نجاة الجثة عرفنا الجواب الصحيح لهذا الموضوع بما يجمع بين رواية التوراة ومكتشفات العصر ، وفي هذا معجزة عظيمة من معجزات القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

٥ - يذكر المفسرون المسلمون كلاماً عند قصص القرآن مرجعه في الغالب إلى كلام أهل الكتاب ونحن سننقل لك حول ما مرّ معنا الرواية الإسرائيلية الحالية :

في سفر الخروج الإصحاح الرابع عشر مايلي : (فلمّا أُخبر ملك مصر أن الشعب قد هرب تغيّر قلب فرعون وعبيده على الشعب . فقالوا : ماذا فعلنا حتى أطلقنا إسرائيل من خدمتنا . فشدّ مركبته وأخذ قومه معه . وأخذ ستمائة مركب منتخبة وسائر مركبات مصر وجنوداً مركبية على جميعها . وشدّد الرب قلب فرعون ملك مصر حتى سعى وراء بني إسرائيل . وبنو إسرائيل خارجون بيد رفيعة . فسعى المصريون وراءهم وأدركوهم جميع خيل مركبات فرعون وفرسانه وجيشه . وهم نازلون عند البحر عند فم الحيروث أمام بعل صفون .

فلما اقترب فرعون رفع بنو إسرائيل عيونهم وإذا المصريون راحلون وراءهم ففزعوا جداً وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب . وقالوا لموسى هل لأنه ليست قبور في مصر أخذتنا لنموت في البرية ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر . أليس هذا هو الكلام الذي كلّمناك به في مصر قائلين كفّ عنا فنخدم المصريين . لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية . فقال موسى للشعب لا تخافوا . قفوا وانظروا خلاص الرب الذي يصنعه لكم اليوم . فإنه كما رأيتم المصريين اليوم لا تعودون ترونهم أيضاً إلى الأبد . الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون . فقال الرب لموسى مالك تصرخ إليَّ ، قل لبني إسرائيل أن يرحلوا . وارفع أنت عصاك ومد يدك على البحر وشقه . فيدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة . وها أنا أشدد قلوب المصريين حتى يدخلوا وراءهم . فأتمجّد بفرعون وكل جيشه بمركباته وفرسانه . فيعرف المصريون أني أنا الرب حين أتمجد بفرعون ومركباته وفرسانه ، فانتقل ملاك الله السائر أمام عسكر إسرائيل وسار وراءهم .

وانتقل عمود السحاب من أمامهم ووقف وراءهم . فدخل بين عسكر المصريين وعسكر إسرائيل . وصار السحاب والظلام وأضاء الليل ، فلم يقترب هذا إلى ذاك كل الليل . ومدّ موسى يده على البحر فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل . وجعل البحر يابسة وأنشف الماء . فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى وسط البحر . وكان في هزيع الصبح أن الرب أشرف على عسكر المصريين في عمود النار والسحاب وأزعج عسكر المصريين وخلع بُكَرَ مركباتهم حتى ساقوها بثقلة . فقال المصريون نهرب من إسرائيل لأن الرب يقاتل المصريين عنهم .

فقال الرب لموسى مدّ يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين على مركباتهم وفرسانهم . فمدّ موسى يده على البحر فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة والمصريون هاربون إلى لقائه . فدفع الرب المصريين في وسط البحر . فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر . لم يبق منهم ولا واحد . وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم .

فخلّص الرب في ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين . ورأى إسرائيل المصريين أمواتاً على شاطىء البحر . ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذي صنعه الرب بالمصريين . فخاف الشعب الرب وآمنوا بالرب وبعبده موسى .)

٦ - ذكر ابن كثير حكمة تكرار قصة موسى عليه السلام في القرآن في سياق الكلام عن هذه القصة في سورة يونس قال : وكثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كتابه العزيز ؛ لأنها من أعجب القصص ، فإن فرعون حذر من موسى كل الحذر ، فسخره القدر أن ربّى هذا الذي يحذر منه على فراشه ومائدته بمنزلة الولد ، ثم ترعرع وعقد الله سبباً أخرجه من بين أظهرهم ، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم ، وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه ، هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان ، فجاءه برسالة الله تعالى ، وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه السلام ، فتمرّد فرعون واستكبر وأخذته الحمية ، والنفس الخبيثة الأبية ، وقوّى رأسه ، وتولّى بركنه ، وادّعى ماليس له ، وتجهرم على الله ، وعتا وبغى وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل ، والله تعالى يحفظ رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون ، ويحوطهما

بعنايته، ويحرسهما بعينه التي لا تنام، ولم تزل المحاجّة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئاً بعد شيء، ومرة بعد مرة، مما يبهر العقول ويدهش الألباب، مما لايقوم له شيء ولا يأتي به إلا من هو مُؤيَّد من الله ﴿ **وما تأتيهم من آية إلا هي أكبر من أختها** ﴾ وصمّم فرعون وملؤه - قبحهم الله - على التكذيب بذلك كله والجحد والعناد والمكابرة حتى أحلّ الله بهم بأسه الذي لا يُرد، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين ﴿ **فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** ﴾ (الأنعام: ٤٥). أ هـ

* * *

﴿ **ولقد بوّأنا** ﴾ أي أنزلنا ﴿ **بني إسرائيل مبوّأ صدق** ﴾ أي منزل كرامة بعد أن عاقبهم بالتيه إذ أورثهم الأرض المقدسة فترة طويلة من الزمن ﴿ **ورزقناهم من الطيبات** ﴾ أي الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً ﴿ **فما اختلفوا** ﴾ فآمن بعض وكفر بعض، وسفّه بعضهم بعضاً، وقاتل بعضهم بعضاً ﴿ **حتى جاءهم العلم** ﴾ أي ولم يكن لهم أن يختلفوا وقد بيّن الله لهم وأزال عنهم اللبس ﴿ **إن ربك يقضي بينهم** ﴾ أي يفصل بينهم ﴿ **يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ من أمر الدين والدنيا.

فوائد:

١ - بمناسبة هذه الآية يذكّر ابن كثير بالحديث الذي رواه الحاكم في مستدركه والموجود في السنن والمسانيد «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، منها واحدة في الجنة، وثنتان وسبعون في النار، قيل: من هم يارسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي».

٢ - ذكر ابن كثير قصة الأرض المقدسة، وقصة بني إسرائيل معها بعد الخروج فقال:

(ولكن استمروا مع موسى عليه السلام طالبين إلى بلاد بيت المقدس وهي بلاد الخليل عليه السلام، فاستمر موسى بمن معه طالباً بيت المقدس، وكان فيه قوم من العمالقة، فنكل بنو إسرائيل عن قتالهم، فشرّدهم الله تعالى في التيه أربعين سنة، ومات فيه هارون ثم موسى عليهما السلام، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون، ففتح الله عليهم بيت المقدس، واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختنصر حيناً من الدهر، ثم عادت إليهم، ثم أخذها ملوك الرومان، فكانت تحت أحكامهم مدة طويلة، وبعث الله

عيسى ابن مريم عليه السلام في تلك المدة ، فاستعانت اليهود - قبحهم الله - على معاداة عيسى عليه السلام بملوك الرومان ، وكانت تحت أحكامهم ، ووشوا عندهم ، وأوحوا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا ، فبعثوا من يقبض عليه ، فرفعه الله إليه ، وشبّه لهم بعض الحواريين - بمشيئة الله وقدره - فأخذوه فصلبوه واعتقدوا أنه هو ﴿ **وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾ (النساء : ١٥٧ ، ١٥٨) ثم بعد المسيح عليه السلام بنحو ثلاثمائة سنة دخل قسطنطين - أحد ملوك الرومان - في دين النصرانية وكان فيلسوفاً قبل ذلك ، فدخل في دين النصارى ، قيل : تقية ، وقيل : حيلة ؛ ليفسده ، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة ، وبدعًا أحدثوها ، فبنى لهم الكنائس والبيع الكبار والصغار ، والصوامع والهياكل والمعابد والقلايات ، وانتشر دين النصرانية في ذلك الزمان ، واشتهر على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف ووضع وكذب ومخالفة لدين المسيح ، ولم يبق على دين المسيح - على الحقيقة - منهم إلا القليل من الرهبان ، فاتخذوا لهم الصوامع في البراري والمهامه والقفار ، واستحوذت يد النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم وبنى هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية ، والقمامة ، وبيت لحم ، وكنائس ببلاد بيت المقدس ، ومدن حوران ، كبصرى وغيرها من البلدان بناءات هائلة محكمة ، وعبدوا الصليب من حينئذ ، وصلوا إلى الشرق ، وصوّروا الكنائس ، وأحلوا لحم الخنزير ، وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع في دينهم والأصول ، ووضعوا له الأمانة الحقيرة ، التي يسمونها الكبيرة ، وصنفوا له القوانين ، وبسط هذا يطول ، والغرض أن يدهم لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها منهم الصحابة رضي الله عنهم ، وكان فتح بيت المقدس على يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولله الحمد والمنة) .

أقول : ذكر هذا ابن كثير بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوّأ صدق** ﴾ فكأنه يريد أن يبيّن ما آل إليه أمرهم بعد أن أنعم الله عليهم ، وبعض كلامه يحتاج إلى تحقيق ، فقد وجدت الانحرافات في النصرانية قبل قسطنطين . فمن المعروف أن بولس الذي عاصر حواريي المسيح عليهم السلام هو الذي حرّف وانحرف ، وإنما كان دور قسطنطين أنه فرض هذا الانحراف ، وأكّده وقوّاه ، وأضعف جانب أصحاب الحق الذين كانوا إلى زمنه هم الأكثرية بالنسبة لمجموع النصارى .

كلمة في السياق :

في ذكر قصة موسى وفرعون في هذا المقطع تقرير لكون بعثة الرسل ليست عجباً ، وتحذير لمن يعاند الرسل ، وتبشير لمن يسير على طريقهم بحسن المآل وحسن العاقبة ، فإذا تذكّرنا أن هذا المقطع بدأ بقصة نوح عليه السلام ، ثم بالإشارة إلى الرسل بعده ، ثم بقصة موسى وهارون مع فرعون ، يجتمع لنا في هذا المقطع مجموعة معان يتقرر فيها من خلال العرض القصصي أن من سنة الله إرسال الرسل ، وأن من سنته عقوبة المكذّبين ، وأن يجعل العاقبة للمؤمنين ، وفي ذلك إقامة حجة ودروس لأهل الإيمان .

وهكذا نجد أن سياق السورة سار في مناقشة المتعجّبين من أن يرسل الله رسولاً هو محمد ﷺ ، وناقش القائلين بأن محمداً افترى هذا القرآن ، ثم عرّف الناس جميعاً على خصائص هذا القرآن ، ثم قصّ هذه القصص التي تهدّد المكذبين ، وتبشّر المؤمنين ، وتذكّر بأن إرسال الرسل خلال العصور سُنّة من سنن الله ، والآن يأتي المقطع الثالث من القسم الثاني من سورة يونس التي هي تفصيل لقوله تعالى : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ وهي السورة التي تنفي كل شك ، وتؤكد خصيصة هذا القرآن في كونه هدى ، ولكن لأهل الإيمان والتقوى .

والملاحظ أن هذا المقطع يبدأ بقوله تعالى : ﴿ **فإن كنت في شكٍ مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك** ﴾ .

إنه عودة ثانية إلى تأكيد أن هذا الكتاب لا ريب فيه ليكون ذلك مقدّمة للقسم الأخير في السورة ، الذي يدعو الناس إلى ترك الشك بالإسلام ، وإلى الاهتداء بهدي القرآن . وذلك محور السورة فلنر المقطع الأخير في القسم الثاني :

المقطع الثالث من القسم الثاني

ويمتدّ من الآية (٩٤) إلى نهاية الآية (١٠٣) وهذا هو :

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾

كلمة في هذا المقطع :

مرّ معنا في هذه السورة العوامل المَرَضية التي تجعل بعض الناس يشكّون في هذا القرآن ، ومرّ معنا مايستحقه المكذبون بهذا القرآن ، ومرّ معنا قوله تعالى ﴿ **كذلك حقّت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لايؤمنون** ﴾ ويأتي هذا المقطع ليدلّ على مابه ينتفي الشك عن هذا القرآن ، وليعزّي رسول الله ﷺ في الذين لايؤمنون ، وليؤكّد سنة الله في المكذبين ، وليؤكّد أن علّة الريب هي المرض ، وأن هؤلاء الذين يكذّبون لاعقول لهم ، وهكذا يأتي المقطع على نسق محور السّورة وسياقها ، وهو عودة إلى العرض والتقرير والأمر والنهي والحوار بعد القصص :

التفسير :

﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك ﴾ يا محمد وهو خطاب لأمته كلها أي لكل إنسان ﴿ فسئل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ﴾ فإنك ستعلم منهم أن الله أرسل رسلاً كثيرين ، وأنزل عليهم وحياً يشبه الوحي الذي أُنزل عليك ، ومع كثرة التحريف فإن ما يدل على هذا القدر موجود ، وهكذا بعد أن هدّم الله كل حجة للكافرين والمرتابين ، فتح منفذاً آخر يزول به الشك في أصل الإرسال وأصل الوحي ، ثم قرر الله عز وجل أن المسألة أوضح من أن يُشك فيها ﴿ لقد جاءك الحق من ربك ﴾ وهو حق قامت عليه من الأدلة ما لا يبقى شك فيه لعاقل ، وإذ كان الأمر كذلك فقد صدر في هذا المقام نهيين :

الأول : ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ أي الشاكّين . النهي الثاني : ﴿ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله ﴾ أيّا كانت في الأرض أو في السماء أو في القرآن أو في المعجزات ﴿ فتكون من الخاسرين ﴾ بسبب التكذيب ، وإذ توجه النهي لرسولنا عليه الصلاة والسلام - وهو أوّل المنفذين لأمر الله - فإنه قال : « لا أشك ولا أسأل » . كما روى ذلك قتادة وابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري .

وبعد أن بيّن الله عز وجل أن فيما عند أهل الكتاب من العلم ما يبعد الشك بأصل الوحي وإرسال الرسل . وبعد أن نهى الله رسوله عن الشك والتكذيب وهو نهي لأمته ، وهو نهي جاء بعد تقرير أن ما أنزله الله على رسوله هو الحق ، وهو في هذا المقام يفيد أن هذا الكتاب لا محل فيه للشك ، وأن آياته من الوضوح بالمكان الأعلى ، فلا يكذّب بها إلّا من لا يخضع لحجة ، بعد هذا كله يقرر الله قاعدة وينذر إنذاراً :

﴿ إن الذين حقّت ﴾ أي وجبت ﴿ عليهم كلمة ربك ﴾ بالعذاب ﴿ لا يؤمنون ﴾ لا لنقص بالآيات ولا لانعدامها ﴿ ولو جاءتهم كل آية ﴾ فإنهم لايؤمنون ﴿ حتى يروا العذاب الأليم ﴾ وعندئذ يؤمنون ، ولكنه إيمان لاينفعهم ؛ لأن سنة الله أنه إذا أرسل عذابه لا ينفع إيمان. مستثنى من ذلك حادثة واحدة هي حادثة قوم يونس ﴿ فلولا ﴾ أي فهلا ﴿ كانت قرية ﴾ أي أهل قرية ﴿ آمنت ﴾ عندما رأت العذاب ﴿ فنفعها إيمانها ﴾ أي لم تكن قرية نفعها الإيمان بعد إذ رأت العذاب ﴿ إلا ﴾ أي لكن ﴿ قوم يونس لما آمنوا ﴾ أي عند رؤية أمارة العذاب فهؤلاء فقط نفعهم إيمانهم رحمة من الله بهم ﴿ كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ أي إلى

انقضاء آجالهم . فإذ كان الأمر كذلك فليسارع إلى الإيمان من يريد النجاة ، ثم لفت الله النظر إلى الحكمة الكلية في وجود كفر وإيمان . وأن هذا إنما هو بمشيئته فقال : ﴿ **ولو شاء ربك** ﴾ يامحمد ﴿ **لآمن من في الأرض كلهم جميعاً** ﴾ فيما جئتهم به ولكن له حكمة فيما يفعله ، ومن حكمته أنه لم يشأ ، وترك المسألة لاختيار الإنسان ﴿ **أفأنت تُكره الناس** ﴾ بأن تلزمهم وتلجئهم ﴿ **حتى يكونوا مؤمنين** ﴾ أي ليس ذلك عليك ولا إليك ، فلا إكراه في الدين ، وخلق الهداية لله ، وقد جرت سنة الله أن لا يهدي الفاسقين والظالمين والمتكبرين والمتجبرين ﴿ **وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله** ﴾ أي بإرادته ﴿ **ويجعل الرجس** ﴾ أي الخبال والضلال ﴿ **على الذين لايعقلون** ﴾ حجج الله وأدلته ، فهو العادل في هداية من يهديه وإضلال من يضله ، وهكذا بيّنت هذه الآيات بعض حِكم الإضلال ، وهي عدم العقل عن الله من المخاطبين ، وشكّهم بالحق الواضح ، وتكذيبهم للآيات البينة .

وأنذرت أن يصيب المكذبين عذابه الذي إذا جاء لايرد ولا ينفع معه إيمان ، وبيّنت أن الاستثناء الوحيد إنما كان لقرية يونس ليُعرف أن مشيئة الله مطلقة ، وقد بينت الآيات في أكثر من مقام طلاقة المشيئة الإلهية . ليقبل الإنسان على الله بقلب مخبت خائف وَجل راغب راهب .

فوائد :

١ - قال الألوسي في قصة قوم يونس : (وكان من قصة هؤلاء القوم على ما روي عن غير واحد أن يونس عليه السلام بعث إلى أهل نينوى من أرض الموصل ، وكانوا أهل كفر وشرك ، فدعاهم إلى الإيمان بالله تعالى وحده ، وترك مايعبدون من الأصنام ، فأبوا عليه وكذبوه ، فأخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث . فلما كانت الليلة الثالثة ذهب عنهم من جوف الليل ، فلما أصبحوا تغشّاهم العذاب ، فكان فوق رؤوسهم ليس بينهم وبينه إلا قدر ثلثي ميل ، وجاء أنه غامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخن دخاناً شديداً ، فهبط حتى غشي مدينتهم ، واسودّت أسطحتهم ، فلما أيقنوا بالهلاك طلبوا نبيهم فلم يجدوه ، فخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابّهم ، ولبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة ، وفرقوا بين الوالدة وولدها من الناس والدواب ، فحنّ البعض إلى البعض ، وعلت الأصوات ، وعجّوا جميعاً ، وتضرعوا إليه تعالى ، وأخلصوا النية ؛ فرحمهم ربهم ، واستجاب دعاءهم ، وكشف عنهم مانزل بهم من العذاب ،

وكان ذلك يوم عاشوراء ، وكان يوم الجمعة .

قال ابن مسعود : إنه بلغ من توبتهم أن ترادّوا المظالم فيما بينهم ، حتى إن كان الرجل ليأتي إلى الحجَر قد وضع أساس بنيانه عليه فيقلعه ويردُّه إلى صاحبه ، وجاء في رواية عن قتادة أنهم عجّوا إلى الله تعالى أربعين صباحاً ، حتى كشف مانزل بهم ، وأخرج أحمد في الزهد . وابن جرير . وغيرهما عن ابن غيلان قال : لما غشي قوم يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا : ماترى ؟ قال : قولوا : ياحي حين لا حي ، وياحي محيي الموتى ، وياحي لا إله إلا أنت ، فقالوها فكشف عنهم العذاب . وقال الفضيل بن عياض : قالوا : اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلّت ، وأنت أعظم وأجل ، فافعل بنا ما أنت أهله ، ولا تفعل بنا مانحن أهله . وكان يونس عليه السلام إذ ذهب عنهم قعد في الطريق يسأل الخبر - كما جاء مرفوعاً - فمرّ به رجل فقال له : ما فعل قوم يونس ؟ فحدّثه بما صنعوا فقال : لا أرجع إلى قوم قد كذبتهم ، وانطلق مغاضباً حسبما قصّة الله في غير هذا الموضع كما سيأتي إن شاء الله تعالى ، وظاهر الآية يستدعي أن القوم شاهدوا العذاب لمكان (كشفنا) وهو الذي يقتضيه أكثر الأخبار ، وإليه ذهب كثير من المفسّرين ، ونفع الإيمان لهم بعد المشاهدة من خصوصياتهم ؛ فإن إيمان الكفار بعد مشاهدة ماأُعدوا به إيمان بأس غير نافع ، لارتفاع التكليف حينئذ ، وعادة الله إهلاكهم من غير إمهال كما أهلك فرعون) .

٢ - قال ابن كثير بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين** ﴾ ..

« والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس ، وهم أهل نينوى ، وماكان إيمانهم إلا تخوّفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه ، وخرج رسولهم من بين أظهرهم ، فعندها جأروا إلى الله ، واستغاثوا به ، وتضرعوا له ، واستكانوا ، وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم ، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم . فعندها رحمهم الله ، وكشف عنهم العذاب ، وأخروا ، كما قال تعالى : ﴿ **إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين** ﴾ واختلف المفسرون هل كشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط ؟ على قولين :

(أحدهما) : إنما كان ذلك في الحياة الدنيا كما هو مقيّد في هذه الآية . (والثاني) : فيهما لقوله تعالى : ﴿ **وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين** ﴾ فأطلق عليهم الإيمان والإيمان منقذ من العذاب الأخروي وهذا هو الظاهر ، والله أعلم . وقال قتادة في تفسير هذه الآية : لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب فتُرِكَت إلا قوم يونس ، لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم قذف الله في قلوبهم التوبة ، ولبسوا المسوح وفرّقوا بين كل بهيمة وولدها ، ثم عجّوا إلى الله أربعين ليلة ، فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم ، والتوبة والندامة على ما مضى منهم ، كشف عنهم العذاب بعد أن تدلّى عليهم ، قال قتادة : وذكر أن قوم يونس بنينوى أرض الموصل . وكذا روي عن ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف ، وكان ابن مسعود يقرؤها (فهلا كانت قرية آمنت) وقال أبو عمران عن أبي الجلد قال : لما نزل بهم العذاب جعل يدور على رؤوسهم كقطع الليل المظلم ، فمشوا إلى رجل من علمائهم فقالوا : علّمنا دعاءً ندعو به لعل الله يكشف عنا العذاب فقال قولوا : (ياحيّ حين لا حي . ياحي محيي الموتى ، ياحي لا إله إلا أنت) قال : فكشف عنهم العذاب وتمام القصة سيأتي مفصّلاً في سورة الصافات إن شاء الله) اهـ . كلام ابن كثير .

٣ - كثيرون يشكل عليهم موضوع التوفيق بين عموم المشيئة الإلّهية ، واختيار الإنسان ، وما ذلك إلا للجهل بالله تعالى ، فالله تعالى محيط علماً بكل شيء ، وقد علم ماسيفعله كل إنسان ، فأراد ذلك عدلاً ، وأبرز ذلك بقدرته ، فالعلم كاشف لا مُجبِر ، والإنسان مخيّر ، ومن اختار الهدى وأخذ بأسبابه وفّقه الله إليه ، ومن اختار الضلال ورفض أسباب الهداية يسّره الله ﴿ **فأما من أعطى واتقى . وصدّق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذّب بالحسنى . فسنيسره للعسرى .** ﴾ . (سورة الليل ٥ - ١٠) ولنعد إلى السياق .

بعد أن هدّم الله فيما مرّ من هذا المقطع معقلاً من معاقل الشك ، أمر الله رسوله ﷺ أن يقول : ﴿ **قل انظروا ماذا في السموات والأرض** ﴾ من الظواهر والآيات الدالة على أسماء الله وصفاته ، وما أكثرها وما أغزرها ، وقد سجّلنا طرفاً منها في كتابنا (الله جل جلاله) ﴿ **وما تغني الآيات** ﴾ جمع آية ﴿ **والنّذر** ﴾ جمع نذير ﴿ **عن قوم لايؤمنون** ﴾ دلّ هذا على أن في السموات والأرض آيات كثيرة ونذراً كثراً ، ومن النذر الرسل ، ولكن الكفرة لايستفيدون من ذلك شيئاً . والمعنى : وأي

شيء تغني الآيات السماوية والأرضية ، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها ، الدالّة على صدقها عن قوم لايؤمنون ؟ لقد عميت قلوبهم ، وصمّت آذانهم ، فلم يعودوا يرون الحق ، ولم يعودوا يسمعونه ، فإذ كان أمر هؤلاء كذلك فماذا بقي إلا انتظار العذاب ﴿ **فهل** ﴾ أي فما ﴿ **ينتظرون** ﴾ أي بتكذيبك ﴿ **إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم** ﴾ من الأمم أي : مثل وقائعهم من العذاب ، وعندئذ يؤمنون ، ولات حين مناص ﴿ **قل فانتظروا** ﴾ ذلك ﴿ **إني معكم من المنتظرين** ﴾ ولكن شتان بين الانتظارين ، لاختلاف سنة الله في الفريقين ﴿ **ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا** ﴾ أي ونهلك المكذّبين بالرسل ﴿ **كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين** ﴾ حقاً أوجبه الله على نفسه الكريمة أن ينجي الرسول ومن يؤمن معه إذا جاء العذابُ المكذبين به ، وهكذا هدمت هذه الآيات معقلاً آخر من معاقل الشك ، إذ بيّنت أن النظر في السمٰوات والأرض يوصّل إلى الإيمان ، فمن نظر في التاريخ ، وتقلبات الأيام ، وحياةالرسل ، وحياة أهل الإيمان ، وعاقبة أهل الإيمان والكفر ، فإنه سيجد في ذلك كله مايدفعه إلى الإيمان ، إلا إذا كان ممن عمي قلبه ، وعندئذ فلينتظر مصيره المظلم .. وبهذا ينتهي القسم الثاني في سورة يونس ، وقد استقر بالقسمين الأول والثاني أن هذا القرآن لا ريب فيه ، وأن على الخلق أن يهتدوا به ، وخلال ذلك ذكرت العوامل الحقيقية التي تحول بين الناس وبين الإيمان والاتباع ، وإذ استقرّت هذه المعاني كلها فإن القسم الثالث – وهو خاتمة السورة – يأتي ليخاطب الناس كل الناس خطابين أخيرين .

القسم الثالث : وهو خاتمة السورة

ويمتد من الآية (١٠٤) إلى نهاية الآية (١٠٩) وهي آخر آية في السورة ويتألف من فقرتين كل فقرة منهما مبدوءة بقوله تعالى ﴿ قل يا أيها الناس ﴾ وهذا هو :

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

كلمة في هذا القسم :

في هذا القسم فقرتان كل منهما مبدوءة بقوله تعالى ﴿ قل يا أيها الناس .. ﴾ فهما خطابان أخيران : خطاب في نفي الشك ، ولذلك صلته بقوله تعالى : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ ولذلك يبدأ الخطاب بقوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني ﴾ ، وخطاب في تأكيد الهدى بهذا القرآن ، ولذلك صلته بقوله تعالى من محور السورة : ﴿ هدى للمتقين ﴾ ولذلك جاء الخطاب بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ﴾ ففي هاتين الفقرتين

توجيهان أخيران يعمّقان نفي الشك عن هذا القرآن ، وضرورة الاهتداء به ، وهما محور سورة يونس . وهذا تفسير الفقرة الأولى .

الفقرة الأولى

﴿ **قل يأيها الناس إن كنتم في شكٍ من ديني** ﴾ أنه حق ﴿ **فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله** ﴾ صنماً أو بشراً ، أو كوناً أو مجتمعاً أو معنى أو محسوساً ، أو غير ذلك ﴿ **ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم** ﴾ أي يقبض أرواحكم ﴿ **وأمرت أن أكون من المؤمنين** ﴾ أي وأمرت بأن أكون من المؤمنين بما ركب الله فيّ من العقل ، وبما أوحىٰ إليّ في كتابه ﴿ **وأن أقم وجهك للدين حنيفاً** ﴾ أي مائلاً عن غيره إليه . والمعنى : واستقم مقبلاً بوجهك على ما أمرك الله ، أو استقم إلى دين الله ولا تلتفت يميناً ولا شمالاً ، أي أخلص العبادة لله وحده ، حنيفاً أي : منحرفاً عن الشرك كله ﴿ **ولا تكونن من المشركين** ﴾ لا اعتقاداً ولا عملاً ولا مواقف ولا سلوكاً ﴿ **ولا تدعُ** ﴾ أي تعبد ﴿ **من دون الله ما لا ينفعك** ﴾ إن عبدته ﴿ **ولا يضرُّك** ﴾ إن لم تعبده ، أو مالا ينفعك إن دعوته ، ولا يضرك إن خذلته ، ﴿ **فإن فعلت** ﴾ أي فإن عبدت أو دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ﴿ **فإنك إذاً من الظالمين** ﴾ كأن سائلاً سأل عن تبعة عبادة غير الله - فكان الجواب أنه من الظالمين - وجُعل من الظالمين لأنه لا ظلم أعظم من الشرك ، وبعد أن أمره بالإيمان والإخلاص والتوحيد بالعبادة وإفراد الدعاء ، تأتي الآية الأخيرة في هذه الفقرة لتقرر أن الذي يملك الضر والنفع هو الله وحده ، فلا يمنع أحداً رغبة أو رهبة أن يترك عبادة الله إلى غيره .

﴿ **وإن يمسَسْك** ﴾ أي يصيبك ﴿ **الله بضرٍّ** ﴾ كفقر أو مرض أو شدة أو غير ذلك ﴿ **فلا كاشف له** ﴾ أي فلا رافع له ﴿ **إلا هو** ﴾ أي إلا الله ﴿ **وإن يردك بخير** ﴾ كعافية أو غنى أو استخلاف ﴿ **فلا رادّ لفضله** ﴾ أي فلا رادّ لمراده ﴿ **يصيب به** ﴾ أي بالخير ﴿ **من يشاء من عباده وهو الغفور** ﴾ أي المكفّر بالبلاء ﴿ **الرحيم** ﴾ المعافي بالعطاء . قطع بهذه الآية على عباده طريق الرغبة والرهبة إلا إليه ، والاعتماد إلا عليه ، وذيّلها بذكر اسمه الغفور والرحيم ليبين عموم توبته ومغفرته لمن تاب إليه من أي ذنب كان ، حتى من الشرك به ، فإنه يتوب عليه ، وهذا من كمال رحمته . وفي الآية بيان بأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله وحده لا يشاركه في ذلك أحد ، فهو الذي يستحق العبادة والإخلاص فيها ، والإفراد بالدعاء وحده لا شريك له ، وإذ كان

الأمر كذلك ، وإذ كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك ويدعو إليه ، فكيف يُشَكُّ في دينه ؟ إنه من كان هذا شأنه في إفراد العبادة لله ، كيف يكون شك في دينه وكيف يكون شك في الكتاب المنزّل عليه ، وكما أدت هذه الفقرة هذا المعنى فإنها أدّت معنى آخر : وهو أنها علمتنا كيف نقابل موقف الشك من هذا القرآن ، فعلمتنا أن نقابل ذلك بمزيد من التنائي عن المشركين والشرك ، وبإقبال كثير على الله والإخلاص له ، وإفراده بالعبادة والدعاء ، كما أدّت في هذا السياق معنى آخر ، وهو تعليم التحدي . قال ابن كثير في هذه الآيات (يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ : قل ياأيها الناس إن كنتم في شك من صحة ماجئتكم به ، من الدين الحنيف الذي أوحاه الله إليّ ، فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له ، وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم . ثم إليه مرجعكم ، فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقاً - وليست حقاً إلا في زعمكم - فأنا لا أعبدها ، فادعوها فلتضرني ، فإنها لا تضر ولا تنفع ، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له ، وأمرت أن أكون من المؤمنين) .

وهكذا نجد أن هذه الفقرة أدّت معاني متعددة فهمناها من النص ومن خلال السياق . وأن يؤدي السياق القرآني مثل هذه المعاني ، وأن تكون كلها حقاً ، وأن يكون ذلك على أعلى درجات الإبداع في الأداء ، وأعلى درجات البلاغة في اللفظ والمعنى ، وأن يكون في هذا القرآن هذا الكمال في الحكمة ، إذ يناقش ، أو يصفّي ، أو يقرر ضمن سياق واحد ، وعلى هذه الشاكلة ، أن يكون هذا كله ، فهذا شيء فوق إمكان الإنسان إن هو إلا تنزيل العزيز الحكيم .

فوائد :

١ - بمناسبة الأمر بالعبادة في هذه الآيات نذكر الحديث الذي رواه ابن عساكر عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرّضوا لنفحات ربكم ، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوه أن يستر عوراتكم ويؤمّن روعاتكم » . ذكره ابن كثير فلنقبل ياأخي على الله وعلى عبادته ، ولنكثر من دعائه ، فلعل نفحة من نفحات ربنا تصيبنا فتنقلنا من أن نكون من أهل الدنيا إلى أن نكون من أهل الآخرة ، ربنا استر عوراتنا وآمن روعاتنا .

٢ - ذكر النسفي تعقيباً على الآية الأخيرة في الفقرة ﴿ وإن يمسسك الله بضر .. ﴾ مبيناً حكمة مجيئها في هذا المقام ، ومبيناً بعض نكت بلاغة ألفاظها فقال : (أتبع النهي

عن عبادة الأوثان ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر ، أن الله هو الضار والنافع ، الذي إن أصابك بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده دون كل أحد ، فكيف بالجماد الذي لا شعور به ؟ وكذا إن أرادك بخير لم يرد أحد مايريده بك من الفضل والإحسان ، فكيف بالأوثان ؟ وهو الحقيق إذاً بأن توجّه إليه العبادة دونها . وإنما ذكر المسّ في إحدهما والإرادة في الآخر كأنه أراد أن يذكر الأمرين الإرادة والإصابة في كل واحد من الضر والخير ، فأوجز الكلام ليدل بما ذكر على ماترك ، على أنه قد ذكر الإصابة بالخير في قوله ﴿ **يصيب به من يشاء من عباده** ﴾ ا.هـ .

ولننتقل إلى الفقرة الثانية :

الفقرة الثانية

﴿ **قل يأيها الناس قد جاءكم الحق** ﴾ أي القرآن ﴿ **من ربكم** ﴾ الخالق الذي بيده الضر والنفع ﴿ **فمن اهتدى** ﴾ أي فمن اختار الهدى واتبع الحق ﴿ **فإنما يهتدي لنفسه** ﴾ لأن ثواب اهتدائه إليه ، فما نفع باختياره الهدى إلا نفسه ﴿ **ومن ضلّ فإنما يضل عليها** ﴾ أي ومن آثر الضلال فما ضر إلا نفسه ، لأن وبال ضلاله عليها ﴿ **وما أنا عليكم بوكيل** ﴾ أي بحفيظ موكول إليّ أمركم فأجبركم على الهدى ، أو وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين ، أي لستُ مسؤولاً عن إيمانكم ، وإنما أنا نذير لكم ، والهداية على الله . وبعد أن قررت الآية أن هذا القرآن حق ، وأن الهداية باتباعه ، تأتي الآية الأخيرة لتأمر رسول الله ﷺ والمؤمنين المقتدين به باتباع القرآن ، والصبر على ذلك ﴿ **واتبع ما يوحىٰ إليك** ﴾ من ربك أي تمسّك بما أنزل الله عليك ، وأوحاه إليك ﴿ **واصبر** ﴾ على تكذيبهم وإيذائهم ، واصبر على القيام بأمر الله ، واصبر على مخالفة مَن خالفك في ذات الله ﴿ **حتى يحكم الله** ﴾ لك بالنصر والغلبة ، أي حتى يفتح الله بينك وبينهم ﴿ **وهو خير الحاكمين** ﴾ أي خير الفاتحين بعدله وحكمته ، أو خير الفاصلين لأنه المطّلع على السرائر ، فلا يحتاج إلى بينة وشهود ، وقد فعل رسول الله ﷺ ما أُمر به ، ووفّى الله بوعده .

وهكذا بيّنت هذه الفقرة ضرورة الاهتداء بكتاب الله ، وبيّنت احتياج ذلك للصبر ، وبيّنت أن العاقبة في الدنيا والآخرة لأهل الهداية والاتباع والصبر وبهذا انتهت السورة .

كلمة في سورة يونس :

رأينا أن محور سورة يونس هو قوله تعالى من سورة البقرة ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ ورأينا كيف أن سورة يونس فصّلت بأقسامها الثلاثة هذا المعنى ، وجاءت الأوامر والنواهي لتقيم الإنسان من خلال الحجة والتطبيق على طريق اليقين والاتباع ، ولا ننسى في هذا المقام أن نذكر أن أول آية في سورة يونس هي قوله تعالى : ﴿ **الّر تلك آيات الكتاب الحكيم** ﴾ وقد رأينا في سورة يونس مظهراً من مظاهر حكمة القرآن في معالجة قضية الشك في القرآن ، وضرورة اتباعه ، وكيف أن هذه المعالجة تمت بشكل مباشر ، وبشكل غير مباشر ، وبالعودة إلى الأصول والإشارة إلى الفروع ، وبالعودة إلى التاريخ والاستفادة من المعطيات الإيجابية عند أهل الكتاب وغير ذلك .

ونستغفر الله من تفريط في الجهد أو خطأ في التوجيه .



سورة هود

وهـي السـورة الحادية عشـرة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثانية من المجموعة الأولى من قسم
المثين وآياتها مائة وثلاث وعشرون
وهـي مكيـة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله . والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا . إنك أنت السميع العليم

ماورد فيها :

ـ روى الحافظ أبو يعلى عن عكرمة قال : قال أبو بكر : سألت رسول الله ﷺ ما شيّبك ؟ قال :« شيبتني هود ، والواقعة ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كوّرت » .

وروى الترمذي عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال أبو بكر يارسول الله قد شبت . قال :« شيبتني هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كوّرت » وفي رواية « هود وأخواتها » .

وروى الطبراني عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « شيبتني هود وأخواتها : الواقعة ، والحاقة ، وإذا الشمس كورت » وفي رواية « هود وأخواتها » .

كلمة في سورة هود ومحورها :

يلاحظ أن أول سورة هود هو : ﴿ **الٓر كتاب أحكمت آياته ثم فُصّلت من لدن حكيم خبير ۞ ألا تعبدوا إلا الله ..** ﴾ حتى إذا وصلنا إلى الآيتين (٢٥ ، ٢٦) وجدناهما ﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين ۞ أن لا تعبدوا إلا الله ..** ﴾ حتى إذا وصلنا إلى الآية (٥٠) وجدناها : ﴿ **وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله ..** ﴾ حتى إذا وصلنا إلى الآية (٦١) وجدناها : ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله ..** ﴾ حتى إذا وصلنا إلى الآية (٨٤) وجدناها : ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ..** ﴾ حتى إذا وصلنا إلى آخر آية وجدناها ﴿ **ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده ..** ﴾ وهكذا نجد البداية والنهاية ، ومابين ذلك تشير إلى أن محور سورة هود هو الآية التي مابعد مقدمة سورةالبقرة وهي : ﴿ **ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ فكما أن سورة يونس كانت تفصيلاً لأول آية في سورة البقرة . فإن سورة هود تفصيل لأول آية في سورة البقرة بعد مقدمتها .

إنه لمن الواضح أن سورة هود تفصّل في قوله تعالى : ﴿ **ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ ومن قبل فصّلت سورة النساء في هذه الآية ، ولكن تفصيل سورة النساء انصبّ على التقوى ، وههنا ينصبّ تفصيل سورة هود على الأمر ﴿ **اعبدوا ربكم** ﴾ ومحلّه في دين الله وفي رسالات الرسل .

كما ذكرنا من قبل أن محاور المجموعة الواحدة في قسم المئين ، وكذلك محاور قسم

الطّوال ، أو مجاور مجموعات الأقسام الأخرى من سورة البقرة ولو تباعدت في سورة البقرة ، فإنها إذا وضعت بجانب بعضها فإنها تشكل كُلاً متكاملاً .

لاحظ أن سورة يونس من هذه المجموعة فصّلت في أول آية من سورة البقرة ، وأن سورة هود فصّلت في الآية (٢١) منها ، ولكنك لو وضعت الآيتين بجانب بعضهما فإنك تجد الصلة قائمة :

﴿ الٓمٓ . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾
﴿ يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ .

إن الصلة واضحة بين الآيتين ، فبعد تقرير أن القرآن هدى للمتقين ، يأتي نداء للناس جميعاً أن يعبدوا الله وحده ليكونوا من المتقين ، فإذا ما عرفنا أن سورة البقرة مدنية ، وسورة هود - على القول الراجح - مكّية كلها ، أدركنا كم هي الأدلة كثيرة على أن هذا القرآن من عند الله .

نقول عن السورة :

قال الألوسي عن سورة هود :

(مكّية على المشهور واستثنى منها بعضهم ثلاث آيات ﴿ فلعلك تارك ﴾ ﴿ أفمن كان على بيّنة من ربه ﴾ ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ قال : إنها نزلت في المدينة) .

وقال صاحب الظلال عن السورة : (هذه السورة مكّية بجملتها خلافاً لما ورد في المصحف الأميري من أن الآيات (١٢ ، ١٧ ، ١١٤) فيها مدنية . ذلك أن مراجعة هذه الآيات في سياق السورة تلهم أنها تجيء في موضعها من السياق ، بحيث لا يكاد يتصور خلو السياق منها بادىء ذي بدء . فضلاً على أن موضوعاتها التي تقررها هي من صميم الموضوعات المكية المتعلقة بالعقيدة ، وموقف مشركي قريش منها ، وآثار هذا الموقف في نفس رسول الله ﷺ . والقلة المسلمة معه ، والعلاج القرآني الرباني لهذه الآثار .

وعن وجه مناسبة سورة هود لسورة يونس يقول الألوسي :

(ووجه اتصالها بسورة يونس عليه السلام : أنه ذكر في سورة يونس قصة نوح عليه السلام مختصرة جداً مجملة ، فشرحت في هذه السورة ، وبسطت فيها ما لم تبسط في غيرها من السور ، ولا سورة الأعراف على طولها ، ولا سورة ﴿ إنا أرسلنا نوحاً ﴾

التي أفردت لقصته ، فكانت هذه السورة شرحاً لما أجمل في تلك السورة ، وبسطاً له ، ثم إن مطلعها شديد الارتباط بمطلع تلك ، فإن قوله تعالى هنا : ﴿ **الر كتاب أحكمت آياته** ﴾ نظير قوله سبحانه هناك : ﴿ **الر تلك آيات الكتاب الحكيم** ﴾ بل بين مطلع هذه وختام تلك شدة ارتباط أيضاً ، حيث ختمت بنفي الشرك واتباع الوحي ، وافتتحت هذه ببيان الوحي والتحذير من الشرك ، وورد في فضلها ماورد ، فقد أخرج الدارمي وأبو داود في مراسيله . والبيهقي في شعب الإيمان ، وغيرهم عن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « اقرأوا هود يوم الجمعة ») .

ومن تقديم صاحب الظلال لسورة هود ننقل هذه الفقرات :

(لقد نزلت السورة بجملتها بعد يونس . ونزلت يونس بعد الإسراء . وهذا يحدد معالم الفترة التي نزلت فيها ؛ وهي من أحرج الفترات وأشقها كما قلنا في تاريخ الدعوة بمكة . فقد سبقها موت أبي طالب وخديجة ، وجرأة المشركين على ما لم يكونوا ليجرأوا عليه في حياة أبي طالب) .

(وبلغت الحرب المعلنة عليه وعلى دعوته أقسى وأقصى مداها ؛ وتجمدت حركة الدعوة حتى ما يكاد يدخل في الإسلام أحد من مكة وما حولها .. وذلك قُبيل أن يفتح الله على رسوله وعلى القلة المسلمة ببيعة العقبة الأولى ثم الثانية) . أقول : ولذلك كان في السورة تسرية عنه عليه الصلاة والسلام .

(ويحتوي السياق ذلك القصص الطويل الذي يصدق ذلك الترغيب ، والترهيب في حركة العقيدة على مدار التاريخ ، من مصارع المكذبين ونجاة المؤمنين) .

(ويحتوي بعض صور النفس البشرية في مواجهة الأحداث الجارية بالنعماء والبأساء ، فيرفع للمكذبين المستعجلين بالعذاب ، المتحدّين للنذر في استهتار ... يرفع لهم صور أنفسهم وهم في مواجهة مايستعجلون به حين يحل بهم . وفي الحسرات التي تصيب أنفسهم على تقلب الأحداث بهم ، وفَوْت النعمة وإفلاتها من أيديهم ، وفي البطر والغرور والانخداع بكشف الضر وفيض النعمة من جديد) .

(ويحتوي شيئاً من مشاهد القيامة ، وصور المكذبين فيها ، ومواجهتهم لربهم الذي كذبوا بوحيه وتولوا عن رسله وما يجدونه يومئذ من خزي لا ينصرهم منه أرباب ولا شفعاء) .

(ومن المؤثرات التي ترتجف لها القلوب ما يصوره السياق من حضور الله سبحانه واطّلاعه على ما يخفي البشر من ذوات الصدور ، بينا هم غارّون لا يستشعرون حضوره سبحانه ولا علمه المحيط ، ولا يحسون قهره للخلائق وإحاطته بها جميعاً ، وهم - الذين يكذبون - في قبضته كسائر الخلائق ، من حيث لا يشعرون) .

(ومن المؤثرات الموحية في سياق السورة كذلك ، استعراض موكب الإيمان . بقيادة الرسل الكرام ، على مدار الزمان . وكل منهم يواجه الجاهلية الضالة بكلمة الحق الواحدة الحاسمة الجازمة ، في صراحة وفي صرامة ، وفي ثقة وطمأنينة ويقين) .

ولنبدأ عرض السورة .

المقدمة والمقطع الأول :

وذلك حتى نهاية الآية (٢٤) وهذان هما :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾
أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ
تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ
وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ
ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ * وَمَا مِن دَآبَّةٍ
فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ
مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ
عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ
لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ
مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم
مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ

لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ
ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ
بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ
مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ
يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم
مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا
وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ
مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ
شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن
يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن
رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ
رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا

عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

التفسير :

﴿ **الر كتاب أحكمت آياته** ﴾ أي هذا الكتاب قد نظمت آياته نظماً رصيناً محكماً بعجيب النظم وبديع المعاني ، فلا يقع فيه نقص ولا خلل كالبناء المحكم ﴿ **ثم فصلت** ﴾ أي بينت فيها الأحكام والقصص والمواعظ ، فآيات القرآن محكمة من جهة لا يدخل عليها نقص ولا نقض ولا خلل ، وهي في الوقت نفسه مفصّلة مبينة واضحة وقد ذهب النسفي (أن كلمة فصّلت تحتمل أنها جعلت فصولاً سورة سورة ، وآية آية) . و(ثم) في الأصل تفيد التراخي في الوقت ، وههنا تفيد الجمع والتراخي في الحال ، فليس التفصيل على حساب الإحكام ، بل الإحكام أولاً ثم التفصيل ، مع أن التفصيل في غاية البيان ، ومن مظاهر التفصيل ما رأيناه في هذا الكتاب ، من كون كل قسم من القرآن يفصّل نوع تفصيل لما أجمل في مكان آخر ، وكل سورة تفصّل ما أجمل في آية أو في مجموعة آيات ، وهذا مظهر واحد من مظاهر التفصيل في القرآن ، ومن مظاهر التفصيل البيان المفهوم لكل عربي على حسب طاقته ، ووضوح المعاني ووصولها إلى القلب السليم ، وكتاب يجمع مثل هذا الإحكام في النظم والمعاني ، حتى إنه ليسع الزمان والمكان والإنسان ، ولا ينقضه شيء في الزمان والمكان ، مع هذا التفصيل والبيان لا يمكن أن يكون إلا من عند الله ، ولذلك ختمت هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ **من لدن**

حكيم خبير ﴾ أي الله . فالله عز وجل الحكيم في أقواله وأفعاله ، الخبير بعواقب الأمور هو منزل هذا القرآن ، ومن ثم كان فيه مثل هذا الإحكام والتفصيل ﴿ **ألاّ تعبدوا** ﴾أى بأن لا أو لئلا تعبدوا ﴿ **إلا الله** ﴾ ويمكن أن تكون (**أن**) في هذا المقام مفسِّرة للإحكام والتفصيل ، لأن في تفصيل الآيات معنى القول ، كأنه قيل : قال لا تعبدوا إلا الله ، أو أمركم ألا تعبدوا إلا الله . والمعنى : نزل هذا القرآن المحكم المفصّل لعبادة الله وحده لا شريك له ﴿ **إنني لكم منه** ﴾ أي من الله ﴿ **نذير** ﴾ بالعذاب إن خالفتموه ﴿ **وبشير** ﴾ بالثواب إن أطعتم الله والضمير في (إنني) يعود إما إلى القرآن نفسه ، أو إلى الرسول المنزّل عليه هذا القرآن ﴿ **وأن استغفروا ربكم** ﴾ معطوف على ﴿ **أن لا تعبدوا** ﴾ أي أحكمت آياته ثم فصّلت للعبادة والاستغفار ، أي وأمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة ، والتوبة منها إلى الله عز وجلّ فيما تستقبلونه ، وأن تستمروا على ذلك ﴿ **ثم توبوا إليه** ﴾ أي استغفروه من الذنب ثم ارجعوا إليه بالطاعة ﴿ **يمتعكم** ﴾ في الدنيا ﴿ **متاعاً حسناً** ﴾ بطيب عيش وسعة رزق ﴿ **إلى أجل مسمّى** ﴾ هو الموت . والمعنى : إن عبدتم واستغفرتم ولازمتم الطاعة نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية ، من عيشة واسعة ، ونعمة متتابعة إلى أن يتوفاكم ﴿ **ويؤت كل ذي فضل** ﴾ في الاعتقاد والعمل ﴿ **فضله** ﴾ أي جزاءه ، أي ويعط في الآخرة كل من له فضل في العمل وزيادة فيه جزاءَ فضله ، لا يبخس منه شيئاً ﴿ **وإن تولوا** ﴾ أي وإن تتولوا أي تعرضوا ﴿ **فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير** ﴾ هو يوم القيامة ، وهذا تهديد شديد لمن تولّى عن أوامر الله تعالى ، وكذّب رسله ، فإنّ العذاب يناله يوم القيامة لا محالة ﴿ **إلى الله مرجعكم** ﴾ أي معادكم ورجوعكم يوم القيامة ﴿ **وهو على كل شيء قدير** ﴾ ومن ثَمّ كان قادراً على إعادتكم وإثابتكم وتعذيبكم . والمعنى : وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه ، وانتقامه من أعدائه وإعادة الخلائق يوم القيامة وهذا مقام ترهيب ، كما أن الوعد السابق في إعطاء كل ذي فضل فضله مقام ترغيب .

وقد لخّصت هذه الآيات مقاصد القرآن بأنها العبادة والاستغفار ، والتبشير والإنذار ، وأن الإحكام والتفصيل في هذا القرآن إنما كان من أجل تحقيق هذه المقاصد ، فأن يخدم هذا الإحكام وهذا التفصيل هذه المقاصد فهذا كذلك مظهر من مظاهر الإعجاز الذي لا يستطيعه بشر ، وذلك يدلّ على أن هذا القرآن من عند الله .

فوائد :

١ - دلّت هذه الآيات على أن المقصد الأول لهذا القرآن هو العبادة ، وأن كل شيء فيه من أجل تحقيق هذا المقصد ، وأن الاستغفار يلازم هذا المقصد ، لأنه لا أحد يقوم بحق الله في العبادة حق القيام بتحقيق هذا القرآن في نفسه ، حتى إن رسول الله ﷺ الذي كان خُلقه القرآن كان يلازم الاستغفار ملازمة عجيبة .

٢ - فهمنا من الآيات السابقة أن الإحكام والتفصيل في هذا القرآن من أجل تحقيق مقصد العبادة لله وحده ، وأن الاستغفار والعبادة متلازمان ، وأن هذه المعاني صيغت كلها بصيغة التبشير والإنذار ، فأن يوجد كتاب في مثل هذا المستوى الأعظم في كل شيء في أرض العرب الذين تصوراتهم الوثنية في أحط الدركات ، فذلك دليل على أن هذا القرآن من عند الله .

٣ - كثير من الناس تغيب عنهم القيم الحقيقية للأشياء ، والمسلمون أنفسهم الذين أعطاهم الله الميزان الذي يعرّفهم على القيم الحقيقية للأشياء هؤلاء المسلمون أنفسهم فَقَدَ الكثيرون منهم معرفةَ القيمة الحقيقية للأشياء ، ومن هذه القيم التي شالت كفتها عندهم قيمة العبادة والاستغفار .

٤ - تحقيقاً لمقصد القرآن في الإنذار والتبشير فإن رسول الله ﷺ الذي كان خلقه القرآن كان بشيراً ونذيراً . وقد وصف الله رسوله ﷺ بالبشير والنذير ، وذلك مقام من جملة مقاماته التي أعطاه الله عز وجل إياها ، ولقد أعطى الله رسوله ﷺ من المقامات ما لا يتصوره بشر ، ومن ذلك أنه قد أقامه مقامه في كثير من الآيات في الطاعة والبيعة ، وفي مقام التبشير والإنذار كان المظهر الأعظم لهذا القرآن .

٥ - نفهم من ما مر أن كل تشريع في القرآن ، وكل نظام ، وكل توجيه ، وكل أدب ، إنما هو من أجل تحقيق المقصد الأعظم للقرآن وهو العبادة ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ (الذاريات : ٥٦) .

٦ - إن على الورّاث الكاملين لرسول الله ﷺ أن يقوموا بأقوالهم وأعمالهم بمهمة النذارة والتبشير كما كان رسول الله ﷺ يفعل ، وتقديم الإنذار في الآيات على التبشير دليل على أن الإنذار في حق الغافلين والكافرين مقدّم على التبشير ، كما كان يفعل رسول الله ﷺ في أول الإسلام ، جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ صعد الصفا

فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب فاجتمعوا فقال : « يامعشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصبحكم ألستم مصدقيّ ؟ » فقالوا : ما جرّبنا عليك كذباً ، قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .

ويقدّم التبشير في حق المؤمنين كما كان حاله عليه الصلاة والسلام مع المؤمنين ، وكمثال من الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لسعد : « وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في في امرأتك » .

٧ - قال ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ **ويؤت كل ذي فضل فضله** ﴾ من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات ، فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات ، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة ، وبقيت له تسع حسنات ، ثم يقول : هلك من غلب آحاده على أعشاره . » ابن جرير .

٨ - بمناسبة الأمر بالاستغفار نذكر هذه الأحاديث الثلاثة :

ا - عن أغر مزينة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر في اليوم مائة مرة » رواه مسلم وأبو داود .

ب - في حديث رواه مسلم وأبو داود أنه ﷺ قال : « توبوا إلى ربكم ، فوالله إني لأتوب إلى ربي مائة مرة في اليوم » .

جـ - ذكر ابن عمر في حديث حسن أنه كان يُعَدُّ لرسول الله ﷺ في مجلس واحد مائة مرة « رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم » .

ولنعد إلى التفسير :

﴿ **ألا إنهم يثنون صدورهم** ﴾ أي يَزْوَرُّون عن الحق ، وينحرفون عنه ، لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدره ، ومن ازورّ عنه وانحرف ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه ﴿ **ليستخفوا منه** ﴾ أي ليطلبوا الخفاء من الله فلا يُطْلِع رسوله ﷺ والمؤمنين على ازورارهم ﴿ **ألا حين يستغشون ثيابهم** ﴾ أي يتغطّون بها أي يريدون الاستخفاء حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل ﴿ **يعلم مايسرُّون** ﴾ من القول ﴿ **وما يعلنون** ﴾ فلا يغني استخفاؤهم ، أي لا تفاوت في علمه بين إسرارهم وإعلانهم ، فلا

وجه لتوصلهم إلى ما يريدون من الاستخفاء ، والله مطلع على ثنيهم صدورهم واستغشائهم ثيابهم ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي بما في القلوب ، وهكذا من خلال العرض لوضع بعض الناس عرّفنا الله على ذاته ، فبعد أن أمرنا الله بعبادته عرّفنا على ذاته وصفاته جل جلاله ، أما هذا الوضع الإنساني فهو إما وضع منحرف لمنافقين وإما وضع هو أثر عن تصوّر خاطىء لمسلمين - كما سترى في الفائدة اللاحقة - وأيّاً كان فإن السياق من خلال عرضه هذا الوضع عرّفنا على الله عز وجل الذي جاء الأمر بعبادته في أول هذا المقطع .

فائدة :

من أقوال المفسرين في سبب نزول هذه الآية : أنّ ناساً كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه ، فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك ، فأخبرهم الله أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل يعلم ما يسرُّون وما يعلنون . قال مجاهد والحسن وعبد الله بن شداد : كان أحدهم إذا مرّ برسول الله ﷺ ثنى صدره وغطّى رأسه . وروى البخاري عن ابن عباس فيها قال : أناس يستحيون أن يتخلوا فيفضوا بفروجهم إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء ، فنزل ذلك فيهم . فإذا كانت الآية في المسلمين فهي تصحيح لمفهوم مرتبط بالعبادة ، فليست العبادة في الإسلام أن تخجل مما أباحه الله . وإن كانت في الكافرين والمنافقين فهي تصحيح لتصوّرهم عن الذات الإلهية ، وأياً كان سبب النزول فالآية هي وما بعدها تعرّفنا على الله الذي أمرنا بعبادته ، إذ لا عبادة إلا بعد معرفة ، وهكذا يستمر السياق في تعريفنا على الله .

﴿ وما من دابة في الأرض ﴾ كل ما دبّ على الأرض فهو دابة ﴿ إلا على الله رزقها ﴾ منّة منه وتفضّلاً ، لا وجوباً عليه تعالى ، فهو مالك كل شيء ، ويفعل ما يريد ﴿ ويعلم مُستقرّها ﴾ أي يعلم أين منتهى سيرها في الأرض ، وأين مكانها من الأرض ومسكنها ﴿ ومستودعها ﴾ أي حيث كانت مودعة قبل الاستقرار من صلب أو رحم أو بيضة ، أو حيث تموت ﴿ كلّ ﴾ أي كل ذلك من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها ﴿ في كتاب مبين ﴾ هو اللوح المحفوظ ، أي إن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله ، مبين عن جميع ذلك ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ﴾ تعليماً للتأني ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ قبل أن يخلق شيئاً ، وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل خلق السموات والأرض ، العرش علوي والماء سفلي ،

والملاحظ الآن علمياً أن الفارق بين العناصر هو في عدد الكتروناتها وبروتوناتها ، وأن الماء مؤلف من أكسجين وهيدروجين وأن ذرة الهيدروجين ، مؤلفة من بروتون واحد ، والكترون واحد ، وهذا يعني أن ما سوى الهيدروجين من العناصر الأصل فيه الهيدروجين ، ولا ندري ماذا يمكن أن يأتي به العلم البشري في المستقبل من احتمالات اكتشاف مزيد مما يلقي ضوءاً يزيدنا إبصاراً في فهم الآية ، وفي فهم قضية الخلق ﴿ **ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾ أي خلق السمٰوات والأرض وما فيهما من منافع ومصالح ، ليختبركم أيكم أطوع لله وأكثر شكراً ، ولم يُخلق ذلك عبثاً ، فلم تخلق هذه الأشياء إلا للامتحان ، فمن كان أحسن عقلاً ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع في طاعة الله ، أثابه الله ، ومن كفر وعصى عاقبه ، ولمّا أشبه ذلك اختبار المختبر قال : ﴿ **ليبلوكم** ﴾ أي ليفعل بكم ما يفعل المبتلي لأحوالكم كيف تعملون ، وهو جل جلاله أعلم بما نحن عاملون ، وقال : ﴿ **أحسن عملاً** ﴾ ولم يقل أكثر عملاً لأن العبرة بحسن العمل ، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عز وجل ، وعلى شريعة رسول الله ﷺ فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين حبط وبطل ﴿ **ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت** ﴾ أي ولئن أخبرت يامحمد هؤلاء الكافرين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم وذلك مقتضى الحكمة في خلق السمٰوات والأرض للابتلاء ، فالبعث شيء بديهي لمن أدرك هذه الحقيقة ﴿ **ليقولنّ الذين كفروا إن هذا** ﴾ أي ما هذا ﴿ **إلا سحر مبين** ﴾ أي بيّن واضح ، أي ما هذا القرآن إلا سحر واضح ، ووصف القرآن بالسحر إشارة إلى أنه لم يجرِ إلا التمويه والباطل الذي يجانف الحق ، وإذ وصفوا القرآن بالسحر فقد أبطلوا كل ما فيه ، ومن ذلك موضوع الإيمان باليوم الآخر ، مع أن تكذيبهم بالقرآن وتكذيبهم باليوم الآخر نفي للحكمة من خلق السمٰوات والأرض أصلاً ، ثم بيّن الله عز وجل أن الكافر لا تزيده النعم والإمهال إلا عتواً وتمرّداً وكفراً ﴿ **ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة** ﴾ أي أوقات ﴿ **معدودة ليقولن** ﴾ استهزاءً ﴿ **ما يحبسه** ﴾ أي ما يمنعه من النزول . والمعنى : لئن أخرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء الكافرين إلى أجل معدود ، وأمر محصور ، وأوعدناهم إلى مدة مضروبة ، ليقولن تكذيباً واستهزاءً ما يؤخره عنا ؟ أي يقولون للمؤمنين : إنّ ما تقولونه غير صحيح أصلاً ، ولو كان صحيحاً لعُذبنا . والجواب ﴿ **ألا يوم يأتيهم** ﴾ أي العذاب ﴿ **ليس مصروفاً عنهم** ﴾ أي ليس مدفوعاً عنهم ﴿ **وحاق بهم** ﴾ أي نزل وأحاط ﴿ **ما كانوا به يستهزؤون** ﴾ من العذاب ، دلّ هذا على أن قولهم : ما يحبسه كان استهزاءً ، ثم أخبرنا الله عز وجل عن

الطبيعة البشرية في تلقيها الشدة والرّخاء ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ﴾ أي نعمة : من صحة ، وأمن ، وجاه ، وغنى ﴿ ثم نزعناها منه ﴾ أي ثم سلبناه تلك النعمة ﴿ إنه ليؤوس ﴾ أي قنوط شديد اليأس من أن تعود إليه مثل تلك النعمة المسلوبة ، بل يصبح قاطعاً للرجاء ﴿ كفور ﴾ أي عظيم الكفران لنعم الله ، ولما سلف له من التقلب فيها لَسَّاءَ له ﴿ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسّته ﴾ أي ولئن أصبناه بالنعمة بعد المصيبة التي نزلت به ﴿ ليقولنّ ذهب السيئات عني ﴾ أي المصائب ، ولم يشكر ولم يتذكر ، وكان لا يتوقع زوالها أصلاً ، ولسان حاله يقول : ما ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء ﴿ إنه لفرح ﴾ أي أشر بطر ﴿ فخور ﴾ على الناس بما أذاقه الله من نعمائه ، فهو فرح بحاله الجديد ، فخور على غيره ، وشغله الفرح والفخر عن الشكر ، هذه طبيعة الإنسان ، إلا من كان متصفاً بالصبر والعمل الصالح ، فإنه لا يكون كذلك ﴿ إلا الذين صبروا ﴾ في المحنة والبلاء على كل ضراء ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ في أحوالهم كلها ، في السرّاء والضرّاء ، فهؤلاء ليسوا في المحنة يؤوسين كفورين وليسوا بعد زوالها فخورين بطرين ، ومن ثم فقد استحقّوا من الله العطاء ﴿ أولئك لهم مغفرة ﴾ لذنوبهم ﴿ وأجر كبير ﴾ هو الجنة . وهكذا عرّفنا السياق على الله ، وعلى الحكمة من خلق السموات والأرض ، وأن القيام بحق الله والعبادة له هو التحقيق لهذه الحكمة ، وأن إنكار اليوم الآخر كفران بهذه الحكمة ، وأن الكافرين بالله واليوم الآخر تستجرهم النعم إلى الكفران ، مع أنهم في المحن على غاية من الهلع والجزع ، على عكس أهل الإيمان ، ومن السياق نفهم أن من العبادة الصبر على المحنة ، وترك اليأس ، والقنوط ، وملازمة العمل الصالح في كل حال .

فوائد :

١ - عند قوله تعالى ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ قال صاحب الظلال :

(والجديد هنا في خلق السماوات والأرض هو الجملة المعترضة : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ وما تفيده من أنه عند خلق السماوات والأرض أي إبرازهما إلى الوجود في شكلهما الذي انتهيا إليه كان هناك الماء ، وكان عرش الله سبحانه على الماء .

أما كيف كان هذا الماء . وأين كان ، في أية حالة من حالاته كان . وأما كيف كان عرش الله على هذا الماء .. فزيادات لم يتعرض لها النص ، وليس لمفسر يدرك حدوده أن يزيد شيئاً على مدلول النص ، في هذا الغيب الذي ليس لنا من مصدر لعلمه إلا هذا النص وفي حدوده) .

٢ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة** ﴾ قال ابن كثير : (والأمة تستعمل في القرآن والسنة في معان متعددة : فيراد بها الأمد كقوله في هذه الآية ﴿ **إلى أمة معدودة** ﴾ وقوله في سورة يوسف ﴿ **وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة** ﴾ ، وتستعمل في الإمام المقتدىٰ به كقوله ﴿ **إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين** ﴾ (النحل : ١٢٠) ، وتستعمل في الملة والدين كقوله إخباراً عن المشركين إنهم قالوا : ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾ (الزخرف : ٢٣) ، وتستعمل في الجماعة كقوله ﴿ **ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون** ﴾ (القصص : ٢٣) وقوله ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ (النحل : ٣٦) وقال تعالى : ﴿ **ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون** ﴾ (يونس : ٤٧) ، والمراد من الأمة ههنا الذين يبعث فيهم الرسول ، مؤمنهم وكافرهم ، كما في صحيح مسلم : « والذي نفسي بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ، يهودي ولا نصراني ، ولا يؤمن بي ، إلا دخل النار » . وأما أمة الأتباع فهم المصدقون للرسل كما قال تعالى : ﴿ **ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** ﴾ (الأعراف : ١٥٩) وكقوله ﴿ **من أهل الكتاب أمة قائمة** ﴾ الآية (آل عمران : ١١٣) .

٣ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾ نذكر هذين الحديثين :

أ - « والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هَمٌّ ولا غَمٌّ ، ولا نصب ولا وصب ، ولا حزن حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفَّر الله عنه بها من خطاياه » .

ب - وفي الصحيحين : « والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له : إن أصابته سرَّاء فشكر كان خيراً له ، وأن أصابته ضرَّاء فصبر كان خيراً له ، وليس ذلك لأحد غير المؤمن » .

ولنعد إلى التفسير :

بعد أن بيّن الله عز وجل لنا في هذا المقطع أن هذا القرآن أنزل من أجل أن يعبد الله ، وبعد أن عرّفنا الله على ذاته ، وبيّن لنا حكمة خلق السمٰوات والأرض ، وموقف أهل الكفر والإيمان في الشدّة والرخاء ، وقد عرفنا محل ذلك في السياق ، يخاطب

رسوله ﷺ ليثبته على التمسك بالقرآن ، فلا تثنيه مواقف الكافرين عن أخذ القرآن جميعه ، لأن أي إخلال في تطبيق القرآن كله إخلال بعبادة الله ، وإخلال في تحقيق الحكمة من خلق السموات والأرض ، ونزول عن الخلق الأعلى :

﴿ **فلعلك تارك بعض ما يوحىٰ إليك** ﴾ بأن تترك أن تلقيه إليهم وتبلغهم إياه أو تترك العمل به ﴿ **وضائق به صدرك** ﴾ فتتحرج أن تتلوه عليهم وتدعوهم إليه مخافة ﴿ **أن يقولوا لولا** ﴾ أي هلا ﴿ **أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك** ﴾ معنى كلامهم : هلا أنزل عليه ما اقترحنا من الكنز لننفقه ، والملائكة لنصدقه ، ولمَ أُنزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه ، وهذا يفيد أنهم كانوا لا يعتدّون بالقرآن ويتهاونون به ، فهيّج الله رسوله ﷺ لأداء الرسالة ، وطرح المبالاة بردّهم واستهزائهم واقتراحهم ، وفي ذلك درس لكل تارك لكتاب الله ، أو لشيء منه ، مخافة من أقوال الناس ﴿ **إنما أنت نذير** ﴾ أي ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحي إليك ، وتبلغهم ما أُمرت بتبليغه ، ولا عليك إن ردّوا وتهاونوا ﴿ **والله على كل شيء وكيل** ﴾ أي حفيظ فيجازيهم بحفظ ما يقولون ، وهو فاعل ما شاءه بهم من جزاء ، فتوكّل عليه وكِلْ أمرك إليه ، وعليك بتبليغ الوحي بقلب فسيح ، وصدر منشرح ، غير ملتفت إلى استكبارهم ، ولا مبال بسفههم واستهزائهم ، وبعد أن بين الله لرسوله ﷺ ما يهيجه على عدم الالتفات لاقتراحاتهم ، فنّد دعواهم ، بأن يكون هذا القرآن مفترى من عند محمد عليه الصلاة والسلام — بأبي هو وأمي — ﴿ **أم يقولون افتراه** ﴾ أي بل يقولون اختلق هذا القرآن ، ونسبه إلى الله كذباً ﴿ **قل فأتوا بعشر سور** ﴾ تحدّاهم أولاً بعشر سور ، ثم بسورة واحدة ، كما يقول المتحدي في الخط لصاحبه مثلاً : أكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب ، فإذا تبيّن له العجز عن ذلك قال : قد اقتصرت منك على سطر واحد ﴿ **مثله** ﴾ في الحسن والجزالة واللفظ والأسلوب والفصاحة والبلاغة والمعنى ﴿ **مفتريات** ﴾ لمّا قالوا افتريت القرآن واختلقته من عند نفسك وليس من عند الله ، أرخى معهم العنان وقال : هَبُوا أني اختلقته من عند نفسي ، فأتوا أنتم أيضاً بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم ، فأنتم عرب فصحاء مثلي ﴿ **وادعوا** ﴾ للمعاونة على ذلك ﴿ **مَن استطعتم من دون الله** ﴾ أي غيره ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ في أنه مفترى . وهكذا أقام الله عليهم الحجة بإعجاز هذا القرآن . وهي حجة قائمة متحدى بها إلى يوم القيامة ، فلا يستطيع أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن ، ولا بعشر سور مثله ، ولا بسورة مثله ، قال ابن كثير : لأن كلام الرب لا يشبه كلام المخلوقين ، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات ، وذاته لا يشبهها شيء ، تعالى وتقدس

وتنزه لا إله إلا هو ولا رب سواه ﴿ **فإن لم يستجيبوا** ﴾ أي مَنْ دعوتموه للمعاونة والمعارضة ﴿ **لكم فاعلموا** ﴾ أيها الكافرون ﴿ **أنما أنزل بعلم الله** ﴾ أي أنزل ملبساً بما لا يعلمه إلا الله من نظم معجز ، ومعان لا يمكن أن تكون إلا من عند الله ﴿ **وأن** ﴾ أي واعلموا أنه ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ وحده ﴿ **فهل أنتم مسلمون** ﴾ بعد هذه الحجة القاطعة ، أي أسلموا ، دلّ على أن التسليم بإعجاز القرآن يقتضي شيئين : توحيد الله ، والإسلام له ، فإذا رأيت من يسلّم بالإعجاز ولا يوحّد ، ولا يسلم الإسلام الخالص ، فإنه كذّاب ، وهكذا عرفنا من السياق أن الإيمان بالقرآن يقتضي توحيداً وإسلاماً ، وهذه هي العبادة : معرفة بالله وصفاته ، واستسلام وطاعة له في أمره ، ويمكن أن نفهم الآية الأخيرة على أنها خطاب للمسلمين فيكون المعنى ﴿ **فإن لم يستجيبوا لكم** ﴾ أيها المسلمون فيما تحديتموهم به ، فأثبتوا على العلم الذي أنتم عليه ، وازدادوا يقيناً على أنه منزل من عند الله وعلى التوحيد ، ويكون معنى فهل أنتم مسلمون : فهل أنتم مخلصون خالصون لله ، أي أسلموا لله ظاهراً وباطناً بالإخلاص والعمل .

وإذ كان المانع من اتباع القرآن ، ومن عبادة الله ، والإنابة إليه ، والإسلام له ، والرغبة في الآخرة ، هي الدنيا ، فإن الله عز وجل بعد أن ذكر ما ذكر قال : ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم** ﴾ أي توصل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة ﴿ **فيها** ﴾ أي في الدنيا ﴿ **وهم فيها لايبخسون** ﴾ أي لا ينقصون شيئاً ﴿ **أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط** ﴾ أي وبطل ﴿ **ماصنعوا فيها** ﴾ أي وبطل ماصنعوه أو صنيعهم في الآخرة ، أي لم يكن لهم ثواب لأنهم لم يريدوا وجه الله والدار الآخرة ، إنما أرادوا به الدنيا ، وقد وفّى إليهم ما أرادوا ﴿ **وباطل ماكانوا يعملون** ﴾ أي كان عملهم في نفسه باطلاً ؛ لأنه لم يعمل لغرض صحيح ، والعمل الباطل لا ثواب له ، والآيتان عامتان في كل من أراد بعمله الدنيا ، سواء كان كافراً أو مسلماً ، حتى حملها بعضهم على المسلمين المرائين فقط ، والصواب أنها عامة ، ومما قيل في الآية : (قال العوفي عن ابن عباس : إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا ، وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً ، يقول : من عمل صالحاً لالتماس الدنيا صوما أو صلاة أو تهجداً بالليل ، لا يعمله إلا لالتماس الدنيا . يقول الله تعالى : أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة ، وحبط عمله الذي كان يعمله لالتماس الدنيا ، وهو في الآخرة من الخاسرين ، وهكذا روي عن مجاهد والضحاك وغير واحد . وقال أنس بن مالك والحسن : نزلت في اليهود والنصارى . وقال مجاهد وغيره : نزلت في أهل الرياء ، وقال قتادة : من

كانت الدنيا همه ونيته وطلبته جازاه الله بحسناته في الدنيا ، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاءً ، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة) ﴿ **أفمن كان على بيّنة من ربه** ﴾ والمعنى:أمَن كان يريد الحياة الدنيا كمن كان على بينة من ربه ، أي لا يستوون معهم في المنزلة ولا يقاربونهم ، يعني : أن بين الفريقين تبايناً بيناً ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ **على بيّنة من ربه** ﴾ أي على برهان من الله وبيان أن دين الإسلام حق ، وهو دليل العقل وأصل الفطرة ﴿ **ويتلوه شاهد منه** ﴾ أي وجاءه شاهد من الله ، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهّرة المكملة المنظمة المختتمة بشريعة محمد عليه الصلاة والسلام ، التي جاء بها القرآن المعجز . ويمكن أن يكون المعنى : أفمن كان على برهان من ربه - وهو دليل العقل - ويتلوه شاهد يشهد بصحته وهو القرآن من الله ﴿ **ومن قبله** ﴾ أي ومن قبل القرآن ﴿ **كتاب موسى** ﴾ وهو التوراة أي ويتلو ذلك البرهان أيضاً من قبل القرآن كتاب موسى عليه السلام ﴿ **إماماً** ﴾ أي كتاباً مؤتماً به في الدين وقدوة فيه ﴿ **ورحمة** ﴾ ونعمة عظيمة على المنزل عليهم ﴿ **أولئك** ﴾ أي مَن كان على بينة من ربهم ﴿ **يؤمنون به** ﴾ أي بالقرآن فلهم الجنة ﴿ **ومن يكفر به** ﴾ أي بالقرآن ﴿ **من الأحزاب** ﴾ أي من الملل كلها ﴿ **فالنار موعده** ﴾ أي مصيره ومورده ﴿ **فلاتك في مرية** ﴾ أي في شك ﴿ **منه** ﴾ أي من القرآن ﴿ **إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون** ﴾ مع قيام الحجة ووضوح البرهان ، وهكذا عرفنا أن هذا الدين يشهد له العقل ، ويشهد له إعجاز القرآن ، ويشهد له الوحي السابق ، ودينٌ هذا شأنه لا يترك الإيمان به إلا متكبّر جائر .

فوائد :

١ - عند قوله تعالى : ﴿ **أم يقولون افتراه قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات . وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ قال صاحب الظلال :

(ولقد سبق أن تحداهم بسورة واحدة في سورة يونس ، فما التحدي بعد ذلك بعشر سور ؟

قال المفسرون القدامى : إن التحدي كان على الترتيب : بالقرآن كله ، ثم بعشر سور ، ثم بسورة واحدة . ولكن هذا الترتيب ليس عليه دليل . بل الظاهر أن سورة يونس سابقة والتحدي فيها بسورة واحدة ، وسورة هود لاحقة والتحدي فيها بعشر سور . وحقيقة إن ترتيب الآيات في النزول ليس من الضروري أن يتبع ترتيب السور .

فقد كانت تنزل الآية فتلحق بسورة سابقة أو لاحقة في النزول . إلا أن هذا يحتاج إلى مايثبته . وليس في أسباب النزول مايثبت أن آية يونس كانت بعد آية هود . والترتيب التحكمي في مثل هذا لا يجوز .

ولقد حاول السيد رشيد رضا في تفسير المنار أن يجد هذا العدد (عشر سور) علة ، فأجهد نفسه طويلاً - رحمة الله عليه - ليقول : إن المقصود بالتحدي هنا هو القصص القرآني ، وأنه بالاستقراء يظهر أن السور التي كان قد نزل بها قصص مطول إلى وقت نزول سورة هود كانت عشرا . فتحداهم بعشر .. لأن تحديهم بسورة واحدة فيه يعجزهم أكثر من تحديهم بعشر نظراً لتفرق القصص وتعدد أساليبه ، واحتياج المتحدى إلى عشر سور كالتي ورد فيها ليتمكن من المحاكاة إن كان سيحاكي .. الخ .

ونحسب - والله أعلم - أن المسألة أيسر من كل هذا التعقيد . وأن التحدي كان يلاحظ حالة القائلين وظروف القول ، لأن القرآن كان يواجه حالات واقعة محددة مواجهة واقعة محددة . فيقول مرة : ائتوا بمثل هذا القرآن . أو ائتوا بسورة . أو بعشر سور . دون ترتيب زمني . لأن الغرض كان هو التحدي في ذاته بالنسبة لأي شيء من هذا القرآن كله أو بعضه ، أو سورة منه على السواء . فالتحدي كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره . والعجز كان عن النوع لا عن المقدار . وعندئذ يستوي الكل والبعض والسورة . ولا يلزم ترتيب ، إنما هو مقتضى الحالة التي يكون عليها المخاطبون ، ونوع مايقولون عن هذا القرآن في هذه الحالة . فهو الذي يجعل من المناسب أن يقال سورة أو عشر سور أو هذا القرآن . ونحن اليوم لا نملك تحديد الملابسات التي لم يذكرها لنا القرآن) .

وقال الألوسي عند قوله تعالى ﴿ **أم يقولون افتراه ..** ﴾ : هذا ونقل أنه استدل بهذه الآية على أن إعجاز القرآن بفصاحته لا باشتماله على المغيبات وكثرة العلوم ، إذ لو كان كذلك لم يكن لقوله سبحانه : ﴿ **مفتريات** ﴾ معنى أما إذا كان وجه الإعجاز الفصاحة صح ذلك لأن فصاحة الكلام تظهر إن صدقا وإن كذبا .

٢ - وعند قوله تعالى : ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون** ﴾.. قال صاحب الظلال :

(إن للجهد في هذه الأرض ثمرته . سواء تطلع صاحبه إلى أفق أعلى أو توجه به إلى منافعه القريبة وذاته المحدودة . فمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فعمل لها وحدها فإنه يلقى نتيجة عمله في هذه الدنيا ، ويتمتع بها كما يريد - في أجل محدود - ولكن ليس له في الآخرة إلا النار ، لأنه لم يقدم للآخرة شيئاً ، ولم يحسب لها حساباً . فكل عمل الدنيا يلقاه في الدنيا . ولكنه باطل في الآخرة لا يقام له فيها وزن وحابط (من حبطت الناقة إذا انتفخ بطنها من المرض) وهي صورة مناسبة للعمل المنتفخ المتورم في الدنيا وهو مؤد إلى الهلاك .

ونحن نشهد في هذه الأرض أفراداً اليوم وشعوباً وأمماً تعمل لهذه الدنيا . وتنال جزاءها فيها . ولدنياها زينة ، ولدنياها انتفاخ . فلا يجوز أن نعجب ولا أن نسأل : لماذا ؟ لأن هذه هي سنة الله في هذه الأرض **﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴾** ولكن التسليم بهذه السنة ونتائجها لا يجوز أن ينسينا أن هؤلاء كان يمكن أن يعملوا نفس ماعملوه - ونفوسهم تتطلع للآخرة وتراقب الله في الكسب والمتاع - فينالوا زينة الحياة الدنيا لايبخسون منها شيئاً ، وينالوا كذلك متاع الحياة الأخرى .

إن العمل للحياة الأخرى لا يقف في سبيل العمل للحياة الدنيا . بل إنه هو هو مع الاتجاه إلى الله فيه . ومراقبة الله في العمل لا تقلل من مقداره ولا تنقص من آثاره . بل تزيد وتبارك الجهد والثمر ، وتجعل الكسب طيباً والمتاع به طيباً ، ثم تضيف إلى متاع الدنيا متاع الآخرة . إلا أن يكون الغرض من متاع الدنيا هو الشهوات الحرام . وهذه مردية لا في الأخرى فحسب ، بل كذلك في الدنيا ولو بعد حين . وهي ظاهرة في حياة الأمم وفي حياة الأفراد . وعبر التاريخ شاهدة على مصير كل أمة اتبعت الشهوات على مدار القرون) .

٣ - عند قوله تعالى **﴿ أفمن كان على بيّنة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ﴾** قال صاحب الظلال :

(ويكون المعنى الكلي للآية : أفهذا النبي الذي تتضافر الأدلة والشواهد على صدقه وصحة إيمانه ويقينه .. حيث يجد في نفسه بينة واضحة مستيقنة من ربه . وحيث يتبعه - أو يتبع يقينه هذا - شاهد من ربه هو هذا القرآن الدال بخصائصه على مصدره الرباني . وحيث يقوم على تصديقه شاهد آخر قبله . هو كتاب موسى الذي جاء إماماً

لقيادة بني إسرائيل ، ورحمة من الله تنزلت عليهم . وهو يصدّق رسول الله ﷺ بما تضمنه من التبشير به ، كما يصدقه بما فيه من مطابقة للأصول الاعتقادية التي يقوم عليها دين الله كله . يقول : أفمن كان هذا شأنه يكون موضعاً للتكذيب والكفر والعناد كما تفعل الأحزاب التي تناوئه من شتى فئات المشركين ؟! إنه لأمر مستنكر إذن في مواجهة هذه الشواهد المتضافرة من شتى الجهات) .

وقال الألوسي عند الآية نفسها : (﴿ أفمن كان على بيّنة من ربه ﴾ تدل على الحق والصواب فيما يأتيه ويذره ، ويدخل في ذلك الإسلام دخولاً أولياً ، واقتصر عليه بعضهم بناءً على أنه مناسب لما بعد ، وأصل - البينة كما قيل - : الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة ، وتطلق على الدليل مطلقاً ، وهاؤها للمبالغة ، أو النقل ، وهي وإن قيل : إنها من بانْ بمعنى تبيّن واتضح لكنه اعتبر فيها دلالة الغير والبيان له ، وأخذها بعضهم من صيغة المبالغة ، والتنوين فيها هنا للتعظيم ، أي بينة عظيمة الشأن ، والمراد بها القرآن وباعتبار ذلك ، أو البرهان ذكر الضمير الراجع إليها في قوله سبحانه (ويتلوه) أي يتبعه (شاهد) عظيم يشهد بكونه من عند الله تعالى شأنه وهو - كما قال الحسين بن الفضل - الإعجاز في نظمه ، ومعنى كون ذلك تابعاً له : أنه وصف له لاينفك عنه حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، فلا يستطيع أحد من الخلق جيلاً بعد جيل معارضته ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) .

من هذين النقلين ندرك أن للمفسرين أكثر من اتجاه في الآية ، والذي نرجّحه أن البيّنة هي القرآن ، والشاهد هو الفطرة والقلب والعقل ، وعلى هذا الاتجاه فقد دلّت الآية على أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة ، وأما التفصيلات فإنها تؤخذ من الشريعة والفطرة تصدقها وتؤمن بها ، وهناك أكثر من حديث عن رسول الله ﷺ في تبيان أن الأصل في الإنسان سلامة الفطرة ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسّون فيها من جدعاء ؟ » الحديث . وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى : إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين ، فاجتالتهم عن دينهم ، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً » . وفي المسند والسنن : « كل مولود يولد على هذه الملة حتى يعرب عنه لسانه » الحديث . وقد ذكرنا أثناء

التفسير أن البينة العقل والشاهد القرآن لأنه هو الذي عليه عامّة المفسرين . ورجّحنا هنا مايتشرح له الصدر وهو ماذكره الألوسي أن البينة هي القرآن فأوصلنا هذا إلى قناعة ، أن الشاهد الذي يتبع القرآن من المسلم أو من الله هو العقل والفطرة .

٤ - روى أيوب السختياني عن سعيد بن جبير قال : كنت لا أسمع بحديث عن النبي ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه ، أو قال : تصديقه بالقرآن ، فبلغني أن النبي ﷺ قال : « لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني فلا يؤمن بي إلا دخل النار » ، فجعلت أقول : أين مصداقه في كتاب الله ؟ قال : وقلّما سمعت عن رسول الله ﷺ إلا وجدت له تصديقاً في القرآن ، حتى وجدت هذه الآية . ﴿ **ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده** ﴾ .

ولنعد إلى التفسير :

﴿ **ومن أظلم** ﴾ أي لا أحد أظلم ﴿ **ممن افترى على الله كذباً** ﴾ بنسبته الشريك والولد له ﴿ **أولئك يُعرَضون على ربهم** ﴾ أي يحبسون في الموقف وتعرض أعمالهم ﴿ **ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم** ﴾ أي ويشهد عليهم الأشهاد من الملائكة والنبيين بأنهم الكذابون على الله بأنه اتخذ ولداً وشريكا ﴿ **ألا لعنة الله على الظالمين** ﴾ أي الكاذبين على ربهم ﴿ **الذين يصدّون عن سبيل الله** ﴾ أي يصرفون الناس عن دينه ﴿ **ويبغونها** ﴾ أي يطلبون السبيل ﴿ **عوجاً** ﴾ أي معوجاً ، أو يصفون الطريق بالاعوجاج وهي مستقيمة ، أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالارتداد ﴿ **وهم بالآخرة هم كافرون** ﴾ كررت (هم) لتأكيد كفرهم بالآخرة ، واختصاصهم به ، وفي الآية تعريف للظالمين بأنهم الذين يردون الناس عن اتباع الحق ، وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل ، ويجنبونهم الجنة ، ويريدون أن يكون طريقهم عوجاً غير معتدلة ، ويجحدون بالآخرة ، ويكذبون فيها ﴿ **أولئك لم يكونوا** ﴾ أي ما كانوا ﴿ **معجزين في الأرض** ﴾ أي بمعجزين الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم ، بل هم تحت قهره وغلبته ، وفي قبضته وسلطانه ، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة ﴿ **وما كان لهم من دون الله** ﴾ أي غيره ﴿ **من أولياء** ﴾ أي أنصار يمنعونهم من عذابه ، أي لا أحد يتولاهم فينصرهم منه ، ويمنعهم من عقابه ، ولكنه أراد إنظارهم وتأخير عقابهم إلى ذلك اليوم .

وفي الصحيحين « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ﴿ **يُضاعف لهم**

العذاب ﴾ لأنهم أضلوا الناس عن دين الله ﴿ **ما كانوا يستطيعون السمع** ﴾ للحق من فرط حقدهم وحسدهم وكبرهم ﴿ **وماكانوا يبصرون** ﴾ الحق ، وهكذا اجتمع لهم الصمم عن الحق ، والعمى عنه ، فلفرط كراهيتهم للحق أصبحوا كأنهم عاجزون عن السماع والرؤية ﴿ **أولئك الذين خسروا أنفسهم** ﴾ لأنهم أدخلوا ناراً حامية فهم معذبون فيها لا يفتر عنهم من عذابها طرفة عين ﴿ **وضل عنهم** ﴾ أي وغاب عنهم وذهب ﴿ **ماكانوا يفترون** ﴾ من زخرف قول ، وباطل في العقائد وغيرها ﴿ **لا جرم** ﴾ أي حقاً ﴿ **أنهم في الآخرة هم الأخسرون** ﴾ أخبر تعالى بهذه الآية عن مآلهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة ، لأنهم استبدلوا الدركات عن الدرجات ، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن ، وعن شرب الرحيق المختوم بسَمُوم وحميم وظل من يحموم ، وعن الحور العين بطعام من غسلين ، وعن القصور العالية بالهاوية ، وعن قرب الرحمن ورؤيته بغضب الديان وعقوبته ، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون . وبعد أن بيّن الله عز وجل حال الكافرين ختم المقطع ببيان حال المؤمنين والموازنة بينهم وبين الكافرين ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم** ﴾ أي اطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع ، فاجتمع لهم الإيمان والعمل الصالح والخشوع وهذه بمجموعها عبادة ﴿ **أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ وهكذا بعد أن ذكر الأشقياء ، ثنى بذكر السعداء : وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فآمنت قلوبهم ، وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولاً وفعلاً ، من الإيمان بالطاعات ، وترك المنكرات ، وبهذا ورثوا الجنات المشتملة على الغرف العاليات ، والسُّرر المصفوفات ، والقطوف الدانيات ، والفرش المرتفعات ، والحسان الخيّرات ، والفواكه المتنوعات ، والمآكل المشتهيات ، والمشارب المستلذّات ، والنظر إلى خالق الأرض والسموات . وهم في ذلك خالدون لا يموتون ، ولا يهرمون ولا يمرضون ، ولا ينامون ، ولا يتغوّطون ، ولا يبصقون ولا يتمخّطون ، إن هو إلا رشح مسك يعرقون .

ثم ضرب الله تعالى مثلاً للكافرين والمؤمنين فقال : ﴿ **مثل الفريقين** ﴾ أي الذين وصفهم أولاً بالشقاء ، والمؤمنين بالسعادة ، فأولئك كالأعمى والأصم ، وهؤلاء كالبصير والسميع ﴿ **كالأعمى والأصم والبصير والسميع** ﴾ شبّه فريق الكافرين بالأعمى والأصم وشبّه فريق المؤمنين بالبصير والسميع ، فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا والآخرة ، لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه ، أصم عن سماع الحجج ؛ فلا يسمع ما ينتفع به ، وأما المؤمن ففطن ذكي ، لبيب ، بصير بالحق ، يميز بينه وبين الباطل ، فيتبع

الخير ، ويترك الشر ، سميع للحجة ، يفرّق بينها وبين الشبهة ، فلا يروج عليه باطل ، ﴿ **هل يستويان مثلا** ﴾ فهل يستوي هذا وهذا ؟! ﴿ **أفلا تذكّرون** ﴾ أي أفلا تتعظون وتعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء ، وتكونون من أهل الإيمان .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم** ﴾ ذكر ابن كثير الحديث النبوي الذي أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين عن صفوان بن محرز قال:« كنت آخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعته يقول : « إنّ الله عز وجل يدني المؤمن ، فيضع عليه كنفه ، ويستره من الناس ، ويقرّره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرّره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وإني أغفرها لك اليوم ، ثم يُعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون : فيقول ﴿ **الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين** ﴾ .

٢ - ذكر الله عز وجل في أوائل هذه السورة قوله ﴿ **وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء** ﴾ وقد ذكرنا أثناء مرورنا على هذه الآية أن أول الخلق كان العرش والماء ، ثم كان خلق السموات والأرض ، وههنا نروي أحاديث في المعنى نفسه :

روى الإمام أحمد عن صفوان بن محرز عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : « اقبلوا البشرى يابني تميم » قالوا : قد بشرتنا فأعطنا ، قال : « اقبلوا البشرى يأهل اليمن » قالوا : قد قبلنا ، فأخبرنا عن أول الأمر كيف كان ؟ قال : « كان الله قبل كل شيء ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء » قال : فأتاني آت فقال : ياعمران انحلّت ناقتك من عقالها ، قال : فخرجت في أثرها ، فلا أدري ما كان بعدي . وهذا الحديث مخرج في صحيحي البخاري ومسلم بألفاظ كثيرة ، فمنها : قالوا : جئناك نسألك عن أول هذا الأمر فقال : « كان الله ولم يكن شيء قبله - وفي رواية غيره - وفي رواية معه - وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، ثم خلق السموات والأرض » . وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق

السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » وروى البخاري في تفسير هذه الآية .. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله عز وجل : أنفِق أُنفِقْ عليك » . وقال : « يد الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحّاء الليل والنهار » وقال : « أفرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه ، وكان عرشه على الماء ، وبيده الميزان يخفض ويرفع » .

وروى الإمام أحمد عن أبي رزين العقيلي قال : قلت : يارسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : « كان في عماء ما تحته هواء ، وما فوقه هواء ، ثم خلق العرش بعد ذلك » . وقد رواه الترمذي في التفسير ، وابن ماجه في السنن ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن وقال مجاهد : ﴿ **وكان عرشه على الماء** ﴾ قبل أن يخلق شيئاً ، كذا قال وهب بن منبه وضمرة وقتادة وابن جرير وغير واحد . وقال قتادة في قوله ﴿ **وكان عرشه على الماء** ﴾ ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض ، أقول : (ما) في قوله (ما فوقه هواء وما تحته هواء) نافية أي ليس معه شيء .

كلمة في السياق :

١ - قلنا : إن محور سورة هود عليه السلام هو قوله تعالى ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم** ﴾ وقد رأينا أن هذا المقطع بدأ بتقرير أن هذا القرآن أُحكم وفصّل من أجل عبادة الله واستغفاره ، وسيأتي الآن مقطع ثان فيه ثلاث قصص لأنبياء دعوا قومهم إلى عبادة الله هم : نوح ، وهود ، وصالح .

٢ - لقد فصّل المقطع الذي مرّ معنا في كثير من مضامين العبادة ومظاهرها ، كما بيّن لنا الكثير مما تقتضيه العبادة لله في العسر واليسر وفي كل حال .

٣ - وُصف القرآن الذي أُنزل داعياً إلى العبادة والاستغفار بأنه نذير وبشير ، وقد رأينا في المقطع نماذج على نذارته وبشارته ، وسنرى في المقطع الثاني إنذارات وبشارات من خلال عرضه لقصص الأنبياء ومواقف أقوامهم منهم ، وما آل إليه أمر المرسلين وأمر المكذبين .

٤ - ومن خلال ما مرّ وسيمر تتعمق قضية العبادة والاستغفار .

المقطع الثاني

ويمتد من الآية (٢٥) إلى نهاية الآية (٦٨) وهذا هو :

المجموعة الأولى

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ
إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ
عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ
مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ
إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ
إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ
ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ
خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ
جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾
قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ
أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾
وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم
مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ
إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ
عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ
قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ۚ
وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ
إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ
وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ
جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ
بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ
أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ
الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ

غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

المجموعة الثانية

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ
وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا
هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ
جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟
فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ
قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ *

المجموعة الثالثة

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ
أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى
قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن
نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ
عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً
فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾
فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا

جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

تفسير المجموعة الأولى

﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني** ﴾ أي بأني ﴿ **لكم نذير مبين** ﴾ أي بيّن الإنذار ﴿ **ألا تعبدوا إلا الله** ﴾ أي : إني لكم ظاهر النذارة من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله ﴿ **إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم** ﴾ أي مؤلم موجع في الدنيا والآخرة إن استمررتم على ما أنتم عليه ، وقد وصف اليوم نفسه بأنه أليم لوقوع الألم فيه ﴿ **فقال الملأ الذين كفروا من قومه** ﴾ الملأ : هم الأشراف ، لأنهم في موازين الناس يملئون القلوب هيبة ، والمجالسَ أبّهة ، أو لأن الناس يعتبرونهم ملئوا بالأحلام والآراء الصائبة ﴿ **ما نراك إلا بشراً مثلنا** ﴾ أي لست بملك ولا ملَك ولكنك بشر فكيف أوحي إليك من دوننا ، ولست بذي فضل علينا ﴿ **وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا** ﴾ أي أخساؤنا وأسافلنا ﴿ **بادي الرأي** ﴾ أي وقت حدوث أول رأيهم ، أرادوا أن اتّباعهم لك شيء عَنَّ لهم بديهة من غير رَوِيَّة ونظر ، ولو تفكّروا ما اتبعوك . قال النسفي : (وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية لأنهم (أي الكافرين) كانوا جهالاً ، ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، فكان الأشراف عندهم من له جاه ومال ، كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام يعتقدون ذلك ، ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم ، ولقد زلّ عنهم أن التقدم في الدنيا لا يقرّب أحداً من الله . وإنما يبعده » أقول : هذا إذا لم يرافقه إيمان وإحسان . ﴿ **وما نرى لكم علينا من فضل** ﴾ أي ما رأينا لكم علينا فضيلة في خُلق ولا خَلق ، ولا رزق ولا حال ، لمادخلتم في دينكم هذا ، ومن قبل ليس لكم فضيلة في مال ولا رأي ﴿ **بل نظنكم كاذبين** ﴾ في دعوى الرسالة ، أي نوحاً في الدعوة ، ومتبعيه في الإجابة ، والتصديق بمعنى تواطأتم على الدعوة والإجابة تسبيباً للرئاسة ، وهكذا نجد أن ما قاله قوم نوح هو لسان حال الكافرين في كل عصر ، أن يتهموا أهل الإيمان بالرذالة ، وضحالة الرأي ، وانعدام الميزات ، والكذب في دعوى حمل الإسلام . وهكذا بآية واحدة جمع الله عز وجل كل ما قاله قوم

نوح لنوح والمؤمنين في ردّ دعوتهم ، وهو ردٌّ سفيه جاهل .

فائدة :

قال ابن كثير في التعقيب على ردّ الكافرين المذكور آنفاً :

(هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه ، وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم ، فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتّبعه ، فإن الحق في نفسه صحيح ، سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل ، ولو كانوا أغنياء ، ثم الواقع غالباً إنما يتبع الحق ضعفاء الناس ، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته ، كما قال تعالى : ﴿ **وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾ (الزخرف : ٢٣) ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان - صخر بن حرب - عن صفات النبي ﷺ قال له فيما قال : أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم ، فقال هرقل : هم أتباع الرسل ، وقولهم (بادي الرأي) ليس بمذمة ولا عيب ، لأن الحق إذا وضح لا يبقى للتروي ولا للفكر مجال ، بل لابد من اتباع الحق - والحالة هذه - لكل ذي زكاء وذكاء ، بل لا يفكر ههنا إلا غبي أو عييّ ، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إنما جاؤوا بأمر جليّ واضح ، وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر فإنه لم يتلعثم » أي ما تردّد ولا تروّى لأنه رأى أمراً جلياً عظيماً واضحاً فبادر إليه وسارع ، وقولهم : ﴿ **وما نرى لكم علينا من فضل** ﴾ هم لا يرون ذلك لأنهم عمي عن الحق . لا يسمعون ولا يبصرون ، بل هم في ريبهم يتردّدون ، في ظلمات الجهل يعمهون ، وهم الأفاكون الكاذبون الأقلون الأرذلون . وفي الآخرة هم الأخسرون) .

° ° °

﴿ **قال يا قوم أرأيتم** ﴾ أي أخبروني ﴿ **إن كنت على بيّنة من ربي** ﴾ أي على برهان وشاهد منه يشهد بصحة دعواي ، أي على يقين وأمر جلي ونبوة صادقة وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم ، إذ جاءهم بما يحقق حكمة وجودهم وخلقهم ﴿ **وآتاني رحمة من عنده** ﴾ أي النبوة التي هي أعظم مظهر من مظاهر رحمة الله بخلقه ، وأيّ رحمة أعظم من رحمة نتعرّف بها على الله ورسالاته ﴿ **فعُمّيت عليكم** ﴾ أي أخفيت البيّنة فلم تهدكم ، كما لو عمّي على القوم دليلهم في الصحراء فبقوا بغير دلالة ، وهؤلاء لم يهتدوا إليها ، ولا عرفوا قدرها ، بل بادروا إلى تكذيبها وردّها ﴿ **أنلزمكموها** ﴾ أي أنغصبكم

يقبول هذه الرحمة ﴿ **وأنتم لها كارهون** ﴾ أي لا تريدونها ﴿ **وياقوم لا أسألكم عليه** ﴾ أي على تبليغ الرسالة ﴿ **مالاً** ﴾ أي أجرة يثقل عليكم إن أديتموه إليّ ، أو يثقل عليّ إن أبيتم دفعه ، وإنما أنا مبلّغ عن الله ، ومبتغ بذلك وجهه ﴿ **إن أجري إلا على الله** ﴾ فإنه المأمول منه عز وجل ، وكأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه احتشاماً وأنفة من المجالسة معهم ، ونفاسة منهم أن يكونوا كهؤلاء ، ولذلك قال : ﴿ **وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم** ﴾ فيشكونني إليه إن طردتهم ، وهو مجازيهم إن كانوا مقصّرين ﴿ **ولكني أراكم قوماً تجهلون** ﴾ أي تتسافهون على المؤمنين ، وتدعونهم أراذل ، أو تجهلون لقاء ربكم ، أو تجهلون أنّ المؤمنين خير منكم ﴿ **وياقوم من ينصرني من الله** ﴾ أي من يمنعني من انتقامه ﴿ **إن طردتهم أفلا تذكّرون** ﴾ أي أفلا تتعظون ﴿ **ولا أقول لكم عندي خزائن الله** ﴾ فأدّعي فضلاً بذلك ﴿ **ولا أعلم الغيب** ﴾ حتى أطّلع على ما في نفوس أتباعي وضمائر قلوبهم ﴿ **ولا أقول إني مَلَك** ﴾ حتى تقولوا لي ما أنت إلا بشر مثلنا ﴿ **ولا أقول للذين تزدري أعينكم** ﴾ أي تحتقرهم وتعيبهم ﴿ **لن يؤتيهم الله خيراً** ﴾ أي ولا أحكم على من استرذلتم من المؤمنين لفقرهم أن الله لن يؤتيهم خيراً في الدنيا والآخرة لهوانهم عليه ، مساعدة لكم ونزولاً على هواكم ﴿ **الله أعلم بما في أنفسهم** ﴾ من صدق الاعتقاد ، وإنما عليّ قبول ظاهر إقرارهم ؛ إذ لا أطّلع على خفي أسرارهم ﴿ **إني إذاً لمن الظالمين** ﴾ إن قلت شيئاً من ذلك ، وهكذا ردّ عليهم ما قالوه .
هذا الردّ البليغ الحازم الجازم اللطيف اللّين - في الوقت نفسه - فلم تبق كلمة لهم إلا ردّ عليها ، ولا زعماً إلا دحضه ، وبيّن موقفه الرباني الذي لا يتزحزح عنه ، وعلّمنا من جملة ما علّمنا ألّا نبيع المؤمنين بالمتكبرين ، وألّا يكون هذا محلّ مساومة مهما كان وضع المؤمنين ، ومهما ادّعي أن فيهم ما فيهم ، وهذا درس عظيم للدّعاة ، فقد لا يستجيب لشأنهم إلا أقل الناس في مقاييس الناس ، فهؤلاء ينبغي أن يكونوا عند الداعية أغلى الناس ، وألّا يميل عنهم إلى غيرهم .

ولنعد إلى السياق :

فبعد أن قامت عليهم الحجّة اتخذوا الموقف الذي يتخذه كل مبطل ، وهو رفض الحق والإعراض عن أهله ﴿ **قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا** ﴾ أي حاججتنا فأكثرت من ذلك ﴿ **فأتنا بما تعدنا** ﴾ من العذاب ﴿ **إن كنت من الصادقين** ﴾ في وعدك ﴿ **قال إنما يأتيكم به الله إن شاء** ﴾ أي ليس الإتيان بالعذاب إليّ ، وإنما هو إلى

من كفرتم به ، فهو الذي يتولى عقابكم ﴿ **وما أنتم بمعجزين** ﴾ أي فلا تقدرون على الهروب منه فإنه لا يعجزه شيء ﴿ **ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم** ﴾ أي يضلّكم والتقدير : إن كان الله يريد أن يغويكم لا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم ، أي لا شيء يجدي معكم بإبلاغي لكم وإنذاري إياكم ونصحي ، إذا كان الله مريداً إغواءكم ودماركم ؛ بسبب من ظلمكم وكبركم ﴿ **هو ربكم** ﴾ فيتصرف فيكم ؛ لأنه مالك أزمّة الأمور ، المتصرّف الحاكم العادل الذي لا يجور ، له الخلق وله الأمر ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ فيجازيكم على أعمالكم فهو المبدىء المعيد ، مالك الدنيا والآخرة ، وهكذا تقابل الحجة بالحجة . والموقف يقابل بموقف ، والحسم يقابل بحسم . فإذا وصلت قصة نوح إلى هذا تأتي الآن آية معترضة تتحدث عن قوم محمد ﷺ ، وكلامهم والجواب عليهم بما يناسب السياق ، ومجيء هذه الآية هنا مذكّر بأن القصة هنا هادفة ، في التوجيه والإرشاد ، ولفت النظر والتمثيل ، بما يناسب الدعوة الجديدة ، وبما يخدم سياق السورة بشكل عام . ﴿ **أم يقولون افتراه** ﴾ أي بل يقولون : اختلقه ، أي بل يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون افترى هذا وافتعله من عنده ﴿ **قل إن افتريته فعليّ إجرامي** ﴾ أي إن صح أني افتريته فعليّ عقوبة إجرامي أي افترائي ﴿ **وأنا بريء مما تجرمون** ﴾ أي وأنا بريء من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ ، أي ليس ذلك مفتعلاً ولا مفترى ، لأني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه . قال ابن كثير في هذه الآية : (هذا كلام معترض في وسط القصة مؤكّد لها ...) أقول : قد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ هذه الآية ليست معترضة بل هي جزء من الحوار بين نوح عليه السلام وقومه ، والمقام محتمل . ثم يعود السياق .

فبعد أن تبيّنت المواقف قال تعالى : ﴿ **وأوحيَ إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن** ﴾ هذا تقنيط من الله لنوح عليه السلام من إيمانهم ، وأنه غير متوقّع ﴿ **فلا تبتئس بما كانوا يفعلون** ﴾ أي فلا تحزن عليهم ، ولا يهمّنك أمرهم ، وأصل المعنى : فلا تحزن حزن بائس مستكين بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك ، فقد حان وقت الانتقام من أعدائك ﴿ **واصنع الفلك** ﴾ أي السفينة ﴿ **بأعيننا** ﴾ قال ابن كثير : (بمرأى منّا) أقول : في ذلك تطمين له من أن يزيغ في صنعته عن الصواب ﴿ **ووحينا** ﴾ أي وإنا نوحي إليك ونلهمك كيف تصنع ، أي وتعليمنا لك ما تصنعه ﴿ **ولاتخاطبني في الذين ظلموا** ﴾ أي ولا تدعني في شأن قومك ، واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك ﴿ **إنهم**

مغرقون ﴾ أي محكوم عليهم بالإغراق ، وقد قضي به وجفّ القلم ، فلا سبيل إلى كفّه ، وقام نوح بالأمر ﴿ **ويصنع الفلك وكُلّما مرّ عليه ملأٌ من قومه سخروا منه** ﴾ أي من عمله السفينة فكانوا يهزأون به ويكذّبون بما يتوعدهم به من الغرق ﴿ **قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم** ﴾ عند رؤية الهلاك ، وهو محقق عندنا من الآن ﴿ **كما تسخرون** ﴾ منا عند رؤية الفلك ﴿ **فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه** ﴾ أي بعينه في الدنيا ﴿ **ويحل عليه عذاب مقيم** ﴾ أي دائم مستمر أبداً فالمراد بالعذاب الأول عذاب الدنيا وهو الغرق ، والمراد بالعذاب الثاني عذاب الآخرة . ثمّ قصّ الله علينا كيف جاء العذاب ﴿ **حتى إذا جاء أمرنا** ﴾ أي عذابنا ﴿ **وفار التّنور** ﴾ للمفسرين هنا أقوال فبعضهم قال : المراد بالتنّور الإشعار باشتداد الأمر وصعوبته ففي الكلام كناية ، وبعضهم قال : المراد به تنّور خبز بعينه ، وبعضهم قال : المراد به وجه الأرض ، والظاهر أنها علامة لنوح من الله ، فإذا كان الأمر كذلك فهو تنّور بعينه ﴿ **قلنا احمل فيها** ﴾ أي في السفينة ﴿ **من كلٍ زوجين اثنين** ﴾ أي من كل صنف زوجين ﴿ **وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم** ﴾ أنه من أهل النار ، وما سبق عليه القول بذلك إلا للعلم بأنه يختار الكفر بتقديره وإرادته ، جلّ خالق العباد عن أن يقع في الكون خلاف ما أراد ﴿ **ومن آمن** ﴾ أي واحمل مع المؤمنين من أهلك مَن آمن من غيرهم ﴿ **وما آمنَ معه إلا قليل** ﴾ أي نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، كما سترى في سورة (العنكبوت) ، وليس هناك من رواية عن رسولنا عليه الصلاة والسلام في تحديد عدد من ركب في السفينة ، وسنذكر في الفوائد شيئاً له علاقة في هذا الموضوع ﴿ **وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها** ﴾ أي مسمّين الله ، أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها ، أي بسم الله يكون جريها على وجه الماء ، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوُّها ﴿ **إن ربي لغفور** ﴾ لمن آمن منهم ﴿ **رحيم** ﴾ حين خلّصهم ﴿ **وهي تجري بهم في موج كالجبال** ﴾ كأنه قيل : فركبوا فيها يقولون : بسم الله ، والسفينة تجري ، وهم فيها ، وموج الطوفان كأنه الجبال . والموج : هو ما يرتفع من الماء عند اضطرابه بسبب الرياح الشديدة ، شُبّه كل موجة منه بالجبل في تراكمها وارتفاعها ﴿ **ونادى نوح ابنه وكان في معزل** ﴾ أي عن أبيه وعن السفينة ، أو في معزل عن دينه ﴿ **يابني اركب معنا** ﴾ في السفينة ، أي أسلم واركب ولذلك قال : ﴿ **ولا تكن مع الكافرين** ﴾ فتغرق وتدخل النار ﴿ **قال سآوي** ﴾ أي سآتي ﴿ **إلى جبل يعصمني من الماء** ﴾ أي يمنعني من الغرق ﴿ **قال لا عاصم اليوم من أمر الله** ﴾

أي من الطوفان والغرق ﴿ **إلا من رَحِم** ﴾ أي إلا من رحمه الله ، اعتقد - بجهله - أنّ الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال ، وأنّه لو تعلق في رأس جبل لنجّاه ذلك من الغرق فقال له أبوه ما معناه إنه لا يعصمك اليوم معتصَم قط من جبل ونحوه سوى معتصَم واحد وهو مكان مَن رحمهم الله ونجّاهم يعني السفينة ، أو لا يعصمك اليوم إلا الله لأن من رحمه الله وحده فهو المعصوم ﴿ **وحال بينهما الموج** ﴾ أي بين ابنه والجبل أو بين نوح وابنه ﴿ **فكان من المغرقين** ﴾ أي فصار من المغرقين ، وهكذا كانت نهاية الكافرين والظالمين ، وتأتي الآن قصة نهاية الطوفان ﴿ **وقيل ياأرض ابلعي ماءك** ﴾ أي انشُفي ماءك وتشرّبي ﴿ **وياسماء أقلعي** ﴾ أي أمسكي ﴿ **وغيض الماء** ﴾ أي شرع في النقص ﴿ **وقُضِيَ الأمر** ﴾ أي وأنجز ما وعد الله نوحاً من إهلاك قومه ﴿ **واستوت على الجودي** ﴾ أي واستقرت السفينة على المسمّى بالجودي ﴿ **وقيل بُعْداً** ﴾ أي سحقاً ، والمراد البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ، ولذلك تختص هذه الكلمة بدعاء السوء ﴿ **للقوم الظالمين** ﴾ أي قوم نوح الذين غرقوا ، ويسأل نوح ربه مستعلماً وكاشفاً عن حال ولده الذي غرق ﴿ **ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي** ﴾ أي وقد وعدتني بنجاة أهلي ﴿ **وإن وعدك الحق** ﴾ الذي لا يخلف فكيف غرق ﴿ **وأنت أحكم الحاكمين** ﴾ أي أعلم الحكام وأعدلهم ﴿ **قال يانوح إنه ليس من أهلك** ﴾ أي الذين وعدت إنجاءهم لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك ولهذا قال : ﴿ **وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم** ﴾ فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً عليه السلام ﴿ **إنه عمل غير صالح** ﴾ هذا تعليل لانتفاء كونه من أهله ، وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب ، وأن نسيبك في دينك - وإن كان حبشياً وكنت قرشياً - لصيقك ، ومن لم يكن على دينك وإن كان أمسّ أقاربك رحماً فهو أبعد بعيد منك ، وجعلت ذاته عملاً غير صالح للإشعار بمبالغته في السوء ﴿ **فلا تسألن ما ليس لك به** ﴾ أي بجواز مسألته ﴿ **علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين** ﴾ فتسأل ما لا يجوز لك أن تسأله ﴿ **قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم** ﴾ أي استجيرك من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحته ، تأدّباً بأدبك ، واتعاظاً بموعظتك ﴿ **وإلا تغفر لي** ﴾ ما فرط مني ﴿ **وترحمني** ﴾ بالعصمة عن العود إلى مثله ﴿ **أكن من الخاسرين** ﴾ الذين خسروا الدنيا والآخرة ﴿ **قيل يانوح اهبط بسلام منا** ﴾ أي بتحية منا أو سلامة من الغرق ﴿ **وبركات عليك** ﴾ البركات : هي الخيرات النامية ، وهي في حقه بكثرة ذريته وأتباعه . قال

النسفي : فقد جعل أكثر الأنبياء من ذريته وأئمة الدين في القرون الباقية من نسله ﴿ **وعلى أمم ممن معك** ﴾ المراد إما الأمم الذين كانوا معه في السفينة لأنهم كانوا معه جماعات ، أو سموا أمماً لأن الأمم تتشعب منهم ، أو المراد وعلى أمم ناشئة ممن معك وهي الأمم إلى آخر الدهر ﴿ **وأمم سنمتعهم** ﴾ في الدنيا بالسّعة في الرزق والخفض في العيش ، والتقدير : وممن معك أمم سنمتعهم ﴿ **ثم يمسهم منا عذاب أليم** ﴾ أي في الآخرة . والمعنى: أن السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشئون معك ، ومن ذرية من معك أمم مُمتّعون بالدنيا ، منقلبون إلى النار . ثم عقّب الله عز وجل على قصة نوح مخاطباً رسوله ﷺ لتأخذ القصة مكانها في السياق ، ولتؤدي دورها في التمثيل على بعض المعاني الموجودة في المقطع الأول ﴿ **تلك** ﴾ أي قصة نوح ﴿ **من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك** ﴾ أي تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة إليك مجهولة عندك وعند قومك ﴿ **من قبل هذا** ﴾ أي من قبل هذا الوقت ، أو من قبل إيحائي إليك وإخبارك بها ﴿ **فاصبر** ﴾ على تبليغ الرسالة ، وأذى قومك ، كما صبر نوح ، وتوقع في العاقبة لك ولمن كذبك نحو ما كان لنوح ولقومه ﴿ **إن العاقبة** ﴾ في الفوز والنصر والغلبة ﴿ **للمتقين** ﴾ الذين عبدوا الله حق العبادة وأطاعوه حق الطاعة . قال ابن كثير في هذه الآية : يقول تعالى لنبيه ﷺ : هذه القصة وأشباهها ﴿ **من أنباء الغيب** ﴾ يعني من أنباء الغيوب السالفة ، نوحيها إليك على وجهها كأنك شاهدها ، ﴿ **نوحيها إليك** ﴾ أي نعلمك بها وحياً منا إليك ﴿ **ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا** ﴾ أي لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها ، حتى يقول من يكذبك إنك تعلمتها منه ، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح ، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك ، فاصبر على تكذيب من كذّبك من قومك ، وأذاهم لك ، فإننا سننصرك ،ونحوطك بعنايتنا ،ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة ، كما فعلنا بالمرسلين ، حيث نصرناهم على أعدائهم ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا** ﴾ الآية (غافر : ٥١) ، وقال تعالى : ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ◌ إنهم لهم المنصورون** ﴾ الآية (الصفات : ١٧١ ، ١٧٢) ، وقال تعالى ﴿ **فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾ .

قال صاحب الظلال في هذه الآية : (فيحقق هذا التعقيب من أهداف القصص القرآني في هذه السورة :

• حقيقة الوحي التي ينكرها المشركون . فهذا القصص غيب من الغيب ، ما كان يعلمه

النبي ، وما كان معلوماً لقومه ، ولا متداولاً في محيطه . إنما هو الوحي من لدن حكيم خبير .

• وحقيقة وحدة العقيدة من لدن نوح أبي البشر الثاني . فهي هي . والتعبير عنها يكاد يكون هو التعبير .

• وحقيقة تكرار الاعتراضات والاتهامات من المكذبين على الرغم من الآيات والعبر والبينات التي لا تمنع جيلاً أن يرددها وقد بدت باطلة في جيل .

• وحقيقة تحقق البشرى والوعيد ، كما يبشر النبي وينذر ، وهذا شاهد من التاريخ .

• وحقيقة السنن الجارية التي لا تتخلف ولا تحابي ولا تحيد : ﴿ **والعاقبة للمتقين** ﴾ فهم الناجون وهم المستخلفون .

• وحقيقة الرابطة التي تربط بين فرد وفرد ، وبين جيل وجيل . إنها العقيدة الواحدة التي تربط المؤمنين كلهم في إله واحد ورب واحد ، يلتقون في الدينونة له بلا منازع ولا شريك) .

فوائد:

١ – بسبب من الصراع العنيف بين الكنيسة والفكر العلماني عند الغربيين ، فقد تتبع الكثيرون من الغربيين ما له علاقة بقصة نوح عليه السلام ، وكتبوا في ذلك الكتب الكثيرة ، وقد وجد المتتبعون لحفريات ما بين النهرين الكثير مما له علاقة بقصة نوح ، كانت بمثابة ردّ على الفكر الإلحادي الذي غلب عليه الإنكار .

وقد تبيّن من خلال الحفريات ، أنّ قصة الطوفان كانت مشتهرة على مدى العصور القديمة عند أهل المنطقة ، ولعلّ من أبرز الآثار التي أشارت إليها ما اشتهر باسم ملحمة (جلجامش) هذه الملحمة الأسطورية التي كتبت ـــ فيما يبدو ـــ بعد الطوفان بقرون كثيرة ، وفيها كلام واضح عن الطوفان ، وعن نوح عليه السلام ، وهذه الملحمة واحدة من آثار كثيرة عثر عليها ، تشير إلى الطوفان وإلى نوح عليه السلام .

٢ – وقف الكثيرون من أئمة البلاغة عند قوله تعالى ﴿ **وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي..** ﴾ ومما قاله الألوسي فيها : (هذا واعلم أن هذه الآية الكريمة قد بلغت من مراتب الإعجاز أقاصيها ، واستذلت مصاقع العرب ، فسفعت بنواصيها ، وجمعت

من المحاسن ما يضيق عنه نطاق البيان ، وكان من سمهري البلاغة مكان السنان .) .

(وقد فصَّل بعض مزايا هذه الآية المهرة المتقنون ، وتركوا من ذلك ما لا يكاد يصف الواصفون ، ولا بأس بذكر شيء مما ذكر ، إفادة لجاهل ، وتذكيراً لفاضل غافل ، فنقول : ذكر العلامة السكاكي أن النظر فيها من أربع جهات : من جهة علم البيان ، ومن جهة علم المعاني ، وهما مرجعا البلاغة ، ومن جهة الفصاحة المعنوية . ومن جهة الفصاحة اللفظية).

« وقد ألف شيخنا علاء الدين - أعلى الله تعالى درجته في أعلى عليين - رسالة في هذه الآية الكريمة جمع فيها ما ظهر له ، ووقف عليه من مزاياها فبلغ ذلك مائة وخمسين مزية) .

أقول : وإن في الآية لمزيداً ، وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز وسننقل فيما بعد ما قاله النسفي في الآية .

٣ - ما هو الجودي الذي ورد ذكره في القرآن ؟ قال مجاهد: هو جبل في الجزيرة . وقال قتادة : قد أبقى الله سفينة نوح عليه السلام على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة ، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت ، وصارت رماداً « ويذكر سفر التكوين أنه جبل أرارات » وقد استطاعت الأقمار الصناعية - ومن قبل ذلك أحد الذين تتبعوا هذا الأمر - أن يحددوا مكان بقاياها التي لازالت موجودة حتى الآن ، معجزة دائمة على الدهر ، وهي في المنطقة السوفياتية من أرمينيا حالياً ، هكذا نقلت إذاعة إسرائيل في إحدى نشراتها والله أعلم .

٤ - من قوله تعالى : ﴿ **بسم الله مجريها ومرساها** ﴾ نفهم سُنّة الأنبياء جميعاً في البداءة بالتسمية ، ولذا تستحب التسمية في شريعتنا في ابتداء الأمور .

٥ - روى أبو القاسم الطبراني بسنده إلى ابن عباس إلى رسول الله ﷺ قال : « أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا : بسم الله الملك » ﴿ **وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ . ﴿ **بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم** ﴾ .

٦ - يذكر ابن كثير عن قصة نوح هنا كلاماً كثيراً منقولاً أكثره عن الإسرائيليات ، والإسرائيليات في هذا المقام لا تروي ظمأ ، بل بعضها يجب رفضه ورده ، لظهور

كذبه ، وأول مرجع عندنا في هذا الموضوع هو سفر التكوين ، وهو أحد الأسفار الخمسة التي تشكل التوراة الحالية ، ويسمونها أسفار موسى : وقد ذكرنا في سورة الأعراف أن هذه الأسفار الخمسة لا يمكن أن تكون هي التوراة ، وقد نقل مالك بن نبي في كتاب (الظاهرة القرآنية) عن النقّاد الغربيين أنه لم يثبت سفر من أسفار العهد القديم للنقد إلا سفر أرميا ، ومن قرأ الإصحاحات : الخامس ، والسادس ، والسابع ، والثامن ، والتاسع ، من سفر التكوين وهي التي تحدثت عن قصة نوح عرف من خلال قراءته ومطالعته المجردة سخف كثير من الكلام الموجود فيها ، مما يدلّ على أنه كلام موضوع مكذوب ، لا يليق أن يذكر في كتاب . من ذلك مثلاً في الكلام عن الله « فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض ، وتأسّف في قلبه » وأبرز ما يدلنا على الكذب في هذه الأسفار أن هذه الإصحاحات تذكر رقم (٩٥٠) سنة وتجعلها عمر نوح كله ، فتجعل بقاء نوح في قومه قبل الطوفان (٦٠٠) سنة وتجعل (٣٥٠) سنة بعد الطوفان ، مع أن النص القرآني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يذكر **﴿ فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾** (العنكبوت : ١٤)

فإذا وضح هذا الذي ذكرناه في معرفتنا لقيمة الروايات المذكورة في كتب العهد القديم ، فلننقل من هذه الإصحاحات بعض المعاني ، مادام علماؤنا قد نقلوا عمن نقل عنها ، فالنقل منها مباشرة أولى : ففي الإصحاح السادس من سفر التكوين من العهد القديم : (فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامي . لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم . فها أنا مهلكهم مع الأرض . اصنع لنفسك فلكاً من خشب جُفر . تجعل الفلك مساكن . وتطليه من داخل ومن خارج بالقار . وهكذا تصنعه ثلاث مئة ذراع يكون طول الفلك . وخمسين ذراعاً عرضه . وثلاثين ذراعاً ارتفاعه . وتصنع كُوى للفلك وتكمّله إلى حد ذراع من فوق . وتضع باب الفلك في جانبه . مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله ، فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء . كل ما في الأرض يموت . ولكن أقيم عهدي معك . فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك . ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل تدخل إلى الفلك لاستبقائها معك . تكون ذكراً وأنثى . من الطيور كأجناسها . ومن البهائم كأجناسها . ومن كل دبّابات الأرض كأجناسها . اثنين من كل تُدخل إليك لاستبقائها وأنت فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل واجمعه عندك . فيكون لك ولها

طعاماً . ففعل نوح حسب كل ما أمره به الله . هكذا فعل) .

وفي الإصحاح السابع : (وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض . وتكاثرت المياه ورفعت الفلك . فارتفع عن الأرض . وتعاظمت المياه . وتكاثرت جداً على الأرض فتغطّت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء . خمسة عشر ذراعاً في الارتفاع تعاظمت المياه . فتغطت الجبال ، فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض . من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التي كانت ترحف على الأرض وجميع الناس . كل ما في أنفه نسمة روح حياة من كل ما في اليابسة مات فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض . من الناس والبهائم والدبّابات وطيور السماء . وانمحت من الأرض . وتبقّى نوح والذين معه في الفلك فقط . وتعاظمت على الأرض مئة وخمسين يوماً) .

وفي الإصحاح الثامن : (وأجاز الله ريحاً على الأرض فهدأت المياه . وانسدت ينابيع الغمْر وطاقات السماء . فامتنع المطر من السماء . ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً . وبعد مئة وخمسين يوماً نقصت المياه . واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط . وكانت المياه تنقص نقصاً متوالياً إلى الشهر العاشر . وفي العاشر في أول الشهر ظهرت رؤوس الجبال .

وحدث من بعد أربعين يوماً أن نوحاً فتح طاقة الفلك التي كان قد عملها . وأرسل الغراب . فخرج متردداً حتى انشقت المياه عن الأرض . ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلّت المياه عن وجه الأرض فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها . فرجعت إليه إلى الفلك . فلبث أيضا سبعة أيام أُخر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك ، فأتت إليه الحمامة عند المساء وإذا ورقة زيتون خضراء في فمها . فعلم نوح أن المياه قد قلّت عن الأرض . فلبث أيضاً سبع أيام أخر وأرسل الحمامة فلم تعد ترجع إليه أيضاً) .

وفي الإصحاح التاسع : (وبارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم أثمروا واكثروا واملأوا الأرض) .

نقول من الظلال :

إن قوم نوح - عليه السلام - هؤلاء الذين شهدنا مدى جاهليتهم ، ومدى إصرارهم على باطلهم ، ومدى استكبارهم لدعوة الإسلام الخالص التي حملها نوح - عليه السلام - إليهم ، وخلاصتها : التوحيد الخالص الذي يفرد الله - سبحانه -

بالدينونة والعبودية ، ولا يجعل لأحد معه صفة الربوبية .

إن قوم نوح هؤلاء .. هم ذرية آدم .. وآدم – كما نعلم من قصته في سورة الأعراف من قبل وفي سورة البقرة كذلك – قد هبط إلى الأرض ليقوم بمهمة الخلافة فيها – وهي المهمة التي خلقه الله لها وزوّده بالكفايات والاستعدادات اللازمة لها – بعد أن علّمه ربه كيف يتوب من الزلّة التي زلّها ، وكيف تلقى من ربه كلمات فتاب عليه بها . وكيف أخذ عليه ربه العهد والميثاق – هو وزوجه وبنوه – أن « يتبع » مايأتيه من هدى الله ، ولايتبع الشيطان وهو عدو بنيه إلى يوم الدين .

وإذن فقد هبط آدم إلى الأرض مسلماً لله متبعاً هداه . وما من شك أنه علّم بنيه الإسلام جيلاً بعد جيل ، وأن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية في الأرض ، حيث لم تكن معها عقيدة أخرى . فإذا نحن رأينا قوم نوح – وهم من ذرية آدم بعد أجيال لا يعلم عددها إلا الله – قد صاروا إلى هذه الجاهلية التي وصفتها القصة في هذه السورة . فلنا أن نجزم أن هذه الجاهلية طارئة على البشرية بوثنيتها وأساطيرها وخرافاتها وأصنامها وتصوراتها وتقاليدها جميعاً . وأنها انحرفت عن الإسلام إليها بفعل الشيطان المسلّط على بني آدم ؛ وبفعل الثغرات الطبيعية في النفس البشرية . تلك الثغرات التي ينفذ منها عدو الله وعدو الناس ، كلما تراخوا عن الاستمساك بهدى الله ، واتباعه وحده ، وعدم اتباع غيره معه في كبيرة ولا صغيرة .. ولقد خلق الله الإنسان ومنحه قدراً من الاختيار – هو مناط الابتلاء – وبهذا القدر يملك أن يستمسك بهدى الله وحده فلا يكون لعدوه من سلطان عليه ، كما يملك أن ينحرف – ولو قيد شعرة – عن هدى الله إلى تعاليم غيره ، فيجتاله الشيطان حتى يقذف به – بعد أشواط – إلى مثل تلك الجاهلية الكالحة التي انتهت إليها ذراري آدم – النبي المسلم – بعد تلك الأجيال التي لا يعلمها إلا الله .

وهذه الحقيقة .. حقيقة أن أول عقيدة عُرفت في الأرض هي الإسلام القائم على توحيد الدينونة والربوبية والقوامة لله وحده .. تقودنا إلى رفض كل ما يخبط فيه من يسمونهم (علماء الأديان المقارنة) وغيرهم من التطوريين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طوراً متأخراً من أطوار العقيدة ، سبقته أطوار شتى من التعدد والتثنية للآلهة . ومن تأليه القوى الطبيعية وتأليه الأرواح ، وتأليه الشموس والكواكب .. إلى آخر ما تخبط فيه هذه « البحوث » التي تقوم ابتداءً على منهج موجّه بعوامل تاريخية ونفسية

وسياسية معينة ؛ يهدف إلى تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحي الإلهي والرسالات من عند الله وإثبات أن الأديان من صنع البشر ، وأنها من ثم تطورت بتطور الفكر البشري على مدار الزمان . وينزلق بعض من يكتبون عن الإسلام مدافعين ، فيتابعون تلك النظريات التي يقررها الباحثون في تاريخ الأديان – وفق ذلك المنهج الموجّه – من حيث لا يشعرون . وبينا هم يدافعون عن الإسلام متحمسين يحطّمون أصل الاعتقاد الإسلامي الذي يقرره القرآن الكريم في وضوح حاسم . حين يقرر أن آدم – عليه السلام – هبط إلى الأرض بعقيدة الإسلام . وأن نوحاً – عليه السلام – واجه ذراري آدم الذين اجتالهم الشيطان عن الإسلام إلى الجاهلية الوثنية بذلك الإسلام نفسه القائم على التوحيد المطلق . وأن الدورة تجددت بعد نوح فخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية ، وأن الرسل جميعاً أرسلوا بعد ذلك بالإسلام . القائم على التوحيد المطلق وأنه لم يكن قط تطور في العقيدة السماوية في أصل الاعتقاد – إنما كان الترقي والتركيب والتوسع في الشرائع المصاحبة للعقيدة الواحدة . وأن ملاحظة ذلك التطور في العقائد الجاهلية لا يدل على أن الناس صاروا إلى التوحيد بناء على تطور في أصل العقيدة . إنما يدل على أن عقيدة التوحيد على يد كل رسول كانت تترك رواسب في الأجيال التالية – حتى بعد انحراف الأجيال عنها – ترقى عقائدهم الجاهلية ذاتها ؛ حتى تصير أقرب إلى أصل التوحيد الرباني . أما عقيدة التوحيد في أصلها فهي أقدم في تاريخ البشرية من العقائد الوثنية جميعاً . وقد وجدت هكذا كاملة منذ وجدت ، لأنها ليست نابعة من أفكار البشر ومعلوماتها المترقية ؛ إنما هي آتية لهم من عند الله سبحانه . فهي حق منذ اللحظة الأولى ، وهي كاملة منذ اللحظة الأولى .

هذا ما يقرره القرآن الكريم ، ويقوم عليه التصور الإسلامي . فلا مجال إذن لباحث مسلم – وبخاصة إذا كان يدافع عن الإسلام – أن يعدل عن هذا الذي يقرره القرآن الكريم في وضوح حاسم ، إلى شيء مما تخبط فيه نظريات علم الأديان المقارنة . تلك النظريات النابعة من منهج موجّه كما أسلفنا .

ومع أننا هنا – في ظلال القرآن – لا نناقش الأخطاء والمزالق في الكتابات التي تكتب عن الإسلام إذ أن مجال هذه المناقشة بحث آخر مستقل . ولكننا نلم بنموذج واحد نعرضه في مواجهة المنهج القرآني والتقريرات القرآنية في هذه القصة .

كتب الأستاذ العقاد في كتابه (الله) في فصل أصل العقيدة :

...(ترقى الإنسان في العقائد . كما ترقى في العلوم والصناعات ، فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته . فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الديانات والعبادات وليست عناصر الحقيقة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخرى ، وينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات .

لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلباً وأطول طريقاً من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التي يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى .

« وقد جهل الناس شأن الشمس الساطعة ، وهي أظهر ما تراه العيون وتحسه الأبدان ، ولبثوا إلى زمن قريب يقولون بدورانها حول الأرض ، ويفسّرون حركاتها وعوارضها كما تفسر الألغاز والأحلام . ولم يخطر لأحد أن ينكر وجود الشمس لأن العقول كانت في ظلام من أمرها فوق ظلام . ولعلها لاتزال .

فالرجوع إلى أصول الأديان في عصور الجاهلية الأولى لا يدل على بطلان التدين ، ولا على أنها تبحث عن محال . وكل ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة شاملة في عصر واحد ، وأن الناس يستعدون لعرفانها عصراً بعد عصر ، وطوراً بعد طور . وأسلوباً بعد أسلوب ، كما يستعدون لعرفان الحقائق الصغرى ، بل على نحو أصعب وأعجب من استعدادهم لعرفان هذه الحقائق التي يحيط بها العقل ويتناولها الحس والعيان .

« وقد أسفر علم المقابلة بين الأديان عن كثير من الضلالات والأساطير التي آمن بها الإنسان الأول ، ولاتزال لها بقية شائعة بين القبائل البدائية ، أو بين أمم الحضارة العريقة . ولم يكن من المنظور أن يسفر هذا العلم عن شيء غير ذلك ، ولن تكون الديانات الأولى على غير ما كانت عليه من الضلالة والجهالة فهذه هي وحدها النتيجة المعقولة التي لا يترقب العقل نتيجة غيرها . وليس في هذه النتيجة جديد يستغربه العلماء ، أو يبنون عليه جديداً في الحكم على جوهر الدين فإن العالم الذي يخطر له أن يبحث في الأديان البدائية ليثبت أن الأولين قد عرفوا الحقيقة الكونية الكاملة منزّهة عن شوائب السخف والغباء ، إنما يبحث عن محال ..) .

كذلك كتب في فصل : (أطوار العقيدة الإلهية) في الكتاب نفسه :

(يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتقادها

بالآلهة والأرباب :

وهي : دور التعدد Polytheism

ودور التمييز والترجيح Henotheism

ودور الوحدانية Monotheism

ففي دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أرباباً بالعشرات ، وقد تتجاوز العشرات إلى المئات . ويوشك في هذا الدور أن يكون لكل أسرة رب تعبده ، أو تعويذة تنوب عن الرب في الحضور وتقبل الصلوات والقرابين .

وفي الدور الثاني – وهو دور التمييز والترجيح – تبقى الأرباب على كثرتها ، ويأخذ رب منها في البروز والرجحان على سائرها . إما لأنه رب القبيلة الكبرى التي تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة وتعتمد عليها في شؤون الدفاع والمعاش ، وإما لأنه يحقق لعباده جميعاً مطلباً أعظم وألزم من سائر المطالب التي تحققها الأرباب المختلفة ، كأن يكون رب المطر والأقاليم في حاجة إليه ، أو رب الزوابع والرياح وهي موضع رجاء أو خشية يعلو على موضع الرجاء والخشية عند الأرباب القائمة على تسيير غيرها من العناصر الطبيعية .

وفي الدور الثالث تتوحد الأمة ، فتتجمّع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب في كل إقليم من الأقاليم المتفرقة . ويحدث في هذا الدور أن تفرض أمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها ، ويحدث أيضا أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها ، مع بقائه وبقاء عبادته كبقاء التابع للمتبوع ، والحاشية للملك المطاع .

ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدانية الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة ، ويتعذّر فيها على العقل قبول الخرافات التي كانت سائغة في عقول الهمج وقبائل الجاهلية ، فتصف الله بما هو أقرب إلى الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة في أطوارها السابقة ، وتقترن العبادة بالتفكير في أسرار الكون وعلاقتها بإرادة الله وحكمته العالية ، وكثيراً ما ينفرد الإله الأكبر في هذه الأمم بالربوبية الحقة ، وتنزل الأرباب الأخرى إلى مرتبة الملائكة أو الأرباب المطرودين من الحظيرة السماوية ...) الخ . (اهـ. كلام العقاد) .

قال سيد : وواضح سواء من رأي الكاتب نفسه أو مما نقله ملخصاً من آراء علماء الدين المقارن أن البشر هم الذين ينشئون عقائدهم بأنفسهم ، ومن ثم تظهر فيها

أطوارهم العقلية والعلمية والحضارية والسياسية . وأن التطور من التعدد إلى التثنية إلى التوحيد تطور زمني مطرد على الإجمال ..

وهذا واضح من الجملة الأولى في تقديم المؤلف لكتابه : « موضوع هذا الكتاب نشأة العقيدة الإلهية ، منذ أن أتخذ الإنسان رباً ، إلى أن عرف الله الأحد ، واهتدى إلى نزاهة التوحيد .. » .

والذي لا شك فيه أن الله سبحانه يقرر في كتابه الكريم ، تقريراً واضحاً جازماً ، شيئاً آخر غير ما يقرره صاحب كتاب : (الله) متأثراً فيه بمنهج علماء الأديان المقارنة .. وأن الذي يقرره الله - سبحانه - أن آدم - وهو أول البشر - عرف حقيقة التوحيد كاملة ، وعرف نزاهة التوحيد غير مشوبة بشائبة من التعدد والتثنية ، وعرف الدينونة لله وحده باتباع ما يتلقى منه وحده . وأنه عرّف بنيه بهذه العقيدة ، فكانت هنالك أجيال في أقدم تاريخ البشرية لا تعرف إلا الإسلام ديناً ، وإلا التوحيد عقيدة .. وأنه لما طال الأمد على الأجيال المتتابعة من ذرية آدم انحرفت عن التوحيد .. ربما إلى التثنية وربما إلى التعدد .. ودانت لشتى الأرباب الزائفة .. حتى جاءها نوح عليه السلام بالتوحيد من جديد . وأن الذين بقوا على الجاهلية أغرقهم الطوفان جميعاً ، ولم ينج إلا المسلمون الموحدون الذين يعرفون « نزاهة التوحيد » وينكرون التعدد والتثنية وسائر الأرباب والعبادات الجاهلية . ولنا أن نجزم أن أجيالاً من ذراري هؤلاء الناجين عاشت كذلك بالإسلام القائم على التوحيد المطلق . قبل أن يطول عليهم الأمد ، ويعودوا إلى الانحراف عن التوحيد من جديد . وأنه هكذا كان شأن كل رسول . ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ .

والذي لا شك فيه أن هذا شيء ، والذي يقرره علماء الأديان المقارنة ويتابعهم فيه مؤلف كتاب : (الله) شيء آخر . وبينهما تقابل تام في منهج النظر والنتائج التي ينتهي إليها .. وآراء الباحثين في تاريخ الأديان ليست سوى نظريات يعارض بعضها بعضاً ، فهي ليست الكلمة النهاية حتى في مباحث البشر الفانين .

وما من شك أنه حين يقرر الله - سبحانه - آمراً نبيه في كتابه الكريم هذا البيان القاطع ، ويقرر غيره أمراً آخر مغايراً له تمام المغايرة ، فإن قول الله يكون أولى بالاتباع وبخاصة ممن يدافعون عن الإسلام ، ويكتبون ما يكتبون بقصد دفع الشبهات عنه وعن أصل الدين جملة .. وأن هذا الدين لا يخدم بنقض قاعدته الاعتقادية في أن الدين جاء

وحياً من عند الله ، ولم يبتدعه البشر من عند أنفسهم ، وأنه جاء بالتوحيد منذ أقدم العصور ولم يجيء بغير التوحيد في أية فترة من فترات التاريخ ، ولا في أية رسالة . كما أنه لا يخدم بترك تقريراته إلى تقريرات علماء الأديان المقارنة وبخاصة حين يعلم أن هؤلاء إنما يعملون وفق منهج موجّه لتدمير القاعدة الأساسية لدين الله كله ، وهي أنه وحي من الله وليس من وحي الفكر البشري المترقي المتطور . وليس وقفاً على ترقي العقل البشري في العلم المادي والخبرة التجريبية .

ولعل هذه اللمحة المختصرة – التي لاتملك الاستطراد فيها في كتاب الظلال – تكشف لنا عن مدى الخطورة في تلقي مفهوماتنا الإسلامية – في أي جانب من جوانبها – عن مصدر غير إسلامي . كما تكشف لنا عن مدى تغلغل مناهج الفكر الغربية ومقرراتها في أذهان الذين يعيشون على هذه المناهج والمقررات ويستقون منها . حتى وهم يتصدون لرد الافتراءات عن الإسلام من أعدائه ﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** ﴾ .

وبعد .. أكان الطوفان عاماً في الأرض ؟ أم إنه كان في تخوم الأرض التي بعث فيها نوح ؟ وأين كانت هذه الأرض ؟ وأين تخومها في العالم القديم وفي العالم الحديث ؟ أسئلة لا جواب عليها إلا الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً ، إلا الإسرائيليات التي لا تستند إلى دليل صحيح .. وليس لها بعد ذلك قيمة في تحقيق أهداف القصص القرآني في كثير ولا قليل .

ولكن هذا لايمنع من القول بأن ظاهر النصوص القرآنية يلهم أن قوم نوح كانوا هم مجموع البشرية في ذلك الزمان . وأن الأرض التي يسكنونها كانت هي الأرض المعمورة في ذلك الحين . وأن الطوفان قد عمَّ هذه الرقعة وقضى على جميع الخلائق التي تقطنها – فيما عدا ركب السفينة الناجين .

وهذا حسبنا في إدراك طبيعة ذلك الحادث الكوني الذي جاءنا خبره من المصدر الوحيد الوثيق عن ذلك العهد السحيق ، الذي لا يعرف « التاريخ » عنه شيئاً . وإلا فيومها أين كان « التاريخ » ؟! إن التاريخ مولود حدث لم يسجل من أحداث البشرية إلا القليل ! وكل ما سجله قابل للخطأ والصواب ، والصدق والكذب ، والتجريح والتعديل ! وما ينبغي قط أن يستفتى ذات يوم في شأن جاءنا به الخبر الصادق . ومجرد استفتائه في مثل هذا الشأن قلب للأوضاع ، وانتكاسة لا تصيب عقلاً قد استقرت فيه

حقيقة هذا الدين .

ولقد حفلت أساطير شتى الشعوب وذكرياتها الغامضة بذكر طوفان أصاب أرضها في تاريخ قديم مجهول ، بسبب معصية ذلك الجيل الذي شهد ذلك الحادث الكبير .. وأساطير بني إسرائيل المدونة فيما يسمونه (العهد القديم) تحوي كذلك ذكرى طوفان نوح ... ولكن هذا كله شيء لاينبغي أن يذكر في معرض الحديث القرآني عن الطوفان ، ولاينبغي أن يخلط الخبر الصادق الوثيق بمثل هذه الروايات الغامضة وهذه الأساطير المجهولة المصدر والأسانيد . وإن كان لوجود هذه الأخبار الغامضة عن الطوفان عند شعوب شتى دلالته في أن الطوفان قد كان في أرض هذه الأقوام ؛ أو على الأقل قد رحلت ذكرياته مع ذراري الناجين حين تفرقوا في الأرض بعد ذلك وعمروا الأرض من جديد .

وينبغي أن نذكر أن ما يسمى (بالكتاب المقدس) سواء في ذلك (العهد القديم) المحتوي على كتب اليهود أو (العهد الجديد) المحتوي على أناجيل النصارى - ليس هو الذي نزل من عند الله . فالتوراة التي أنزلها الله على موسى قد حرِّقت نسخها الأصلية على يد البابليين عند سبي اليهود . ولم تعد كتابتها إلا بعد قرون عديدة - قبيل ميلاد المسيح بنحو خمسة قرون - وقد كتبها عزرا - وقد يكون هو عزير - وجمع فيها بقايا من التوراة . أما سائرها فهو مجرد تأليف . وكذلك الأناجيل فهي جميعاً لاتحوي إلا ما حفظته ذاكرة تلامذة المسيح وتلامذتهم بعد نحو قرن من وفاة المسيح - عليه السلام - ثم خلطت به حكايات كثيرة وأساطير .. ومن ثم لا يجوز أن يطلب عند تلك الكتب جميعها يقين في أمر من الأمور .

كلمة في السياق:

رأينا أن سورة هود عليه السلام محورها الأمر بعبادة الله ، وقد رأينا كيف أن المقطع الأول قد قرر كل ما تحتاجه معنى العبادة .. ويأتي المقطع الثاني وفيه ثلاث قصص تدور حول نفس المحور ، وقد مرت معنا القصة الأولى وهي قصة نوح عيه السلام ، ورأينا فيها كيف أن دعوة نوح كانت دعوة إلى عبادة الله ، وكيف كان موقف قومه ، وكيف كانت مواقفه ، وكيف كانت العاقبة له ولمن اتبعه ، وكيف عاقب الله قومه ، فقصة نوح هنا جاءت لتأخذ محلها في هذا السياق الخاص لهذه السورة ، كما أخذت محلها في سورة الأعراف ضمن سياقها الخاص بها ، وسنرى القصة تتكرر كل مرة بما يخدم سياق

السورة التي هي فيها . وفي كل مرة نرى شيئاً ما جديداً ونمضي في سياق السورة لنرى قصة هود عليه السلام مع قومه وهي تؤدي نفس ما أدته القصة السابقة مع زيادات .

تفسير المجموعة الثانية

﴿ **وإلى عاد أخاهم هوداً** ﴾ أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً والآية معطوفة على قوله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ..** ﴾ ﴿ **قال ياقوم اعبدوا الله** ﴾ أي اعرفوه ووحّدوه وأطيعوه ﴿ **مالكم من إله غيره** ﴾ فهو وحده الإله وهو وحده المستحق للعبادة ﴿ **إن أنتم إلا مفترون** ﴾ أي كاذبون بتسمية غيره إلهاً وإعطاء غيره حقوق الألوهية ﴿ **ياقوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني** ﴾ أي على الله وكل رسول قد واجه قومه بهذا القول ، لأن شأنهم النصيحة ، والنصيحة لا يمحضها إلا حسم المطامع ، ومادام شيء من المطامع يتوهم فيها لم تنجع ولم تنفع ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ إذ تردّون نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من الله وهو ثواب الآخرة ، ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك ﴿ **وياقوم استغفروا ربكم** ﴾ عمّا سلف من كفركم وذنوبكم بالإيمان به والإخبات له ﴿ **ثم توبوا إليه** ﴾ عما يستقبل ويحتمل ﴿ **يرسل السماء** ﴾ أي المطر ﴿ **عليكم مدراراً** ﴾ أي كثيرة الدرور ﴿ **ويزدكم قوة إلى قوتكم** ﴾ إن قوة مال ، أو قوة جسد ، أو قوة عامة للمجموع ﴿ **ولا تتولوا مجرمين** ﴾ أي لا تعرضوا عني وعما أدعوكم إليه مصرّين على إجرامكم وآثامكم . وهكذا دعا هود قومه إلى العبادة والاستغفار ، وهي دعوة القرآن التي سجّلتها بداية سورة هود ، وهذا يؤكد وحدة السورة ، ووحدة الدعوة الإسلامية في كل العصور ، ويؤكد صلة سورة هود بمحورها ، ﴿ **قالوا ياهود ما جئتنا ببينة** ﴾ وهذه دعوى منهم وكذب ؛ فما من رسول إلا وقد أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر . ولكنه الكذب والجحود ﴿ **وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك** ﴾ أي وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك ، أي لن نتركهم بمجرد قولك اتركوهم ﴿ **وما نحن لك بمؤمنين** ﴾ أي وما يصح من أمثالنا أن يصدقوا مثلك فيما يدعوهم إليه ؛ إقناطاً له من الإجابة ﴿ **إن نقول** ﴾ أي مانقول ﴿ **إلا اعتراك** ﴾ أي أصابك ﴿ **بعض آلهتنا بسوء** ﴾ أي بجنون وخبل . والتقدير : مانقول قولاً إلا هذه المقالة ، أي قولنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء أي : ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل في عقلك ، بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها ﴿ **قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه** ﴾ أي من إشراككم آلهة من

دونه والمعنى : إني أشهد الله أني بريء من جميع الأنداد والأصنام ، واشهدوا أنتم أيضاً أني بريء من ذلك ﴿ **فكيدوني جميعًا** ﴾أي أنتم وآلهتكم ﴿ **ثم لا تنظرون** ﴾أي لا تمهلون فإني لا أبالي بكم وبكيدكم ، ولا أخاف مضرتكم ، وإن تعاونتم عليّ ، وكيف تضرني آلهتكم وما هي إلا جماد لا يضر ولا ينفع ؟! وكيف تنتقم مني إذا نلت منها وصددت عن عبادتها بأن تخبلني وتذهب بعقلي ؟!وكيف أخاف منكم والله ربي ؟! وفي هذا التحدي معجزة ﴿ **إنّي توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها** ﴾أي هي تحت قهره وسلطانه فهو مالكها ، ذكر توكله على الله ، وثقته بحفظه وكلاءته من كيدهم ، ووصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم ، ومن كون كل دابة في قبضته وملكه وتحت قهره وسلطانه والأخذ بالناصية : وهي مقدم الرأس تمثيل لذلك ﴿ **إن ربي على صراط مستقيم** ﴾أي إن ربي على الحق لا يَعْدُ عنه أو إن ربي يدل على صراط مستقيم ﴿ **فإن تولوا** ﴾أي إنْ تتولوا أي تعرضوا ﴿ **فقد أبلغتكم ما أُرسلت به إليكم** ﴾أي فإن تتولوا عما جئتكم به من عبادة الله وحده والتوبة إليه ، فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها ، فقوله فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم يفيد في طيّه أنه قد ثبتت الحجة عليكم ﴿ **ويستخلف ربي قومًا غيركم** ﴾أي ويهلككم الله ، ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم ﴿ **ولا تضرونه** ﴾ بتوليكم ﴿ **شيئًا** ﴾ من ضرر بل يعود وبال ذلك عليكم ﴿ **إن ربي على كل شيء حفيظ** ﴾أي رقيب مهيمن ، فما تخفى عليه أعمالكم ، ولا يغفل عن مؤاخذتكم ، فهو شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ، ويجزيهم عليها إن خيراً فخيرٌ ، وإن شراً فشرٌ ، ومن كان رقيباً على الأشياء كلها ، حافظاً لها ، كانت الأشياء مفتقرة إلى حفظه عن المضار ، ولا يضر مثلكم مثله ﴿ **ولما جاء أمرنا** ﴾وهو الريح العقيم فأهلكهم الله عن آخرهم ﴿ **نجينا هودًا والذين آمنوا معه برحمة منا** ﴾أي بفضل منا لا بعملهم ، أو بالإيمان الذي أنعمنا عليهم ﴿ **ونجيناهم من عذاب غليظ** ﴾ تكرار نجينا للتأكيد ، أو إن المراد بالعذاب الغليظ عذاب الآخرة ، ولا عذاب أغلظ منه ﴿ **وتلك عاد** ﴾ في هذا التعبير إشارة إلى قبورهم وآثارهم كأنه قال : سيحوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا ﴿ **جحدوا بآيات ربهم** ﴾أي كفروا بها ﴿ **وعصوا رسله** ﴾ جعلهم عاصين لجميع الرسل لأن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الرسل ﴿ **واتبعوا أمر كل جبار عنيد** ﴾أي رؤساءهم ودعاتهم إلى تكذيب الرسل ، تركوا اتباع رسولهم الرشيد ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴿ **وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم**

القيامة ﴾ لما كانوا تابعين لهم دون الرسل جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين ﴿ **ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بُعداً لعاد قوم هود** ﴾ هذا التعبير يفيد تهويل أمرهم ، ويبعث على الاعتبار بهم ، والحذر من مثل حالهم ، والدعاء (بعداً) بعد هلاكهم - وهو دعاء بالهلاك - للدلالة على أنهم كانوا مستأهلين له . وقوله ﴿ **لعاد قوم هود** ﴾ ذكر النسفي أن فيه فائدة هي أن عاداً عادان : عاد الأولى القديمة التي هي قوم هود والقصة فيهم ، والأخرى إرم . وهكذا تنتهي القصة الثانية في هذا المقطع ، وهي قصة هود لتؤدي دورها في سياق السورة بالتمثيل لعاقبة الذين يتركون دعوة الرسول إياهم لعبادة الله ، وتعرض لنا نوعاً من الشبه التي استقبلت بها الدعوة إلى عبادة الله ، والرّد عليها ، وبطلانها .

قال صاحب الظلال تعقيباً على قصة هود في السورة :(ونقف وقفات قصيرة أمام ما تلهمه قصة هود مع قومه في سياق هذه السورة .. نقف أمام الدعوة الواحدة الخالدة على لسان كل رسول وفي كل رسالة .. دعوة توحيد العبادة والعبودية لله ، المتمثلة فيما يحكيه القرآن الكريم عن كل رسول : ﴿ **قال: ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ ولقد كنا دائما نفسر « العبادة » لله وحده بأنه « الدينونة الشاملة » لله وحده . في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة . ذلك أن هذا هو المدلول الذي تعطيه اللفظة في أصلها اللغوي .

...ونقف أمام الحقيقة التي كشف عنها هود لقومه وهو يقول لهم : ﴿ **وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين** ﴾ .. وهي ذات الحقيقة التي ذكرت في مقدمة السورة بصدد دعوة رسول الله ﷺ لقومه بمضمون الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير . وذلك في قوله تعالى : ﴿ **وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير** ﴾

إنها حقيقة العلاقة بين القيم الإيمانية والقيم الواقعية في الحياة البشرية ، وحقيقة اتصال طبيعة الكون ونواميسه الكلية بالحق الذي يحتويه هذا الدين .. وهي حقيقة في حاجة إلى جلاء وتثبيت ، وبخاصة في نفوس الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، والذين لم تصقل أرواحهم وتشف حتى ترى هذه العلاقة أو على الأقل تستشعرها .

... ونقف أمام تلك المواجهة الأخيرة من هود لقومه ؛ وأمام تلك المفاصلة التي قذف بها في وجوههم في حسم كامل ، وفي تحدّ سافر ، وفي استعلاء بالحق الذي معه ، وثقة في ربه الذي يجد حقيقته في نفسه بينة : ﴿ **قال: إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون ۝ من دونه فكيدوني جميعًا لا تنظرون ۝ إني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ۝ فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم، ويستخلف ربي قومًا غيركم ولا تضرونه شيئًا، إن ربي على كل شيء حفيظ** ﴾.

إن أصحاب الدعوة إلى الله في كل مكان وفي كل زمان في حاجة إلى أن يقفوا طويلاً أمام هذا المشهد الباهر .. رجل واحد ، لم يؤمن معه إلا قليل ، يواجه أعتىٰ أهل الأرض ، وأغنىٰ أهل الأرض ، وأكثر أهل الأرض حضارة مادية في زمانهم) ولنعد إلى التفسير :

تفسير المجموعة الثالثة

فبعد قصة هود تأتي قصة صالح مع قومه لتؤدي دورها في سياق هذه السورة :

﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحًا** ﴾أي ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً ﴿ **قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾عبادة الله وحده تلكم دعوة الرسل جميعاً من لدن آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام جميعاً ﴿ **هو أنشأكم من الأرض** ﴾أي ابتدأ خلقكم منها ، خلق منها أباكم آدم ، وخلق أجسادكم منها ﴿ **واستعمركم فيها** ﴾ أي جعلكم عمّاراً تعمرونها وتستغلونها ، أو جعلكم عمّارها وأراد منكم عمارتها ، ويحتمل أن يكون المعنى :وأطال أعماركم فيها والأول أصح ﴿ **فاستغفروه** ﴾أي فاسألوه مغفرته بأن تؤمنوا ﴿ **ثم توبوا إليه** ﴾ كلما أذنبتم ﴿ **إن ربي قريب** ﴾أي داني الرحمة ﴿ **مجيب** ﴾ لمن دعاه وهكذا نجد أن طريق الرسل واحدة ودعوتهم واحدة : العبادة والاستغفار .

فائدة :

نلاحظ أن نوحاً قال : ﴿ **ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم** ﴾ وأن هوداً قال ﴿ **ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون** ﴾ وأن صالحاً قال : ﴿ **ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض**

واستعمركم فيها ﴾فكان تذكير نوح يرافقه الوعظ ، وكان تذكير هود يرافقه التأنيب ، وكان تذكير صالح يرافقه التذكير بالنعمة ، وكلها طرق يُقتدىٰ بها ، ولكل منها محله وأهله ، وكل قصة تعرض حججاً وتعرض أجوبة ، وتعطينا عطاءً خاصاً ، وكل ذلك يخدم سياق السورة ، فليست كل قصة تكراراً للأخرى ، فلكل قوم طبيعة ، ولكل قوم عقوبة ، ولكل قوم خطاب ، ولكل قوم رد ، فتأمل جوانب الاتفاق والاختلاف ففي كل ذلك من المعاني مالا يتناهى . ولنعد الى السياق :

﴿ **قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوًا قبل هذا** ﴾أي كنت فيما بيننا مرجواً للسيادة والمشاورة في الأمور ، أي كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ماقلت : ﴿ **أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا** ﴾وما كان عليه أسلافنا ﴿ **وإننا لفي شك مما تدعونا إليه** ﴾من عبادة الله وحده ﴿ **مريب** ﴾أي موقع في الريبة ، والريبة : قلق النفس وانتفاء الطمأنينة ، وهكذا نجد هنا لغة أخرى في خطاب رجل الدعوة إلى الله ، الثناء على حاله الأول قبل الدعوة ، وإنكار الحق بحجة تقليد الآباء ، وإظهار التشكك في الدعوة ، وهي طرق خبيثة من طرق الصد عن سبيل الله .

فائدة:

يلاحظ أن حجة قوم نوح كانت : بشرية الرسول ، وضحالة رأي أتباعه ، وقلة مكانتهم ، وعدم رؤية الميزة لنوح ومن معه ، مما يجعلهم غير مؤهلين للاتباع ، وكان رد قوم هود منصباً على أنه لا بينة واضحة في دعوة هود ، مع تهديد هود بآلهتهم ، وكانت اللغة التي استعملت مع صالح عليه السلام هي ما رأينا ، وهكذا نجد مواقف متعددة ، وأساليب متنوعة ، تسع الحالات التي يصادفها كل داعية إلى الله وهو يدعو إلى عبادة الله واستغفاره ، وهكذا تبني سورة هود قصة الدعوة إلى الله من خلال التقرير والتمثيل والعرض والقصة ، وتأتي القصص واحدة بعد أخرى ؛ لنرى في كل منها جوانب جديدة ، إن في موضوع الدعوة ، أو في موضوع ردها وحجج الرادّين ، أو في مواقف الرسل عليهم السلام ، أو في عاقبة الظالمين . ولنعد إلى السياق :

﴿ **قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي** ﴾أي أخبروني إن كنت على بينة من ربي أي على يقين وبرهان فيما أرسلني به إليكم ﴿ **وآتاني منه رحمة** ﴾أي نبوة أي : قدروا أني على بيّنة من ربي ، وأنني نبي على الحقيقة ، وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره ﴿ **فمن ينصرني من الله** ﴾أي فمن يمنعني من عذاب الله ﴿ **إن عصيته** ﴾أي

تبليغ رسالته ومنعكم عن عبادة الأوثان ﴿ **فماتزيدونني غير تخسير** ﴾أي لو تركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده لما نفعتموني ، ولما زدتموني إلا خسارة بأن أنسب إلى الخسار ﴿ **وياقوم هذه ناقة الله لكم آية** ﴾أي معجزة شاهدة على أنني رسول الله ، وقد مرت معنا القصة في سورة الأعراف فلا نذكر هنا إلا ما يحتاجه فهم النص ﴿ **فذروها تأكل في أرض الله** ﴾كأنه قال : لكم نفعها وليس عليكم رزقها ، فلا حجة إن آذيتموها ولذلك قال : ﴿ **ولاتمسوها بسوء** ﴾من عقر أو نحر أو إيذاء ﴿ **فيأخذكم عذاب قريب** ﴾أي عاجل ، وهكذا كان رد صالح إظهار العجز عن ترك دعوة الله ، والتذكير بالمعجزة ، بينما كان رد هود التحدي لهم ، والتوكل على الله ، وكان رد نوح النقاش المفصّل لكل جزء من أجزاء كلامهم ، وفي كلٍ قدوة ، ولكل كلمة محلها ، والناس طبائع ، ولكل طبيعة كلمة تناسبها ، ولكلٍ من الدعاة طبيعة ، والقرآن يسع النفس البشرية كلها ، وفيه لكل نفس ما يناسبها ضمن إطار الحق ودائرته ﴿ **فعقروها** ﴾ أي فذبحوها ﴿ **فقال** ﴾ صالح ﴿ **تمتعوا في داركم** ﴾ أي استمتعوا بالعيش في بلدكم ، وتُسمّى البلاد الديار لأنه يدار فيها أي : يتصرف ويحتمل أن يكون المعنى : استمتعوا في دار الدنيا ﴿ **ثلاثة أيام** ﴾ أي ثم تهلكون ﴿ **ذلك وعد غير مكذوب** ﴾أي غير مكذوب فيه ﴿ **فلما جاء أمرنا** ﴾أي بالعذاب أو فلما جاء عذابنا ﴿ **نجينا صالحًا والذين آمنوا معه برحمة منا** ﴾إذ لولا رحمته بهم ما هداهم فاستحقوا النجاة ، رحمهم إذ هداهم ، ورحمهم إذ نجاهم ، والأمر أمره ، والجميع ملكه ﴿ **ومن خزي يومئذ** ﴾ تقديره : ونجيناهم من ذلك اليوم وفضيحته ، ولا خزي أعظم من خزي مَن كان هلاكه بغضب الله وانتقامه ، وجاز أن يكون المراد بيومئذ يوم القيامة ﴿ **إن ربك هو القوي** ﴾أي القادر على تنجية أوليائه ﴿ **العزيز** ﴾أي الغالب بإهلاك أعدائه ﴿ **وأخذ الذين ظلموا الصيحة** ﴾أي الصاعقة وقد ذكر في سورة الأعراف أنهم أخذوا بالرجفة ويبدو - والله أعلم - أنهم اجتمع عليهم الزلزال والصعق ﴿ **فأصبحوا في ديارهم** ﴾ أي في منازلهم ﴿ **جاثمين** ﴾أي ميّتين ﴿ **كأن لم يغنوا فيها** ﴾أي كأن لم يقيموا فيها ﴿ **ألا إن ثمود كفروا ربهم** ﴾فاستحقوا العذاب ﴿ **ألا بُعدًا لثمود** ﴾وقد بعدوا في الدنيا والآخرة .

وهكذا كانت نهاية قوم صالح بالصيحة ، ونهاية قوم هود بالريح ، ونهاية قوم نوح بالطوفان ، وكانت العاقبة نجاة نوح ، وهود ، وصالح ، وهذا هو الدرس الأعظم للدعاة إلى عبادة الله واستغفاره ، وبهذا ينتهي المقطع الثاني في سورة هود . وقبل أن ننتقل إلى

المقطع الثالث نحب أن ننقل بعض النقول ، ونذكر بعض الفوائد .

نقل عن الظلال حول قصة صالح عليه السلام

(ومرّة أخرى نجدنا أمام حلقة من حلقات الرسالة على مدار التاريخ ... الدعوة فيها هي الدعوة . وحقيقة الإسلام فيها هي حقيقته ... عبادة الله وحده بلا شريك ، والدينونة لله وحده بلا منازع .. ومرة أخرى نجد الجاهلية التي تعقب الإسلام ، ونجد الشرك الذي يعقب التوحيد - فثمود كعاد ، هم من ذراري المسلمين الذين نجوا في السفينة مع نوح - ولكنهم انحرفوا فصاروا إلى الجاهلية ، حتى جاءهم صالح ليردهم إلى الإسلام من جديد .

ولقد كان مشركو العرب يطلبون من رسول الله ﷺ خارقة كالخوارق السابقة كي يؤمنوا . فهاهم أولاء قوم صالح قد جاءتهم الخارقة التي طلبوا ، فما أغنت معهم شيئاً ، إن الإيمان لا يحتاج إلى الخوارق . إنه دعوة بسيطة تتدبّرها القلوب والعقول . ولكن الجاهلية هي التي تطمس على القلوب والعقول .

ومرّة أخرى نجد حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلب من قلوب الصفوة المختارة . قلوب الرسل الكرام . نجدها في قولة صالح التي يحكيها عنه القرآن الكريم : ﴿ **قال: ياقوم أرأيتم إن كنتُ على بيّنة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته؟ فما تزيدونني غير تخسير** ﴾... وذلك بعد أن يصف لهم ربه كما يجده في قلبه : ﴿ **إن ربي قريب مجيب** ﴾. وما تتجلى حقيقة الألوهية قط في كمالها وجلالها وروائها وجمالها كما تتجلى في قلوب تلك الصفوة المختارة من عباده . فهذه القلوب هي المعرض الصافي الرائق الذي تتجلى فيه هذه الحقيقة على هذا النحو الفريد العجيب .

ثم نقف من القصة أمام الجاهلية التي ترى في الرشد ضلالاً ؛ وفي الحق عجيبة لا تكاد تتصورها . فصالح الذي كان مرجوّاً في قومه لصلاحه ولرجاحة عقله وخُلقه ، يقف منه قومه موقف اليائس منه ، المفجوع فيه ! لماذا ؟ لأنه دعاهم إلى الدينونة لله وحده . على غير ماورثوا عن آبائهم من الدينونة لغيره .

إن القلب البشري حين ينحرف شعرة واحدة عن العقيدة الصحيحة ، لا يقف عند حد في ضلاله وشروده . حتى إن الحق اليسيط الفطري المنطقي ليبدو عنده عجيبة العجائب التي يعجز عن تصورها ؛ بينما هو يستسيغ الانحراف الذي لا يستند إلى منطق

فطري أو منطق عقلي على الإطلاق .

إن صالحاً يناديهم : ﴿ **ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ... هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ..** ﴾ فهو يناديهم بما في نشأتهم ووجودهم في الأرض من دليل فطري منطقي لايملكون له رداً .. وهم ماكانوا يزعمون أنهم هم أنشأوا أنفسهم ولا أنهم هم كفلوا لأنفسهم البقاء ، ولا أعطوا أنفسهم هذه الأرزاق التي يستمتعون بها في الأرض .. وظاهر أنهم لم يكونوا يجحدون أن الله - سبحانه - هو الذي أنشأهم من الأرض وهو الذي أقدرهم على عمارتها . ولكنهم ماكانوا يتبعون هذا الاعتراف بألوهية الله - سبحانه - وإنشائه لهم واستخلافهم في الأرض ، بما ينبغي أن يتبعه من الدينونة لله وحده بلا شريك ، واتباع أمره وحده بلا منازع .. وهو مايدعوهم إليه صالح بقوله : ﴿ **ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غير** ﴾) .

فوائد :

١ - لم نتعرض إلى موطن هذه الأقوام التي مرّت معنا في هذا المقطع ، لأن ذلك قد مرّ الكلام عنه في سورة الأعراف ، والوجود الزمني للأقوام المذكورة يتفق مع الوجود الذكري في المقطع ، قوم نوح كانوا أولاً ، ثم قوم هود ، ثم قوم صالح .

٢ - يذكر بعض المفسرين أثناء الكلام عن قصة نوح كلاماً لا أصل له حول ابن نوح يريدون به الفرار من أن يكون ابنه الصلبي ، وليس لهذا الكلام مبرّر ، ولذلك فإن المحققين يرفضونه ، رفضاً باتاً فهو ابن نوح حقاً وصدقاً ، وقد فرّقت بينهم العقيدة .

٣ - الإعجاز في القرآن هو حصيلة لمجموعة معان تتضافر لتشكل الإعجاز ، وقد تكلّم الخطابي في رسالته عن إعجاز القرآن عن هذا الموضوع بما يشفي ، وقد جرت عادة المفسرين أو المتكلمين أن يحلّلوا سورة أو آية بعينها ، ويركّزون عليها لإبراز هذا المعنى . وتكاد تكون آية ﴿ **وقيل ياأرض ابلعي ماءك وياسماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بُعْداً للقوم الظالمين** ﴾ من الآيات التي يعرضها الكثير على أنها نموذج لتضافر معان متعدّدة كان كأثر عنها الإعجاز ، ولننقل كلام النسفي في الآية كنموذج :

(والنظر في هذه الآية من أربع جهات : من جهة علم البيان ، وهو النظر فيما فيها من المجاز ، والاستعارة ، والكناية ، وما يتصل بها ، فنقول : إن الله تعالى لما أراد أن يبيّن

معنى : أردنا أن نردّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد ، وأن نقطع طوفان السماء فانقطع ، وأن نغيض الماء النازل من السماء فغيض ، وأن نقضي أمر نوح — وهو إنجاز ما كنّا وعدناه من إغراق قومه — فقضي ، وأن نسوي السفينة على الجودي فاستوت ، وأبقينا الظَّلَمة غرقى ، بنى الكلام على تشبيه المراد بالأمر الذي لا يتأتى منه — لكمال هيبته — العصيان ، وتشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم النافذ في تكوّن المقصود تصويراً لاقتداره العظيم ، وأن السموات والأرض منقادة لتكوينه فيها مايشاء غير ممتنعة لإرادته ، فيها تغييراً وتبديلاً كأنها عقلاء مميزون قد عرفوه حق معرفته ، وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره والإذعان لحكمه ، وتحتّم بذل المجهود عليهم في تحصيل مراده . ثم بنى على تشبيه هذا نظم الكلام فقال عز وجل : ﴿ **وقيل** ﴾ على سبيل المجاز عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل ، وجعل قرينة المجاز الخطاب للجماد وهو (ياأرض ، وياسماء) ثم قال مخاطباً لهما (ياأرض) و (ياسماء) على سبيل الاستعارة للشبه المذكور ، ثم استعار لغور الماء في الأرض ، البلع الذي هو أعمال الجاذبة في المطعوم للشبه بينهما وهو الذهاب إلى مقر خفي ، ثم استعار الماء للغذاء تشبيهاً له بالغذاء لتقوّي الأرض بالماء في الإنبات كتقوّي الآكل بالطعام ، ثم قال (ماءك) بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز لاتصال الماء بالأرض كاتصال الملك بالمالك . ثم اختار لاحتباس المطر الإقلاع الذي هو ترك الفعل ، للشبه بينهما في عدم الثاني . ثم قال ﴿ **وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بُعداً** ﴾ ولم يصرّح بمن أغاض الماء ، ولا بمن قضى الأمر وسوّى السفينة بعداً . كما لم يصرّح بقائل (ياأرض وياسماء) سلوكاً في كل واحد من ذلك لسبيل الكناية وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر ، وتكوين مكوّن قاهر ، وأن فاعلها واحد لا يشارك في فعله ، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره ﴿ **ياأرض ابلعي ماءك وياسماء أقلعي** ﴾ ولا أن يكون الغائض والقاضي والمسوي غيره . ثم ختم الكلام بالتعريض تنبيهاً لسالكي مسلكهم في تكذيب الرسل ظلماً لأنفسهم ، إظهاراً لمكان السخط وأن ذلك العذاب الشديد ماكان إلا بظلمهم .

ومن جهة علم المعاني : وهو النظر في فائدة كل كلمة فيها ، وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها . وذلك أنه اختير (يا) دون أخواتها لكونها أكثر استعمالاً ، ولدلالتها على بُعْد المنادى الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة والملكوت ، وإبداء العزة والجبروت ، وهو تبعيد المنادَىْ المؤذن بالتهاون به ، ولم يقل ياأرضي لزيادة التهاون إذ الإضافة تستدعي القرب . ولم يقل ياأيتها الأرض للاختصار ، واختير لفظ الأرض والسماء

لكونهما أخف وأدور . واختير (ابلعي) على ابتلعي لكونه أخصر ، وللتجانس بينه وبين (أقلعي) وقيل (أقلعي) ولم يقل عن المطر ، وكذا لم يقل (يا أرض أبلعي ماء) فبلعت (ويا سماء أقلعي) فأقلعت اختصاراً . واختير (غيض) على غيّض وقيل (الماء) دون أن يقول ماء الطوفان ، و (الأمر) ولم يقل أمر نوح وقومه ، لقصد الاختصار . والاستغناء بحرف العهد عن ذلك ، ولم يقل وسوّيت على الجودي . أي أقرت على نحو (قيل)و (غيض) اعتباراً لبناء الفعل للفاعل مع السفينة في قوله ﴿ وهي تجري بهم ﴾ إرادة للمطابقة ثم قيل ﴿ بُعداً للقوم ﴾ولم يقل ليبعد القوم طلباً للتأكيد مع الاختصار . هذا من حيث النظر إلى تركيب الكلم . وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل فذلك أنه قدّم النداء على الأمر فقيل (يا أرض ابلعي ، ويا سماء أقلعي) ولم يقل ابلعي يا أرض وأقلعي يا سماء جرياً على مقتضى الكلام فيمن كان مأموراً حقيقة من تقديم التنبيه ، ليتمكن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادىٰ قصداً بذلك لمعنى الترشيح . ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء ، وابتدأ به لابتداء الطوفان منها ، ثم أتبع ﴿ وغيض الماء ﴾ لاتصاله بقصة الماء وأخذه بحجزتها . ثم ذكر ما هو المقصود وهو قوله ﴿ وقضي الأمر ﴾أي أنجز الموعود في إهلاك الكفرة ، وإنجاء نوح ومن معه في الفلك . وعلى هذا فاعتبر .

ومن جهة الفصاحة المعنوية ، وهي كما ترى نظمٌ للمعاني لطيف ، وتأدية لها ملخصة مبينة لا تعقيد يُعثر الفكر في طلب المراد ، ولا التواء يشيك الطريق إلى المرتاد .

ومن جهة الفصاحة اللفظية ، فألفاظها كما ترى عربية مستعملة سليمة عن التنافر ، بعيدة عن البشاعة ، عذبة على العذبات ، سلسلة على الأسلات ، كل منها كالماء في السلاسة ، وكالعسل في الحلاوة ، وكالنسيم في الرقة .

ومن ثم أطبق المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية . ولله در شأن التنزيل لا يتأمل العالم آية من آياته إلا أدرك لطائف لاتسع الحصر ، ولا تظنن الآية مقصورة على المذكور ، فلعل المتروك أكثر من المسطور . أ هـ .)

٤ - بمناسبة قوله تعالى في قصة هود ﴿ وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ وبمناسبة ذكر الاستغفار في أول سورة هود : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ نذكر الحديث الشريف :

« من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لايحتسب » . ونذكر هذه القصة التي ذكرها النسفي :

عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه وفد على معاوية ، فلما خرج قال له بعض حجّابه :إني رجل ذو مال ولا يولد لي ، علمني شيئاً لعل الله يرزقني ولداً ، فقال الحسن : عليك بالاستغفار فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرة فولد له عشرة بنين ، فبلغ ذلك معاوية ، فقال : هلا سألته مم قال ذلك ! فوفد وفدة أخرى فسأله الرجل ، فقال : ألم تسمع قول هود ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ وقول نوح ﴿ ويمددكم بأموال وبنين ﴾ .

كلمة في السياق :

وهكذا سارت سورة هود وهي تشيد صرح عبادة الله من خلال التقرير والتمثيل والعرض والقصة ، وبعد أن عرضت ماعرضت ، تعرض علينا في المقطع الثالث قصة إبراهيم ، وقصة لوط عليهما السلام ، وهما قصتا عابدين تولاهما الله ، فمن القصتين نفهم تولي الله لأهل العبادة ، كما أن عاقبة قوم لوط ماضية على النسق الذي مر معنا في نجاة الرسل وأتباعهم ، وهلاك المعرضين والرافضين ، وتكاد القصتان أن تكونا قصة واحدة .

المقطع الثالث

في هذا المقطع قصتا إبراهيم ولوط عليهما السلام ، وهما في حكم القصة الواحدة ، إذ أن قصة إبراهيم فيها حديث عن قوم لوط ، فكأنها مقدمة لها ، والقصتان تريانا رعاية الله لعباده وعبّاده ، ويمتدُّ هذا المقطع من الآية (٦٩) إلى نهاية الآية (٨٣) وهذا هو :

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا

بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ
ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ
ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ
مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ
ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ
ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى
بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ
شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ
مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ
ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ *

التفسير :

﴿ **ولقد جاءت رسلنا** ﴾ أي الملائكة ﴿ **إبراهيم بالبشرى** ﴾ تبشره بإسحق ﴿ **قالوا سلاماً قال سلام** ﴾ وقد ردّ عليهم بأبلغ من سلامهم ، لأن المنصوب هنا تقديره سلمنا سلاماً وهو يفيد المضي ، والأسم المرفوع هنا يفيد الثبوت والدوام ﴿ **فما لبث أن جاء بعجل حنيذ** ﴾ أي مشوي بالحجارة المحمّاة ، والعجل : الفتي من البقر . والمعنى : ذهب سريعاً فأتاهم بالضيافة ﴿ **فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكِرهم** ﴾ أي أنكرهم ﴿ **وأوجس منهم خيفة** ﴾ أي أضمر منهم خوفاً ﴿ **قالوا لاتخف إنا أرسلنا** ﴾ بالعذاب ﴿ **إلى قوم لوط** ﴾ وإنما قالوا لا تخف في الظاهر لأنهم رأوا أثر الخوف والتغيّر في وجهه . قال النسفي : والظاهر أنه أحسَّ بأنهم ملائكة ، ونكِرَهم لأنه تخوّف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه أو لتعذيب قومه ، واستُدلّ على ذلك بقولهم : ﴿ **إنا أرسلنا إلى قوم لوط** ﴾ قال : وإنما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف فيما أرسلوا فيه ﴿ **وامرأته قائمة** ﴾ إما وراء الستر تسمع تحاورهم ، وإما على رؤوسهم تخدمهم ﴿ **فضحكت** ﴾ سروراً بزوال الخيفة ، أو بهلاك أهل الخبائث ، أو من غفلة قوم لوط مع قرب العذاب . فجوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس ﴿ **فبشّرناها بإسحق ومن وراء إسحق** ﴾ أي من بعده ﴿ **يعقوب** ﴾ بُشّرت بولد لها يكون له ولد ونسل ، خصّت بالبشارة لأن النساء أعظم سروراً بالولد ، ولأنه لم يكن لها ولد وكان لإبراهيم ولد ، وهو إسماعيل ، وقد استدل بهذه الآية - كما استدل بغيرها - على أن الذبيح إنما هو إسماعيل ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق لأنه وقعت البشارة به ، وأنه سيولد له يعقوب ، فكيف يؤمر بذبحه وهو طفل صغير ، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ، ووعد الله حق لا خلف فيه ، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه ، فتعيّن أن يكون هو إسماعيل . قال ابن كثير : وهذا من أحسن الاستدلال وأصحّه وأبينه ﴿ **قالت ياويلتىٰ ءألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب** ﴾ أي أن يولد ولد من هرمين ، وهو استبعاد من حيث العادة ﴿ **قالوا أتعجبين من أمر الله** ﴾ أي من قدرته وحكمته ، أنكرت الملائكة تعجّبها لأنها كانت في بيت الآيات ، ومهبط المعجزات ، والأمور الخارقة للعادات ، فلا تعجبي إذن من أمر الله ، فإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فلا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزاً عقيماً ، وبعلك شيخاً كبيراً ، فإن الله على مايشاء قدير ﴿ **رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت** ﴾ أي هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ، ويخصكم بالإنعام به ياأهل بيت النبوة ، فليست

بمكان عجيب ، وهو تعليل لإنكار التعجب ، كأنه قيل : إياكِ والتعجب لأن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم ﴿ **إنه حميد** ﴾أي محمود في جميع أفعاله وأقواله ﴿ **مجيد** ﴾أي ممجّد في صفاته وذاته ﴿ **فلما ذهب عن إبراهيم الرّوْع** ﴾أي الفزع وهو ما أوجس من الخيفة ﴿ **وجاءته البشرى** ﴾بالولد ﴿ **يجادلنا في قوم لوط** ﴾أي لما اطمأن بعد الخوف ، وملىء سروراً بسبب البشرى ، فزع إلى المجادلة ﴿ **إن إبراهيم لحليم أواه منيب** ﴾هذا ثناء على إبراهيم بهذه الصفات الثلاثة : الحليم:وهو غير العجول على كل من أساء إليه ، أو كثير الاحتمال ممن آذاه ، الصفوح عمن عصاه ، والأوّاه : وهو كثير التأوه من خوف الله ، والمنيب : وهو التائب الراجع إلى الله ، وهذه الصفات دالّة على رقّة القلب والرأفة والرحمة ، بيّنت الآية أن ذلك هو الذي حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع العذاب ، ويمهلوا لعلهم يتوبون ، فجاءه الجواب ﴿ **ياإبراهيم أعرض عن هذا** ﴾أي وإن كانت الرحمة ديدنك فدع الجدال في هذا الأمر ﴿ **إنه قد جاء أمر ربك** ﴾أي قضاؤه وحكمه أي إنه قد نفذ فيهم القضاء وحقّت عليهم الكلمة بالهلاك ، وحلول البأس الذي لايردُّ عن القوم المجرمين ﴿ **وإنهم آتيهم عذاب غير مردود** ﴾أي لا يرد بجدال وغير ذلك ﴿ **ولما جاءت رسلنا لوطاً** ﴾ بعد أن خرجوا من عند إبراهيم متوجهين إلى قوم لوط ﴿ **سيء بهم** ﴾أي حزن لأنه حسب أنهم إنس ورأى هيئاتهم وجمالهم ، وخاف عليهم خبث قومه ، وأن يعجز عن مقاومتهم ودفعهم ﴿ **وضاق بهم ذرعاً** ﴾أي وضاق بمكانهم صدره ، إذ خشي إنْ ضيّفهم ألا يقدر على حمايتهم ، وإن لم يضيّفهم أن يضيّفهم أحد من قومه فينالهم بسوء ﴿ **وقال هذا يوم عصيب** ﴾أي شديد بلاؤه قال صاحب الظلال :

(لقد كان يعرف قومه . ويعرف ما أصاب فطرتهم من انحراف وشذوذ عجيبين . إذ يتركون النساء إلى الرجال ، مخالفين الفطرة التي تهتدي إلى حكمة خلق الأحياء جميعاً أزواجاً ، كي تمتد الحياة بالنسل ماشاء لها الله ، والتي تجد اللذة الحقيقية في تلبية نداء الحكمة الأزلية ، لا عن تفكير وتدبير ، ولكن عن اهتداء واستقامة .

والبشرية تعرف حالات مرضية فردية شاذة ، ولكن ظاهرة قوم لوط عجيبة وهي تشير إلى أن المرض النفسي يعدي كالمرض الجسدي . وأنه يمكن أن يروج مرض نفسي كهذا نتيجة لاختلال المقاييس في بيئة من البيئات ، وانتشار المثل السيء ، عن طريق إيحاء البيئة المريضة . على الرغم من مصادمته للفطرة ، التي يحكمها الناموس الذي يحكم الحياة . الناموس الذي يقتضي أن تجد لذتها فيما يلبي حاجة الحياة لا فيما يصادمها

ويعدمها . والشذوذ الجنسي يصادم الحياة ويعدمها ، لأنه يذهب ببذور الحياة في تربة خبيثة لم تُعَدّ لاستقبالها وإحيائها . بدلاً من الذهاب بها إلى التربة المستعدة لتلقيها وإنمائها . ومن أجل هذا تنفر الفطرة السليمة نفوراً فطرياً - لا أخلاقياً فحسب - من عمل قوم لوط . لأن هذه الفطرة محكومة بقانون الله في الحياة الذي يجعل اللذة الطبيعية السليمة فيما يساعد على إنماء الحياة لا فيما يصدمها ويعطّلها .

ولقد نجد أحياناً لذة في الموت - في سبيل غاية أسمى من الحياة الدنيا - ولكنها ليست لذة حسيّة إنما هي معنوية اعتبارية . على أن هذه ليست مصادمة للحياة ، إنما هي إنماء لها وارتفاع بها من طريق آخر . وليست في شيء من ذلك العمل الشاذ الذي يعدم الحياة وخلاياها) .

﴿ **وجاءه قومه يُهْرَعون إليه** ﴾ أي يسارعون إسراعاً ويهرولون هرولة كأنهم يدفعون دفعاً ﴿ **ومن قبل كانوا يعملون السيئات** ﴾أي لم يزل هذا من سجيّتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال ، مرنوا على الفواحش ، وقلّ عندهم استقباحها ، فلذلك جاؤوا يهرعون مجاهرين لايكفّهم حياء ﴿ **قال ياقوم هؤلاء بناتي هُن أطهر لكم** ﴾ للمفسرين في هذا المقام قولان : **الأول:** أن بناته نساء قومه فكأنه لفت نظرهم إلى أزواجهم . **الثاني:** أنه عرض عليهم بناته ليتزوجوا ، والتقدير هؤلاء بناتي فتزوجوهن فأراد أن يقي أضيافه ببناته ، وذلك غاية الكرم ، وكان تزوج المسلمات من الكفار جائزاً في ذلك الوقت ، كما جاز في الابتداء في هذه الأمة ، فقد زوّج رسول الله ﷺ ابنتيه من عتبة بن أبي لهب ، وأبي العاص ، وهما كافران وهذا القول أقوى ﴿ **فاتقوا الله** ﴾ بترك الفاحشة وفعل المباح ﴿ **ولا تخزون في ضيفي** ﴾ أي ولا تهينوني ولا تفضحوني ، أو لا تخجلوني في حق ضيوفي ؛ فإنه إذا خزي ضيف الرجل أو جاره فقد خزي الرجل ، وذلك من عراقة الكرم وأصالة المروءة ﴿ **أليس منكم رجل رشيد** ﴾أي فيه خير يقبل ما آمره به ، ويترك ما أنهاه عنه ، أي أليس فيكم رجل واحد يهتدي إلى طريق الحق وفعل الجميل والكف عن السوء ؟ ﴿ **قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق** ﴾ قال ابن كثير : أي إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهن ، وقال آخرون إنك لتعلم مالنا في بناتك من حاجة ؛ لأن نكاح الإناث أمر خارج عن مذهبنا ؛ فمذهبنا إتيان الذكران ﴿ **وإنك لتعلم مانريد** ﴾أي إنما نريد الرجال ﴿ **قال لو أن لي بكم قوة** ﴾أي لفعلت بكم ولصنعت ، أي لو قويت عليكم بنفسي لنكّلت بكم ﴿ **أو**

آوي إلى ركن شديد ﴾ أو لو أويت إلى قوي أستند إليه ، وأمتنع به فيحميني منكم لفعلت بكم الأفاعيل ، شبه القوي العزيز الذي تمنى نصرته بالركن من الجبل في شدته ومنعته ﴿ **قالوا يالوط إنا رسل ربك** ﴾ أي إن ركنك لشديد فنحن رسل ربك ، وإذا كانوا رسل الله فلن يصل أعداء الله إلى لوط ، ولن يقدروا على ضرره ولذلك قالوا ﴿ **لن يصلوا إليك** ﴾ ثم قالوا ﴿ **فاسر بأهلك بقطع من الليل** ﴾ أي بطائفة منه أو نصفه ﴿ **ولا يلتفت منكم أحد** ﴾ أي ولا ينظر أحد منكم إلى ما وراءه ، ويحتمل أنه أمر بعدم تخلف أحد ، ويحتمل بأنه أمر بعدم الالتفات إلى ما خلف وراءه من أملاك ، والأول أقوى ﴿ **إلا امرأتك** ﴾ أي إلا هي فلا عليك ألا تلتفت ﴿ **إنه مصيبها ما أصابهم** ﴾ أي إن الأمر هكذا شأنها شأنهم ﴿ **إن موعدهم الصبح** ﴾ كأنه قال : متى موعد هلاكهم ؟ فقيل له ذلك ، وكأنه أراد أسرع من ذلك فقالوا ﴿ **أليس الصبح بقريب** ﴾ ﴿ **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل** ﴾ أي حجارة من طين قوية شديدة ﴿ **منضود** ﴾ أي متتابع ، أو مجموع معد للعذاب ﴿ **مسومة عند ربك** ﴾ أي معلمة للعذاب في خزائنه أو في حكمه ﴿ **وماهي من الظالمين ببعيد** ﴾ أي وما هذه النقمة ممن تشبه بهم في ظلمهم ببعيد عنه وهكذا انتهى المقطع الثالث :

فوائد :

١ - في هذه السورة حكى الله عز وجل لنا قول سارة ﴿ **قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب** ﴾ وفي سورة الذاريات حكى الله عز وجل فعلها ﴿ **فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم** ﴾ كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب .

٢ - بمناسبة قول لوط عليه السلام ﴿ **لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد** ﴾ يروي ابن كثير حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد - يعني الله عز وجل - فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه » .

٣ - بمناسبة قصة لوط عليه السلام وقومه وماعوقبوا به قال ابن كثير :

(وقد ورد في الحديث المروي في السنن عن ابن عباس مرفوعاً : « من وجدتموه

يعمل عمل قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به » وذهب الإمام الشافعي في قول عنه وجماعة من العلماء إلى أن اللائط يقتل ، سواء كان محصناً أو غير محصن ، عملاً بهذا الحديث ، وذهب الإمام أبو حنيفة أنه يلقى من شاهق ، ويتبع بالحجارة ، كما فعل الله بقوم لوط .

٤- وفي هذا المقطع إن في قصة إبراهيم ، أو في قصة لوط ، مجموعة من آداب الضيافة لا تخفى على المتأمل منها : الإستقبال الطيب للضيف ، ومنها التعجيل بالطعام له ، ومنها الحرص عليه والدفاع عنه ..

٥- يذكر ابن كثير كثيراً من الروايات بمناسبة هذا المقطع ، كلها مرجعها أهل الكتاب وكما كرّرنا أكثر من مرة فإنّ أسفار موسى الخمسة التي تسمّى حالياً التوراة أبعد من أن تكون محلّ ثقة في مجموع نقولها ، بل إن قارئها ليحس بالجهد البشري المتأخر في صياغتها كما ذكرنا ذلك أثناء الكلام عن سورة الأعراف ، ومن ثم فإنها لاتصلح للاعتماد ، وقد يصلح بعضها للاستئناس في تفصيل لا يخالف نصاً ، مع ملاحظة أنها - لكونها مكتوبة من الروايات الشفهية بعد مئات السنين - دخل عليها تحريف وتبديل وتقديم وتأخير ، وإذا نقلنا عنها فإننا ننقل ضمن حدود ، ولولا أن رسولنا عليه الصلاة والسلام أذن لنا أن نحدّث عن بني إسرائيل ولا حرج مانقلنا شيئاً لأن « أقلام النسّاخ الكاذبة » كما قال سفر أرميا قد أدخلت نصوصاً تتقزز منها النفس ، ومن ذلك ما يذكرونه في هذا المكان من زنى لوط بابنتيه - وحاشاه - فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

إذا تذكرنا هذا كله نقول :

إن ما ذكره القرآن عن إبراهيم ولوط عليهما السلام موجود بشكل مضطرب ومختلط في الإصحاح السابع عشر ، والإصحاح الثامن عشر ، والإصحاح التاسع عشر ، من سفر التكوين ، وقد أعطانا القرآن الحق مما نستطيع به أن نعرف خطأ الكثير من الكلام المضطرب هناك ، وصواب بعضه ، فمن الخطأ فيه أنه يذكر أن الرسل الثلاثة أكلوا ، مع أن السياق هناك يشعر بأن إبراهيم كان عارفاً أنهم رسل الله ، فكيف يأكلون وهم ملائكة ؟ ولكنها أقلام النسّاخ الكاذبة ، ومن الصواب فيه ذكر ضحك سارة وتعجبها عندما بشرت بابن « وكانت سارة سامعة في باب الخيمة وهو وراءه .. فضحكت سارة في باطنها قائلة : أبعد فنائي يكون لي تنعم وسيدي قد شاخ » .

ومن الصواب فيه ذكر رغبة إبراهيم في أن يصرف البلاء عن قرى قوم لوط ، ولم يفصّل القرآن ماهية كلام إبراهيم بل أجمل فقال : ﴿ **يجادلنا في قوم لوط** ﴾ .

فلننقل ماذكر من جدال إبراهيم إلى نهاية قصة الإهلاك مما هو مذكور في الإصحاح الثامن عشر والتاسع عشر :

في الإصحاح الثامن عشر:

(فتقدم إبراهيم وقال أفتهلك البارّ مع الأثيم ، عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة ، أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه . حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البار مع الأثيم فيكون البارُّ كالأثيم . حاشا لك ، أديّان كل الأرض لايصنع عدلاً ، فقال الرب إن وجدت في سدوم خمسين بارّاً في المدينة فإني أصفح عن المكان كله من أجلهم . فأجاب إبراهيم وقال إني قد شرعت أكلّم المولى وأنا تراب ورماد ، ربما نقص الخمسون باراً خمسة أتهلك كل المدينة بالخمسة فقال لا أفعل من أجل الأربعين فقال لا يسخط المولى فأتكلم . عسى أن يوجد هناك ثلاثون فقال لا أفعل إن وجدت هناك ثلاثين ، فقال إني قد شرعت أكلم المولى عسى أن يوجد هناك عشرون فقال لا أهلك من أجل العشرين ، فقال لايسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقط . عسى أن يوجد هناك عشرة ، فقال لا أهلك من أجل العشرة ، وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم ورجع إبراهيم إلى مكانه) .

وفي الإصحاح التاسع عشر:

(فجاء الملكان إلى سدوم مساء وكان لوط جالساً في باب سدوم ، فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض . وقال ياسيديَّ ميلا إلى بيت عبدكما وبيتا واغسلا أرجلكما ، ثم تبكران وتذهبان في طريقكما - فقالا لا بل في الساحة نبيت . فألحّ عليهما جداً فمالا إليه ودخلا بيته فصنع لهما ضيافة وخبزاً فطيراً فأكلا .

وقبلما اضطجعا أحاط بالبيت رجال المدينة رجال سدوم من الحدث إلى الشيخ كل الشعب من أقصاها . فنادوا لوطاً وقالوا له أين الرجلان اللذان دخلا إليك الليلة ، أخرجهما إلينا لنعرفهما فخرج إليهم لوط إلى الباب وأغلق الباب وراءه ، وقال : لا تفعلوا شراً ياإخواني . هو ذا لي ابنتان لم تعرفا رجلاً . أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم . وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً لأنهما قد دخلا تحت ظل

سقفي . فقالوا أبعد إلى هناك . ثم قالوا جاء هذا الإنسان ليتغرّب وهو يحكم حكماً . الآن نفعل بك شراً أكثر منهما . فألحوا على الرجل لوط جداً وتقدموا ليكسروا الباب فمد الرجلان أيديهما وأدخلا لوطاً إليهما إلى البيت وأغلقا الباب . وأما الرجال الذين على باب البيت فضرباهم بالعمى من الصغير إلى الكبير . فعجزوا عن أن يجدوا الباب .

وقال الرجلان للوط من لك أيضاً ههنا . أصهارك وبنيك وبناتك وكل من لك في المدينة أخرج من المكان . لأننا مهلكان هذا المكان إذ قد عظم صراخهم أمام الرب فأرسلنا الربُ لنهلكه . فخرج لوط وكلّم أصهاره الآخذين بناته وقال قوموا اخرجوا من هذا المكان . لأن الرب مهلك المدينة . فكان كمازح في أعين أصهاره . ولما طلع الفجر كان الملَكان يعجلان لوطاً قائلين قم خذ امرأتك وابنتيك الموجودتين لئلا تهلك . بإثم المدينة . ولما توانى أمسك الرجلان بيده وبيد امرأته وبيد ابنتيه لشفقة الرب عليه وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة . وكان لما أخرجاهم إلى خارج أنه قال اهربْ إلى الجبل . لعل الشرّ يُدركني فأموت . هو ذا المدينة هذه قريبة للهرب إليها وهي صغيرة . أهرب إلى هناك . أليست هي صغيرة فتحيا نفسي . فقال له إني قد رفعت وجهك في هذا الأمر أيضاً أن لا أقلب المدينة التي تكلمت عنها أسرع اهرب إلى هناك لأني لا أستطيع أن أفعل شيئاً حتى تجيء إلى هناك . لذلك دُعِيَ اسم المدينة صوغر .

وإذ أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر . فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء . وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض . ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح . وبكر إبراهيم في الغد إلى المكان الذي وقف فيه أمام الرب . وتطلع نحو سدوم وعمورة ونحو كل أرض الدائرة ونظر وإذا دخان الأرض يصعد كدخان الأتون . وحدث لما أخرب الله مدن الدائرة أن الله ذكر إبراهيم وأرسل لوطاً من وسط الانقلاب حين قلب المدن التي سكن فيها لوط) .

كلمة في السياق:

نجد في هاتين القصتين قصة إبراهيم ولوط مثلين على القيام بحق الله ، في العبادة والتوبة ، فنجد العبودية الخالصة عند إبراهيم وآل بيته ، والعبودية الكاملة عند لوط ، كما نجد عاقبة الانحرافات عن أمر الرسل عليهم الصلاة والسلام ، نلاحظ أن الأمر بالعبادة يدخل فيه طاعة الله في كل أمر ، كما نلاحظ في القصتين كيف يكرم الله أهل طاعته

بأنواع الكرامة ، نلاحظ أن في قصة لوط معنى هو امتداد للمعنى الذي وجدناه في قصة نوح ، أن القرابة لا تنفع صاحبها إذا لم يكن إيمان ، فالقصتان امتداد للقصص الثلاث السابقة ، والقصص في هذه السورة بمجموعها تمضي على نسق واحد مع مواضيع المقطع الأول ، وتمهّد للمقطع الأخير ، وقد لاحظنا أن بداية المقطع الثاني كانت :

﴿ **ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه..** ﴾ثم عطفت عليها قصة هود ﴿ **وإلى عاد أخاهم هودًا** ﴾ثم عطفت عليها قصة صالح ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحًا** ﴾ثم كان بعد ذلك قصة إبراهيم وأضيافه ، وقوم لوط وبدأت ﴿ **ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى** ﴾ثم تأتي الآن قصة شعيب عليه السلام مع قومه وبدايتها ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾فكأن قصة شعيب معطوفة على قصة قوم نوح وعاد وثمود ، وجعل الله عز وجل في الوسط قصة إبراهيم ممّا يشير إلى وحدة السورة ، وأن قصتي إبراهيم ولوط عليهما السلام تخدمان في المحور نفسه ، محور العبادة الذي سيعود السياق صريحًا في شأنه في قصة شعيب في المقطع الرابع :

☆ ☆ ☆

المقطع الرابع

ويمتدُّ من الآية (٨٤) إلى نهاية الآية (٩٥) وهذا هو :

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ

أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

التفسير :

﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيباً** ﴾ أي : وأرسلنا شعيباً إلى ساكني مدين أو إلى بني مدين قال ابن كثير : وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من معان بلاداً تعرف بهم يقال لها مدين ، فأرسل الله لهم شعيباً وكان من أشرفهم نسباً ﴿ **قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ أمرهم بعبادة الله وحده ، كما أمر كلّ

رسول ﴿ **ولا تنقصوا المكيال والميزان** ﴾ أي لاتنقصوا المكيل بالمكيال ، ولا تنقصوا الموزون بالميزان بل أدوهما كاملين أخذاً وعطاءً ﴿ **إني أراكم بخير** ﴾ أي في معيشتكم ورزقكم فأنتم بثروة وسعة تغنيكم عن التطفيف ، أو المعنى : إني أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون من شرك وخيانة ﴿ **وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط** ﴾ أي مهلك والمراد به إما عذاب الاستئصال في الدنيا ، أو عذاب الآخرة ﴿ **وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط** ﴾ أي أتموهما بالعدل ، نهاهم أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي حسن في العقول لزيادة الترغيب فيه ، وجيء به مقيداً بالقسط ليعني : ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان ﴿ **ولا تبخسوا الناس أشياءهم** ﴾ أي لاتنقصوا في حقهم شيئاً ، أشياءهم المعنوية وأشياءهم المادية نقصاً حسيّاً أو معنوياً ﴿ **ولا تعثوا في الأرض مفسدين** ﴾ العيث : أشدُّ الفساد نحو السرقة والغارة وقطع السبيل ، بدأ بالدعوة إلى عبادة الله ، ثم بالدعوة إلى عدم نقص المكيال والميزان وإيفائهما ، ثم بالدعوة إلى إعطاء الناس القيمة الحقيقية لأشيائهم ، ثم بالدعوة إلى ترك الفساد أصلاً في الأرض .

ثم ذكّرهم فقال : ﴿ **بقيّة الله خير لكم إن كنتم مؤمنين** ﴾ أي ما يبقى لكم من الحلال بعد التنزه عما هو حرام عليكم خير لكم في الدنيا والآخرة ، بشرط أن تؤمنوا ، والحقيقة أن بقية الله خير للكفرة أيضاً ، لأنهم يسلمون منها من تبعة البخس والتطفيف وما يترتب عليهما من شرور اجتماعية ، إلا أن فائدتها أظهر في حق أهل الإيمان للسلامة من الشرور مع حصول الثواب مع النجاة من العقاب ، بينما لاتظهر الثمرات كاملة مع عدم الإيمان ، ومن ثم نقول : إن النظام الاقتصادي الإسلامي لايقوم وتظهر ثمراته كاملة إلا في مجتمع مؤمن ، وقد أفادنا النص تعظيم الإيمان والتنبيه على جلالة شأنه ﴿ **وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾ أي برقيب ، أي افعلوا ذلك لله عز وجل ، لاتفعلوه ليراكم الناس ؛ إذ الله هو الحفيظ ؛ فاحفظوا نعمه بترك البخس ، واحفظوا أوامره ليحفظكم ويحفظ أموالكم ، فماذا كان جوابهم ؟ لقد كان جوابهم مختلفا عما عهدناه في الأجوبة التي مرّت معنا في القصص السابقة ، فالسورة تعرض لنا أكثر من نموذج ﴿ **قالوا** ﴾ على سبيل التهكم ﴿ **ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء** ﴾ قال الحسن : إي والله إن صلاته لتأمرُ أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم ، وهكذا أنكروا عليه أن يأمرهم وينهاهم ، وهكذا اعتبروا أنهم أحرار في عبادة من

شاءوا ، وأنهم أحرار في النظام الاقتصادي الذي ارتضوه ولو كان ظالماً وهي لغة الكفر في كل زمان ومكان ، ثم قالوا على سبيل الاستهزاء ﴿ **إنك لأنت الحليم الرشيد** ﴾ أي أأنت العاقل الراشد ؟! وهو منطق كثير ممن يردون دعوة الله مستهزئين بفهم وفقه وعقل الدعاة ، فكأنهم يقولون بكلمتهم المستهزئة : إنك لأنت السفيه الضال ، وكدأب كل رسول في إقامة الحجة ﴿ **قال ياقوم أرأيتم إن كنتُ على بيّنة من ربي** ﴾ أي على بصيرة فيما أدعو إليه ﴿ **ورزقني منه** ﴾ أي من عنده ﴿ **رزقاً حسناً** ﴾ قيل : أراد النبوة ، وقيل : أراد الرزق الحلال الذي لابخس فيه ولا تطفيف ، ويحتمل الأمرين ، والتقدير : أخبروني إن كنت على حجة واضحة من ربي ، وكنت نبياً على الحقيقة ، أيصح لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكفّ عن المعاصي ، والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه** ﴾ أي لم أكن لأنهاكم عن أمر وأرتكبه ، ولم أكن لأسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها لأستبد بها دونكم ﴿ **إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت** ﴾ أي ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي ونصيحتي وأمري بالمعروف ونهي عن المنكر قدر استطاعتي للإصلاح مادمت متمكناً منه لا آلوفيه جهداً ﴿ **وما توفيقي إلا بالله** ﴾ أي وماكوني موفقاً لإصابة الحق فيما آتي وأذر إلا بمعونة الله وتأييده ﴿ **عليه توكلت** ﴾ أي اعتمدت في جميع أموري ﴿ **وإليه أنيب** ﴾ أي أرجع في كل أموري في السرّاء والضرّاء وكل حال ﴿ **وياقوم لا يجرمنّكم شقاقي** ﴾ أي لاتحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد ﴿ **أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح** ﴾ أي فيصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء الأقوام من العذاب ﴿ **وما قوم لوط منكم ببعيد** ﴾ في الزمان ، فهم أقرب الهالكين منكم ، أو في المكان ، فمنازلهم قريبة منكم ، أو فيما يستحق به الهلاك وهو الكفر والمساوىء ، هددهم بالغرق أو الريح أو الرجفة ؛ بسبب خلافه ، نسأل الله بمنّه وكرمه ألا يمنعنا بغض أوشقاق أو خلاف عن أن نقبل الحق الخالص كائناً ما كان ، وقد دلّ خطابه عليه السلام لهم على أن زمنه متأخر عن زمن قوم لوط ، وعلى هذا فالترتيب في سورة هود بين القصص ترتيب زمني : نوح ثم هود ثم صالح ثم إبراهيم ولوط ثم شعيب ﴿ **واستغفروا ربكم** ﴾ في سالف ذنوبكم ﴿ **ثم توبوا إليه** ﴾ فيما تستقبلونه في الأعمال السيئة ﴿ **إن ربي رحيم** ﴾ ومن رحمته غفرانه لأهل الجفاء من المؤمنين ﴿ **ودود** ﴾ ومن مودته أنه يحب أهل الوفاء من الصالحين ، ومن تقرّب إليه شبراً تقرّب إليه ذراعاً ، وهكذا أقام عليهم الحجة إن من خلال النظر في شأنه ، أو النظر في أمر الغابرين ، أو النظر في طبيعة

ما يدعوهم إليه ، فماذا كان جوابهم ؟ كان جوابهم جواب المستكبرين الطغاة :

﴿ **قالوا ياشعيب ما نفقه** ﴾ أي ما نفهم ﴿ **كثيراً مما تقول** ﴾ أي من قولك والظاهر أنهم أرادوا أنهم لا يفهمون صحة مايقول ، لأن كلامه في منتهى الوضوح وكيف وهو كما قال الثوري : كان يقال له خطيب الأنبياء ﴿ **وإنا لنراك فينا ضعيفاً** ﴾ أي لاقوة لك ولا عز فيما بيننا ، فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروهاً ، فما أنت إلا واحد ، وعشيرتك ليست على دينك ﴿ **ولولا رهطك** ﴾ أي قومك وعشيرتك ﴿ **لرجمناك** ﴾ أي بالحجارة . والمعنى : ولولا عشيرتك لقتلناك شر قتلة ، وكان رهطه من أهل مِلّتهم فلذلك أظهروا الميل إليهم ، والإكرام لهم ﴿ **وما أنت علينا بعزيز** ﴾ أي ليس لك عندنا شأن ، فأنت لا تعزّ علينا ، ولا تكرم حتى نكرمك من القتل ، ونرفعك عن الرجم ، وإنما يعزّ علينا رهطك ؛ لأنهم من أهل ديننا . فأجابهم لتقوم عليهم الحجة ﴿ **قال ياقوم أرهطي أعزُّ عليكم من الله** ﴾ قال لهم هذا لأن تهاونهم به وهو نبيُّ الله تهاون بالله ، وحين عزّ عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من الله ، لأن الله إذ أرسل رسولاً جعل الأدب معه أدباً مع الله ، ألا ترى قوله تعالى ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ (النساء : ١٣) ﴿ **واتخذتموه وراءكم ظِهْرِيّاً** ﴾ أي : ونسيتم الله وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يعبأ به ، والمعنى : أتتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظاماً لجناب الرب تبارك وتعالى أن تنالوا نبيه بمساءة،فقد اتخذتم ربكم وراءكم فنبذتموه خلفكم لاتطيعونه ولا تعظّمونه ﴿ **إن ربي بما تعملون محيط** ﴾ أي قد أحاط بأعمالكم علماً فلا يخفى عليه شيء منها وهو مجازيكم عليها ﴿ **وياقوم اعملوا على مكانتكم** ﴾ أي على طريقتكم وهو تهديد لهم ، أي اعملوا متمكنين من عداوتي مطبقين عليها ﴿ **إني عامل** ﴾ على طريقتي ﴿ **سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه** ﴾ أي يذلّه ﴿ **ومن هو كاذب** ﴾ في دعواكم وزعمكم ﴿ **وارتقبوا إني معكم رقيب** ﴾ أي وانتظروا العاقبة إني معكم منتظر ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين** ﴾ أي هامدين لاحَراك بهم ﴿ **كأن لم يغنوا فيها** ﴾ أي كأن لم يعيشوا ويقيموا في ديارهم أحياء متصرّفين مترددين ﴿ **ألا بُعْداً لمدين** ﴾ أي ألا هلاكاً لهم ﴿ **كما بعدت ثمود** ﴾ لأن طريقهم واحد .

فوائد :

١ - قال ابن كثير : « ذكرنا ههنا (أي في سورة هود) أن أتتهم صيحة ، وفي (الأعراف) رجفة ، وفي (الشعراء) عذاب يوم الظلة ، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها ، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه ، ففي الأعراف لما قالوا ﴿ **لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا** ﴾ ناسب أن يذكر هناك الرجفة فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها ، وأرادوا إخراج نبيهم منها . وههنا لما أساؤوا الأدب في مقالتهم على نبيهم ذكر الصيحة التي استلبثتهم وأخمدتهم ، وفي الشعراء لما قالوا ﴿ **فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين** ﴾ قال ﴿ **فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم** ﴾ وهذا من الأسرار الدقيقة .

٢ - يلاحظ أنه في آخر قصة عاد ومدين جاء قبل (لما) حرف الواو ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً ...** ﴾ ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا هوداً ...** ﴾ بينما جاء قبل (لما) في قصة ثمود ولوط حرف الفاء وقد علّل ذلك النسفي : أن مجيء الفاء في قصة ثمود ولوط لأنهما وقعا بعد ذكر الموعد ﴿ **إن موعدهم الصبح** ﴾ في قصة لوط و﴿ **ذلك وعد غير مكذوب** ﴾ في قصة ثمود قال : فجيء بالفاء الذي هو للتسبب كقولك وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت ، وأما الآخريات فقد وقعتا مبتدأتين ، فكان حقهما أن تعطفا بحرف الجمع على ماقبلهما كما تعطف قصة على قصة .

٣ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وياقوم لا يجرمنّكم شقاقي أن يصيبكم ...** ﴾ نقل ابن كثير عن ابن أبي حاتم هذه القصة عن ابن أبي ليلى الكندي قال : كنت مع مولاي أمسك دابته ، وقد أحاط الناس بعثمان بن عفان إذ أشرف علينا من داره فقال : ﴿ **لايجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح** ﴾ ياقوم لاتقتلوني ، إنكم إن قتلتموني كنتم هكذا ، وشبك بين أصابعه .

٤ - بمناسبة قوله تعالى على لسان شعيب : ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ...** ﴾ ذكر ابن كثير مجموعة روايات نذكرها مع حذف الأسانيد .

روى الإمام أحمد عن حكيم بن معاوية عن أبيه أن أخاه مالكاً قال : يامعاوية إن محمداً ﷺ أخذ جيراني ، فانطلق إليه فإنه قد كلّمك وعرفك ، فانطلقت معه فقال : دع جيراني فقد كانوا أسلموا فأعرض عنه فقام مغضباً فقال : أما والله لئن فعلت إن الناس يزعمون إنك لتأمرنا بالأمر وتخالف إلى غيره ، وجعلت أجرّه وهو يتكلم ، فقال رسول الله ﷺ : « ماتقول ؟ » فقال : إنك والله لئن فعلت ذلك إن الناس ليزعمون

إنك لتأمر بالأمر وتخالف إلى غيره ، قال فقال : « أوَقد قالوها – أي قائلوها – ولئن فعلت ماذاك إلا عليّ وما عليهم من ذلك من شيء أرسلوا له جيرانه » . وروى أيضاً عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : أخذ النبي ﷺ ناساً من قومي في تهمة فحبسهم فجاء رجل من قومي إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب فقال : يامحمد علام تحبس جيراني ؟ فصمت رسول الله ﷺ ، فقال : إن ناساً ليقولون إنك تنهى عن الشيء وتستخلي به ، فقال النبي ﷺ : « ماتقول ؟ » فجعلت أعرض بينهما كلاماً مخافة أن يسمعها فيدعو على قومي دعوة لايفلحون بعدها أبداً ، فلم يزل رسول الله ﷺ حتى فهمها فقال : « قد قالوها – أوقائلها منهم ؟ – والله لو فعلت لكان عليّ وما كان عليهم ، خلّوا عن جيرانهم » . ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الإمام أحمد .. عن عبدالملك بن سعيد بن سويد الأنصاري قال : سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولون عنه ﷺ أنه قال : « إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم ، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم عنه » إسناده صحيح .

وقد أخرج مسلم بهذا السند حديث : « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم افتح لي أبواب رحمتك ، وإذا خرج فليقل : اللهم إني أسألك من فضلك » ومعناه والله أعلم مهما بلغكم عني من خير فأنا أولاكم به ، ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدكم منه .وروى قتادة .. عن مسروق قال : جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت : تنهى عن الواصلة ؟ قال : نعم ، قالت : فعله بعض نسائك ، فقال : ما حفظت وصية العبد الصالح إذاً ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه** ﴾ وروى عثمان بن أبي شيبة ... عن أبي سليمان الضبي قال : كانت تجيئنا كتب عمر بن عبدالعزيز فيها الأمر والنهي فيكتب في آخرها : وما كنت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح ﴿ **وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾ .

نقول :

قال صاحب الظلال تعليقاً على قصة شعيب عليه السلام :

(وهذا دور من أدوار الرسالة الواحدة بالعقيدة الخالدة ، ينهض به شعيب في قومه أهل مدين .. ومع الدعوة إلى عقيدة التوحيد قضية أخرى ، هي قضية الأمانة والعدالة في التعامل بين الناس ، وهي وثيقة الصلة بالعقيدة في الله ، والدينونة له وحده ، واتباع شرعه وأمره . وإن كان أهل مدين قد تلقوها بدهشة بالغة ، ولم يدركوا العلاقة بين المعاملات المالية والصلاة المعبِّرة عن الدينونة لله) .

وقال صاحب الظلال تعليقاً على قول قوم شعيب لشعيب :

﴿ أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ : فهم لا يدركون – أولا يريدون أن يدركوا – أن الصلاة هي من مقتضيات العقيدة ، ومن صور العبودية والدينونة . وأن العقيدة لاتقوم بغير توحيد الله ، ونبذ ما يعبدونه من دونه هم وآباؤهم . كما أنها لاتقوم إلا بتنفيذ شرائع الله في التجارة وفي تداول الأموال وفي كل شأن من شئون الحياة والتعامل . فهي لحمة واحدة لا يفترق فيها الاعتقاد عن الصلاة عن شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة .

وقبل أن نمضي طويلاً في تسفيه هذا التصور السقيم لارتباط الشعائر بالعقيدة . وارتباطهما معاً بالمعاملات .. قبل أن نمضي طويلاً في تسفيه هذا التصور من أهل مدين قبل ألوف السنين ، يحسن أن نذكر أن الناس اليوم لا يفترقون في تصورهم ولا في إنكارهم لمثل هذه الدعوة عن قوم شعيب . وأن الجاهلية التي نعيش فيها اليوم ليست أفضل ولا أذكى ولا أكثر إدراكاً من الجاهلية الأولى . وأن الشرك الذي كان يزاوله قوم شعيب هو ذاته الشرك الذي تزاوله اليوم البشرية بجملتها – فكلهم يفصل بين العقيدة والشعائر . والشريعة والتعامل . فيجعل العقيدة والشعائر لله ووفق أمره ، ويجعل الشريعة والتعامل لغير الله ، ووفق أمر غيره .. وهذا هو الشرك في حقيقته وأصله .

وإن كان لا يفوتنا أن اليهود وحدهم اليوم هم الذين يتمسكون بأن تكون أوضاعهم ومعاملاتهم وفق ما يزعمونه عقيدتهم وشريعتهم – وذلك بغضّ النظر عما في هذه العقيدة من انحراف وما في هذه الشريعة من تحريف – فلقد قامت أزمة في « الكنيست » مجلس تشريعهم في إسرائيل بسبب أن باخرة إسرائيلية تقدم لركابها – من غير اليهود – أطعمة غير شرعية . وأرغمت الشركة والسفينة على تقديم الطعام الشرعي وحده – مهما تعرضت للخسارة – فأين من يدعون أنفسهم « مسلمين » من هذا الاستمساك بالدين .

إن بيننا اليوم ممن يقولون : – إنهم مسلمون – من يستنكر وجود صلة بين العقيدة والأخلاق . وبخاصة المعاملات المادية .

وحاصلون على الشهادات العليا من جامعاتنا وجامعات العالم ، يتساءلون أولا في استنكار : وما للإسلام وسلوكنا الشخصي ؟ .. ما للإسلام والعري في الشواطىء ؟ ما للإسلام وزي المرأة في الطريق ؟ ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأي سبيل ؟ ما

للإسلام وتناول كأس من الخمر لإصلاح المزاج ؟ ماللإسلام وهذا الذي يفعله « المتحضرون » ؟ فأي فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين : ﴿ **أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا** ﴾ .

وهم يتساءلون ثانيا . بل ينكرون بشدة وعنف . أن يتدخل الدين في الاقتصاد ، وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد ، أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد .. فما للدين والمعاملات الربوية ، وما للدين والمهارة في الغش والسرقة مالم يقعا تحت طائلة القانون الوضعي ؟ لا بل إنهم يتبجحون بأن الأخلاق إذا تدخلت في الاقتصاد تفسده . وينكرون حتى على بعض أصحاب النظريات الاقتصادية الغربية - النظرية الأخلاقية مثلاً - ويعدونها تخليطاً من أيام زمان .

فلا يذهبن بنا الترفع كثيراً على أهل مدين في تلك الجاهلية الأولى . ونحن اليوم في جاهلية أشد جهالة ، ولكنها تدعي العلم والمعرفة والحضارة . وتتهم الذين يربطون بين العقيدة في الله ، والسلوك الشخصي في الحياة ، والمعاملات المادية في السوق .. تتهمهم بالرجعية والتعصب والجمود .

وما تستقيم عقيدة توحيد الله في القلب ، ثم تترك شريعة الله المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض . فما يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك في قلب واحد . والشرك ألوان . منه هذا اللون الذي نعيش به الآن . وهو يمثل أصل الشرك وحقيقته التي يلتقي عليها المشركون في كل زمان وفي كل مكان .)

كلمة في السياق :

وهكذا رأينا في هذا المقطع كيف أن رسولاً آخر لله قد دعا إلى عبادة الله وحده وإلى الاستغفار ، كما دعا إلى سلوك نظيف يكون أثراً عن عبادة الله ، وكيف ردّ عليه قومه ، وماذا كانت عاقبة هذا الرد ، وقد بقي معنا من السورة مقطعان ، مقطع يبدأ بالحديث عن موسى عليه السلام وقصته مع فرعون وقومه وعاقبة هؤلاء ، ثم يعظ ويذكّر بانياً على ما مرّ من قبل في السورة ، ومقطع أخير وفيه توجيهات مباشرة لرسول الله ﷺ والمؤمنين مبنية على ما مرّ من قبله .. في السورة .

☆ ☆ ☆

المقطع الخامس

بين يدي هذا المقطع :

يبدأ هذا المقطع بالحديث عن موسى عليه السلام ورسالته إلى فرعون ، ولايذكر مضمون هذه الرسالة ، لأنه قد علم من سياق السورة مضمون رسالات الله وهو عبادة الله ، وفي المقطع حديث عن عاقبة فرعون وقومه ، وتهديد ووعيد لكل ظالم .

يمتد المقطع من الآية (٩٦) إلى نهاية الآية (١٠٨) وهذا هو :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾

خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

التفسير :

﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا** ﴾ بالمعجزات ﴿ **وسلطان مبين** ﴾ أي وبالحجة الواضحة ، وقد يراد بالسلطان المبين العصا لأنها أبهر الآيات ، فيكون من ذكر الخاص بعد العام ﴿ **إلى فرعون وملائه** ﴾ أي قومه ﴿ **فاتبعوا** ﴾ أي قومه ﴿ **أمر فرعون** ﴾ أي منهجه ومسلكه وطريقته في الغي ﴿ **وما أمر فرعون برشيد** ﴾ أي ليس فيه رشد ولا هدى وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد ﴿ **يقدُمُ قومه يوم القيامة** ﴾ فكما اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم ، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة ﴿ **فأوردهم النار** ﴾ أي فأدخلهم النار وله في ذلك الحظ الأوفر من العذاب الأكبر ﴿ **وبئس الوِرْد** ﴾ أي المورد ﴿ **المورود** ﴾ أي الذي وردوه وكيف يكون أمره رشيداً مَنْ هذه عاقبته ؟ والرشد يستعمل في كل ما يحمد ويرتضى ، كما يستعمل الغي في كل ما يذم ، وقد شبه فرعون في الآية بالمتقدم الذي يتقدم الماشية إلى الماء ، وشُبه أتباعه بالماشية ، واستعمال لفظة الورد والمورود لا يخفى وجه الإعجاز فيه ، لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش والنار ضده ، فما أبشعها من إمامة إمامته ﴿ **وأُتبعوا في هذه** ﴾ أي الدنيا ﴿ **لعنة** ﴾ أي اتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة في الدنيا ﴿ **ويوم القيامة بئس الرفد المرفود** ﴾ رفدهم أي بئس العون المعان ، أو بئس العطاء المعطى أن يعطوا لعنة الدنيا والآخرة ، وبعد أن ذكر الله تعالى خبر مجموعة الأنبياء المذكورين في السورة مع أقوامهم قال : ﴿ **ذلك من أنباء القرى** ﴾ أي أخبارها أي ذلك النبأ في هذه السورة بعض أنباء القرى المهلكة ﴿ **نقصُّه عليك منها قائم** ﴾ أي عامر ﴿ **وحصيد** ﴾ أي هالك ، فبعضها باق ، وبعضها لم يبق له أثر ، شبه النوع الأول بالزرع القائم على ساقه ، وشبه النوع الثاني بالذي حصد ﴿ **وما ظلمناهم** ﴾ بإهلاكنا إياهم ﴿ **ولكن ظلموا أنفسهم** ﴾ بارتكاب ما به أهلكوا ، من الكفر ، وتكذيب الرسل ﴿ **فما أغنت عنهم آلهتهم** ﴾ أي فما قدرت أن تردّ عنهم بأس الله آلهتهم ، حجراً كانت أو بشراً ﴿ **التي يدعون من دون**

الله ﴾ أي التي يعبدونها ويدعونها من دون الله ﴿ **من شيء** ﴾ فلا نفعوهم ولا أنقذوهم ﴿ **لما جاء أمر ربك** ﴾ أي عذابه ﴿ **وما زادوهم غير تتبيب** ﴾ أي تخسير وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة ، فلهذا خسروا في الدنيا والآخرة ﴿ **وكذلك** ﴾ أي ومثل ذلك الأخذ ﴿ **أخذ ربك إذا أخذ القرى** ﴾ أي : أهلها ، أي : وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا كذلك نفعل بأشباههم ﴿ **وهي ظالمة** ﴾ لنفسها أو لغيرها ، وهو إنذار لكل ظالم لنفسه أو لغيره بوخامة العاقبة ﴿ **إن أخذه أليم** ﴾ أي مؤلم ﴿ **شديد** ﴾ أي صعب على المأخوذ وهذا تحذير لكل قرية ظالمة وتحذير لكل ظالم فعلى كل ظالم أن يبادر بالتوبة ولا يغتر بالإمهال ﴿ **إن في ذلك** ﴾ أي فيما قصّ الله من قصص الأمم الهالكة ﴿ **لآية** ﴾ أي لعبرة وعظة ﴿ **لمن خاف عذاب الآخرة** ﴾ أي لمن اعتقد صحته ووجوده وبنى على ذلك فحذر وخاف ، والآية تتضمن معنى مفهوماً من السياق : إن في إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين لعظة واعتباراً على صدق وعودنا في الآخرة ، ﴿ **ذلك يوم** ﴾ أي يوم القيامة الذي فيه عذاب الآخرة ﴿ **مجموع له الناس** ﴾ أي يجمعون للحساب والثواب والعقاب أولهم وآخرهم ﴿ **وذلك يوم مشهود** ﴾ أي عظيم تحضره الملائكة ، ويجتمع فيه الرسل وتحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب ، ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ﴿ **وما نؤخره** ﴾ أي وما نؤخر اليوم المذكور إلا لانتهاء مدة معدودة ، أو ما نؤخر هذا اليوم إلا لتنتهي المدة التي ضربناها لبقاء الدنيا . قال ابن كثير : أي ما نؤخر إقامة القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله في وجود أناس معدودين من ذرية آدم ، وضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدّر خروجهم قامت الساعة ولهذا قال : ﴿ **وما نؤخره إلا لأجل معدود** ﴾ أي لمدة مؤقتة لا يزاد عليها ولا ينتقص منها ﴿ **يوم يأت** ﴾ أي يوم القيامة ﴿ **لا تكلّم نفس** ﴾ أي لا تتكلم نفس ﴿ **إلا بإذنه** ﴾ أي لا يشفع أحد إلا بإذنه ﴿ **فمنهم شقي وسعيد** ﴾ أي من الناس معذّب ومنهم منعّم ﴿ **فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير** ﴾ الزفير في الأصل : هو أول نهيق الحمار ﴿ **وشهيق** ﴾ هو آخره ، أو هما إخراج النفس وردّه ، والزفير عادة يكون بعد الشهيق ، ولكن لما لهم فيه من العذاب أصبح تنفسهم زفيراً ، وأخذهم النفس شهيقاً عياذاً بالله من ذلك ﴿ **خالدين فيها مادامت السموات والأرض** ﴾ المراد سموات الآخرة وأرضها ، وهي دائمة مخلوقة للأبد ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ من تعذيبهم بغير النار من زمهرير وأنواع أخرى من العذاب ، أو المعنى : إلا من شاء ربك إخراجه

بسبب وجود شيء من الإيمان في قلوبهم ﴿ إن ربك فعّال لما يريد ﴾ بالشقي والسعيد ﴿ وأما الذين سُعِدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السمٰوات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ قال ابن كثير : معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمراً واجباً بذاته بل هو موكول إلى مشيئة الله ، فله المنة عليهم دائما ، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يُلهَمون النفس ﴿ عطاءً غير مجذوذ ﴾ أي غير مقطوع ، ولكنه ممتد إلى غير نهاية ، ونلاحظ أن المقطع الأول من السورة ختم بقوله تعالى :

﴿ لاجرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون ﴾ .

وهذا المقطع ختم بقوله تعالى :﴿ فمنهم شقي وسعيد . فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها مادامت السمٰوات والأرض إلا ماشاء ربك إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سُعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السمٰوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاءً غير مجذوذ ﴾ .

والملاحظ أن المقطعين الأول والخامس انتهيا بالكلام عن العاقبة النهائية للكافرين والعابدين ، وما بين ذلك كانت القصص تركّز على العاقبة الدنيوية للطرفين ، والعبرة دائما بالعاقبة ، أما ما يكون قبل ذلك من عتو ، أو انتصار ، أو ظلم ، فهذا كله لا يساوي شيئاً ، وفي هذا درس بليغ للعابدين ، فليحرص المسلمون أن يقوموا بحق الله في عبادته ، وليحاسبوا أنفسهم على كل تقصير ، بملازمة الاستغفار ، والعاقبة في الدنيا والآخرة لهم .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ نذكر الحديث المروي في الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ﴾ الآية .

كما نلفت نظر أهل البصائر إلى ماتسمع به يومياً - تقريباً - من كارثة تقع في مكان ما في العالم ، من غرق ، أو خسف ، أو حرق ، أو غير ذلك ، فالغافل يمر بهذا كله

وكأنه شيء عادي ، وأصحاب القلوب يرون في هذا كله انتقام الله ، ويرون في كل حادثة عبرة ، وفي كل عقوبة عظة لأنفسهم أو لغيرهم .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه** ﴾ نذكّر بقوله تعالى : ﴿ **لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً** ﴾ (النبأ : ٣٨) وبقوله تعالى ﴿ **وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً** ﴾ (طه : ١٠٨) وفي حديث الصحيحين في موضوع الشفاعة « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلّم سلّم » .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فمنهم شقي وسعيد** ﴾ ذكر ابن كثير مارواه أبويعلى في مسنده عن ابن عمر عن عمر قال : لما نزلت ﴿ **فمنهم شقي وسعيد** ﴾ سألت النبي ﷺ : فقلت يارسول الله علام نعمل ؟ على شيء قد فرغ منه أم على شيء لم يفرغ منه ؟ فقال « على شيء قد فرغ منه ياعمر وَجَرَت به الأقلام ، ولكن كلّ ميسّر لما خُلق له » .

٤ - وفي حكمة قوله تعالى : ﴿ **عطاءً غير مجذوذ** ﴾ بعد الاستثناء في قوله تعالى ﴿ **وأما الذين سُعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاءً غير مجذوذ** ﴾ قال ابن كثير :

(لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة ، أن ثَمَّ انقطاعاً ، أو لبساً ، أو شيئاً بل حتم له بالدوام وعدم الانقطاع ، كما بيّن هناك أن عذاب أهل النار في النار دائماً مردود إلى مشيئته ، وأنه بعدله وحكمته عذبهم ولهذا قال : ﴿ **إن ربك فعال لما يريد** ﴾ كما قال ﴿ **لايسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾ (الأنبياء : ٢٣) وهنا طيب القلوب وثبّت المقصود بقوله ﴿ **عطاء غير مجذوذ** ﴾ وقد جاء في الصحيحين : « يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال : « ياأهل الجنة خلود فلاموت ، ويا أهل النار خلود فلا موت » وفي الصحيح أيضاً « فيقال : ياأهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبداً » .

٥ - من المواطن التي كثر فيها الجدل بين المفسرين الاستثناء الوارد في الآيات الأخيرة من هذا المقطع ومن ثم اقتضى ذلك أن نقف وقفة بهذه المناسبة :

أقوى الاتجاهات على الإطلاق عند المفسرين أن يقال الأشقياء نوعان : نوع في قلوبهم إيمان ، ونوع ليس في قلوبهم إيمان ، فالاستثناء من أجل أن يظهر الله عز وجل أن ليس كل شقي يبقى أبداً ، بل إن منهم من شاء إخراجه من النار بعد خلود طويل وهم الذين في قلوبهم إيمان .

والسعداء نوعان : سعيد يدخل الجنة ابتداءً ، وسعيد يتأخر دخوله ، إما لكونه من أهل الأعراف ، وإما لكونه ينجو بعد عذاب ، وهذا النوع خلوده الأبدي قاصر في ابتدائه ، فمن ثم ذكر الاستثناء ليبين أن مدة من دوام السمٰوات والأرض ابتداءً ، لاتكون قسم من السعداء في الجنة .

والاتجاه الثاني : أن يقال ذكر الاستثناء في المقامين ليعلمنا الله عزوجل أن هذا الخلود ليس واجباً بذاته ، بل هو موكول إلى الله ، ليبقى المسلم متذكّراً أن مشيئة الله مطلقة ، ولولا أن الله عزوجل ذكر في مكان آخر الخلود الأبدي لأهل الجنة وللكافرين من أهل النار ما فهمنا الخلود الأبدي ، وبذلك يعلّمنا الله عز وجل أن تذكر مشيئته حتى في القضايا القطعية .

ولي في الاستثناء فهم لم أره لأحد أذكره وأستغفر الله أن أقول على كتابه ما ليس لي به علم ، هذا الفهم هو : أن الاستثناء ورد ليخرج التغيّر الذي يطرأ على السمٰوات والأرض عند قيام الساعة . ليبيّن أن الدوام في النار والجنة ليس فيه أي طارىء فيكون المعنى ﴿ **فأما الذين شقوا ففي النار خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك** ﴾ من أمر القيامة فإنه لا يطرأ عليهم مثل هذا الطارىء بل هو الخلود الأبدي الذي لا يتخلف ولا ينقطع ﴿ **إن ربك فعال لما يريد** ﴾ من تعذيب أهل نقمته ﴿ **وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السمٰوات والأرض إلا ماشاء ربك** ﴾ من أمر القيامة فإنه لايكون مثله لأهل الجنة ﴿ **عطاء غير مجذوذ** ﴾ أي عطاء غير منقطع ، ولتوضيح هذا المقام أقول :

إن هذا الكون حادث لكنه أبدي ، يطرأ عليه طارىء القيامة فيتغير ﴿ **يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسمٰوات** ﴾ فإذا مادخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فإنهما يكونان خالدين فيها خلوداً يشبه خلود السموات والأرض . وحتى لايفهم فاهم أن هناك احتمال قيامة ما ، بيّن الله عزوجل أن ما شاءه من انقطاع لديمومة السموات والأرض يوم القيامة مستثنى من هذا الدوام .

وعندي فهم آخر لهذا الاستثناء لم أر مَنْ ذكره وهو :

إن المسلم إذا مات دخل الجنة ، وأن الكافر إذا مات دخل النار ، وهذا وهذا خالدان فيما هما فيه ، إلا ماشاء الله ، أي عند قيام القيامة فعندئذ يخرجان إلى المحشر ولا نار ، حتى يدخلا الجنة والنار مرة ثانية . ولا أرجّحُ من هذه الاتجاهات إلا الأول ، لأنه هو الذي رجحه المفسرون الثقات .

٦ - من أوائل من طرح أفكاراً ضالة في التاريخ الإسلامي الجهم بن صفوان الذي ينسب إليه الجهميون ، ومن عقائد هذه الفرقة نفي الصفات للذات الإلهية ، ونفي الكلام ، والقول بخلق القرآن . ومن عقائدهم فناء الجنة . قال النسفي : كفرت الجهمية بأربع آيات ﴿ **عطاء غير مجذوذ** ﴾ ﴿ **أُكُلها دائم** ﴾ (الرعد : ٩٦) ﴿ **وما عند الله باق** ﴾ (النحل : ٩٦) ﴿ **لا مقطوعة ولا ممنوعة** ﴾ (الواقعة : ٣٣) .

* * *

المقطع السادس

بين يدي المقطع :

رأينا أن محور سورة هود الأمر بالعبادة ، ورأينا المقطع الأول وأنه فصّل في موضوع العبادة ، وفي نهاية العابدين والكافرين ، ورأينا المقاطع التالية ، كيف أنها مثّلت لعاقبة الرافضين والعابدين . والآن يأتي المقطع الأخير ، ونلاحظ أنه مبدوء بذكر العبادة ومنتهٍ بذكر العبادة : فالآية الأولى منه ﴿ **فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ..** ﴾ والآية الأخيرة منه ﴿ **ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون** ﴾ وفي الوسط قوله تعالى ﴿ **فاستقم كما أمرت ...** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **وأقم الصلاة طرفي النهار ...** ﴾ فالمقطع الأخير جاء بعد كل المقدمات التي تجعل عند الإنسان الاستعداد للتطبيق الخالص ، ومن ثم فهو مقطع عمل في الغالب .

يمتد المقطع من الآية (١٠٩) إلى نهاية السورة (١٢٣) وهذا هو :

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ

وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ

ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

التفسير :

يبدأ المقطع بالنهي عن الشك في ضلال من يعبدون غير الله ﴿ **فلا تك في مرية** ﴾ أي في شك ﴿ **مما يعبد هؤلاء** ﴾ أي كل مشرك فعبادتهم باطلة وجهل وضلال ﴿ **ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل** ﴾ أي ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات ﴿ **وإنا لموفوهم نصيبهم** ﴾ أي حظهم من العذاب ، كما وفينا آباءهم أنصباءهم ﴿ **غير منقوص** ﴾ أي كاملاً . والمعنى : لاتشك بعد ما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادة هؤلاء كما أصاب أمثالهم قبلهم ، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ والمؤمنين ، ووعيد للكافرين بالانتقام منهم ، وهكذا علمتنا الآية أن نجزم بضلال الكافرين وأن نجزم بسوء عاقبتهم ، وإذ مرّ معنا من قبل ما نفهم منه سنة الله عزوجل في استئصال أهل الشرك . وإذ جاء النهي بعد ذلك عن الشك في ضلالهم والوعد بعقابهم ، فقد آن الأوان لنعرف سنته تعالى فيمن استجابوا لدعوة الله إذا انحرفوا ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب** ﴾ أي التوراة ﴿ **فاختُلف فيه** ﴾ اختلف في فهمه اجتهاداً في محله ، واختلف في التأويل ظلماً وبغياً ، وحدث التفرق والخلاف ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك** ﴾ أن لايعاجل المستجيبين لدعوته بالعذاب المستأصل مع كثرة الذنب والخطأ ﴿ **لقضي بينهم** ﴾ بالعذاب المستأصل لأهل الباطل ، ولكن سنته في هؤلاء ليست كذلك ﴿ **وإنهم لفي شك منه** ﴾ أي من العذاب ، أو من التوراة فلا تأويل باطل » أي وراءه شك بالكتاب ، أو مماهم فيه من الاختلاف أن يكونوا على خطأ فلا طمأنينة قلب مع الباطل والضلال ﴿ **مريب** ﴾ أي بالغ في الريبة ﴿ **وإنّ كُلاً** ﴾ من المحسنين والمسيئين أي من المختلفين ﴿ **لمَّا ليوفينَّهم ربك أعمالهم** ﴾ أي إلا ليجزينهم ربك بعملهم إن خيراً فخير . وإن شراً فشر ، أي إلا ليوفينهم ربك جزاء أعمالهم من إيمان وجحود وحسن وقبيح ﴿ **إنه بما يعملون خبير** ﴾ أي عليم بأعمالهم جميعها ، جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها .

وهكذا علمتنا الآيات الأولى في هذا المقطع أن نجزم بضلال من يعبد غير الله ، وأن نجزم بسوء عاقبته ، كما علّمتنا أن من كان من أهل الكتاب فقيه سنة ماضية ألا يستأصله

الله بعذاب ، ولكنه سيحاسبه على عمله ، ومن خلال العرض نفهم أن علينا أن لا نختلف في كتابنا ، وأن نتمسك بما فيه ، وأن نخضع للحق الذي أنزله ، فلا نتأوّل ولا نزلّ فنكون كاليهود .

وإذ استقرت هذه المعاني تأتي الآن مجموعة أوامر ونواهٍ :

١ - ﴿ **فاستقم كما أمرت** ﴾ أي فاستقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت بها غير عادل عنها ﴿ **ومن تاب معك** ﴾ أي وليستقم من تاب معك بأن رجع إلى الله مخلصاً .

٢ - ﴿ **ولا تطغوا** ﴾ أي ولا تخرجوا عن حدود الله ﴿ **إنه بما تعملون بصير** ﴾ لا يغفل عن شيء ، ولا يخفى عليه شيء ، فهو مجازيكم فقفوا عند حدوده .

٣ - ﴿ **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا** ﴾ أي لا تميلوا إليهم ، ولا ترضوا حالهم ، ولا تتعاونوا معهم على إثم ، ولا تلتحقوا بهم ﴿ **فتمسكم النار** ﴾ بسبب هذا الركون ﴿ **وما لكم من دون الله من أولياء** ﴾ يقدرون على منعكم من عذابه ﴿ **ثم لا تنصرون** ﴾ أفادت (ثم) هنا استبعاد النصرة أبداً ، فالنصرة من الله مستبعدة حال الركون ، أي ثم لا ينصركم هو لأنه حكم بتعذيبكم بسبب الركون .

٤ - ﴿ **وأقم الصلاة طرفي النهار** ﴾ أي : غدوة وعشية ، دخل في الطرف الأول الفجر ، والطرف الثاني الظهر والعصر ، لأن ما بعد الزوال عشي ﴿ **وزلفاً من الليل** ﴾ أي وساعات من الليل ، والزلف : جمع زلفة وهي ساعاته القريبة من آخر النهار ، دخل في ذلك المغرب والعشاء ﴿ **إن الحسنات** ﴾ مطلقاً ﴿ **يذهبن السيئات** ﴾ مطلقاً وأعظم الحسنات التي تُذهب الذنوبَ الصلواتُ الخمس ، وفي الحديث « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » ﴿ **ذلك** ﴾ إشارة إلى هذه الأوامر ﴿ **ذكرى للذاكرين** ﴾ أي عظة للمتعظين وفي قوله (للذاكرين) تصريح بأن الذي يتذكر هو من تحقق بصفة الذكر ، فكان ذاكراً .

﴿ **واصبر** ﴾ ختم هذه الأوامر والنواهي بالصبر لأنه لا يتم شيء من هذه الأوامر والنواهي إلا بالصبر ، فلا الاستقامة ، ولا الوقوف عند الحدود ، ولا عدم الركون للظالمين ، ولا إقامة الصلوات تكون إلا بالصبر . والمعنى : اصبر على امتثال ما أمرت به والانتهاء عما نهيت عنه ، ثم بشّر المطيعين والصابرين وسمّاهم محسنين فقال : ﴿ **إن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ بل يثيبهم ويزيدهم ، وفي هذا إشارة إلى أن المحسنين هم من اجتمع لهم تنفيذ هذه الأوامر والنواهي .

وبعد هذه المجموعة من الأوامر والنواهي :

يأتي الآن حضّ وتوجيه نحو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبيان حكمة الاختلاف وغير ذلك مما سنرى .

﴿ **فلولا** ﴾ أي فهلا ﴿ **كان من القرون من قبلكم أولوا بقيّة** ﴾ أي أولوا فضل ، يقال : فلان من بقية القوم أي من خيارهم ، ومنه قولهم:في الزوايا خبايا ، وفي الرجال بقايا ﴿ **ينهون عن الفساد في الأرض** ﴾ بالنهي عن الكفر والمعاصي ﴿ **إلا قليلاً ممن أنجينا منهم** ﴾ أي ولكن قليلاً ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد ، وسائرهم تاركون للنهي ، والنجاة للناهين وحدهم ﴿ **واتّبع الذين ظلموا** ﴾ أي الكافرون والساكتون ﴿ **ما أترفوا فيه** ﴾ أي شهواتهم ، والمعنى : اتبعوا ما عرفوا فيه التنعم والترفه ، من حب الرياسة والثروة ، وطلب أسباب العيش الهنيء ، ورفضوا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ونبذوه وراء ظهورهم ﴿ **وكانوا مجرمين** ﴾ هذا هو وصفهم الذي يستحقونه الإجرام ، وهكذا عجّب الله - عز وجل - ألا يوجد في القرون الماضية ، بقايا من أهل الخير ، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات ، والفساد في الأرض إلا قليلاً ، هم الذين أنجاهم الله - عز وجل - عند حلول غضبه ، وفجأة نقمته ، ثم بين الله عز وجل سنتهُ في الإهلاك ، فأخبر أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها ، ولم يأت قرية مُصلحة بأسه وعذابه قط فقال : ﴿ **وماكان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** ﴾ ولم يقل صالحين وإنما قال : مصلحون نزّه ذاته تعالى عن الظلم ، وجعل من الظلم أن يهلك قرية وأهلها مصلحون ، ومن تتبع ما حلّ بالبلاد والقرى خلال العصور من عقاب فإنه يجد العذاب مرافقاً للفساد ، ثم بيّن حكمة الاختلاف ﴿ **ولو شاء ربك لجعل الناس أُمة واحدة** ﴾ أي متفقين على الطاعات والإيمان عن اختيار ، ولكن لم يشأ ذلك ﴿ **ولا يزالون مختلفين** ﴾ أي في الكفر وفي الإيمان ، ولكن شاء اختلافهم لعلمه بما سيختارونه ﴿ **إلا من رحم ربك** ﴾ أي إلا المرحومين فهؤلاء متفقون على الحق ، فهؤلاء عصمهم الله عن الاختلاف ، فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه ﴿ **ولذلك خلقهم** ﴾ قال مالك : فريق في الجنة وفريق في السعير ، أي خلقهم للذي علم أنهم سيصيرون إليه من اختلاف أو اتفاق ، ولم يخلقهم لغير الذي علم أنهم سيصيرون إليه ﴿ **وتمّت كلمةُ ربك** ﴾ وهي ﴿ **لأملأنّ جهنم من الجِنّة والناس أجمعين** ﴾ (السجدة : ١٣) أخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره - لعلمه التام وحكمته النافذة - أن ممن خلقه من يستحق الجنة ، ومنهم من يستحق النار ،

وأنه لابد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس ، وله الحجة البالغة ، والحكمة التامة ، وهكذا حضّت هذه المجموعة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والإصلاح والإتفاق على الخير ، والاجتماع عليه والفرار من أسباب الهلاك في الدنيا والآخرة .

ثم ختمت السورة ببيان حكمة ما ورد فيها وبتوجيهات أخيرة .

﴿ **وكُلّاً نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نُثبّتُ به فؤادك** ﴾ أي وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم ، وكيف جرى لهم من المحاجّات والخصومات ، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى ، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين ، وخذل أعداءه الكافرين ، كل هذا مما نُثبّت به فؤادك أي قلبك يامحمد ؛ ليكون لك بمن مضى من أخوانك من المرسلين أسوة ، ومعنى تثبيت فؤاده : زيادة يقينه لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب ﴿ **وجاءك في هذه** ﴾ أي السورة ﴿ **الحق** ﴾ فليست خيالاً بل هي وقائع ثابتة ﴿ **وموعظة** ﴾ يرتدع بها ﴿ **وذكرى للمؤمنين** ﴾ أي وذكرى يتذكر بها المؤمنون ، وبهذا ندرك مظهراً من مظاهر هذا الإعجاز في القرآن ، كيف أنه اجتمع فيه الحق والتذكير والوعظ ، ونادراً ما تجد هذه الأشياء مجتمعة إلا في كلام الله ، أو في كلام رسوله ﷺ ، أو مَن كان على قدم رسوله ﷺ ، إن هذا القرآن - الذي هو كلام الله - قد عرض الحق كله بأسلوب الوعظ والتذكير ، وفي ذلك وحده مظهر واضح الدلالة على أنه من عند الله ﴿ **وقل** ﴾ يامحمد ﴿ **للذين لا يؤمنون** ﴾ بما جئت به من ربك على وجه التهديد ﴿ **اعملوا على مكانتكم** ﴾ أي على طريقكم ومنهجكم ، وحالكم وجهتكم التي أنتم عليها ﴿ **إنا عاملون** ﴾ أي على طريقتنا ومنهجنا ﴿ **وانتظروا** ﴾ أي بنا ما تنتظرون من الدوائر ﴿ **إنا منتظرون** ﴾ أي أن ينزل بكم من الله ماوعد وأوعد ، وقد أنجز الله لرسوله ﷺ وعده ونصره وأيده ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، ومكن لرسول الله ﷺ . ثم ختمت السورة بقوله ﴿ **ولله غيب السموات والأرض** ﴾ لا تخفى عليه خافية ، عالم غيب السموات والأرض ، وسيوفي كل عامل عمله يوم الحساب ﴿ **وإليه يُرجع الأمرُ كله** ﴾ فله الخلق والأمر ، وإليه المرجع والمآب ، فلابد أن يرجع إليه أمرهم وأمرك ، فينتقم لك منهم ، وإذا كان الشأن كذلك ﴿ **فاعبده وتوكل عليه** ﴾ أي فلتجتمع لك العبادة والتوكل ، وقَرْنُ العبادة بالتوكل دليل على ارتباطهما ببعضهما فمن لا توكل له لايستقيم على العبادة . ومن توكل على الله كفاه ﴿ **وماربك بغافل عما تعملون** ﴾ أنت وهم ، وسيجزيك ويجزيهم ، وسينصرك وحزبك في الدارين .

قال صاحب الظلال :

وهكذا تختم السورة بما بدئت به بالتوحيد في العبادة ، والتوبة والإنابة ، والرجعة إلى الله في نهاية المطاف . وذلك بعد طول التطواف في آفاق الكون ، وأغوار النفس ، وأطواء القرون . وهكذا يلتقي جمال التنسيق في البدء والختام ، والتناسق بين القصص والسياق ، بكمال التوجيه والاتجاه في هذا القرآن . ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾ .

كلمة في السياق :

بدأت سورة هود عليه السلام بتبيان أن الحكمة من إنزال القرآن على ما هو عليه من إحكام وتفصيل : أن يعبد الله وحده ، ثمّ بينت السورة في مقاطعها اللاحقة أن الرسل جميعاً بعثوا في ذلك ، وأن أقوامهم عوقبوا بسبب من إعراضهم عن ذلك ، وبيّن المقطع الخامس أن سنة الله هذه مستمرة في تعذيب الكافرين في الدنيا والآخرة ، وإذ اتضح هذا الأمر فإن المقطع الأخير جاء ليؤكد استحقاق الذين لم يستجيبوا لدعوة رسول الله ﷺ للعذاب، كما يحذرنا أن نكون كبني إسرائيل في اختلافهم في الكتاب ، وههنا يأتي أمر بالاستقامة وإقام الصلاة ، وتأتي دعوة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتختم السورة بالأمر بالعبادة كما كان بدؤها بذلك .

فوائد :

١ - يلاحظ أن المقطع الأخير في السورة حوى من جملة ما حوى التوجيهات التالية :

أ - الجزم بأن المشركين على ضلال ، والجزم بالعقوبة في حقهم .

ب - أن المختلفين من أهل الكتاب يمهلون فلا يستأصلون ، وحسابهم آت .

جـ - وجوب الاستقامة ، والوقوف عند الحدود ، وعدم الميل للظالمين ، والركون إليهم ، وإقامة الصلاة ، ووجوب الصبر .

د - وجوب الإصلاح ، والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

هـ - الإقبال على الله بالعبادة والتوكل ، فإذا كانت هذه المعاني كلها قد جاءت في سياق السورة التي محورها العبادة ، عرفنا ارتباط هذه المعاني كلها بموضوع العبادة .

٢ - في قوله تعالى : ﴿ وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم ﴾ كلام كثير حول « لما » وقد اخترنا أنها هنا بمعنى « إلا » كهي في قوله تعالى : ﴿ إن كل نفس لمّا عليها حافظ ﴾ (الطارق : ٤) وقد طال كلام المفسرين حولها لكثرة القراءات فيها ، أما هي في قراءة حفص فلا تحتمل غير ما ذكرنا .

٣ - من الأشياء التي يغفل المسلمون عنها كثيراً في عصرنا الموضوع الذي وجّهنا إليه قوله تعالى ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار ﴾ ذكر النسفي عن الموفق أنه صلّى خلف الإمام ، فلما قرأ هذه الآية غشي عليه ، فلما أفاق قيل له فقال : هذا فيمن ركن فكيف بالظالم ، وأفظع الظلم تعطيل كتاب الله ورفضه ، وتجد الكثيرين من المسلمين يركنون إلى من عطّل كتاب الله ورفضه ، ومن الظلم الاعتداء على عباد الله ، وكل أنواع الظلم لا يجوز الركون لأهلها ، بل تجب معاداتهم قال النسفي :(ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في بريّة هل يسقى شربة ماء ؟ فقال : لا . فقيل له يموت . فقال دعه يموت) ومن أعظم البلاء أن نرى أن أفظع أنواع الركون يقوم به بعض من يعتبرون - عند العامة - من علماء المسلمين . قال النسفي : وقال سفيان : في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك . وعن الأوزاعي : ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً ، أي أميراً ، فقد كانوا يسمون الأمير عاملاً . وهذا إذا كان العامل ظالماً .

٤ - عن الحسن قال : جعل الله الدين بين لاءين (ولا تطغوا ، ولا تركنوا) فانظر هذا الفقه العظيم لدين الله ، وانظر كيف يفهم العلماء الربانيون دين الله ، وإن أكثر ما يقع فيه الانحراف : الطغيان والركون . فإذا وُجد الطاغية وُوجد الركون إليه فقد عمّ البلاء وطمّ .

٥ - مما يعين على فهم قوله تعالى : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ الروايات التالية وقد ذكرها جميعاً ابن كثير ننقلها عنه مع حذف الأسانيد ، واختيار أجمع الروايات .

أ - روى الإمام أحمد وأهل السنن عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال : كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه ، وإذا حدثني عنه أحد استحلفته ، فإذا حلف لي صدقته . وحدثني أبوبكر - وصدق أبوبكر - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « مامن مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له » .

ب – وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال : هكذا رأيت رسول الله يتوضأ . وقال : « من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لايحدّث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه » .

د – وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهرا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقي من درنه شيئاً ؟ » قالوا : لا يارسول الله ، قال : « كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا » .

هـ – روى مسلم في صحيحه ... عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات لما بينهن ، ما اجتنبت الكبائر » .

و – وروى الإمام أحمد ... عن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله ﷺ كان يقول : « إن كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة » .

ز – روى ابن جرير ... عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « جعلت الصلوات كفارات لما بينهن » فإن الله قال : ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ .

حـ – روى البخاري ... عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة ، فأتى النبي ﷺ فأخبره ، فأنزل الله ﴿ **وأقم الصلاة طرَفي النهار وزُلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ فقال الرجل : يارسول الله ألي هذا ؟ قال : « لجميع أمتي كلهم » .

ط – روى الإمام أحمد ... عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الدين إلا من أحب ، فمن أعطاه الدين فقد أحبه ، والذي نفسي بيده ، لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه » قال : قلنا : وما بوائقه يانبي الله ؟ قال : « غشه وظلمه ، ولا يكسب عبد مالاً حراماً فينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتصدق فيقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار ، إن الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو السيء بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث » .

ي - روى الإمام أحمد ... عن أبي عثمان قال : كنت مع سلمان الفارسي تحت شجرة ، فأخذ منها غصناً يابساً فهزه حتى تحاتّ ورقه ثم قال : ياأبا عثمان ، ألا تسألني لمَ أفعل هذا ؟ ، قلت : ولمَ تفعله ؟ ، قال : هكذا فعل رسول الله ﷺ فقال : إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم صلى الصلوات الخمس تحاتّت خطاياه كما يتحاتّ هذا الورق . وقال : ﴿ **وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾ .

ك - روى الإمام أحمد ... عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

ل - روى الإمام أحمد ... عن أبي ذر قال : يارسول الله أوصني ، قال : « إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها » قال : قلت : يارسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال : « هي أفضل الحسنات » .

م - روى الحافظ أبويعلى الموصلي ... عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « ما قال عبد : لا إله إلا الله في ساعة من ليل أو نهار إلا طلست(١) ما في الصحيفة من السيئات حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات » .

ن - روى الحافظ أبوبكر البزار ... عن أنس أن رجلاً قال : يارسول الله ما تركت من حاجة ولا داجة(٢) ، فقال رسول الله ﷺ : « تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ » قال : بلى . قال : « فإن هذا يأتي على ذلك » .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقيّة ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم** ﴾ ذكر ابن كثير الحديث : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيّروه أوشك أن يعمّهم الله بعقاب » نسأل الله أن يرزقنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن يرزقنا العفو والعافية وحسن الختام .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولايزالون مختلفين إلا من رحم ربك** ﴾ نقول : إن هؤلاء هم الفرقة الناجية كما جاء في الحديث المروي في المسانيد والسنن من طرق يشد بعضها بعضاً « إن اليهود افترقت على إحدى وسبعين فرقة ، وإن النصارى افترقت على

---

(١) أي محت .

(٢) الداجة : هي ماكانت أقل شأناً من الحاجة .

ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا فرقة واحدة » قالوا : ومن هم يارسول الله ؟ قال : « ماأنا عليه وأصحابي » . رواه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة .

وحتى الفرقة الناجية إذا حدث بغي وحسد فيما بين أبنائها حدثت فرقة . قال قتادة : أهل رحمة الله أهل الجماعة ، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم ، وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبناؤهم .

٨ - من الأسباب التي فهمناها من السورة ، أن عذاب الاستئصال يمكن أن يصيب الكافرين كما يمكن أن يصيب قرى فسدت ، ولم يبق فيها مصلحون ، ومما فهمناه من السورة أن المختلفين في الكتاب يمهلون :

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم ﴾ ومن ههنا نفهم سر بقاء فرق أهل الكتاب ، كما نفهم سر بقاء الفرقة الإسلامية الضالة وعدم استئصالها . فذلك جزء من السنن الإلهية .

كلمة أخيرة في سورة هود :

قلنا إن محور سورة هود من سورة البقرة ، هو قوله تعالى : ﴿ ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ وقد رأينا أن السورة في مقاطعها جميعاً فصّلت موضوع العبادة وما يدخل فيها وما ينبثق عنها ، وما هي عاقبة أهلها وعاقبة المعرضين عنها ، وكل ذلك على نسق عجيب تلتقي فيه البدايات بالنهايات وتنسجم الأواسط مع هذه البدايات والنهايات ، وكل ذلك يجري على نسق واحد مع الوحدة القرآنية الشاملة ، فتفصل سورة هود في محورها من سورة البقرة ، وفيما ينسجم مع تفصيل سورة يونس لمحورها من سورة البقرة كذلك .

....

جاء في سورة هود الدرس الأول ، وفيه تقرير معان ، ثم جاءت قصص توضح هذه المعاني ، ثم جاء درس أخير وفيه تعقيبات وتوجيهات تنسجم مع الدرس الأول ومع قصص السورة .

يقول صاحب الظلال ذاكراً ما في الدرس الأخير من تعقيبات تنسجم مع مسرى السورة وسياقها : « والتعقيب الأول في هذا الدرس تعقيب مباشر على القصص :

﴿ ذلك من أنباء القرى نقصُّه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

والتعقيب الثاني يتخذ مما نزل بالقرى من عذاب موحياً بالخوف من عذاب الآخرة الذي يعرض في مشهد شاخص من مشاهد يوم القيامة : **﴿ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لاتكلّم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد . فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعّال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴾ .**

يليه تعقيب آخر مستمد من عاقبة القرى ، ومن مشهد القيامة ، لتقرير أن المشركين الذين يواجههم محمد - ﷺ - شأنهم شأن من قبلهم في الخالين . وإذا كان عذاب الاستئصال لا يقع عليهم في الأرض ، فذلك لكلمة سبقت من ربك إلى أجل ، كما أجّل العذاب لقوم موسى مع اختلافهم فيما جاءهم من كتاب . ولكن هؤلاء سيوفون أعمالهم على وجه التأكيد . فاستقم أيها الرسول على طريقتك أنت ومن تاب معك ، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا وأشركوا ، وأقم الصلاة واصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين : **﴿ فلاتك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص . ولقد آتينا موسى الكتاب فاختُلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب . فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون . وأقم الصلاة طرفي النهار وزُلَفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .**

ثم عودة إلى القرون الخالية التي لم يكن فيها إلا قليل من الذين ينهون عن الفساد في الأرض . أما الكثرة فكانت ماضية فيما هي فيه ، فاستحقت الهلاك . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون : **﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم ، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ .**

وكشف عن سنة الله في كون الناس مختلفين في مناهجهم واتجاهاتهم . ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة . ولكن إرادته اقتضت إعطاء البشر قدراً من الاختيار : ﴿ **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأنّ جهنم من الجِنّة والناس أجمعين** ﴾ .

وفي النهاية يسجل السياق غرضاً من أغراض هذا القصص هو تثبيت فؤاد النبي ﷺ ، ويؤمر الرسول أن يلقي للمشركين كلمته الأخيرة ، ويكلهم إلى ما ينتظرهم من غيب الله . وأن يعبد الله ويتوكل عليه ، ويدع له أخذ الناس بما يعملون : ﴿ **وكلاً نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نثبِّت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق ، وموعظة وذكرى للمؤمنين ، وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون ، وانتظروا إنا منتظرون ، ولله غيب السماوات والأرض وإليه يُرجع الأمرُ كله . فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ .

وبهذا ينتهي الكلام عن سورة هود عليه السلام ، وهذا أوان الشروع في تفسير سورة يوسف عليه السلام .

☆ ☆ ☆

سورة يوسف

وهـــي الـــسورة الثانيــة عشــرة بحسب الرســم القــرآني
وهي الـسورة الثالثة من المجموعة الأولى من قسم
المئين ، وآياتها مائة وإحدى عشرة
وهـــي مكيـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

نقل عن الألوسي في سورة يوسف عليه السلام :

قال الألوسي : (وسبب نزولها على ماروي عن سعد بن أبي وقاص أنه أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه على أصحابه زماناً فقالوا : يارسول الله لو قصصت علينا فنزلت ، وقيل : هو تسلية الرسول ﷺ عما يفعله به قومه بما فعلت إخوة يوسف عليه السلام به ، وقيل : إن اليهود سألوه ﷺ أن يحدثهم بأمر يعقوب وولده وشأن يوسف وما انتهى إليه فنزلت ، وقيل : إن كفار مكة أمرتهم اليهود أن يسألوا رسول الله ﷺ عن السبب الذي أحل بني إسرائيل بمصر فسألوه فنزلت . ويُبعد القولين الأخيرين - فيما زعموا - ما أخرجه البيهقي في الدلائل من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن حبراً من اليهود دخل على رسول الله ﷺ فوافقه وهو يقرأ سورة يوسف فقال : يامحمد من علمكها ؟ قال : الله علمنيها ، فعجب الحبر لما سمع منه فرجع إلى اليهود فقال لهم : والله إن محمداً ليقرأ القرآن ، كما أنزل في التوراة ، فانطلق بنفر منهم حتى دخلوا عليه فعرفوه بالصفة ونظروا إلى خاتم النبوة بين كتفيه فجعلوا يستمعون إلى قراءة سورة يوسف فتعجبوا وأسلموا عند ذلك ، وفي القلب من صحة الخبر ما فيه ، ووجه مناسبتها للتي قبلها اشتمالها على شرح ما قاساه بعض الأنبياء عليهم السلام من الأقارب ، وفي الأولى ذكر ما لقوا من الأجانب ، وأيضاً قد وقع فيما قبل ﴿ **فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب** ﴾ وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت** ﴾ ووقع هنا حال يعقوب مع أولاده ، وما صارت إليه عاقبة أمرهم مما هو أقوى شاهد على الرحمة ، وقد جاء عن ابن عباس . وجابر بن زيد أن يونس نزلت . ثم هود . ثم يوسف ، وعد هذا وجهاً آخر من وجوه المناسبة) .

كلمة في سورة يوسف ومحورها :

تبدأ سورة يوسف بقوله تعالى : ﴿ **الر تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون . نحن نقصُّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين . لقد كان في يوسف وإخوته ...** ﴾ .

وتنتهي سورة يوسف بقوله تعالى : ﴿ **لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب . ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ .

تأمل هذه البداية والنهاية وتذكر : أن سورة يونس جاءت مفصّلة للآية الأولى في

البقرة : ﴿ **الٓمٓ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ .

وأن سورة هود مفصلة لقوله تعالى : ﴿ **ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ .

وسنرى أن سورة الرعد تأتي مفصّلة لقوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها ...** ﴾ .

فالمفروض على حسب نظريتنا التي مشينا عليها أن يكون محور سورة يوسف ما بين قوله تعالى في البقرة ﴿ **ياأيها الناس اعبدوا ربكم ...** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها** ﴾

وأول آية تصادفنا بعد قوله تعالى : ﴿ **ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً ...** ﴾ هي : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله** ﴾ وإذا تأملنا مقدمة سورة يوسف ونهايتها ، أدركنا أن محور السورة هو هذا . فسورة يوسف تبدأ بتقرير أن منزّل الكتاب على محمد ﷺ هو الله ، وأن محمداً ﷺ قبل أن ينزل عليه هذا القرآن كان من الغافلين ، وتختم السورة بنفي أن يكون هذا القرآن مفترى من دون الله ، وما بين ذلك تأتي قصة يوسف عليه السلام ، بتفصيل وترتيب عجيبين ليكون ذكرها في هذا المقام دليلاً على أن هذا القرآن من عند الله ، وعلى أنه لا يرقى إليه ريب ولا شك ، وأنه لا يكون إلا من عند الله بما حواه من تفصيل لكل شيء وهداية ورحمة .

وإذن فسورة يوسف فيها الدليل على : أن منزّل هذا القرآن هو الله ، وأن هذا القرآن لا يمكن أن يكون مكذوباً على الله ، وأن ذكر قصة يوسف على مثل هذا البيان والتفصيل والكمال والعظة والصدق والدقة والبلاغة في اللفظ والأسلوب والعرض وبما يصدق ما في الكتب السماوية السابقة ، كل ذلك دليل على أن مثل هذا الكمال لا يصدر إلا عن المحيط علماً بكل شيء وهو الله جل شأنه .

إن محور سورة يوسف هو قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مِمَّا نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ إن السورة تؤكد أن هذا القرآن تنزيل من الله على قلب محمد ﷺ وتقيم الدليل على ذلك بما حوته من إعجاز .

لقد ختمت سورة يوسف بقوله تعالى : ﴿ **ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ . فهذا الختام يوحي أن سورة يوسف علامة ونموذج على هذا التصديق ، وعلى هذا التفصيل ...

ومن تأمل ما وَصَلَنا من الكتب السابقة ، وجد دليل هذا التفصيل والتصديق ، ولو أن الكتب السابقة وصلتنا بلا تحريف ولا تبديل ، لكنا أقدر على التدليل ، ولكن إذا كان إرميا من عهده يتحدث عن أقلام النسّاخ الكاذبة ، فماذا نقول نحن ؟! .

ومع كل التحريف والتبديل فإننا نجد مع ذلك كيف أن هذا القرآن تفصيل لكل شيء وتصديق الذي بين يديه . ولنضرب مثالاً على التفصيل :

نلاحظ مثلاً أن أسفار موسى عليه السلام الخمسة ، والتي يسميها بعضهم التوراة ، والتي نؤكد أنها ليست التوراة ، وإنما التوراة جزء منها مع التحريف والتبديل كما أثبتنا ذلك أثناء الكلام عن سورة الأعراف - هذه الأسفار الخمسة تكاد تكون موجودة في القرآن ، وهي جزء من المعاني الموجودة فيه .

فسِفْر التكوين مثلاً ، والذي يتألف من قصة آدم ، ثم قصة نوح ، ثم قصة إبراهيم ، ثم قصة يعقوب ويوسف ، نجده كله تقريباً في القرآن ، ما عدا حشواً لا يترتب عليه فائدة ، أو كذباً مختلقاً كما سنرى . وسفر الخروج مثلاً يكاد يكون محتوى في سورة الأعراف وغيرها . وسفر العدد يكاد يكون محتوى في سورة الأعراف ، وسورة المائدة ، وسفر اللاويين وسفر التثنية نجدهما مبثوثين في القرآن في أمكنة متفرقة.

وإذا تأملت ما في الزبور من معان ، وما في الإنجيل من قصص ومعان ، وأخبار الرسل ، وتاريخ بني إسرائيل ، تجده كله يكاد يكون موجوداً في القرآن ، حتى إن قارىء القرآن ، وقارىء كتب العهد القديم والجديد ، يكاد لا يستغرب ما يقرأ ، فإذا كان هذا بعض مافي هذا القرآن أدركنا رشحة من رشحات كون هذا القرآن ﴿ **وتفصيل كل شيء** ﴾ .

وأما كون هذا القرآن ﴿ **وتصديق الذي بين يديه** ﴾ فإنك تجد أن كثيراً مما تعرّض له القرآن موجودة أصوله في الكتب السابقة ، ولو أن هذه الكتب قد وصلتنا كما أنزلت لرأينا المطابقة الكاملة ، ولكن هذه الكتب حُرِّفت وبدِّلت . ولنضرب مثالاً على التحريف والتبديل الذي يراه القارىء بوضوح في سفر التكوين ، الذي ذكر فيه قصة يوسف وإخوته .

نجد مثلاً في الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين كلاماً عن سارة ، وشيخوختها ، بينما نجد في الإصحاح العشرين أنها من الجمال بحيث تكون محل طمع الملوك . وفي الإصحاح الحادي والعشرين : كلام عن هاجر وإسماعيل ، وأن إبراهيم طرحهما في برية بئر السبع ، مع أن البداهة التاريخية تحكم أن العرب المستعربة من نسل إسماعيل ، وقريش من نسل إسماعيل ، والعرب أعرف الخلق بأنسابها ، ولم تزل قصة زمزم والحرم متوارثة عند العرب ، فأي تحريف مثل هذا التحريف ! .

وفي الإصحاح الثاني والعشرين دعوى أن الذبيح إسحاق مع أن الإصحاح يقول « خذ ابنك وحيدك » فكيف يكون الذبيح إسحاق وهو ليس الإبن الوحيد لإبراهيم بنص التوراة نفسها .

ونلاحظ أيضاً أن التوراة الحالية تذكر أكثر من تعليل لتسمية بئر السبع ففي كل مرة يذكر سبب يختلف عن الآخر للتسمية ، وهذا يدل على التناقض .

وكثير من الإصحاحات تنسب الزنا للأنبياء بالبنات وغيرهن .

وفي الإصحاح الخامس والثلاثين نجد العبارة التقليدية التي تدلل على أن كتابة هذه الأسفار كانت متأخرة جداً وهي عبارة « إلى اليوم » .

كما نلاحظ في هذا الإصحاح أنه يذكر أن رأوبين بن يعقوب زنى بسرية أبيه وفي الإصحاح الثامن والثلاثين أن يهوذا زنى بكنّته ، وأمثال هذا السخف كثير كل هذا وأمثاله مما أشرنا إلى بعضه أثناء الكلام عن سورة الأعراف يرينا مقدار التحريف الذي حدث في هذه الأسفار ، ومن ثم كان القرآن مصدقاً بالجملة لما بين يديه مما نراه الآن ، ولو كان التحريف لم يطرأ لرأينا التصديق التفصيلي مع التصديق الإجمالي :

وإذا كانت التوراة الحالية قد كُتبت في عصور متأخرة جداً - كما تشهد نصوصها - وأعظم ما يشهد لذلك ما نقلناه من قبل ، وهو ما ورد في آخر سفر التثنية في الإصحاح الرابع والثلاثين عن موت موسى ، ودفن في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم » .

فهذا يدل على أن الأسفار ليست التوراة بل فيها بعض التوراة ويدل على أن هذه الأسفار الخمسة كتبت بعد آماد متطاولة جداً .

ومن ثم نجد التخاليط ، والتحريف ، والتبديل ، والنقص ، والإسفاف ، ونعلم فضل الله على هذه الأمة إذ جعل قرآنها محفوظاً بحفظه ، ونعلم أن القيمة التاريخية للروايات السابقة لاتساوي شيئاً ، ومن ثم نرى أن النقل عن هذه الكتب يعطيها اعتباراً لا تستحقه لخيانة أهلها فيها ، وتقصيرهم في حفظها ، ولولا أن رسولنا عليه الصلاة والسلام سمح لنا أن نحدّث عن بني إسرائيل ما نقلنا ، وبمناسبة الكلام عن قصة يوسف عليه السلام نقول : إن قصة يوسف في سفر التكوين تمتد من الإصحاح السابع والثلاثين ، إلى نهاية الإصحاح الخمسين ، تستوعب حوالي (٢٤) صفحة مكتوبة بحروف صغيرة ، وكثافة سطور ، ولكن شتان بين الموجود في القرآن والموجود هناك ، إنْ في الأسلوب ، أو العرض ، أو البلاغة ، أو الإحاطة والشمول ، أو في ذكر التفاصيل التي تحتاجها العبرة ، ونفي الحشو الذي لا يترتب عليه شيء ، هذا مع الاختصار ، وفوق كل هذا فهذه رواية الله لهذه القصة لم تشب ولم تُخالط ، وتلك رواية الخونة والكاذبين والمحرّفين ، وكثيراً ما نقل المفسرون المسلمون عن التوراة في تفسير سورة يوسف على ما فيها ، ونحن سنسير على سننهم فننقل في الحدود التي فصّلت معنى ذكره القرآن ، ولا نلتفت إلى ماسوى ذلك ، وحتى هذا الذي ننقله نحب أن نذكر في شأنه أننا لا نذكره إلّا لمجرد الاستئناس ، ومن تذوّق طعم الحق في هذا القرآن عرف نوع طعم ما سواه ، وإذ جرّنا الكلام إلى هذه النقطة ننقل ما ذكره ابن كثير عند قوله تعالى : ﴿ **نحن نقصّ عليك أحسن القصص** ﴾ في هذه السورة لمناسبته هذا المقام مع حذف الأسانيد وترك المكرر قال :

(ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة ، المشتملة على مدح القرآن ، وأنه كافٍ عن كل ما سواه من الكتب ، ما رواه الإمام أحمد عن الشعبي عن جابر بن عبدالله : أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبي ﷺ قال : فغضب ، وقال « أمتهوكون [1] فيها يا ابن الخطاب ؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به ، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني » وروى أيضاً ... عن الشعبي عن عبدالله بن ثابت قال : جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إني مررت بأخ لي من قريظة ، فكتب لي جوامع من التوراة ، ألا أعرضها

(١) التهوك : هو التحيُّر .

عليك ؟ قال : فتغير وجه رسول الله ﷺ ، قال عبدالله بن ثابت : فقلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً ، قال : فسرى عن النبي ﷺ وقال : « والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه لضللتم ، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين » . وروى الحافظ أبويعلى الموصلي ... عن خالد بن عُرفطة قال : كنت جالساً عند عمر إذ أُتي برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس(١) ، فقال له عمر : أنت فلان بن فلان العبدي ؟ قال : نعم . قال : وأنت النازل بالسوس ؟ قال : نعم ، فضربه بقناة معه ، قال : فقال الرجل : ما لي ياأمير المؤمنين ؟ فقال له عمر : اجلس ، فجلس فقرأ عليه : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم الر تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون . نحن نقصُّ عليك أحسن القصص ...** ﴾ إلى قوله تعالى .. ﴿ **لمن الغافلين** ﴾ فقرأها عليه ثلاثاً وضربه ثلاثاً فقال له الرجل : ما لي ياأمير المؤمنين ؟ فقال : أنت الذى نسخت كتاب دانيال ، قال : مرني بأمرك أتبعه ، قال : انطلق فامحه ، بالحميم(٢) والصوف الأبيض ، ثم لا تقرؤه ولا تُقرئه أحداً من الناس ، فلئن بلغني عنك أنك قرأته أو أقرأته أحداً من الناس لأنهكتك عقوبة ، ثم قال : اجلس ، فجلس بين يديه ، فقال : انطلقت أنا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب ثم جئت به في أديم فقال لي رسول الله ﷺ : « ماهذا في يديك ياعمر ؟ » قال : قلت : يارسول الله كتاب نسخته لنزداد به علماً إلى علمنا ، فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرّت وجنتاه ، ثم نودي بالصلاة جامعة ، فقالت الأنصار : أغضب نبيكم ﷺ ، السلاح السلاح ، فجاؤوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ ، فقال : « ياأيها الناس إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه . واختصر لي اختصاراً ، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية ؛ فلا تتهوّكوا ولا يغرنكم المتهوّكون » فقال عمر : فقمت ، فقلت : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبك رسولاً ، ثم نزل رسول الله ﷺ ، وقد روى الحافظ أبوبكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي ... عن سليم بن عامر أن جبير بن نفير حدّثهم أن رجلين كانا بحمص في خلافة عمر رضي الله عنه ، فأرسل إليهما فيمن أرسل من أهل حمص ، وكانا قد اكتتبا من اليهود صلاصفة(٣) ، فأخذاها معهما يستفتيان فيها أمير المؤمنين . يقولان : إن

---

(١) السوس : بلدة بخوزستان دانيال .
(٢) الحميم : هو الماء الساخن .
(٣) أي : صُحفا .

رضيها لنا أمير المؤمنين ازددنا فيها رغبة ، وإن نهانا عنها رفضناها ، فلما قدما عليه قالا : إنا بأرض أهل الكتاب ، وإنا نسمع منهم كلاماً تقشعر منه جلودنا ، أفنأخذ منه أو نترك ؟ فقال : لعلكما كتبتما منه شيئاً ، فقالا : لا ، قال : سأحدثكما : انطلقت في حياة النبي ﷺ حتى أتيت خيبر ، فوجدت يهودياً يقول قولاً أعجبني ، فقلت : هل أنت مكتبي مما تقول ؟ قال : نعم . فأتيت بأديم ، فأخذ يملي عَلَيَّ حتى كتبت في الأكْرُع[1] ، فلما رجعت قلت : يانبي الله ، وأخبرته ، قال : « ائتني به » فانطلقت أرغب عن المشي رجاء أن أكون جئت رسول الله ببعض ما يحب ، فلما أتيت به قال : « اجلس اقرأ عليّ » فقرأت ساعة ، ثم نظرت إلى وجه رسول الله ﷺ فإذا هو يتلوّن ، فتحيّرت من الفرق ، فما استطعت أن أجيز منه حرفاً ، فلما رأى الذي بي رفعه ثم جعل يتبعه رسماً رسماً فيمحوه بريقه وهو يقول : « لا تتبعوا هؤلاء فإنهم قد هوّكوا وتهوكوا » حتى محا آخره حرفاً حرفاً . قال عمر رضي الله عنه : فلو علمت أنكما كتبتما منه شيئاً جعلتكما نكالاً لهذه والأمة . قالوا : والله ما نكتب منه شيئاً أبداً ، فخرجا بصلاصفتيهما ، فحفرا لها فلم يألوا أن يعمقا ، ودفناها ، فكان آخر العهد منها . وهكذا روى الثوري ... عن عبدالله بن ثابت الأنصاري عن عمر بن الخطاب بنحوه . وروى أبوداود في المراسيل ... عن عمر نحوه . والله أعلم .)

نقلنا هذه النقول بين يدي سورة يوسف عليه السلام ، ليعلم أنّ ما سننقله أثناء تفسيرها ليس من أجل أن نستهدي فيه ، بل إمّا لنردّه مقيمين الحجة على أهله ، أو لنستأنس حيث استأنس العلماء في قضية يحتملها النص القرآني ، أو لنقارن .

....

تتألف سورة يوسف عليه السلام من مقدمة ، وقصة وخاتمة ،والقصة نفسها تتألف من مشاهد فلنبدأ عرض المقدمة .

---

(١) الأكْرُع : جمع كراع وهو مادق من عظم الساق .

مقدمة سورة يوسف عليه السلام

وهي ثلاث آيات وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (١) إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ (٣)

التفسير :

﴿ الر ﴾ هي هنا تؤدي مايؤديه أمثالها من إشارة إلى الإعجاز ، ومن إشارة إلى مفاتيح الوحدة القرآنية ، ومن إشارة إلى جرس السورة ، إلى غير ذلك ﴿ **تلك آيات الكتاب المبين** ﴾ أي هذه آيات الكتاب وهو القرآن الذي من خصائصه أنه واضح جلي ، يفصح عن كل الأشياء بغاية البيان فيفسرها ويبيّنها . والإشارة في تلك إلى آيات هذه السورة الظاهر أمرها في الإعجاز ، والتي تبين لمن تدبرها أنها من عند الله لامن عند البشر ﴿ **إنا أنزلناه** ﴾ أي أنزلنا هذا القرآن ﴿ **قرآنا عربياً لعلكم تعقلون** ﴾ أي لكي تفهموا معانيه ، وتعملوا ، وتتحققوا . فتكونوا عقلاء حقاً . والمنّة بنزول القرآن على العرب واضحة لما في ذلك من تشريف للعرب والعربية، والمنّة على العالم بنزول هذا القرآن بهذه اللغة . لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعاني فهي أشرف اللغات ، كما أن القرآن أشرف الكتب ، كما أن محمداً ﷺ أشرف الرسل ، وقد نزل القرآن في أشرف البقاع ، بسفارة أشرف الملائكة ، وابتدىء إنزاله في أشرف شهور السنة : وهو رمضان . فكمل من كل الوجوه . ﴿ **نحن نقصُّ عليك أحسن القصص** ﴾ القاص : هو الذي يأتي بالقصة على حقيقتها . والقَصَص إما بمعنى

المقصوص ، أو بمعنى الاقتصاص واشتقاق القصص من قصَّ أثره إذا اتبعه ، لأن الذي يقص الحديث يتّبع ما حفظ منه شيئاً فشيئاً ، وعلى أن معنى القصص : الاقتصاص ، يكون المعنى : نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص ، والمقصوص يدل عليه ما بعده . والمراد بأحسن الاقتصاص أنه اقتص على أبدع طريقة وأعجب أسلوب ، فإنك لاترى اقتصاصه في كتب الأولين مقارباً لاقتصاصه في القرآن ، وعلى أن معنى القصص المقصوص يكون المعنى : نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الأحاديث . وإنما كان أحسن لما يتضمن من العبر والحكم والعجائب ، عدا عن كونه حقاً وواقعياً ﴿ **بما أوحينا إليك** ﴾ أي بإيحائنا إليك ﴿ **هذا القرآن وإن كنت من قبله** ﴾ أي من قبل الوحي ﴿ **لمن الغافلين** ﴾ يعني وإن الشأن والحديث إنك كنت من قبل إيحائنا إليك هذا القرآن من الجاهلين به .

فوائد :

١ - من الأسباب التي تجعل القصص القرآني أحسن القصص أن غيره إما واقعي ، أو خيالي . فإن كان خيالياً فإنه لايصلح أن يكون هادياً ولا مُوَجِّهاً ، ولا يصلح أن يكون ميزاناً يوضع فيه كل شيء في محله ، من عواطف ، وعقلانيات ، وغير ذلك ، وإن كان واقعياً فقد يغيب بعضه أو يزاد عليه ، أو لا يكون مغطِّياً للموضوع بما يشمل الزمان والمكان ، والغيب والشهادة ، والدنيا والآخرة . أما القصة القرآنية فتجدها قد استكملت مالم يستكمل في غيرها ، هذا مع كونها جاءت بأبلغ عبارة ، وأعظم أسلوب وأوجز عرض ، هذا مع أنك تجد في كل آية من المعاني والتوجيهات والهداية مالا يحيط به إلا الله الذي أنزله .

٢ - في قوله تعالى : ﴿ **وإن كنت من قبله لمن الغافلين** ﴾ دليل على أن التذكر الكامل لا يكون إلا بهذا القرآن ، فإذا كان رسول الله ﷺ وهو أكمل الخلق فطرة ، وأصفاهم قلباً ، وأعظمهم عقلاً . كان من قبل القرآن غافلاً ، فما بال غيره ! فلا تذكّر إلا بهذا القرآن . وبهذا الوحي . وكل طريق آخر للتذكير طريق قاصر ، ومن مظاهر الكمال في تذكير القرآن أنه يذكّر بالغيب والشهادة في شؤون الدنيا والآخرة ، بما يسع الخلق ، ويدل على الخالق بما يسع النفس والعقل والقلب والروح ...

٣ - ورد في أسباب نزول قوله تعالى : ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ...** ﴾ أكثر من رواية ذكرها ابن كثير وهذه هي مع حذف

الأسانيد : روى ابن جرير عن ابن عباس قال : قالوا : يارسول الله لو قصصت علينا ؟ فنزلت : ﴿ **نحن نقصُّ عليك أحسن القصص** ﴾ وروى أيضاً ... عن عمرو بن مرة عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : أنزل على النبي ﷺ القرآن قال : فتلاه عليهم زماناً ، فقالوا : يارسول الله لو قصصت علينا ؟ فأنزل الله عز وجل ﴿ **الر تلك آيات الكتاب المبين** ﴾ إلى قوله ﴿ **لعلكم تعقلون** ﴾ ثم تلاه عليهم زماناً ، فقالوا : يارسول الله لو حدثتنا ؟ فأنزل الله عزوجل : ﴿ **الله نزّل أحسن الحديث** ﴾ الآية . وذكر الحديث . ورواه الحاكم أيضاً .

وروى ابن جرير بسنده عن المسعودي عن عون بن عبدالله قال : ملّ أصحاب رسول الله ﷺ ملّة ، فقالوا : يارسول الله حدثنا . فأنزل ﴿ **الله نزّل أحسن الحديث** ﴾ ثم ملّوا ملّة أخرى ، فقالوا : يارسول الله ، حدثنا فوق الحديث ، ودون القرآن - يعنون القصص - فأنزل الله عز وجل ﴿ **الر تلك آيات الكتاب المبين ۝ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ۝ نحن نقصُّ عليك أحسن القصص** ﴾ الآية ، فأرادوا الحديث فدلهم على أحسن الحديث ، وأرادوا القصص فدلّهم على أحسن القصص .

كلمة في السياق :

رأينا أن محور سورة يوسف هو قوله تعالى في سورة البقرة :

﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا** ﴾ .

ونلاحظ أن المقدمة ذكرت أن الله عز وجل يقص في هذا القرآن أحسن القصص ، وكيف أن محمداً عليه الصلاة السلام كان قبل الوحي غافلاً ، فلم يكن متعلماً ولا مقبلاً على التعلم ، وقد وصف القرآن في هذه المقدمة بالبيان ، فأن يكون كتاب هذا شأنه في مثل هذا البيان ، وفي مثل هذا الحسن ، وفي اختيار القصة الهادفة ، وأن يكون منزلاً على مثل محمد ﷺ في أميته ، وعدم تعلمه ، إنّ هذا كله لا يمكن أن يكون ، لولا أن هذا القرآن من عند الله ، فالسورة إذن تعالج موضوع الريب والشك بشكل يختلف عما عالجته سور أخرى ، فإذا اتضح هذا فلننتقل إلى عرض مشاهد قصة يوسف عليه السلام :

☆ ☆ ☆

المشهد الأول

ويمتد من الآية (٤) إلى نهاية الآية (٦) وهذا هو :

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ

رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

التفسير :

﴿ **إذ قال يوسف لأبيه** ﴾ أي اذكر يامحمد قصة يوسف إذ قال لأبيه . وأبوه هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام جميعاً ﴿ **ياأبت إني رأيت** ﴾ من الرؤيا وهي المنام لا الرؤية ﴿ **أحد عشر كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتهم لي ساجدين** ﴾ الشمس والقمر هما أبواه ، والأحد عشر كوكباً إخوته . هذا هو تأويله الذي سنراه في آخر السورة . وقد فهم يعقوب الرؤيا التي يشير تعبيرها إلى خضوع إخوته له ، وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً ، بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً واحتراماً وإكراماً ، فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدّث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدونه على ذلك فيبغون له الغوائل حسداً منهم له . ولهذا قال له ﴿ **قال يابني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً** ﴾ أي فيحتالوا لك حيلة يهلكونك فيها ﴿ **إن الشيطان للإنسان عدو مبين** ﴾ أي ظاهر العداوة ، فيحملهم الشيطان على الحسد والكيد . ﴿ **وكذلك** ﴾ أي ومثل ذلك الاجتباء الذي دلّت عليه رؤياك ﴿ **يجتبيك ربك** ﴾ أي يختارك ويصطفيك لنبوته ﴿ **ويعلمك من تأويل الأحاديث** ﴾ أي تعبير الرؤيا وتفسيرها ، أو تأويل أحاديث الأنبياء ، والأول أقوى ﴿ **ويتم نعمته عليك** ﴾ أي بإرسالك ، والإيحاء إليك ، وإدخالك الجنة . ﴿ **وعلى آل يعقوب** ﴾ أي أهل يعقوب وهم نسله ، وإتمام نعمته عليهم بأن يصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة ﴿ **كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم** ﴾ وهو الخليل ﴿ **وإسحق** ﴾ ابن إبراهيم ﴿ **إن ربك عليم** ﴾ يعلم من يحق له الاجتباء ﴿ **حكيم** ﴾ يضع الأشياء مواضعها .

فوائد :

١ - بمناسبة رؤيا يوسف عليه السلام يذكر بعض المفسرين حديثاً في أسماء هذه الكواكب ، وهو حديث مردود من حيث السند .

٢ - ومن وصية يعقوب لابنه يوسف عليه السلام بعد أن قص عليه الرؤيا . أخذ ابن كثير هذا الأدب . قال ابن كثير : ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر كما ورد في حديث « استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها فإن كل ذي نعمة محسود » .

٣ - يلاحظ أن التوراة الحالية المحرّفة تذكر أن أم يوسف ماتت يوم ولدت بنيامين ، ومن ثم فإن من سيسجد له لن تكون أمه المباشرة بل هي زوجة أبيه ، وهذا أحد اتجاهين عند المفسرين .

٤ - بمناسبة ذكر رؤيا يوسف عليه السلام يذكر ابن كثير حديثين متعلقين في موضوع الرؤيا . قال : ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدّث به ، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر ، وليتفل عن يساره ثلاثاً ، وليستعذ بالله من شرها ، ولا يحدّث بها أحداً ، فإنها لن تضره » وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن من رواية معاوية بن حيدة القشيري أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبَّر ، فإذا عُبّرت وقعت » .

٥ - روى الإمام أحمد عن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » ورواه البخاري كذلك . وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم ؟ قال : « أكرمهم عند الله أتقاهم » قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال « فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله » قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : « فعن معادن العرب تسألوني ؟ » قالوا : نعم ، قال : « فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا » .

٦ - يلاحظ أن الأب قد أطلق على الجد وجد الجد في قوله تعالى : ﴿ **وعلى أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق** ﴾ .

٧ - قصة يوسف أصل أصيل في فهم موضوع الرؤى ، وللرؤى في حياة البشرية

أهمية كثيرة ، والرؤيا الصادقة هي البقية الباقية من معاني النبوة ، لأن الرؤيا في حق الأنبياء وحي قال ابن عباس : (رؤيا الأنبياء وحي) .

٨ - في الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين قصة رؤيا يوسف وهذه هي : (ثم حلم أيضاً حلماً آخر وقصّه على إخوته ، فقال : إني حلمت حلماً أيضاً ، وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي وقصّه على أبيه ، وعلى إخوته . فانتهره أبوه ، وقال له : ما هذا الحلم الذي حلمت به ، هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض . فحسده إخوته ، وأما أبوه فحفظ الأمر) هذا كل ما ذكر حول قصّة الرؤيا على أبيه ، ومن ثم نجد أن القرآن صدق ما قبله إجمالاً ، وقد فصّل القرآن ما لم يفصّله النص التوراتي المنقول إلينا .

وبمناسبة الكلام عن رؤيا يوسف قال صاحب الظلال :(وبهذه المناسبة نذكر كلمة عن الرؤى والأحلام ، وهي موضوع هذه القصة وهذه السورة . إننا ملزمون بالاعتقاد بأن بعض الرؤى تحمل نبوءات عن المستقبل القريب أو البعيد .

ملزمون بهذا أولاً من ناحية ما ورد في هذه السورة من وقوع مصداق رؤيا يوسف ، ورؤيا صاحبيه في السجن ، ورؤيا الملك في مصر . وثانياً من ناحية ما نراه في حياتنا الشخصية من تحقيق رؤى تنبؤية في حالات متكررة بشكل يصعب نفي وجوده .. لأنه موجود بالفعل .

والسبب الأول يكفي .. ولكننا ذكرنا السبب الثاني لأنه حقيقة واقعة لايمكن إنكارها إلا بتعنت .

فما هي طبيعة الرؤيا ؟ .

تقول مدرسة التحليل النفسي : إنها صور من الرغبات المكبوتة تتنفس بها الأحلام في غياب الوعي . وهذا يمثل جانباً من الأحلام . ولكنه لايمثلها كلها . (وفرويد) ذاته - على كل تحكمه غير العلمي وتمحله في نظريته - يقرر أن هناك أحلاماً تنبؤية .

فما طبيعة هذه الأحلام التنبؤية ؟ .

وقبل كل شيء نقرر أن معرفة طبيعتها أو عدم معرفته لاعلاقة له بإثبات وجودها وصدق بعضها . إنما نحن نحاول فقط أن ندرك بعض خصائص هذا المخلوق البشري العجيب ، وبعض سنن الله في هذا الوجود .

ونحن نتصور طبيعة هذه الرؤيا على هذا النحو .. إن حواجز الزمان والمكان هي التي تحول بين هذا المخلوق البشري وبين رؤية ما نسميه الماضي أو المستقبل ، أو الحاضر المحجوب . وإن ما نسميه ماضياً أو مستقبلاً إنما يحجبه عنا عامل الزمان ، كما يحجب الحاضر البعيد عنا عامل المكان . وإن حاسة ما في الإنسان لانعرف كنهها تستيقظ أو تقوى في بعض الأحيان ، فتتغلب على حاجز الزمان وترى ما وراءه في صورة مبهمة ، ليست علماً ولكنها استشفاف ، كالذي يقع في اليقظة لبعض الناس ، وفي الرؤى لبعضهم ، فيتغلب على حاجز المكان أو حاجز الزمان ، أو هما معاً في بعض الأحيان . وإن كنا في نفس الوقت لا نعلم شيئاً عن حقيقة الزمان . كما أن حقيقة المكان ذاتها - وهي ما يسمى بالمادة - ليست معلومة لنا على وجه التحقيق : ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ . وأستطيع أن أكذّب كل شيء قبل أن أكذّب حادثاً وقع لي ، وأنا في أمريكا وأهلي في القاهرة . وقد رأيت فيما يرى النائم ابن أخت لي شاباً وفي عينه دم يحجبها عن الرؤية . فكتبت إلى أهلي أستفسر عن عينه بالذات . فجاءني الرد بأن عينه قد أصيبت بنزيف داخلي وأنه يعالج .. ويلاحظ أن النزيف الداخلي لايرى من الخارج ، فقد كان منظر عينه لمن يراها بالعين المجردة منظراً عادياً . ولكنها كانت محجوبة عن الإبصار بالنزف الداخلي في قاعها . أما الرؤيا فقد كشفت عن هذا الدم المحجوب في الداخل . ولا أذكر غير هذه لأنها وحدها تكفي .)

ولننتقل إلى المشهد الثاني في القصة :

☆ ☆ ☆

المشهد الثاني

ويمتد من الآية (٧) إلى نهاية الآية (٢٠) وهذا هو :

لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ

ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

التفسير :

﴿ **لقد كان في يوسف وإخوته** ﴾ أي في قصتهم وحديثهم ﴿ **آيات للسائلين** ﴾ أي علامات ودلالات على قدرة الله وحكمته في كل شيء ، وعبرة ومواعظ لمن سأل عن قصتهم واستخبر عنها ، فإنها خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه . وفي ورود هذه القصة في القرآن آيات على نبوة محمد ﷺ ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله ؛ إذ تلاها محمد ﷺ على الخلق دون أن يسمعها من أحد ، ودون أن يتلو كتاباً ﴿ **إذ قالوا ليوسف وأخوه** ﴾ بنيامين ، وهو أخوه الشقيق من أمهما راحيل ﴿ **أحبُّ إلى أبينا منا ونحن**

عصبة ﴾ أي جماعة فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة والمعنى : أنه يفضّلهما في المحبة علينا وهما صغيران لا كفاية فيهما ونحن عشرة رجال كفاة نقوم بمرافقته ، فنحن أحق بزيادة المحبة منهما ، لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما ﴿ **إن أبانا لفي ضلال مبين** ﴾ أي في غلط في تدبير أمر الدنيا ، إذلو وصفوه بالضلالة في الدين لكفروا ، وخطؤه عندهم أن قدم يوسف وأخاه عليهم وأحبهما أكثر ﴿ **اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم** ﴾ أي أرضاً مجهولة بعيدة عن العمران ، يقولون : هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم ، أعدموه من وجه أبيكم ليخلو لكم وحدكم . إما بأن تقتلوه أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحون منه وتخلون أنتم بأبيكم . ومعنى يخل لكم وجه أبيكم : أي يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلى غيركم ، والمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها ﴿ **وتكونوا من بعده** ﴾ أي من بعد يوسف أي من بعد كفايته بالقتل أو التغريب . أو من بعد قتله أو طرحه ﴿ **قوماً صالحين** ﴾ أي تائبين إلى الله مما جنيتم عليه ، أضمروا التوبة قبل الذنب . أو المعنى : أو يصلح حالكم عند أبيكم ومعه ﴿ **قال قائل منهم** ﴾ أجمله لأنه لا فائدة من تعيينه ﴿ **لا تقتلوا يوسف** ﴾ أي لاتصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله ، صرفهم الله عن قتله لأنّ الله تعالى كان يريد منه أمراً لابد من إمضائه وإتمامه من الإيحاء إليه بالنبوة . ومن التمكين له في مصر ﴿ **وألقوه في غيابة الجُبّ** ﴾ أي في مقر البئر ، وما غاب منه عن عين الناظر فذلك أقل من القتل لأن القتل عظيم ﴿ **يلتقطه بعض السيارة** ﴾ أي بعض الأقوام الذين يسيرون في الطريق ﴿ **إن كنتم فاعلين** ﴾ به شيئاً . أي إن كنتم عازمين على ما تقولون . قال محمد بن إسحاق بن يسار : لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم ، وعقوق الوالد ، وقلة الرأفة بالصغير الفرع الذي لا ذنب له وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل والخطر عند الله ، مع حق الوالد على ولده ، ليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه على كبر سنه ، ورقة عظمه ، مع مكانه من الله ، ممن أحبه طفلاً صغيراً ، وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه ، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه . يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين ، فقد احتملوا أمراً عظيماً . رواه ابن أبي حاتم من طريق سلمة بن الفضل عنه .

ولما تواطئوا على أخذه وطرحه في البئر ﴿ **قالوا ياأبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون** ﴾ أي لم تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونشفق عليه ، وهذه توطئة ودعوى ، وهم يريدون خلاف ذلك . دلّ هذا على أن عادته حفظه منهم ، وأنه كان متخوفاً عليه منهم ، لا كما تزعم الرواية الحالية للتوراة المحرفة أن يعقوب أرسله إليهم

ابتداءً ، وأن التآمر عليه كان بعد إذ رأوه قادماً من عند أبيه ، فهذا يتنافى مع الفراسة التي عليها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ **أرسله معنا** ﴾ أي ابعثه معنا ﴿ **غداً يرتع** ﴾ أي يتسع في أكل الفواكه وغيرها ﴿ **ويلعب** ﴾ بما يباح كالصيد والرمي والركض ﴿ **وإنا له لحافظون** ﴾ من أن يناله مكروه ﴿ **قال إني ليحزنني أن تذهبوا به** ﴾ أي إني ليحزنني ذهابكم به . أي يشق علي مفارقته مدة ذهابكم به إلى أن يرجع . وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم ، وشمائل النبوة ، ولما كان عليه من الكمال في الخَلق والخُلق صلوات الله وسلامه عليه ﴿ **وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون** ﴾ أي وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم ، فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون ، اعتذر إليهم بأن ذهابهم به مما يحزنه ، لأنه كان لا يصبر عنه ساعة ، وأنه يخاف عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه ، برعيهم ولعبهم . فأخذوا من فمه هذه الكلمة ، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه ، وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراهنة ﴿ **قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة** ﴾ أي فرقة مجتمعة مقتدرة على الدفع ﴿ **إنا إذاً لخاسرون** ﴾ أي إن لم نقدر على حفظ بعضنا فنحن إذاً عاجزون عن حماية أي شيء ، ومن ذلك مواشينا وغيرها . وقد أجابوا عن عذره الثاني دون الأول ، لأن الأول كان يغيظهم ﴿ **فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب** ﴾ أي وعزموا على إلقائه في البئر ، وفي قوله تعالى ﴿ **وأجمعوا** ﴾ تبشيع لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب ، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه له إكراماً وبسطاً وشرحاً لصدره وإدخالاً للسرور عليه ﴿ **وأوحينا إليه** ﴾ أي إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطيباً لقلبه وتثبيتاً . قال النسفي : أوحي إليه في الصغر ، كما أوحي إلى يحيىٰ وعيسى عليهما السلام ﴿ **لتنبئنهم بأمرهم هذا** ﴾ أي لتحدثن إخوتك بما فعلوه بك ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ أنك يوسف ، لعلوّ شأنك ، وكبرياء سلطانك ، وفي ذلك إشعار له ألا يحزن مما هو فيه ، فإن له من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً ، وسينصرك الله عليهم ويعليك ، ويرفع درجتك ، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع ، وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك . ويحتمل أن يكون المعنى : وأوحينا إليه وهم لا يشعرون . أي آنسناه بالوحي ، وأزلنا عن قلبه الوحشة وهم لا يشعرون لتنبئنهم بأمرهم هذا ، والأول أقوى وأوجه وأصح . وسياق القصة يشهد له ﴿ **وجاؤوا أباهم عشاءً** ﴾ أي في ظلمة الليل ﴿ **يبكون** ﴾ مظهرين الأسف والجزع والتغمّم لأبيهم على يوسف . والظلمة أستر للمعتذر الكاذب . وأنسب للمتصنّع . قال الأعمش : لاتصدّق باكية بعد إخوة

يوسف . وفي كلمة الأعمش تنبيه كريم للمسلم ألا يكون غراً . ثم قالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا ﴿ **قالوا يأبانا إنا ذهبنا نستبق** ﴾ أي نتسابق في العَدْو ، أو في الرمي ﴿ **وتركنا يوسف عند متاعنا** ﴾ أي ثيابنا وأمتعتنا ﴿ **فأكله الذئب** ﴾ وهو الذي كان قد جزع منه وحذّر منه ﴿ **وما أنت بمؤمن لنا** ﴾ أي بمصدّق ﴿ **ولو كنا صادقين** ﴾ أي ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة فإنك لا تصدقنا لشدة محبتك ليوسف ، فكيف وأنت سيّء الظن بنا غير واثق بقولنا مع أن واقع الحال أننا صادقون ﴿ **وجاؤوا على قميصه بدم كذب** ﴾ أي مكذوب مفترى من أجل أن يؤكدوا ما تمالئوا عليه من المكيدة . ولكن ذلك لم يرج على نبي الله يعقوب . بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه ﴿ **قال بل سوّلت لكم أنفسكم** ﴾ زيّنت أوسهّلت ﴿ **أمراً** ﴾ عظيماً ارتكبتموه ﴿ **فصبر جميل** ﴾ فأمري صبر جميل ، أو فصبر جميل أجمل ، أي فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه حتى يفرّجه الله بعونه ولطفه ، والصبر الجميل : هو مالا شكوى فيه إلى الخلق ﴿ **والله المستعان على ما تصفون** ﴾ أي على الرزء فيه ، أو على ما تذكرون من الكذب والمحال . ثم أخبر تعالى عما جرى ليوسف عليه السلام في الجبّ حين ألقاه إخوته وتركوه في ذلك الجب وحيداً فريداً . ﴿ **وجاءت سيارة** ﴾ أي رفقة تسير ، والسياق يعرّفنا إنها سائرة إلى مصر ﴿ **فأرسلوا واردهم** ﴾ أي الذي يرد الماء ليستقي للقوم ﴿ **فأدلى دلوه** ﴾ أي أرسل الدلو ليملأها ، ويظهر أن يوسف تشبث بالدلو ، فنزعه وأخرجه واستبشر به ﴿ **قال يابشرى** ﴾ وفي قراءة يابشراي ﴿ **هذا غلام وأسرُّوه بضاعة** ﴾ أي وأخفوه متاعاً للتجارة ، إذ البضاعة ما يقطع من المال للتجارة ﴿ **والله عليم بما يعملون** ﴾ أي عليم بما فعل الجميع وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه ، ولكنّ له حكمة وقدراً سابقاً ، وفي هذا درس لرسولنا عليه الصلاة والسلام وأتباعه أن الله عالم بما يصيبهم من الأذى ، وهو قادر على الإنكار . ولكنه سيملي للظالمين ثم يجعل العاقبة والحكم عليهم كما جعل ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته . ﴿ **وشروه بثمن بخس** ﴾ أي وباعوه بثمن مبخوس أي ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً . وهل البائع هنا السيارة في مصر كما تدلّ الآية اللاحقة ، أو إخوة يوسف . قولان للمفسرين . رجح ابن كثير أن البائع هنا إخوته ، وعلّل فقال : لأن قوله ﴿ **وكانوا فيه من الزاهدين** ﴾ إنما أراد أخوته لا أولئك السيارة ، لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة ، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه . فترجح من هذا أن الضمير في شروه إنما هو لإخوته . أقول : والذي رجّحه ابن كثير هو

الذي يتفق مع رواية التوراة الحالية . وقد نقل ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد والضحاك هذا الرأي . ﴿ **دراهم معدودة** ﴾ هذا تفسير للثمن البخس الذي باعوه فيه ، ومعنى معدودة أي قليلة تُعدُّ عدّاً . ولا توزن لقلتها . ورواية التوراة الحالية كما سترى ، أنهم باعوه بعشرين درهماً ﴿ **وكانوا فيه من الزاهدين** ﴾ ومن ثم باعوه بثمن طفيف . ويحتمل أن يكون المعنى واشترى الرفقة يوسف من إخوته ، وكانوا فيه غير راغبين لأنهم اعتقدوا أنه آبق . وأن وجوده في البئر بسبب فراره من أسياده ، وأن أسياده باعوه لهم لأن من طبعه الإباق أي الفرار من أسياده . وقد ذهب قتادة إلى أن الضمائر كلها في الآية تعود على السيارة . والمعنى وباعه السيارة في مصر بثمن بخس ، وكانوا فيه من الزاهدين ، بسبب أنهم في الأصل لم يدفعوا فيه ثمناً ولم يعرفوا له قيمة . ولو كنا نثق برواية التوراة الحالية ما التفتنا إلى تفسير قتادة ، ولكن لعدم ثقتنا بروايتها ذكرناه . لأنه المتبادر إلى الذهن من السياق ولا يترتب على الخلاف عمل ، والعبرة قائمة على أي من المحملين حملنا الآية .

فوائد :

١ – إخوة يوسف كما هم مذكورون في التوراة الحالية :

١ – رأوبين بن ليئة وهو أكبرهم سناً .

٢ – شمعون بن ليئة وهو الثاني في السن .

٣ – لاوي بن ليئة وهو الثالث في السن .

٤ – يهوذا بن ليئة وهو الرابع في السن .

٥ – دان بن بلهة جارية راحيل وهو الخامس في السن .

٦ – نفتالي بن بلهة وهو السادس في السن .

٧ – جاد بن زلفة جارية ليئة وهو السابع في السن .

٨ – أشير بن زلفة وهو الثامن في السن .

٩ – يسّاكر بن ليئة وهو التاسع في السن .

١٠ – زبولون بن ليئة وهو العاشر في السن .

١١ – يوسف بن راحيل وهو الحادي عشر في ترتيب السن .

١٢ – بنيامين بن راحيل وهو أصغر الإخوة على حسب رواية التوراة الحالية وبه ماتت أمه راحيل حين ولادته .

وعلى هذا فإن الشمس والقمر : أبوه وزوجة أبيه .

٢ - في الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين من التوراة الحالية . أن سنّ يوسف عندما حلم أحلامه سبع عشرة سنة ، وفي هذا الإصحاح « فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام » وفي هذا الإصحاح قصة التآمر والتنفيذ مخلوطة بكثير من التحريف ، ومن تأمل الإصحاح وجده يدل على مافيه من تحريف ، فالتآمر والتنفيذ كانا في الإصحاح في ساعة واحدة ، ومع أن الإصحاح يذكر أن رأوبين هو الذي اقترح إلقاءه في البئر ، واقترح ترك قتله ، ومع أنهم نفذوا ذلك مباشرة ، ثم مرّت قافلة الإسماعيليين فاقترح يهوذا ؟ أن يبيعوه . ثم يذكر الإصحاح أن قافلة تجار مديانيين ؟ هي التي أخرجته . ثم يقول الإصحاح : « وباعوا يوسف للإسماعيليين » فهل البائع إخوته كما اقترح يهوذا ، أو البائع المديانيون ؟ ثم يذكر الإصحاح « ورجع رأوبين إلى البئر وإذا يوسف ليس في البئر ، فمزق ثيابه ثم رجع إلى إخوته وقال : الولد ليس موجوداً وأنا إلى أين أذهب » . فكيف يتم التوفيق بين هذا الكلام : الجميع ألقوه في الجب ، ويهوذا يقترح بيعه بعد ذلك ، ثم يباع ، ثم يبحث عنه رأوبين ، فأين كان رأوبين وهو الذي اقترح إلقاءه في البئر ، وباشر معهم التنفيذ والبيع ؟ . ثم يذكر الإصحاح بعد هذا « فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيساً من المعزى وغمسوا القميص في الدم ، وأرسلوا القميص الملوّن وأحضروه إلى أبيهم وقالوا ... » وفي الإصحاح أن يعقوب هو الذي قال إن الوحش قد افترس ابنه وليس فيه شك يعقوب في الأمر ، مع أن فيه رفض يعقوب للتعزية . ويلاحظ أن الرواية تذكر أن القميص قد غمس في الدم ؛ ولا تذكر الرواية أن القميص كان ممزقاً لأنهم خلعوه عن يوسف قبل إلقائه في الجب ، فهل يغيب عن مثل يعقوب أن يتعرف على كون الوحش لم يأكله من خلال القميص . وهكذا نجد أن التحريف يفضح نفسه . فالحمد لله الذي جعل القرآن معصوماً محفوظاً ، وجعله يدل على صدقه وكونه حقاً بألفاظه ومعانيه . فمن قارن ما ذكره القرآن في هذا المقام ، وما تنقله التوراة عرف الحق من الباطل . ولنتقل هذا المقطع من هذا الإصحاح بعد أن رأينا ما فيه ممّا يؤكد ما هو المشهور المعروف أن هذه الأسفار قد جمعت بعد مئات السنين وكتبت من الروايات الشفهية ، فهي لا تساوي - من حيث الثبوت - أمام النقد العلمي شيئاً ، فمن أراد الحق ، فليس أمامه إلا القرآن ، ليعرف الحق الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ولا أدل من ظهور التحريف في هذا الإصحاح بالذات من هذين التعبيرين :

« واجتاز رجال مديانيون تجار فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسماعيليين » .

« وأما المديانيون فباعوه في مصر لفوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط » ففي التعبير الأول كان الإسماعيليين هم المشترين ، وفي التعبير الثاني كان المديانيون هم البائعين في مصر ولرئيس شرطة فرعون . فإذا كنت تجد في صفحة واحدة من التناقضات ما ذكرنا فهل تبقى أيُّ قيمة لروايات هذه الكتب ؟ لقد أنقذ القرآن البشرية من الشك بأصل الوحي . إذ أعطاها الصيغة الكاملة للحق فيما تعرّض له ، فشتان بين كلام الله الذي لم يشب وبين الكلام الذي خالطه ما خالطه ، ومن أجل أن يتضح لك جلال القرآن فاقرأ رواية الأسفار وتذكر مالاحظناه عليها : « فلما أبصروه من بعيد قبلما اقترب إليهم احتالوا له ليميتوه . فقال بعضهم لبعض : هُوَذَا هذا صاحب الأحلام قادم . فالآن هلم نقتله ونطرحه في إحدىٰ الآبار ونقول وحش رديء أكله ، فنرى ماذا تكون أحلامُه فسمع رأوبين وأنقذه من أيديهم ، وقال لا نقتله ، وقال لهم رأوبين : لاتسفكوا دماً . اطرحوه في هذه البئر التي في البرية ولا تمدوا إليه يداً . لكي ينقذه من أيديهم ليردَّه إلى أبيه . فكان لما جاء يوسف إلى إخوته أنهم خلعوا عن يوسف قميصه القميص الملوّن الذي عليه . وأخذوه وطرحوه في البئر . وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء . ثم جلسوا ليأكلوا طعاماً ، فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة إسماعيليين مقبلة من جلعاد ، وجمالهم حاملة كثيراء ، وبلساناً ولاذنا ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر . فقال يهوذا لإخوته : ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفي دمه . تعالوا فنبيعه للإسماعيليين ولاتكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحمنا . فسمع له إخوته . واجتاز رجال مديانيون تجار . فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة ، فأتوا بيوسف إلى مصر . ورجع رأوبين إلى البئر وإذا يوسف ليس في البئر فمزق ثيابه . ثم رجع إلى إخوته وقال الولد ليس موجوداً . وأنا إلى أين أذهب .

فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيساً من المعزى وغمسوا القميص في الدم ، وأرسلوا القميص الملون وأحضرو إلى أبيهم . وقالوا وجدنا هذا . حَقِّقْ أقميص ابنك هو أم لا ؟ فتحققه وقال قميص ابني وحشٌ رديء أكله . افترس يوسف افتراساً . فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحاً على حقويه وناح على ابنه أياماً كثيرة . فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه . فأبى أن يتعزى وقال : إني أنزل إلى ابني نائحاً إلى الهاوية . وبكى عليه أبوه .

وأما المديانيون فباعوه في مصر لفوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط » .

٣ - يذكر بعض المفسرين أثناء قصة يوسف اسم مَنْ أخرج يوسف من البئر وهو اسم عربي ، ويسمون فرعون مصر الذي كان يحكم مصر أثناء بيع يوسف في مصر ويعطونه اسماً عربياً ، وليس في ذلك من دليل لا من كتاب ، ولا سنة ، ولا رواية عربية ، ولا رواية يهودية ، لأن قصة يوسف لم تكن معروفة عند العرب أصلاً ، ولأن الرواية اليهودية لم تذكر شيئاً من هذا ، ولا يترتب على ذكر الاسم من حيث العظة والعبرة شيء ، إلا أن الملاحظ أن رواية التوراة الحالية تذكر اسم الإسماعيليين نسبة إلى إسماعيل عليه السلام فتكون القافلة عربية . أما هل كانت مصر وقتذاك محكومة من قِبَل العرب ؟ .

الذي يذكره قاموس لاروس أن مصر كانت محكومة من قبل الهكسوس من سنة ٢١٦٠ إلى سنة ١٥٨٠ قبل الميلاد ، وأن مجيء بني إسرائيل إلى مصر كان في تلك الفترة ، والهكسوس الذين يسمونهم الرعاة اجتاحوا مصر من فلسطين . فهذا يؤكد أنهم كانوا عرباً . كما يذكر قاموس لاروس أن اليهود قد اضطهدوا في ظل الملوك الوطنيين ، وهذا يعني أن الاضطهاد كان بعد زوال حكم الهكسوس . فإذا كانت التوراة الحالية تذكر أن مدة بقاء بني إسرائيل في مصر كانت (٥٧٠) سنة ، فهذا يعني أن مجيء يوسف إلى مصر كانت بعد فترة من حكم الهكسوس ، فإذا صح أن فرعون موسى كان رعمسيس الثاني الذي تؤكد الوثائق أنه أصدر منشوراً عممه على مصر ، يعلن فيه ألوهيته ، وهذا مما يرجح أنه فرعون موسى . فعندئذ يكون مجيء بني إسرائيل إلى مصر في حوالي سنة (١٧٩٥) قبل الميلاد أي في أواسط حكم الهكسوس . لأن رعمسيس الثاني قد مات كما يذكر قاموس لاروس سنة ١٢٢٥ ق .م فهي إذن سنة الغرق ، وهي سنة الخروج من مصر . والله أعلم .

وعلى كل حال تبقى هناك قضية لاخلاف عليها هي أن مجيء يوسف إلى مصر كان في زمن الهكسوس ، وأن الخروج كان في ظل حكم الوطنيين لمصر ، ومن ثم نلاحظ أن الإصطلاحات التي يذكرها القرآن أثناء الكلام عن يوسف تختلف عنها في غيرها ، فههنا في قصة يوسف تستعمل كلمة الملك ، بينما في قصة موسى تستعمل كلمة فرعون . ونلاحظ أن بعض المفسرين المسلمين ، كما ذكرنا ، يسمون اسم ملك مصر في زمن دخول يوسف إلى مصر اسماً عربياً هو الريان بن الوليد ، ويسمون اسم الذي استخرجه

من البشر اسماً عربياً هو مالك بن الخزاعي . أما من أين أتوا بهذه التسميات ، وما مقدار الثقة بها ؟ فهذا الذي لا نستطيع الجزم بشيء منه ، ولكن أن يكون الذي استنقذه عربياً ، وأن يكون حاكم مصر وقتذاك عربياً فذلك جائز . ينقل ابن كثير عن محمد بن إسحاق أن ملك مصر وقتذاك هو الريان بن الوليد رجل من العماليق . أي من الكنعانيين لأن أرض كنعان كانت تسمى بها فلسطين قديماً . وسكانها هم الكنعانيون والعماليق من الكنعانيين . والذي يذكره قاموس لاروس أن الهكسوس اجتاحوا مصر من قبل أرض كنعان .

٤ – هناك خلاف بين المفسرين حول نبوة إخوة يوسف . فهل هم أنبياء ، وإذا كانوا أنبياء فكيف وقعوا في هذه المعصية ؟ الذين قالوا إنهم أنبياء قالوا كان ذلك قبل النبوة . قال ابن كثير : واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف ، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك ، ومن الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك ، وفي هذا نظر . ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل . ولم يذكروا سوى قوله تعالى ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط** ﴾ (البقرة : ١٣٦) وهذا فيه احتمال لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط ، كما يقال للعرب قبائل ، وللعجم شعوب . يذكر تعالى أنه أوحي إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل ، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون . ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف ، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم . والله أعلم) .

٥ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فصبر جميل** ﴾ ذكر ابن كثير حديثاً مرسلاً هو : سئل رسول الله ﷺ عن قوله ﴿ **فصبر جميل** ﴾ فقال : « صبر لا شكوى فيه » . ونقل عن الثوري قوله « أنه قال : ثلاث من الصبر : أن لا تحدّث بوجعك ، ولا بمصيبتك ، ولا تزكي نفسك » .

٦ – في القسم الذي يتحدث عن يعقوب ويوسف عليهما السلام مما يسمّونه التوراة الحالية كلام مذهل ، يعجب الإنسان كيف يوجد مثله في كتاب ديني يقص الحق للأسوة والعمل إذ فيه حديث عن أن رأوبين بن يعقوب زنى ببلهة سرية أبيه وأم إخوته دان ونفتالي ، وأن يهوذا زنى بكنته زوجة ابنه ، وأن بنت يعقوب دينة بنت ليئة قد زنى بها ابن حمور الحِوّيّ . ومثل هذا الكلام يرد في التوراة الحالية حتى في حق الأنبياء ، وهذا كله يدل على أن اليهود – عليهم اللعنة – الذين هم أجرأ الناس على قتل الأنبياء .

هم أجرأ الناس كذلك على تشويه سمعتهم ، فما أحلى الحق الذي جاءنا به القرآن وما أغضه ، وما أطراه ، وما أسخف من يعرض عنه إلى سواه . ولننتقل إلى المشهد الثالث من قصة يوسف عليه السلام .

☆ ☆ ☆

المشهد الثالث من قصة يوسف عليه السلام

ويمتد من الآية (٢١) إلى نهاية الآية (٣٥) وهذا هو :

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا

قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾

التفسير :

﴿ **وقال الذي اشتراه من مصر** ﴾ وهو عزيز مصر وقتذاك كما سنعرف من السياق ﴿ **لامرأته أكرمي مثواه** ﴾ أي اجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً ، أي حسناً مرضياً .. وقد فسّر الضحاك ذلك بطيب معاشه ولين لباسه . ووطيء فراشه ﴿ **عسى أن ينفعنا** ﴾ أي لعله إذا تدرّب وراض الأمور وفهم مجاريها ، نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله ﴿ **أو نتخذه ولداً** ﴾ أي أو نتبنّاه ونقيمه مقام الولد ﴿ **وكذلك** ﴾ أي وكما أنقذنا

يوسف من إخوته وعطّفنا عليه قلب العزيز ﴿ **مَكَّنَّا ليوسف في الأرض** ﴾ أي أرض مصر وجعلناه يتصرف فيها بأمره ونهيه ﴿ **ولنعلّمه من تأويل الأحاديث** ﴾ أي من تعبير الرؤيا ﴿ **والله غالب على أمره** ﴾ أي فعّال لما يشاء لا يمنعه أحد عما يشاء ﴿ **ولكن أكثر الناس لايعلمون** ﴾ أي لايدرون حكمتهُ في خلقه وتلطفه وفعله لما يريد ﴿ **ولما بلغ** ﴾ أي يوسف ﴿ **أشدّه** ﴾ أي منتهى استعداد قوته أي استكمل عقله وتم خلقه ﴿ **آتيناه حكماً** ﴾ أي حكمة وهو العلم مع العمل ، واجتناب ما يجهل فيه ، أو حكماً بين الناس وفقهاً ﴿ **وعلماً** ﴾ أي آتيناه مع الحكم العلم . وقد فسرهما ابن كثير بأنهما النبوة ﴿ **وكذلك نجزي المحسنين** ﴾ في هذا تنبيه على أنه كان محسناً في عمله ، تقياً في عنفوان أمره ، وفي ذلك بشارة لكل محسن ﴿ **وراودته التي هو في بيتها عن نفسه** ﴾ أي طلبت من يوسف أن يواقعها ، فحاولته على نفسه ودعته إليها ، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لحسنه وجماله وبهائه ؛ فحملها ذلك على أن تتجمّل وتهيء الوسائل للوصول ﴿ **وغلّقت الأبواب وقالت هيتَ لك** ﴾ أي تعال وأقبل ﴿ **قال معاذ الله** ﴾ أي أعوذ بالله معاذاً ﴿ **إنه ربي** ﴾ أي إن الشأن والحديث أنه سيدي ومالكي أي زوجها ﴿ **أحسن مثواي** ﴾ أي أكرمني فما جزاؤه أن أخونه في أهله ﴿ **إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ أي الخائنون أو الزناة ، ويحتمل أن يعود الضمير على الله عز وجل ، والأول أقوى ، ذكّرها بحق سيّده عليه ، ألا يخونه في أهله ، فلعلها تتذكر حق زوجها عليها فلا تخونه ﴿ **ولقد همّتْ به** ﴾ همّ عزم ﴿ **وهَمّ بها** ﴾ همّ طبع بلا عزم ، أو همّ خطرة ، ولا صنع للعبد فيما يخطر بالقلب ولا مؤاخذة عليه . ﴿ **لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ أي رأى آية من آيات الله تزجره عن المطاوعة ﴿ **كذلك** ﴾ أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه ﴿ **لنصرف عنه السوء** ﴾ أي خيانة السيّد ﴿ **والفحشاء** ﴾ أي الزنا ﴿ **إنه من عبادنا** ﴾ أي من جملة عبادنا ﴿ **المخلَصين** ﴾ أي الذين أخلصهم الله لطاعته . أي كما أريناه برهاناً صرّفه عما كان فيه ، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره ؛ إنه من عباد الله المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار ﴿ **واستبقا الباب** ﴾ أي وتسابقا إلى الباب ، هي للطلب ، وهو للهرب . نفر منها يوسف فأسرع يريد الباب ليخرج ، وأسرعت وراءه تمنعه من الخروج ﴿ **وقدّت قميصه من دُبر** ﴾ أي اجتذبته من خلفه فانشق قميصه حين هرب منها إلى الباب ، وتبعته تمنعه ﴿ **وألفيا سيدها لدا الباب** ﴾ أي وصادفا بعلها مقبلاً ، يريد أن يدخل ، فلما رأته احتالت لتبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة ، ولتخويف يوسف طمعاً في أن يواطئها خيفة منها ومن مكرها ﴿ **قالت ما**

جزاء من أراد بأهلك سوءاً ﴾ أي فاحشة ﴿ **إلا أن يسجن** ﴾ أي يحبس ﴿ **أو عذاب أليم** ﴾ أي يضرب ضرباً شديداً موجعاً ، ولم تصرح بذكر يوسف وأنه أراد بها سوءاً لأنها قصدت العموم أي كل من أراد بأهلك سوءاً فحقه أن يسجن أو يعذب ، لأن ذلك أبلغ فيما قصدت من تخويف يوسف . فلمّا عرّضته للسجن والعذاب ووجب عليه الدفع عن نفسه ، ولم يعد مجال للستر عليها وعدم فضيحتها انتصر يوسف عليه السلام لنفسه بالحق ، وتبرأ مما رمته به من الخيانة ﴿ **قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها** ﴾ وفي كونه من أهلها تكون شهادته أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف ، وكانت شهادته ﴿ **إن كان قميصه قُدّ من قُبل** ﴾ أي من قدامه ﴿ **فصدقت** ﴾ أي في قولها إنه راودها على نفسها لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره ، فقدت قميصه ، فيصح ما قالت ﴿ **وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قُدّ من دبر** ﴾ أي من ورائه ﴿ **فكذبت وهو من الصادقين** ﴾ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها وتطلبه أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها ، فقدت قميصه من ورائه ﴿ **فلما رأى** ﴾ زوجها ﴿ **قميصه قُدّ من دبر** ﴾ علم براءة يوسف وصدقه وكذبها ﴿ **قال إنه من كيدكنّ** ﴾ أي إن هذا البهت واللطخ الذي لطخت به عرض هذا الشاب من جملة كيدكن . وقد وجه الخطاب لها ولعامة جنسها ﴿ **إن كيدكُنّ عظيم** ﴾ لأنهن ألطف كيداً ، وأعظم حيلة ، وبذلك يغلبن الرجال . ثم قال آمراً ليوسف عليه السلام بكتمان ما وقع ﴿ **يوسف أعرض عن هذا** ﴾ أي اضرب عن هذا صفحاً ، أي فلا تذكره لأحد ﴿ **واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين** ﴾ أي من جملة القوم المتعمدين للذنب . ويبدو أنه كان ليّناً سهلاً لدرجة أنه لم تثر غيرته ، أو أنه عذرها لأنها رأت مالا صبر لها عنه ، ولم يحدث شيء ، ولا نتوقع ممن يعيشون في الترف ولا دين لهم حاجزاً إلا مثل هذه المواقف ، بل أسوأ منها من الدياثة والقيادة . وما يجري في عصرنا لا يحتاج معه هذا الكلام إلى دليل ﴿ **وقال نسوة في المدينة** ﴾ أي وقالت جماعة من النساء في المدينة التي وقعت فيها الحادثة ﴿ **امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه** ﴾ أي تحاول غلامها عن نفسه وتدعوه إلى نفسها ، لتنال شهوتها منه ﴿ **قد شغفها حُباً** ﴾ أي قد شغفها حبه يعني خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد ﴿ **إنا لنراها في ضلال مبين** ﴾ أي في خطأ واضح وبُعد عن طريق الصواب ، أي في صنيعها هذا من حبها فتاها ، ومراودتها إياه عن نفسه ، وهكذا شاع الخبر وانتشر وذلك دأب ما يجرى في القصور والصالونات — عندما لا يوجد تديّن عندهم — أن رائحة الفضائح لا تزال عابقة فيها ﴿ **فلما**

سمعت ﴾ أي زوجة العزيز ﴿ **بمكرهن** ﴾ أي باغتيابهن لها ، وقولهن ما قلنه ، سُمّيت الغيبة في هذا المقام مكراً لأنها في خفية وحال غيبة كما يخفي الماكر مكره ، أو سمّي قولهن مكراً لأنهن أردن من كلامهن شيئاً آخر . قال محمد بن إسحق : بل بلغهنّ حسن يوسف فأحببن أن يرينه فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ، ومشاهدته ، فعند ذلك ﴿ **أرسلت إليهن** ﴾ أي دعتهن إلى منزلها لتضيفهن ﴿ **وأعتدت** ﴾ وهيأت ﴿ **لهنّ متكئاً** ﴾ أي ما يتكئن عليه من فرش ونمارق ، قصدت بتلك الهيئة وهي قعودهن متكئات ، مسترخيات ، والسكاكين في أيديهن – كما سنرى – أن يدهشن عند رؤيته ، ويشغلن عن نفوسهن ، فيجرحن أيديهنّ وهنّ لا يشعرن ﴿ **وآتت كل واحدة منهن سكيناً** ﴾ وكان هذا مكيدة منها ومقابلة لهنّ في احتيالهن على رؤيته ، دلّ ذلك على أن الترف كان في تلك المرحلة موجوداً . فكون الحاكمين وقتذاك هم الرعاة الهكسوس لم يحل دون أن تغرقهم بصرُف نعمها ﴿ **وقالت اخرج عليهن** ﴾ يبدو أنها كانت قد وضعته في مكان لا يرينه فيه أثناء الدخول والجلوس لتتم المفاجأة ﴿ **فلما رأينه أكبرنه** ﴾ أي أعظمنه وهبن ذلك الحسن الرائق ، والجمال الفائق ﴿ **وقطّعن أيديهنّ** ﴾ أي وجرحنها ، كن يقطعن الطعام الذي في أيديهن فدهشن لمّا رأينه ، فخدشن أيديهن وكأن لسان حالها وقتذاك يقول : أنتن من نظرة واحدة فعلتن هذا ، فكيف ألامُ أنا ؟ ﴿ **وقلن حاش لله** ﴾ تنزيهاً لله من صفات العجز ، وتعجباً من قدرته على خلق جميل مثل يوسف ﴿ **ما هذا بشراً إن هذا إلا ملَك كريم** ﴾ نفين عنه البشرية لغرابة جماله ، وأثبتن له الملكية ، وبتّن بها الحكم لما رُكزَ في الطباع أن لا أحسن من الملك ، كما رُكز فيها أن لاأقبح من الشيطان . وكأن لسان الحال يقول : وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأيناه ﴿ **قالت فذلكنّ الذي لمتنني فيه** ﴾ تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق أن يُحب لجماله وكماله ، ولايُلام من يحب مثله ، هذا منطقها ، وهو منطق من لايحجزها دين ولا عقل ﴿ **ولقد راودته عن نفسه فاستعصم** ﴾ أي بالغ في الامتناع والتحفّظ ، ولايزال مستزيداً منهما ، ثم قالت تتوعده ﴿ **ولئن لم يفعل ما آمره** ﴾ من إعطائي مرادي منه ﴿ **ليسجنّ وليكوناً من الصاغرين** ﴾ أي من المذلّين المهانين ، مع السُّراق والسُّفاك والأُبّاق في السجن ، كما سرق قلبي وأبق مني وسفك دمي بالفراق ، فلا يهنأ له ثم طعام أم شراب أو نوم ، كما منعني هنا كل ذلك . ومَن لم يرض بمثلي في الحرير على السرير أميراً ، فليكن في السجن على الحصير حسيراً . فلما سمع يوسف تهديدها ﴿ **قال رب السجن أحبُ إليّ مما يدعونني إليه** ﴾ أي من ركوب المعصية أي الفاحشة ، ولم قال يدعونني

والسياق لم يذكر غيرها يبدو أنه رأى رغبة الجميع به ، وإجماع الجميع على أنّ عليه أن يرحم سيدته فيعطيها مرادها وهو منطق الناس إذا لم يكن إيمان ﴿ **وإلا تصرف عني كيدهن أصْبُ إليهن** ﴾ أي أميل إليهن ، والصبوة: الميل إلى الهوى ، ومنه الصبا لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها ﴿ **وأكن من الجاهلين** ﴾ أي من الذين لايعملون بما يعلمون لأن من لا جدوى لعلمه فهو ومن لم يعلم سواء أو من السفهاء ، وهكذا فزع إلى الله في طلب العصمة ، مبيناً أنه إن وكل إلى نفسه فليس له في محنة الجمال طاقة إن استمر الامتحان . واختار السجن على سعير امتحان الشهوة ، فما أصعب هذا الامتحان ، وما أكمل يوسف عليه السلام ، إذ أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته وهي امرأة عزيز مصر ، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة ، ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله ورجاء ثوبته . ﴿ **فاستجاب له ربه** ﴾ أي أجاب دعاءه ﴿ **فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع** ﴾ لدعوات الملتجئين إليه ﴿ **العليم** ﴾ بكل حال ﴿ **ثم بَدَاهم** ﴾ أي ثم ظهر لهم من المصلحة ﴿ **من بعد ما رأوا الآيات** ﴾ وهي الشواهد على براءته ، كقدّ القميص ، وشهادة الشاهد ، وجرح الأيدي ، وغير ذلك . ﴿ **ليسجُنُنَّه حتى حين** ﴾ أي إلى زمان ، فكأنها اقترحت أن يسجن زماناً حتى تبصر ما يكون منه ، وطاوعها زوجها لإبداء عذر الحال ، وإرخاء الستر على القيل والقال ، وللإيهام أنهم سجنوه لأنه راودها عن نفسها ، وإنهم سجنوه لذلك ، ولهذا نلاحظ أن يوسف عليه السلام امتنع فيما بعد من الخروج إلا بعد إثبات البراءة ، وماكان سجنه - والله أعلم - إلا باستنزال المرأة زوجها المطواع على رأيها . قال النسفي : وقد طمعت أن يذلله السجن ويسخره لها ، أو خافت عليه العيون ، وظنت فيه الظنون ، فألجأها الخجل من الناس والوجل من اليأس إلى أن رضيت بالحجاب مكان خوف الذهاب لتشتفي بخبره إذا منعت من نظره أ هـ . أقول : ومن ثم لم تقترح في الأصل إلا السجن أو العذاب ، ولم تذكر القتل وهذا يدّل على تمكّن الحب .

فوائد :

١ - هذه الآيات من سورة يوسف يقابلها فيما يسمونه التوراة الحالية الإصحاح التاسع والثلاثون من سفر التكوين ، وفيه أن فوطيفار خصي فرعون ورئيس الشُرط هو الذي اشترى يوسف وسلّمه شئون البيت ، وفيه مراودة امرأته ليوسف ورَفْض يوسف وجوابه لها (هو ذا سيدي لايعرف معي ماني البيت وكل ماله قد دفعه إلى يدي ليس هو

في هذا البيت أعظم مني ولم يمسك عني شيئاً غيرك لأنك امرأته فكيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطىء إلى الله) والملاحظ أن هذا المعنى سجله القرآن ﴿ **إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ فتأمل عظمة هذا القرآن ، إذ يأتي بأعظم المعاني وأغزرها وأصدقها بأوجز تعبير وألطفه وأدقه وأصدقه ، ثم إن الإصحاح لا يحدثنا عن كثير من التفصيلات ، وإن كان يحدثنا بإجمال عن خلو البيت مرة ، وإمساكها يوسف وهربه منها . وفي الإصحاح غلط وخطأ وكذب وعدم دقة ونقص . لاتخفى على المتأمل ومن أمثالها نعرف نعمة الله إذ أنزل هذا القرآن فيه بيان وتفصيل لكل شيء ، ومن مثل هذا نعرف كيف أن هذه السورة جاءت لتحقق إقامة الحجة على إعجاز هذا القرآن من خلال هذا العرض الصادق والعجيب لقصة يوسف عليه السلام .

٢ - نلاحظ أن التوراة الحالية لم تذكر اسم زوجة سيد يوسف إلا أن المفسرين المسلمين يذكرون أن اسمها زليخا ، وبعضهم يسميها راعيل . وذكر ابن إسحاق أن زليخا كانت أخت الملك الريان بن الوليد ، وليس هناك من مصدر لمثل هذا إلا روايات أهل الكتاب المعاصرين للمفسرين وكثير منها لايصح الاتكاء عليه أصلاً .

٣ - عند قوله تعالى ﴿ **وقالت هيت لك** ﴾ يقف المفسرون وقفات طويلة فلتراجع ، وقد اخترنا في شأنها ما حكاه الكسائي أنها لغة لأهل حوران وقعت لأهل الحجاز ومعناها تعال : وفي الكلمة قراءات أخرى ونحن في هذا الكتاب نمشي على قراءة حفص .

٤ - وعند قوله ﴿ **وهمّ بها** ﴾ كلام كثير للمفسرين وهم متفقون بأن همه غير همها ، همها عزم ، فما هو همّه ؟ سنرى الجواب وقد ذهب بعضهم إلى أن الهم لم يحدث أصلاً واعتبروا أن قوله تعالى ﴿ **وهمّ بها** ﴾ متصل بما بعده ﴿ **وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ أي لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها همّ طبع ، ولكنّه رأى برهان ربه فلم يهم ، إلا أن بعضهم يرفض هذا الرأي لأن علماء العربية لايرون أن مثل هذا الوجه يقبله استقراء لغة العرب ، وبعضهم قال همّ بها ، أي هم بضربها ، وأجود شيء أن يحمل همه على أنه خطرة نفس لم يقبلها قلبه ، فهي من نوع الهمّ الموجود في الحديث المخرج في الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى : إذا همّ عبدي بحسنة فاكتبوها حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشرة أمثالها ، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإنما تركها من جرّائي ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها » .

٥ – وفي تفسير (البرهان) في قوله تعالى : ﴿ **لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ كلام كثير للمفسرين كذلك ، وليس في هذا الكلام الكثير من شيء يمكن أن يكون قاطعاً في هذا الموضوع ، والتوراة الحالية ساكتة عن مثل هذا وأكثر المفسرين على أنه رأى صورة أبيه يعقوب عاضاً على إصبعه بفمه . ذكر ذلك ابن كثير عن ابن عباس ، وسعيد ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن سيرين ، والحسن ، وقتادة ، وأبي صالح ، والضحاك ، ومحمد بن إسحق وغيرهم . إلا أن الذي يرجحه النسفي أن البرهان هو النظر في دلائل التحريم . ذكر ذلك بعد أن ذكر القول الذي يورده بعضهم في معرض : أنه همّ بها فأراه الله صورة يعقوب ... قال : (ويدل على بطلانه قوله : ﴿ **هي راودتني عن نفسي** ﴾ ولو كان ذلك منه أيضاً لما برّأ نفسه من ذلك ، وقوله ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء** ﴾ ولو كان كذلك لم يكن السوء مصروفاً عنه . وقوله ﴿ **ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب** ﴾ ولو كان كذلك لخانه بالغيب . وقوله ﴿ **ما علمنا عليه من سوء** ﴾ ﴿ **الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين** ﴾ ولأنه لو وجد منه ذلك لذكرت توبته واستغفاره كما كان لآدم ونوح وذي النون وداود عليهم السلام . وقد سمّاه الله مخلَصاً ، فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام وجاهد نفسه مجاهدة أولي العزم ناظراً في دلائل التحريم حتى استحق من الله الثناء . قال ابن جرير : والصواب أن يقال إنه رأى آية من آيات الله تزجره عما كان همّ به . وجائز أن يكون صورة يعقوب وجائز أن يكون صورة الملك ، وجائز أن يكون مارآه مكتوباً من الزجر عن ذلك ، ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك ، قال ابن كثير : فالصواب أن نطلقه كما قال الله تعالى) .

٦ – يختار ابن جرير أن الشاهد الذي شهد ليوسف كان صبياً في المهد . ويختار غيره أنه كان رجلاً . قال ابن كثير بعد أن نقل كلام ابن جرير وقد ورد منه حديث مرفوع ، فقال ابن جرير ... عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « تكلم أربعة وهم صغار » فذكر فيهم شاهد يوسف ، ورواه غيره عن حماد بن سلمة عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : « تكلم أربعة صغار : ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم » للألوسي تحقيق عند قوله تعالى ﴿ **وشهد شاهد من أهلها** ﴾ ننقله كله لما فيه من فوائد ، قال :(ذهب جمع إلى أنه كان ابن خالها ، وكان طفلا في المهد أنطقه الله تعالى ببراءته عليه السلام ، فقد ورد عنه ﷺ « تكلم أربعة في المهد وهم صغار : ابن ماشطة ، ابنة فرعون ،

وشاهد يوسف عليه السلام . وصاحب جريج . وعيسى ابن مريم عليهما السلام » وتعقب ذلك الطيبي بقوله : يرده دلالة الحصر في حديث الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى ابن مريم ، وصاحب جريج ، وصبي كان يرضع من أمه فمرّ راكب حسن الهيئة فقالت : أمه اللهم أجعل ابني مثل هذا فترك الصبي الثدي ، وقال اللهم لاتجعلني مثله » ا . هـ ، ورده الجلال السيوطي فقال . هذا منه جار على عادته من عدم الاطلاع على طرق الأحاديث ، والحديث المتقدم صحيح أخرجه أحمد في مسنده . وابن حِبّان في صحيحه . والحاكم في مستدركه وصححه من حديث ابن عباس ، ورواه الحاكم أيضاً من حديث أبي هريرة ، وقال صحيح على شرط الشيخين ، وفي حديث الصحيحين المشار إليه آنفاً زيادة على الأربعة « الصبي الذي كان يرضع من أمه فمر راكب » الخ فصاروا خمسة وهم أكثر من ذلك ، ففي صحيح مسلم تكلم الطفل في قصة الأخدود ، وقد جمعت من تكلم في المهد فبلغوا أحد عشر ، ونظمتها فقلت :

تكلم في المهد النبي محمد ويحيى وعيسى والخليل ومريم
ومبرى جريج ثم شاهد يوسف وطفل لذي الأخدود يرويه مسلم
وطفل عليه مُرّ بالأمة التي يقال لها تزني ولا تتكلم
وما شطة في عهد فرعون طفلها وفي زمن الهادي المبرك يختم

ا هـ ، وفيه أنه لم يُرد الطيبي الطعن على الحديث الذي ذكر كما توهم ، وإنما أراد أن يبين أن الحديث الدال على الحصر وغيره تعارضا وذلك يحتاج إلى التوفيق .

٧ - ورد أكثر من حديث يتكلم عن حُسن يوسف ، ومن ذلك ما ورد في الحديث الصحيح في حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مرّ بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة . قال : « فإذا هو قد أُعطي شطر الحسن » وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعطي يوسف وأمه شطر الحسن » قال السهيلي : معناه أن يوسف عليه السلام كان على النصف من حسن آدم عليه السلام ، فإن الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها ، ولم يكن في ذريته من يوازيه في جماله ، وكان يوسف قد أُعطى شطر حسنه . أقول : قال بعضهم لقد أُعطي محمد ﷺ الحسن كله . فليوسف شطره ، ولمحمد ﷺ كله :

وأجمل منك لم ترَ قط عيني وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأً من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاءُ

٨ - بمناسبة استعصام يوسف عليه السلام يورد ابن كثير الحديث الوارد في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه مُعلّق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال إني أخاف الله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

ملاحظات :

١ - من قصة يوسف تعرف أن أفظع فتنة يمكن أن تمر بإنسان هي فتنة الجمال ، ومن ثم نلاحظ أن يوسف استقبل الإلقاء في البئر بصبر ، واستقبل العبودية بصبر ، واستقبل السجن بصبر ، ولكنه شكا هذه الشكوى الحارة عندما تعرض لفتنة الجمال ، قال ﴿ **وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين** ﴾ وقال قبل ذلك : ﴿ **رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه** ﴾ ففتنة الجمال هي الفتنة التي تعصف برأس الحكيم ؛ ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام « ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء » .

٢ - إن كثيراً من الناس يتساهلون في إدخال أنواع من الرجال إلى بيوتهم بحيث يكون بين هؤلاء الرجال والنساء علاقة : من ذلك من يوصل الحاجيات إلى البيوت ، أو أصدقاء الرجل ، أو غير ذلك من خادم وتابع ، وفي كل صورة من هذه الصور نوع تعرض وتعريض للفتنة ، إلا إذا ضبطت هذه الأمور ضوابطُ الشرع .

٣ - من المعروف عن العرب شدة الحمية في شأن العرض وخاصة في بيوتاتهم الكريمة ، فإذا لاحظنا هذا الموقف الذي وقفه عزيز مصر من زوجته مع افتراض أنه هكسوسي فهذا يدعونا إلى افتراض أن النفسية الحاكمة وقتذاك قد داخلها من الترف والفساد ، ما أفقدها خصائصها الأصيلة ، وهذا لا يكون إلا إذا كان الترف والفساد قد استمر أكثر من جيل . وهذا يدعونا إلى أن نستأنس في أن مجيء يوسف كان - تقريباً - في أواسط حكم الهكسوس لمصر ، إذ يكون هذا الترف والفساد بدأ ينخر النظام حتى سقط في النهاية بعد حوالي قرنين ونيف من مجيء يوسف وبني إسرائيل إلى مصر . ومن خلال تسجيلنا لهذه الملاحظة المستمَدة من قصة يوسف في القرآن ، ومما عرفناه مما لم يذكره القرآن ، ندرك كيف أن إعجاز هذا القرآن لا يتناهى ، وندرك كيف أن شيئاً ما

لايمكن أن ينقض حرفاً من القرآن ، وندرك كيف أن سورة يوسف فيها دليل ودليل على إعجاز القرآن بطريقة مفردة . وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن محورها من سورة البقرة هو قوله تعالى ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله** ﴾ .

☆ ☆ ☆

المشهد الرابع

ويمتد من الآية (٣٦) إلى نهاية الآية (٤٢) وهذا هو :

وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ

خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

التفسير :

﴿ **ودخل معه السجن فتيان** ﴾ تحدد التوراة الحالية أنهما ساقي الملك وخبازه ﴿ **قال أحدهما** ﴾ أي الساقي ﴿ **إني أراني** ﴾ أي في المنام ﴿ **أعصر خمراً** ﴾ أي عنباً ، وهي إما من باب تسمية العنب بما يؤول إليه ، أو على لغة أهل عُمان . إذ يسمّون العنب خمراً ﴿ **وقال الآخر** ﴾ أي الخباز ﴿ **إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله** ﴾ أي أخبرنا بتأويل ما رأيناه ﴿ **إنا نراك من المحسنين** ﴾ أي من الذين يحسنون تعبير الرؤيا ، أو من المحسنين في العمل إلى أهل السجن ﴿ **قال لايأتيكما طعام ترزقانه** ﴾ في يومكما ﴿ **إلا نبأتكما بتأويله** ﴾ أي ببيان ما هيته وكيفيته ﴿ **قبل أن يأتيكما ذلكما** ﴾ أي التأويل والإخبار بالمغيبات ﴿ **مما علمني ربي** ﴾ أي مما أوحى به إليّ ربي ، ولم أقله عن تكهن وتنجم ﴿ **إني تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون** ﴾ هذا تعليل لما قبله . أي علمني ذلك وأوحى به إليّ لأني رفضت واجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر ، فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد ﴿ **واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب** ﴾ أي هجرت طريق الكفر والشرك وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى واتبع طريق المرسلين ، وأعرض عن طريق الضالين فإن الله يهدي قلبه ويعلمه مالم يكن يعلم ، ويجعله إماماً يقتدى به في الخير ، وداعياً إلى سبيل الرشاد ﴿ **ما كان لنا** ﴾ أي ما صح لنا معشر الأنبياء ﴿ **أن نشرك بالله من شيء** ﴾ صنماً كان أوغيره ﴿ **ذلك** ﴾ أي التوحيد ﴿ **من فضل الله علينا** ﴾ إذ أوحاه إلينا وأمرنا به ﴿ **وعلى الناس** ﴾ إذ جعلنا دُعاة لهم إلى ذلك ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يشكرون** ﴾ فضل الله ، فيشركون به ولا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم فيتبعونهم ، وهكذا لما استعبراه ووصفاه بالإحسان ، اتخذها فرصة فوصف نفسه بما هو فوق علم

العلماء ، وهو الإخبار بالغيب ، وأنه ينبئهما بما يُحمَل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما ، ويصفه لهما ، فيقول اليوم يأتيكما طعام كذا وطعام كذا . فيكون كذلك ، ثم ذكر الآباء ليريهما أنه من بيت النبوة ، بعد أن عرّفهما أنه نبي يوحى إليه بما ذكر من أخبار الغيوب ، ليقوي ثقتهما به ، وجعل ذلك كله تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد كما سيأتي ، ويعرض عليهما الإيمان ويزيّنه لهما ويقبّح إليهما الشرك . قال النسفي : وفيه أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده ، وغرضه أن يقتبس منه لم يكن من باب التزكية .

فائدة :

روى ابن أبي حاتم عن عطاء عن ابن عباس أنه كان يجعل الجد أباً (أي في الإرث) ويقول : والله لمن شاء لاعنته عند الحجر ماذكر الله جَدّاً ولاجدّة . قال الله تعالى يعني إخباراً عن يوسف : ﴿ **واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ...** ﴾ .

....

ولنعد إلى السياق . فبعد هذه المقدمة التي قدمها يوسف أقبل على الفتيين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وخلع ماسواه من الأوثان التي يعبدها قومهما ، فقال : ﴿ **ياصاحبي السجن** ﴾ في هذا النداء خطاب لهما بصفة صحبة المكان إيناساً لهما ﴿ **أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** ﴾ الذي ذل كل شيء لعز جلاله ، وعظمة سلطانه ، أي أأن تكون لكما أرباب شتى يستعبدكما هذا ويستعبدكما هذا خير لكما ، أم أن يكون لكما رب واحد قهار لا يغالب ولا يشارك في الربوبية ؟! ﴿ **ماتعبدون** ﴾ أنتما وأمثالكما ممن على دينكما ﴿ **من دونه** ﴾ أي من دون الله ﴿ **إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان** ﴾ أي من حجة ولا برهان والمعنى سمّيتم مالا يستحق الألوهية آلهة ، ثم طفقتم تعبدونها فكأنكم لاتعبدون إلا أسماء لا مسمّيات لها ما أنزل الله بتسميتها حجة ﴿ **إن الحكم إلا لله** ﴾ أي ماالحكم في أمر العبادة والدين إلا لله ، ثمّ بين ماحكم به فقال : ﴿ **أمر ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾ فكل نوع من أنواع العبادة يؤدى لغيره شرك وكفر وضلال ﴿ **ذلك الدين القيّم** ﴾ أي الثابت الذي دلّت عليه البراهين . والمعنى:هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد وإخلاص العمل لله هو الدين المستقيم الذي أمر الله به ، وأنزل فيه الحجة والبرهان والذي يحبه ويرضاه ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ فلهذا كان أكثرهم مشركين ، وهكذا جعل سؤالهما

سبباً إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام ، لما رأى في سجيتهما من قبول الخير ، والإقبال عليه . والإنصات إليه ، ولما فرغ من دعوتهما شرع في تعبير رؤياهما من غير تكرار سؤال فقال : ﴿ **ياصاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً** ﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً ، ولكنه لم يعينه لئلا يحزن ذاك ، ولهذا أبهمه ﴿ **وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه** ﴾ وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً ، ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه ، وهو واقع لا محالة ﴿ **قُضيَ الأمر الذي فيه تستفتيان** ﴾ أي قطع وتمّ ما تستفتيان فيه من أمركما وشأنكما ﴿ **وقال للذي ظَنّ أنه ناج منهما** ﴾ الظان هو يوسف عليه السلام ، فإن كان تأويله بطريق الاجتهاد فالظن على حقيقته ، وإن كان بطريق الوحي فالظن بمعنى اليقين ، وكان كلامه للناجي في ظنه ، وهو الساقي ، ويبدو أنه قال ذلك خفية عن الآخر لئلا يشعره أنه هو المطلوب ﴿ **اذكرني عند ربك** ﴾ أي اذكر قصتي عند ربك ، وهو الملك ، وصفني بصفتي ، وقصّ عليه قصتي لعله يرحمني ويخلصني مما أنا فيه ﴿ **فأنساه الشيطان ذكرَ ربه** ﴾ أي فنسي ذلك الموصْى أن يذكّر مولاه الملك بذلك ، وكان ذلك النسيان من جملة مكايدة الشيطان لئلا يخرج نبي الله من السجن ﴿ **فلبث في السجن بضع سنين** ﴾ أي مكث في السجن بضع سنين ، والبضع ما بين الثلاث إلى التسع . وأكثر المفسرين على أن مدّة مكثه سبع سنين . وبهذا ينتهي المشهد .

فوائد :

١ - هذا المشهد الذي مرّ معنا موجود في التوراة الحالية في الإصحاح الأربعين من سفر التكوين . ولكن شتان بين العرضين وليس لنا ما نأخذه من هذا الإصحاح إلا أن هناك قضية خلافية بين المفسرين حول قوله تعالى : ﴿ **فأنساه الشيطان ذكر ربه** ﴾ . هل الضمير يعود على يوسف أو على الساقي والراجح عن مفسرينا أن الضمير يعود على الساقي ، والتوراة الحالية ترجح هذا الاتجاه إذ تقول : (ولكن لم يذكر رئيس السقاة يوسف بل نسيه) كما أن في هذا الإصحاح كلام يوسف للساقي (وتذكرني لفرعون وتخرجني من هذا البيت لأني قد سرقت من أرض العبرانيين وهنا أيضاً لم أفعل شيئاً حتى وضعوني في السجن) وليس في الإصحاح دعوة يوسف للساقي وزميله ، وليس في الإصحاح ذكر للسبب الذي به سجنا سوى أنهما أذنبا . وبعض المفسرين المسلمين يذكر أن سبب سجنهما توهّم فرعون أنهما تمالآ على سمّه في طعامه وشرابه ، وفي الإصحاح مزيد تفصيل حول الرؤيا وتعبيرها ، وفيه تصريح بأن يوسف واجه كلاً من

الاثنين بتعبير رؤياه صراحة ، وبهذه المناسبة نقول : إن من يتأمل هذا المشهد ويقارنه بما ورد في هذا الشأن في سفر التكوين يجد في هذا المشهد وحده معجزة ، فإصحاح سفر التكوين لاتكاد تجد فيه أي مظهر من مظاهر النبوة وهديها وكلامها ودعوتها ، بينما تجد القرآن يذكر لك الموضوع كأنك تراه بكل حيثياته المادية ، وبكل مايدل على شخصية يوسف كما هي في نبوتها وما يليق بهذه النبوة من هدى . وللمقارنة ننقل الإصحاح كله . الإصحاح الأربعين : (وحدث بعد هذه الأمور أن ساقي ملك مصر والخباز أذنبا إلى سيدهما ملك مصر ، فسخط فرعون على خصيّيه رئيس السقاة ورئيس الخبازين ، فوضعهما في حبس بيت رئيس الشرط في بيت السجن المكان الذي كان يوسف محبوساً فيه . فأقام رئيس الشرط يوسف عندهما فخدمهما ، وكانا أياماً في الحبس . وحلما كلاهما حلماً في ليلة واحدة كل واحد حلمه كل واحد بحسب تعبير حلمه . ساقي ملك مصر وخبازه المحبوسان في بيت السجن . فدخل يوسف إليهما في الصباح ونظرهما وإذا هما مغتمان . فسأل خصيي فرعون اللذين معه في حبس بيت سيده قائلاً لماذا وجهاكما مكمدان اليوم : فقالا له حلمنا حلماً وليس من يعبّره . فقال لهما يوسف أليست لله التعابير . قصّا علي . فقصّ رئيس السقاة حلمه على يوسف وقال له كنت في حلمي وإذا كرمة أمامي . وفي الكرمة ثلاثة قضبان وهي إذا أفرخت طلع زهرها وأنضجت عناقيدها عنباً . وكانت كأس فرعون في يدي ، فأخذت العنب ، وعصرته في كأس فرعون وأعطيت الكأس في يد فرعون . فقال له يوسف هذا تعبيره . الثلاثة القضبان هي ثلاثة أيام . في ثلاثة أيام أيضاً يرفع رأسك ويردك إلى مقامك ، فتعطي كأس فرعون في يده كالعادة الأولى حين كنت ساقيه . وإنما إذا ذكرتني عندك حينما يصير لك خير تصنعه إلي إحساناً وتذكرني لفرعون وتخرجني من هذا البيت لأني قد سُرقت من أرض العبرانيين . وهنا أيضاً لم أفعل شيئاً حتى وضعوني في السجن .

فلما رأى رئيس الخبازين أنه عبّر جيداً قال ليوسف كنت أنا أيضاً في حلمي ، وإذا ثلاثة سلال حُوَّارَى على رأسي . وفي السل الأعلى من جميع طعام فرعون من صنعة الخباز . والطيور تأكله من السل عن رأسي . فأجاب يوسف وقال : هذا تعبيره ، الثلاثة السلال هي ، ثلاثة أيام . في ثلاثة أيام أيضاً يرفع فرعون رأسك عنك ويعلقك على خشبة وتأكل الطيور لحمك عنك .

فحدث في اليوم الثالث يوم ميلاد فرعون أنه صنع وليمة لجميع عبيده ورفع رأس رئيس السقاة ورأس رئيس الخبازين بين عبيده . ورد رئيس السقاة إلى سقيه . فأعطى

الكأس في يد فرعون . وأما رئيس الخبازين فعلقه كما عبر لهما يوسف . ولكن لم يذكر رئيس السقاة يوسف بل نسيه) .

٢ - عندما ذكر الله لنا في سورة الأنعام أسماء ثمانية عشر رسولاً ذكر هناك من جملتهم يوسف عليه السلام . ثم بعد ذلك قال الله عز وجل ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾ وعلى هذا فيوسف عليه السلام قدوة ، وهذا المشهد الذي مرّ معنا يعطينا إذن القدوة لمن ابتلي بالسجن ، ومما نلاحظه في هذا الموضوع أن يوسف عليه السلام كان محسناً في سجنه ، وإن إحسانه كان عاماً مع أنّ مَنْ حوله كانوا مشركين ، وأنه كان لايترك فرصة تمر إلا ويدعو فيها إلى الله . وقد استنتج بعض المفسرين أن يوسف عليه السلام كان في السجن مشتهراً بالجود والأمانة ، وصدق الحديث ، وحسن السمت ، وكثرة العبادة ، ومعرفة التعبير ، والإحسان إلى أهل السجن ، وعيادة مرضاهم ، والقيام بحقوقهم . ونلاحظ أن يوسف عليه السلام لم يستنكف أن يقول لساقي الملك ﴿ **اذكرني عند ربك** ﴾ ولكنه طلبٌ جميل وبأسلوب عفيف .

٣ - التوراة الحالية تذكر أن سن يوسف عندما ألقاه إخوته في البئر كان سبعة عشر عاماً ، وتذكر أنه عندما خرج من السجن كان سنه ثلاثين سنة . وتذكر أنه بقي سنتان بعد خروج الساقي من السجن . فإذا اعتبرنا رأي أكثر المفسرين أن مدة سجنه كانت سبع سنين تكون المسألة على الشكل التالي : أن المراودة كانت وسنه ثلاث وعشرون ، وأن رؤيا الفتيين كانت وسنه ثمانية وعشرون سنة ، وعلى هذا فإن رواية التوراة الحالية تفيد أنه بقي في السجن سبع سنين وليس في المسألة نص قاطع .

٤ - هناك اتجاه للمفسرين أن الرؤيين للفتيين كانتا مختلقتين ، ورواية التوراة الحالية ترجح الرأي الآخر كما رأينا وهو الرأي الذي يقول : إنهما رؤييان حقيقة وهو ما نرجحه .

٥ - بمناسبة قول يوسف عليه السلام بعد تعبيره الرؤيين ﴿ **قُضِيَ الأمر الذي فيه تستفتيان** ﴾ يذكر ابن كثير الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ « الرؤيا على رجل طائر مالم تُعبَّر فإذا عُبّرت وقعت » . وفي مسند أبي يعلى عن أنس مرفوعاً « الرؤيا لأول عابر » أي : تقع كما يفسرها أول مفسر . أقول : على شرط أن يكون المعبِّر يُعبِّر عن علم لا عن جهل .

٦ - قصة يوسف عليه السلام تعتبر ركنا من أركان علم التعبير لأن فيها أربع رؤى وتعبيراتها ، ولقد قاس المعبّرون على ذلك واستنبطوا قواعد ، واستخرجوا أسساً بنوا عليها علم التعبير ، والملاحظ : أن علم التعبير عند المسلمين هو أوسع منه عند غيرهم ، فلقد كتب علماء المسلمين في هذا الموضوع الكتب المطوّلة وأساس ذلك كله ماورد في الكتاب والسنة من تأويل الرؤى .

نقل عن الظلال :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن الحكم إلا لله . أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ قال صاحب الظلال :

(إن الحكم لايكون إلا لله ، فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته . إذ الحاكمية من خصائص الألوهية . من ادّعى الحق فيها فقد نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته ؛ سواء ادعى هذا الحق فرد ، أو طبقة ، أو حزب ، أو هيئة . أو أمة ، أو الناس جميعاً في صورة منظمة عالمية . ومن نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته ، وادّعاها فقد كفر بالله كفراً بواحاً ، يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة ، حتى بحكم هذا النص وحده .

وادعاء هذا الحق لايكون بصورة واحدة هي التي تخرج المدّعي من دائرة الدين القيم ، وتجعله منازعاً في أولى خصائص ألوهيته - سبحانه - فليس من الضروري أن يقول : ما علمت لكم من إله غيري . أو يقول : أنا ربكم الأعلى . كما قالها فرعون جهرة . ولكنه يدعي هذا الحق وينازع الله فيه بمجرد أن ينحّي شريعة الله عن الحاكمية ، ويستمد القوانين من مصدر آخر . وبمجرد أن يقرر أن الجهة التي تملك الحاكمية - أي التي تكون هي مصدر السلطات - جهة أخرى غير الله سبحانه .. ولو كان هو مجموع الأمة أو مجموع البشرية . والأمة في النظام الإسلامي هي التي تختار الحاكم فتعطيه شرعية مزاولة الحكم بشريعة الله ، ولكنها ليست هي مصدر الحاكمية التي تعطي القانون شرعيته . إنما مصدر الحاكمية هو الله . وكثيرون حتى من الباحثين المسلمين يخلطون بين مزاولة السلطة وبين مصدر السلطة . فالناس بجملتهم لايملكون حق الحاكمية إنما يملكه الله وحده . والناس إنما يزاولون تطبيق ما شرعه الله بسلطانه ، أما مالم يشرعه الله فلا سلطان له ولا شرعية ، وما أنزل الله به من سلطان .

ويوسف - عليه السلام - يعلل القول بأن الحكم لله وحده فيقول : ﴿ **أمر ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾ . ولا نفهم هذا التعليل كما كان يفهمه الرجل العربي إلا حين ندرك معنى « العبادة » التي يختص بها الله وحده .

إن معنى عَبَد في اللغة : دان ، وخضع ، وذل ... فعندما نزل هذا النص أول مرة كان المقصود به هو الدينونة لله وحده ، والخضوع له وحده ، واتباع أمره وحده ، سواء تعلق هذا الأمر بشعيرة تعبّدية ، أو تعلق بتوجيه أخلاقي ، أو تعلق بشريعة قانونية . فالدينونة لله وحده في هذا كله هي مدلول العبادة التي خصّ الله - سبحانه - بها نفسه ، ولم يجعلها لأحد من خلقه .

وحين نفهم معنى العبادة على هذا النحو نفهم لماذا جعل يوسف - عليه السلام - اختصاص الله بالعبادة تعليلاً لاختصاصه بالحكم . فالعبادة - أي الدينونة - لا تقوم إذا كان الحكم لغيره . وسواء في هذا حكمه القدري القهري في حياة الناس وفي نظام الوجود ، وحكمه الشرعي الإرادي في حياة الناس خاصة . فكله حكم تتحقق به الدينونة .

ومرة أخرى نجد أن منازعة الله الحكم تخرج المنازع من دين الله - حكماً معلوماً من الدين بالضرورة - لأنها تخرجه من عبادة الله وحده .. وهذا هو الشرك الذي يخرج أصحابه من دين الله قطعاً . وكذلك الذين يقرون المنازع على ادعائه ، ويدينون له بالطاعة وقلوبهم غير منكرة لاغتصابه سلطان الله وخصائصه .. فكلهم سواء في ميزان الله . ويقرر يوسف - عليه السلام - أن اختصاص الله - سبحانه - بالحكم تحقيقاً لاختصاصه بالعبادة . هو وحده الدين القيم : ﴿ **ذلك الدين القيم** ﴾ . وهو تعبير يفيد القصر . فلا دين قيمٌ سوى هذا الدين ، الذي يتحقق فيه اختصاص الله بالحكم ، تحقيقاً لاختصاصه بالعبادة . ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ .

وكونهم « لايعلمون » لايجعلهم على دين الله القيم . فالذي لايعلم شيئاً لايملك الاعتقاد فيه ولا تحقيقه .. فإذا وجد ناس لا يعلمون حقيقة الدين ، لم يعد من الممكن عقلاً وواقعاً وصفهم بأنهم على هذا الدين . ولم يقم جهلهم عذراً لهم يسبغ عليهم صفة الإسلام . ذلك أن الجهل مانع للصفة ابتداء . فاعتقاد شيء فرع عن العلم به .. وهذا منطق العقل والواقع .. بل منطق البداهة الواضح) ولننتقل إلى المشهد الخامس في القصة .

المشهد الخامس

ويمتدُّ من الآية (٤٣) إلى نهاية الآية (٥٧) وهذا هو :

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ

وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

التفسير :

﴿ **وقال الملك** ﴾ ملك مصر ﴿ **إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف** ﴾ أي مهازيل والعجف : الهزال الذي ليس بعده ﴿ **وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات** ﴾ أي وسبعاً يابسات ﴿ **يا أيها الملأ** ﴾ أي يا أعيان المملكة من الحكماء والعلماء والسحرة ﴿ **أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون** ﴾ أي تؤوّلون وتفسّرون . ومعنى عبّرت الرؤيا : أي ذكرت عاقبتها وآخر أمرها ، ونحوه أوّلت الرؤيا إذا ذكرت مآلها وهو مرجعها ﴿ **قالوا أضغاث أحلام** ﴾ أي تخاليطها وأباطيلها ، وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان ، وأصل الأضغاث : ما جمع من أخلاط النبات وحزم من أنواع الحشيش فاستعيرت لذلك والتقدير : أضغاث من أحلام ﴿ **وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين** ﴾ يحتمل كلامهم أنهم أرادوا بالأحلام المنامات الباطلة ، فقالوا ليس لها عندنا تأويل إنما التأويل للمنامات الصحيحة ، ويحتمل أنهم اعترفوا بقصور علمهم وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام بخابرين ﴿ **وقال الذي نجا** ﴾ من القتل ﴿ **منهما** ﴾ من صاحبي السجن وهو الساقي ﴿ **وادّكر بعد أمة** ﴾ أي وتذكّر يوسف وما شاهد منه بعد مدّة ، وهذه المدّة تحددها التوراة الحالية بأنها سنتان ، وتذكّره كان حين استفتى الملك في رؤياه ، وأعضل على الملك تأويلها . وعندئذ تذكّر الناجي يوسف وتأويله رؤيا هو رؤيا صاحبه وطلبه إليه أن يذكره عند الملك فقال : ﴿ **أنا أنبئكم**

بتأويله فأرسلون ﴾ أي أنا أخبركم بتفسيره عمّن عنده علمه فابعثوني إليه لأسأله ، فبعثوه فجاء فقال : ﴿ **يوسف أيها الصدّيق** ﴾ أي أيها البليغ في الصدق وإنما قال له ذلك لأنه ذاق وتعرّف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاء تفسيرها كما أوّل ﴿ **أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبعٌ عجاف وسبع سنبلات خضر وأُخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس** ﴾ أي إلى الملك وأعوانه ﴿ **لعلهم يعلمون** ﴾ الحق في أمرها ، وفضلك ومكانتك من العلم فيطلقونك من محنتك ، فعند ذلك ذكر له يوسف تعبيرها من غير تعنيف للفتى في نسيانه ماوصّاه به ، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك ﴿ **قال : تزرعون سبع سنين دأباً** ﴾ أي متواليات وكلامه يفيد الأمر والتقدير : إزرعوا سبع سنين متواليات ﴿ **فما حصدتم فذروه في سنبله** ﴾ كي لا يأكله السوس ﴿ **إلا قليلًا مما تأكلون** ﴾ في تلك السنين كأنه قال:إن أمامكم سبع سنين مخصبة ممطرة ، فمهما استغللتم في هذه السبع السنين فادخروه في سنبله ليكون أبقى له ، وأبعد عن إسراع الفساد إليه ، إلا المقدار الذي تأكلونه ، وليكن قليلًا لا تسرفوا فيه لتنتفعوا في السبع الشداد ، وهن السبع السنين المحل التي تعقب هذه السبع المتواليات لذلك قال : ﴿ **ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد** ﴾ أي ممحلات ﴿ **يأكلن ما قدمتم لهن** ﴾ أي في السنين المخصبة ﴿ **إلا قليلًا مما تحصنون** ﴾ أي تحرزون وتخبئون ﴿ **ثم يأتي من بعد ذلك** ﴾ أي من بعد أربع عشرة سنة ﴿ **عام فيه يُغاث الناس** ﴾ أي يأتيهم الغيث وهو المطر ﴿ **وفيه يعصرون** ﴾ العنب والزيتون وغير ذلك ، فيتخذون الأشربة والأدهان ، أوّل البقرات السمات ، والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب ، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة ، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا أن العام الثامن بعد الشدة يجيء مباركاً ، كثير الخير ، غزير النعم ، وذلك من جهة الوحي ﴿ **وقال الملك** ﴾ بعد أن رجعوا إليه بتعبير رؤياه التي كان رآها بما أعجبه وأيقنه فعرف فضل يوسف عليه السلام وعلمه ﴿ **ائتوني به** ﴾ أي أخرجوه من السجن وأحضروه ﴿ **فلما جاءه الرسول** ﴾ ليخرجه من السجن ﴿ **قال ارجع إلى ربك** ﴾ أي إلى الملك ﴿ **فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطّعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم** ﴾ أي إن كيدهن عظيم لا يعلمه إلا الله وهو مجازيهن عليه ، امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ونزاهة عرضه ، مما نسب إليه ، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه بل كان ظلماً وعدواناً . قال النسفي : (إنما تثبّت يوسف ، وتأنّى في إجابة الملك ، وقدّم سؤال النسوة ؛ ليظهر براءة ساحته ، عما رُمي به وسجن فيه ، لئلا يتسلّق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده ، ويجعلوه سُلّماً إلى حط

منزلته لديه ، ولئلا يقولوا ما خلد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم وجرم كبير ، وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب إتقاء الوقوف في مواقفها)
والملاحظ أنه لم يذكر سيدته مع ما صنعت به وتسبّبت فيه من السجن والعذاب ، واقتصر على ذكر المقطّعات أيديهن ، وذلك من كمال كرمه وحسن أدبه ، ورجع الرسول إلى الملك برسالة يوسف ، فدعا الملك النسوة المقطّعات أيديهن ، ودعا امرأة العزيز فإما أنهن معروفات أو أن يوسف حدّد أسماءهن ﴿ **قال** ﴾ أي الملك لهن ﴿ **ما خطبكن** ﴾ أي ماشأنكن ﴿ **إذ راودتُنّ يوسف عن نفسه** ﴾ أي هل وجدتُنّ منه ميلا إليكن ﴿ **قلن حاش لله** ﴾ تعجّباً من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿ **ما علمنا عليه من سوء** ﴾ أي من ذنب ﴿ **قالت امرأة العزيز الآن حَصْحَصَ الحق** ﴾ أي ظهر واستقر ﴿ **أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين** ﴾ أي في قوله هي راودتني عن نفسي ، ولا مزيد على شهادتهنّ له بالبراءة والنزاهة ، واعترافهن على أنفسهن أنه لم يتعلق بشيء مما قذف به ﴿ **ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين. وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربي إن ربي غفور رحيم** ﴾ هذا الكلام هل هو كلام امرأة العزيز ؟ أو قول يوسف معلّلا سبب امتناعه من الخروج حتى تثبت براءته ؟ قولان للمفسرين وقد رجّح ابن تيمية وابن كثير أن هذا من تتمّة كلام امرأة العزيز ، ولم يذكر ابن جرير وابن أبي حاتم إلا القول الذي يدل على أنه من كلام يوسف ، وعلى القول أن هذا من تتمّة كلام امرأة العزيز يكون المعنى : إنما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر ولا وقع المحذور الأكبر ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة ، فامتنع ، فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة ﴿ **وأن الله لا يهدي كيد الخائنين وما أبرىء نفسي** ﴾ تقول المرأة لست أبرىء نفسي ، فإن النفس تتحدّث وتتمنى ، ولهذا راودته ﴿ **إن النفس لأمّارة بالسوء إلا مارحم ربي** ﴾ أي إلا من عصمه الله ﴿ **إن ربي غفور رحيم** ﴾ ذكّرت بغفران الله الذنب ، وبرحمة الله مستعطفة ، راجية وعلى القول بأن هذا كلام يوسف يكون المعنى : ﴿ **ذلك** ﴾ أي امتناعي عن الخروج ﴿ **ليعلم** ﴾ أي العزيز ﴿ **أني لم أخنه بالغيب** ﴾ أي بظهر الغيب في حرمه ، أو ليعلم الملك أني لم أخن العزيز بظهر الغيب ﴿ **وأن الله لا يهدي كيد الخائنين** ﴾ أي وليعلم أن الله لا يسدّد كيد الخائنين ، وكأنه تعريض بامرأته في خيانتها أمانة زوجها ، ثم أراد أن يتواضع لله ، ويهضم نفسه ؛ لئلا يكون لها مزكّياً ، وليبين أن ما فيه من الأمانة بتوفيق الله وعصمته فقال : ﴿ **وما أبرّىء نفسي** ﴾ أي من الزلل وما أشهد لها بالبراءة الكلية ، ولا أزكيها

في عموم الأحوال أو في هذه الحادثة ، لما ذكرنا من الهم الذي هو الخطرة البشرية لاعن طريق القصد والعزم ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ أي إن النفس البشرية بطبيعتها تأمر بالسوء ، وتحمل عليه لما فيه من شهواتها وحظوظها ﴿ إلا مارحم ربي ﴾ أي إلا البعض الذي رحمه ربي بالعصمة ، أو إلا وقت رحمة ربي . يعني أنهاأمارة بالسوء في كل وقت إلا وقت العصمة ، أو إن النفس لأمارة بالسوء ، ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة ، وبعد أن ذكر النسفي وقرر هذا الوجه ، وهو أن هذا كلام يوسف ذكر وجه أن يكون هذا كلام امرأة العزيز إلا أنه وجّهه غير التوجيه الذي وجّهه إياه ابن كثير ، وهذا كلامه : (وقيل هو من كلام امرأة العزيز أي ﴿ ذلك ﴾ الذي قلت ﴿ ليعلم ﴾ يوسف ﴿ أني لم أخنه ﴾ ولم أكذب عليه في حال الغيبة ، وجئت بالصدق فيما سئلت عنه ﴿ وما أبرىء نفسي ﴾ مع ذلك من الخيانة ، فإني قد خنته حين قرّ مني وقلت ﴿ ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن ﴾ وأودعته السجن ، وتريد الاعتذار مما كان منها ، إن كل نفس ﴿ لأمارة بالسوء إلا مارحم ربي ﴾ إلا نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾ استغفرت ربها واسترحمته مما ارتكبت ، وإنما جعل من كلام يوسف ، ولا دليل عليه ظاهر ، لأن المعنى يقود إليه ، وقيل هذا من تقديم القرآن وتأخيره ، أي قوله ﴿ ذلك ليعلم ﴾ متصل بقوله ﴿ فاسأله مابال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾.

وسواء كان كلام امرأة العزيز ، أو كان كلام يوسف عليه السلام ، فالدرس المستفاد منه لايتغير ، أن العاقبة الحميدة للأمانة ، والعاقبة الذليلة للخيانة . ﴿ وقال الملك ﴾ حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ، ونزاهة عرضه مما نُسب إليه ﴿ ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ أي أجعله خالصاً لنفسي ، أي أجعله من خاصتي ، وأهل مشورتي . ﴿ فلما كلّمه ﴾ أي خاطبه الملك ، وعرفه ، ورأى فضله وبراعته ، وعلم ماهو عليه من خَلق وخُلق وكمال ﴿ قال ﴾ أي الملك ليوسف ﴿ إنك اليوم لدينا مكين ﴾ أي ذو مكانة ومنزلة ﴿ أمين ﴾ أي مؤتمن على كل شيء ﴿ قال ﴾ يوسف ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ أي ولّني على خزائن أرضك أرض مصر ، والخزائن هي الأهراء التي تجمع فيها الغلات ، لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها ، فيتصرف لهم على الوجه الأحوط ، والأصلح ، والأرشد ﴿ إني حفيظ ﴾ أي أمين أحفظ ماتستحفظنيه ﴿ عليم ﴾ أي عالم بوجوه التصرف ، هذا تعليل لطلبه ، وصف نفسه بالأمانة ، والكفاية ، وهما طلبة الملوك ممن يولونه ، وهما الصفتان اللتان يحتاجهما

كل عمل . وإنما قال ذلك ليتوصّل إلى إمضاء أحكام الله ، وإقامة الحق ، وبسط العدل ، والتمكن مما لأجله بعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك ، فطلبه ابتغاء وجه الله ، لا لحب الملك والدنيا . قال النسفي . (قالوا : وفيه دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عمالة من يد سلطان جائر ، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة الظلمة ، وإذا علم النبي ، أو العالم أنه لاسبيل إلى الحكم بأمر الله ، ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق فله أن يستظهر به ، وقيل : كان الملك يصدر عن رأيه ، ولايعترض عليه في كل ما رأى ، وكان في حكم التابع له) .

﴿ **وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض** ﴾ أي ومثل ذلك التمكين الظاهر مكّنا ليوسف في الأرض . أرض مصر . والتمكين الإقدار وإعطاء المكنة ﴿ **يتبوأ منها حيث يشاء** ﴾ أي كل مكان أراد أن يتخذه منزلاً لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها ، ودخولها تحت سلطانه ﴿ **نصيب برحمتنا** ﴾ أي بعطائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم ﴿ **من نشاء** ﴾ أي من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك ﴿ **ولا نضيع أجر المحسنين** ﴾ كما لم تضع صبر يوسف على أذى إخوته ، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز ، فلهذا أعقبه الله عز وجل النصر والتأييد في الدنيا ﴿ **ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ يخبر تعالى أن ما ادخره لنبيه يوسف عليه السلام ، ومن كان على قدمه من المؤمنين المتقين في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجلّ مما خوّله من التصرف ، والنفوذ في الدنيا .

فوائد :

١ ـــ هذا المشهد الذي مرّ معنا موجود في التوارة الحالية في الإصحاح الحادي والأربعين وليس في الإصحاح كثير من التفصيلات فليس فيه أن رئيس السقاة يقص على يوسف الرؤيا ، ثم يرجع بذلك إلى الملك ، وليس فيه طلب يوسف سؤال النسوة وما جرى فيه ، وذلك غير مستغرب . لأن التوراة الحالية روايات مجموعة بعد زمن طويل من نزولها . ولعل من أعظم الأدلة على أن التوراة الحقيقية كانت ضائعة ، هذا النص الموجود في سفر الملوك الثاني في الإصحاح الثاني والعشرين والإصحاح الثالث والعشرين وفيهما : (فقال حلقيا الكاهن العظيم لشافان الكاتب قد وجدت سفر الشريعة في بيت الرب . وسلم حلقيا السفر لشافان فقرأه .... فلما سمع الملك كلام سفر الشريعة مزّق ثيابه ... إذهبوا واسألوا الرب لأجلي ولأجل الشعب ولأجل كل يهوذا من جهة كلام

هذا السفر الذي وجد لأنه عظيم هو غضب الرب الذي اشتعل علينا من أجل أن آباءنا لم يسمعوا لكلام هذا السفر ..... وقرأ في آذانهم كل كلام سفر الشريعة الذي وجد في بيت الرب ....) فإذا كان سفر الشريعة قد عثر عليه في زمن الملك يوشيا الذي لم يكن بينه وبين سبي بابل إلا ملكان هما : يهو آحاز ، ويهو ياتيم فما بالك ببقية التوراة ، وما بالك بما جرى لها بعد سبي بابل ، فإذا عرفنا أن المعروف أن التوراة قد جُمعت من الروايات الشفهية بعد غزو بابل ، أدركنا ماطرأ عليها ، وعرفنا نعمة الله الذي أنزل هذا القرآن ، مستوعباً التوراة والإنجيل والزبور ، وزائداً على الجميع ، بمجموع ما فيه ، ومن ثم نجد فيه مثل هذا الكمال . فهذا الفصل الذي رأيناه من قصة يوسف يستوعب ما ورد في الإصحاح الحادي والأربعين : ويزيد عليه بتفصيلات كثيرة هي من اللباب في باب الهداية . هذا مع الدقة والصدق والخلو من الحشو والخطأ والباطل ، وتحريفات أقلام النساخ الكاذبة ، ونلاحظ أن الإصحاح الحادي والأربعين في التوراة الحالية يقصّ قصة زواج يوسف عليه السلام من بنت كاهن أون ، وليس في ذلك أي إشارة إلى أن زوجته هذه هي زوجة سيده ، وإنما أشرنا إلى هذا المعنى لأن بعض المفسّرين يستطردون في هذا المقام فينقلون نقولاً إما أنها من روايات أهل الكتاب ، أو من اختلاق القصاص ، وليس عليها من دليل قائم من كتاب أو سنة أو حتى رواية توراة مختلطة ، فإذا استقرت هذه المعاني أصبح بإمكاننا أن ننقل الإصحاح كله ، ومن قراءته يدرك القارىء الفارق العظيم بين القرآن وغيره ، ويرى مظهراً من مظاهر الإعجاز ، ويعرف بذلك كيف أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عند بشر ، ويعرف لَمَ كانت سورة يوسف نموذجاً على الإعجاز الذي ينفي الرّيب عما أنزل الله على محمد ﷺ وهذا هو الإصحاح الحادي والأربعون : (وحدث من بعد سنتين[١] من الزمان أن فرعون رأى حلماً . وإذا هو واقف عند النهر . وهو ذا سبع بقرات طالعة من النهر حسنة المنظر وسمينة اللحم . فارتعت في روضة . ثم هو ذا سبع بقرات أخرى طالعة وراءها من النهر قبيحة المنظر ورقيقة اللحم . فوقفت بجانب البقرات الأولى على شاطىء النهر فأكلت البقرات القبيحة المنظر والرقيقة اللحم البقرات السبع الحسنة المنظر والسمينة . واستيقظ فرعون ثم نام فحلم ثانية ، وهو ذا سبع سنابل طالعة في ساق واحد سمينة وحسنة ، ثم هو ذا سبع سنابل رقيقة وملفوحة بالريح الشرقية نابتة ، وراءها . فابتلعت السنابل الرقيقة السنابل

---

(١) أي بعد خروج الخبّاز من السجن بسنتين .

السبع السمينة الممتلئة ، واستيقظ فرعون وإذا هو حلم . وكان في الصباح أن نفسه انزعجت فأرسل ودعا جميع سحرة مصر وجميع حكمائها ، وقصّ عليهم فرعون حلمه ، فلم يكن من يعبره لفرعون : ثم كلّم رئيس السقاة فرعون قائلاً أنا أتذكّر اليوم خطاياي . فرعون سخط على عبديه فجعلني في حبس بيت رئيس الشرط أنا ورئيس الخبازين ، فحلمنا حلماً في ليلة واحدة . أنا وهو حلمنا كل واحد بحسب تعبير حلمه . وكان هناك معنا غلام عبراني عبد لرئيس الشرط فقصصنا عليه فعبر لنا حلمينا . عبر لكل واحد بحسب حلمه . وكما عبر لنا هكذا حدث . ردّني أنا إلى مقامي ، وأمّا هو فعلّقه فأرسل فرعون ودعا يوسف فأسرعوا به من السجن ، فحلق وأبدل ثيابه ودخل على فرعون فقال فرعون ليوسف حلمت حلماً وليس من يعبره . وأنا سمعت عنك قولاً إنك تسمع أحلاماً لتعبرها فأجاب يوسف فرعون قائلاً ليس لي . الله يجيب بسلامة فرعون .

فقال فرعون ليوسف إني كنت في حلمي واقفاً على شاطىء النهر . وهو ذا سبع بقرات طالعة من النهر سمينة اللحم وحسنة الصورة فارتعت في روضة ، ثم هو ذا سبع بقرات أخرى طالعة وراءها مهزولة وقبيحة الصورة جداً ورقيقة اللحم . لم أنظر في كل أرض مصر مثلها في القباحة . فأكلت البقراتُ الرقيقة والقبيحة البقرات السبع الأولى السمينة . فدخلت أجوافها ولم يعلم أنها دخلت في أجوافها فكان منظرها قبيحاً كما في الأول . واستيقظت ثم رأيت في حلمي ، وهو ذا سبع سنابل طالعة في ساق واحد ممتلئة وحسنة ثم هو ذا سبع سنابل يابسة رقيقة ملفوحة بالريح الشرقية نابتة وراءها فابتلعت السنابل الرقيقة السبع الحسنة فقلت للسحرة ولم يكن من يخبرني .

فقال يوسف لفرعون حلم فرعون واحد ، قد أخبر الله فرعون بما هو صانع ، البقرات السبع الحسنة ، هي سبع سنين ، والسنابل السبع الحسنة هي سبع سنين ، هو حلم واحد ، والبقرات السبع الرقيقة القبيحة التي طلعت وراءها هي سبع سنين ، والسنابل السبع الفارغة الملفوحة بالريح الشرقية تكون سبع سنين جوعاً ، هو الأمر الذي كلمت به فرعون . قد أظهر الله لفرعون ما هو صانع هو ذا سبع سنين قادمة شبعاً عظيماً في كل أرض مصر ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعاً . فينسى كل الشبع في أرض مصر ، ويتلف الجوع الأرض ولا يعرف الشبع في الأرض من أجل ذلك الجوع بعده ، لأنه يكون شديداً جداً . وأما عن تكرار الحلم على فرعون مرتين فلأن الأمر مقرر من قبل الله والله مسرع ليصنعه .

فالآن لينظر فرعون رجلاً بصيراً ويجعله على أرض مصر .يفعل فرعون فيوكل نظاراً على الأرض ، ويأخذ خمس غلة أرض مصر في سبع سني الشبع ، فيجمعون جميع طعام هذه السنين الجيدة القادمة ويخزنون قمحاً تحت يد فرعون طعاماً في المدن ويحفظونه . فيكون الطعام ذخيرة للأرض لسبع سني الجوع التي تكون في أرض مصر . فلا تنقرض الأرض بالجوع . فحسن الكلام في عيني فرعون . وفي عيون عبيده ، فقال فرعون لعبيده هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله . ثم قال فرعون ليوسف بعدما أعلمك الله كل هذا ليس بصير وحكيم مثلك ، أنت تكون على بيتي وعلى فمك يقبل جميع شعبي . إلا أن الكرسي أكون فيه أعظم منك . ثم قال فرعون ليوسف انظر . قد جعلتك على كل أرض مصر . وخلع فرعون خاتمه من يده وجعله في يد يوسف . وألبسه ثياب بوص ووضع طوق ذهب في عنقه . وأركبه في مركبته الثانية . ونادوا أمامه اركعوا . وجعله على كل أرض مصر . وقال فرعون ليوسف أنا فرعون فبدونك لا يرفع إنسان يده ولا رجله في كل أرض مصر .

ودعا فرعون اسم يوسف صفنات فعنيح وأعطاه أسنات بنت فوطي فارع كاهن أون زوجة . فخرج يوسف على أرض مصر ، وكان يوسف ابن ثلاثين سنة لما وقف قدام فرعون ملك مصر ، فخرج يوسف من لدن فرعون واجتاز في كل أرض مصر .

وأثمرت الأرض في سبع سني الشبع بحزم . فجمع كل طعام السبع الذي حواليها جعله فيها ، وخزن يوسف قمحاً كرمل البحر كثيراً جداً حتى ترك العدد إذ لم يكن له

عدد وولد ليوسف ابنان قبل أن تأتي سنة الجوع . ولدتهما له أسنات بنت فوطي فارع كاهن أون . ودعا يوسف اسم البكر مَنَسَّى قائلاً لأن الله أنساني كل تعبي وكل بيت أبي ، ودعا اسم الثاني أفرايم قائلاً لأن الله جعلني مُثْمِراً في أرض مذلتي .

ثم كملت سبع سني الشبع الذي كان في أرض مصر . وابتدأت سبع سني الجوع تأتي كما قال يوسف . فكان جوع في جميع البلدان . وأما جميع أرض مصر فكان فيها خبز . ولما جاعت جميع أرض مصر وصرخ الشعب إلى فرعون لأجل الخبز قال فرعون لكل المصريين اذهبوا إلى يوسف . والذي يقول لكم افعلوا وكان الجوع على كل وجه الأرض . وفتح يوسف جميع ما فيه طعام وباع للمصريين . واشتد الجوع في أرض مصر . وجاءت كل الأرض إلى مصر إلى يوسف لتشتري قمحاً . لأن الجوع كان شديداً في كل الأرض .) .

٢ ـ لفت نظرنا سيدنا رسول الله ﷺ إلى مواقف في قصة يوسف عليه السلام ، رحمة بهذه الأمة . فلنر ذلك :

في المسند والصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال : رسول الله ﷺ :

« نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾ الآية (والمعنى: وإذ لم نشك نحن فإن إبراهيم لم يقل كلمة شكاً) ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبثتُ في السجن مالبث يوسف لأجبت الداعي » وفي هذا الشأن بيان للرخصة رحمة بأفراد هذه الأمة ، حتى لا يظن أحد من هذه الأمة أن عليه أن يقف موقف يوسف في رفض الخروج حتى تثبت البراءة ، وفي لفظ الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله ﴿ **فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطّعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم** ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر » .

وروى عبد الرزاق عن عكرمة قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له حين أتاه الرسول ، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشترط أن يخرجوني ، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له حين أتاه الرسول ، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب ، ولكنه أراد أن يكون له العذر » قال ابن كثير : هذا حديث مرسل . وكما قلنا فإن رسولنا عليه الصلاة والسلام يعطي هذه الأمة رخصة في هذا المقام : وإلا فما أوقف الله رسوله ﷺ موقفاً إلا وتصرف فيه التصرف الأعلى والأكمل والأرقى .

٣ ـ في طلب يوسف الولاية من سلطة كافرة بناءً على كفايته ، وأمانته في القيام بمضمونها ، وقبوله ما يشبه الوزارة في دولة كافرة ، وهو محل القدوة ،دليل على أن حكم الله في هذا الموضوع مرتبط بمصلحة الإسلام والمسلمين ومصلحة الخلق ، وهو موضوع يحتاج إلى موازنات كثيرة ، وشورى من أهلها إن وُجدوا ، وقد غلط ناس ظنوا أن المشاركة في وزارة أو غيرها في كل سلطة كافرة حرام بإطلاق ، وفي ثناء يوسف عليه السلام على نفسه دليل على أنه يجوز للرجل ذلك إذا جُهل أمره للحاجة .

وهاتان قضيتان مهمّتان في عصرنا . ففي عصرنا حيث يتحكم الكفر ويحكم . وحيث فرضت أنظمة كافرة على أقطار إسلامية ، تجد بعض المسلمين يترددون في المشاركة في الحكم ، أو في رفضه ، وتجدهم يترددون في ترشيح أنفسهم لمناصب

الدولة ، والذي نفهمه من قصة يوسف عليه السلام أنه يستطيع المسلم أن يزكي نفسه في بعض الحالات ، وأن يستلم منصباً من مناصب الدولة إذا كان في ذلك خدمة لدين الله ، أو مصلحة للمسلمين ، أو منفعة عامة للخلق ، لا يرافقها إثم ، ويتدخل في هذا الموضوع عامل النية ، وموقف أهل الحق . فإذا ارتأى أهل الحق لأحدهم أن يفعل شيئاً فعليه أن يفعل على شرط تصحيح النية . وفي كتابنا (دروس في العمل الإسلامي) بيان هذا الموضوع ، وليس كلامنا في عمل يتنافى مع العقيدة ، أو يضطر صاحبه للنفاق ، أو لعمل آثم . والموازنة دائماً بين الجيد والأجود ، والعزيمة والرخصة ، واختيار أخف الشرين ، وأهون الضررين صعبة . وتحتاج إلى توفيق إلهي . إن الذين يخطّئون المسلم الصالح الذي يقبل وزارة في بلد كالهند الحالية يحكمون على الإسلام بالدمار هناك ، والذين يَقْبَلُون التعالي ويركبون متن النفاق للوصول إلى وزارة لا يخدمون فيها إلا الكفر ، ليسوا إلا طلّاب دنيا .

والقاعدة إذا وُجد أهل الشورى من أهل الحق ، ورأوا رأياً ، أو رأت أكثريتهم رأياً فهو الفيصل في كل زمان ومكان . لأن قضايا الحياة من التعقيد بحيث لا يسع المسلمين فيها موقف لين ، أو موقف صلب . ولقد قال الألوسي عند قوله تعالى حكاية عن يوسف ﴿ **اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم** ﴾ (وفيه دليل على جواز مدح الإنسان نفسه بالحق إذا جهل أمره ، وجواز طلب الولاية إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل ، وإجراء أحكام الشريعة ، وإن كان من يد الجائر أو الكافر ، وربما يجب عليه الطلب إذا توقّف على ولايته إقامة واجب مثلاً وكان متعيناً لذلك ، وما في الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ « ياعبد الرحمن لاتسأل الإمارة ، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وُكلتَ إليها ، وإن أعطيتها من غير مسألة أُعنتَ عليها » والمراد في غير ما ذكر) اهـ كلام الالوسي

٤ ـــ مرّ معنا أن الرؤيا لأوّل عابر ، ونلاحظ أن حاشية فرعون ومَن عرض عليهم رؤياه قالوا عنها أضغاث أحلام ، وهم أوّل من قال فيها كلمة ، ومع ذلك لم تعتبر كلمتهم ، ومن هنا نفهم ، أن الرؤيا لأول عابر يعلم ، أما الجهلة فهؤلاء ليسوا معبّرين ، وإنما هم متقوّلون ، فالعبرة للعابر الأول الذي اتصف بأهلية التعبير .

٥ ـــ للألوسي تحقيق في التفريق بين الرؤيا والحلم يذكره بمناسبة قوله تعالى ﴿ **قالوا أضغاث أحلام** ﴾ وهذا هو كلامه قال : (والأحلام جمع حُلُم بضمة وبضمتين المنامات الباطلة على مانص عليه جمع ، وقال بعضهم : الرؤيا والحلم عبارة عمايراه النائم

مطلقاً ، لكن غلّبت الرؤيا على مايراه من الخير والشيء الحسن ، وغلّب الحلم على خلافه ، وفي الحديث « الرؤيا من الله تعالى والحلم من الشيطان » وقال التوربشتي : الحلم عند العرب يستعمل استعمال الرؤيا ، والتفريق من الاصطلاحات التي سنها الشارع ﷺ للفصل بين الحق والباطل كأنه كره أن يسمىٰ ماكان من الله تعالى وما كان من الشيطان باسم واحد ، فجعل الرؤيا عبارة عن القسم الصالح ؛ لما فيها من الدلالة على مشاهدة الشيء بالبصر والبصيرة ، وجعل الحلم عبارة عما كان من الشيطان ؛ لأن أصل الكلمة لم تستعمل إلا فيما يخيل للحالم في منامه من قضاء الشهوة بما لاحقيقة له) أهـ وهو كلام حسن .

ولننتقل إلى المشهد السادس :

☆ ☆ ☆

المشهد السادس

ويمتد من الآية (٥٨) إلى نهاية الآية (١٠١) وهذا هو :

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ

حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ
يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ
مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟
نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم
مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ
﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾
فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ
مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ
كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا
يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾
قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا
لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ

أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ
يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ
فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ
﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾
قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ
مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ
تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ
ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟
مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟
عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا
ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم
بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ
وَهَٰذَآ أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا

تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

التفسير :

﴿ **وجاء إخوة يوسف** ﴾ يمتاروا ﴿ **فدخلوا عليه فعرفهم** ﴾ بلا تعريف ﴿ **وهم له منكرون** ﴾ أي لا يعرفونه لأنهم فارقوه وهو صغير حدث ، وباعوه للسيارة ، وما كانوا

يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه ، فلهذا لم يعرفوه وهو فيما هو فيه ، وأما هو فعرفهم ، وفي الإصحاح الثاني والأربعين من التوراة المحرّفة الحالية ذكر إرسال يعقوب أولاده لمصر ليشتروا قمحاً وفيه (ولما نظر يوسف إخوته عرفهم فتنكّر لهم وتكلم معهم بجفاء وقال لهم من أين جئتم فقالوا من أرض كنعان لنشتري طعاماً ، وعرف يوسف إخوته وأما هم فلم يعرفوه) ﴿ **ولما جهزهم بجهازهم** ﴾ أي أوفى لهم كيلهم وحمّل لهم أحمالهم ﴿ **قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم** ﴾ أي بنيامين ﴿ **ألا ترون أني أوفي الكيل** ﴾ أي أتمه ﴿ **وأنا خير المنزلين** ﴾ أي المضيفين ، وقد رأوا من حسن إنزاله وضيافته الكثير ، وفي هذا ترغيب لهم على الرجوع إليه ثم رهّبهم فقال : ﴿ **فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي** ﴾ أي فلا أبيعكم طعاماً ﴿ **ولا تقربون** ﴾ أي فإن لم تأتوني به فلا تأتوا إليّ ﴿ **قالوا سنراود عنه أباه** ﴾ أي سنخادعه عنه ونحتال حتى ننزعه من يده ﴿ **وإنا لفاعلون** ﴾ ذلك لا محالة ، لانفرّط فيه ولا نتوانى عنه ، وعدوه أنهم سيحرصون على مجيئه إليه بكل ممكن ، ولا يبقون مجهوداً في هذا الشأن ﴿ **وقال لفتيانه** ﴾ أي لغلمانه الكيّالين ﴿ **اجعلوا بضاعتهم** ﴾ أي التي قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها ﴿ **في رحالهم** ﴾ أي في أمتعتهم من حيث لا يشعرون ﴿ **لعلهم يعرفونها** ﴾ أي لعلهم يعرفون حق ردها ، وحق التكرّم بإعطاء البدلين ﴿ **إذا انقلبوا إلى أهلهم** ﴾ وفرّغوا ظروفهم ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ أي لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا ، وقد تكون الحكمة في فعله أنه خشي ألا يجدوا بضاعة بها يرجعون ، أو ظناً منه أن ما فيهم من الديانة يعيدهم لرد الأمانة ، أو أنه لم ير أن من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمناً ﴿ **فلما رجعوا إلى أبيهم** ﴾ بالطعام وأخبروه بما فعل ﴿ **قالوا يا أبانا مُنع منّا الكيل** ﴾ يشيرون إلى ما قاله يوسف لهم ﴿ **فأرسل معنا أخانا نكتل** ﴾ فبه نرفع المانع من الكيل ، ونكتال من الطعام ما نحتاج إليه ﴿ **وإنا له لحافظون** ﴾ عن أن يناله مكروه ، وكانت كلمتهم يوم أخذوا يوسف وقد وعدوه بحفظه ولهذا قال لهم ﴿ **هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل** ﴾ يعني أنكم قلتم في يوسف كما تقولون في أخيه ، ثم خنتم بضمانكم ، فما يؤمنني من مثل ذلك ، وكأن لسان حاله يقول هل أنتم صانعون به كما صنعتم بأخيه من قبل ، تغيبونه عني ، وتحولون بيني وبينه ﴿ **فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين** ﴾ أي سيرحم كبري وضعفي ، ووجدي بولدي ، وأرجوا من الله أن يردّه علي ، ويجمع شملي به ، لأنه خير الحافظين وأرحم الراحمين ﴿ **ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم رُدت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي** ﴾ أي ما نطلب في القول

ولانتجاوز الحق وهذه علامة صدقنا في قولنا . أو ما نطلب وراء ما فعل بنا ، أو أي شيء نطلب وراء هذا ﴿ **هذه بضاعتنا رُدّت إلينا ونمير أهلنا** ﴾ أي إذا أرسلت أخانا معنا ، نأتي بالميرة إلى أهلنا ﴿ **ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير** ﴾ أي وسق بعير باستصحاب أخينا ﴿ **ذلك كيل يسير** ﴾ أي سهل متيسر في مقابلة أن يأخذوا معهم أخاهم فقط . وهذه الحكمة الرئيسية في وضع بضاعتهم في رحالهم أن يوسف أراد أن تكون لهم حجة في المجيء بأخيهم ﴿ **قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله** ﴾ أي حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله أي أراد أن يحلفوا له بالله ، لأن الحلف بالله مما يؤكد به العهود ﴿ **لتأتنني به إلا أن يُحاط بكم** ﴾ أي إلا أن تُغلبوا فلم تطيقوا الإتيان به ، أي لا تمتنعوا من الإتيان به إلا للإحاطة بكم ، بأن تغلبوا كلكم فلا تقدرون على تخليصه ﴿ **فلما آتوه موثقهم** ﴾ بأن حلفوا له ، أكدّه عليهم ﴿ **قال الله على ما نقول وكيل** ﴾ أي الله على ما نقوله من طلب الموثق وإعطائه وكيل ، أي رقيب مطّلع ﴿ **وقال يابنيّ لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرّقة** ﴾ الجمهور على أنه خاف عليهم العين لجماعتهم ، وجلالة أمرهم ، ولم يأمرهم بالتفرّق في الكرّة الأولى لأنهم ، كانوا مجهولين ، وقيل : إنه أحب ألا يفطن بهم فيكاد لهم ، وهذا من كمال التأديب وكمال الاحتياط . ﴿ **وما أغني عنكم من الله من شيء** ﴾ أي إن كان الله أراد بكم سوءاً لم ينفعكم ، ولم يدفع عنكم ما أشرت عليكم من التفرّق ، وهو مصيبكم لا محالة . أي إن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه ، فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع ﴿ **إنْ الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكّل المتوكّلون** ﴾ بيّن لهم أنه لا حاكم إلا الله ، ومن ثمّ أمرهم بالتوكل عليه ، والتوكل : تفويض الأمر إلى الله تعالى والاعتماد عليه .

﴿ **ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم** ﴾ أي متفرقين ﴿ **ما كان يغني عنهم** ﴾ أي دخولهم من أبواب متفرقة ﴿ **من الله من شيء** ﴾ أي ما يغني عنهم ذلك شيئاً قط ، وقد حدث لهم ما ساءهم بعد من إضافة السرقة إليهم ، وافتضاحهم بذلك ، وأخذ أخيهم بوجدان الصواع في رحله . وتضاعف المصيبة على أبيهم ﴿ **إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها** ﴾ وهي شفقته عليهم ، أو هي دفع إصابة العين لهم ﴿ **وإنه لذو علم لما علّمناه** ﴾ أي وإنه لذو علم لتعليمنا إياه ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ ذلك أي علم الأنبياء ﴿ **ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه** ﴾ أي ضمّ إليه أخاه بنيامين ﴿ **قال إني أنا أخوك** ﴾ يوسف ﴿ **فلا تبتئس** ﴾ أي فلا تحزن ﴿ **بما كانوا يعملون** ﴾

بنا فيما مضى ، فإن الله قد أحسن إلينا ، وجمعنا على خير . ويبدو أنه أمره بكتمان ذلك عنهم ، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه ، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده ، معززاً مكرّماً معظماً ﴿ **فلمّا جهزهم بجهازهم** ﴾ أي هيأ أسبابهم ، وأوفى الكيل لهم ﴿ **جعل السّقاية** ﴾ هي مشربة من فضة . وفي التوراة الحالية (وطاسي طاس الفضة تضع في فم عدل الصغير) . ﴿ **في رحل أخيه** ﴾ أي في متاع بنيامين ﴿ **ثم أذّن مؤذن** ﴾ أي نادى مناد ﴿ **أيتها العير** ﴾ العير : هي الإبل التي عليها الأحمال والمراد : يا أصحاب الجمال ﴿ **إنكم لسارقون** ﴾ فلما سمعوا التهمة ﴿ **قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك** ﴾ أي صاعه الذي يكيل به ﴿ **ولمن جاء به حِمل بعير** ﴾ أي وسق بعير من طعام . مكافأة لمن حصّله ﴿ **وأنا به زعيم** ﴾ أي كفيل أن أؤديه لمن جاء به ، فتعجبوا أن يُرمىٰ أمثالهم بمثل هذه التهمة ، مع ما دّل عليه حالهم من أمانتهم ، إذ ردّوا بضاعتهم التي وجدوها في رحالهم كما تذكر التوراة الحالية ، لذلك قالوا ﴿ **قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين** ﴾ أي ما كنّا نوصف قط بالسرقة . والمعنى : لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا أنه ليس من سجايانا الإفساد والسرقة ﴿ **قالوا فما جزاؤه** ﴾ الضمير يعود إما إلى السارق ، أو إلى المسروق ﴿ **إن كنتم كاذبين** ﴾ أي في جحودكم وادّعائكم البراءة ، أي شيء تكون عقوبته إن وجدنا فيكم الآخذ ﴿ **قالوا جزاؤه من وُجد في رحله فهو جزاؤه** ﴾ أي السارق يُدفع إلى المسروق منه ، وفي التوراة الحالية (فقال نعم بحسب كلامكم هكذا يكون الذي يوجد معه يكون لي عبداً وأما أنتم فتكونون أبرياء) ﴿ **كذلك نجزي الظالمين** ﴾ أي هذه شريعتنا أن نجزي السرّاق بالاسترقاق ، وهذا الذي أراد يوسف أن يصل إليه ، ولهذا بدأ بأوعيتهم يفتشها قبل وعاء أخيه تورية ﴿ **فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه** ﴾ أي فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفي التهمة. وفي التوراة الحالية (ففتّش مبتدئاً من الكبير حتى انتهى إلى الصغير ، فوجد الطاس في عدل بنيامين) ﴿ **ثم استخرجها** ﴾ أي السّقاية ﴿ **من وعاء أخيه** ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم . وإلزامهم إلزاماً لهم بما يعتقدونه ، ﴿ **كذلك كِدْنا ليوسف** ﴾ أي مثل ذلك الكيد العظيم كدنا ليوسف ، أي علّمناه إياه ، ثم فسّر الله ما كاد ليوسف فقال : ﴿ **ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك** ﴾ أي في شريعته ، وإنما قيّض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه ، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم ﴿ **إلا أن يشاء الله** ﴾ أي ما كان ليأخذه إلا بمشيئة الله وإرادته فيه ﴿ **نرفع درجاتٍ مَن نشاء** ﴾ هذا ثناء ضمني على يوسف إذ المعنى : نرفع

درجات في العلم من نشاء ، كما رفعنا درجة يوسف عليه السلام ﴿ **وفوق كل ذي علم عليم** ﴾ أي وفوق كل ذي علم أرفع درجة منه في علمه ، أو فوق العلماء كلهم عليم هم دونه في العلم وهو الله عز وجل . قال الحسن البصري في تفسيرها : ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله عز وجل . وقال سعيد بن جبير : كنا عند ابن عباس فحدّث بحديث عجيب ، فتعجّب رجل فقال : الحمد لله ، فوق كل ذي علم عليم ، فقال ابن عباس : بئس ما قلت ، الله العليم فوق كل عالم » .

نقل :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ..** ﴾ قال صاحب الظلال : (إن هذه النصّ يحدد مدلول كلمة « الدين » – في هذا الموضع – تحديداً دقيقاً .. إنه يعني : نظام الملك وشرعه .. فإنه نظام الملك وشرعه ما كان يجعل عقوبة السارق هو أخذه في جزاء سرقته . إنما هذا نظام يعقوب وشريعة دينه ، وقد ارتضى أخوة يوسف تحكيم نظامهم هم وشريعته ، فطبقها يوسف عليهم عندما وجد صواع الملك في رحل أخيه .. وعبّر القرآن الكريم عن النظام والشريعة بأنها « الدين» هذا المدلول القرآني الواضح هو الذي يغيب في جاهلية القرن العشرين عن الناس جميعاً . إنهم يقصرون مدلول « الدين » على الاعتقاد والشعائر .. ويعدون كل من يعتقد في وحدانية الله وصدق رسوله ويؤمن بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه ، ويؤدي الشعائر المكتوبة .. داخلًا في « دين الله » مهما تكن دينونته بالطاعة والخضوع ، وإقراره بالحاكمية لغير الله من الأرباب المتفرّقة في الأرض .. بينما النص القرآني هنا يحدد مدلول « دين الملك » بأنه نظام الملك وشريعته وكذلك « دين الله » فهو نظامه وشريعته ..

إن مدلول « دين الله » قد هزل وانكمش حتى صار لا يعني في تصور الجماهير الجاهلية إلا الاعتقاد والشعائر .. ولكنه لم يكن كذلك يوم جاء هذا الدين منذ آدم ونوح إلى محمد عليهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وإفراده سبحانه بالألوهية في الأرض مثل إفراده بالألوهية في السماء ، وتقرير ربوبيته وحده للناس أي : حاكميته وشرعه وسلطانه وأمره وكان مفرق الطريق دائما بين من هم في دين « الله » ومن هم في « دين الملك » أن الأوّلين يدينون لنظام الله وشرعه وحده ، وأن الآخرين يدينون لنظام الملك وشرعه . أو يشركون فيدينون لله في الاعتقاد والشعائر ويدينون لغير الله في النظام والشرائع !

وخير لنا من أن ندافع عن الناس - وهم في غير دين الله - ونتلمّس لهم المعاذير ، ونحاول أن نكون أرحم بهم من الله الذي يقرر دينه وحدوده ! خير لنا من هذا كله أن نشرع في تعريف الناس حقيقة مدلول « دين الله » ليدخلوا فيه أو يرفضوه ..

هذا خير لنا وللناس أيضاً .. خير لنا لأنه يعفينا من تبعة ضلال هؤلاء الجاهلين بهذا وخير للناس لأن مواجهتهم بحقيقة ماهم عليه - وأنهم في دين الملك لا في دين الله - قد تهزهم هزة تخرجهم من الجاهلية إلى الإسلام ومن دين الملك إلى دين الله !

كذلك فعل الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه - وكذلك ينبغي أن يفعل الدعاة إلى الله في مواجهة الجاهلية في كل زمان ومكان ..» ولنتابع عرض القصة :

﴿ **قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل** ﴾ أي يوسف ﴿ **فأسرّها يوسف في نفسه** ﴾ أي مقالتهم إنه سرق كأنه لم يسمعها ﴿ **ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكاناً** ﴾ أي أنتم شر منزلة في السرقة ، وكأنه أراد سرقته من أبيه ﴿ **والله أعلم بما تصفون** ﴾ أي بما تقولون أو تكذبون من اتهامكم بنيامين وأخيه بالسرقة ، ولما تعيّن أخذ بنيامين وتقرر بمقتضى اعترافهم شرعوا يترفّقون له ، ويعطّفونه عليهم ﴿ **قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً** ﴾ في السن ﴿ **فخذ أحدنا مكانه** ﴾ أي بدله يكون عندك عوضاً عنه على وجه الاسترقاق أو الاسترهان ، فإن أباه يتسلى به . وفي التوراة الحالية المحرفة في الإصحاح الرابع والأربعين من سفر التكوين نجد : (ثم تقدم إليه يهوذا وقال استمع يا سيدي ليتكلم عبدك كلمة في أذني سيدي . ولا يحم غضبك على عبدك . لأنك مثل فرعون . سيدي سأل عبيده قائلاً هل لكم أب أو أخ فقلنا لسيدي لنا أب شيخ وابن شيخوخة صغير مات أخوه وبقي هو وحده لأمه وأبوه يحبه . فقلت لعبيدك انزلوا به إلي فأجعل نظري عليه . فقلنا لسيدي لا يقدر الغلام أن يترك أباه ، وإن ترك أباه يموت . فقلت لعبيدك إن لم ينزل أخوكم الصغير معكم لا تعودون تنظرون وجهي . فكان لما صعدنا إلى عبدك أبي أننا أخبرناه بكلام سيدي ، ثم قال أبونا ارجعوا اشتروا لنا قليلاً من الطعام . فقلنا لا نقدر أن ننزل وإنما إذا كان أخونا الصغير معنا ننزل . لأننا لانقدر أن ننظر وجه الرجل وأخونا الصغير ليس معنا . فقال لنا عبدك أبي أنتم تعلمون أن امرأتي ولدت لي اثنين . فخرج الواحد من عندي وقلت إنما هو قد افترس افتراساً . ولم أنظره إلى الآن . فإن أخذتم هذا أيضاً من أمام وجهي وأصابته أذية تنزلون شيبتي بشر إلى الهاوية . فالآن متى جئت إلى عبدك أبي والغلام ليس معنا ونفسه مرتبطة بنفسه يكون

متى رأى أن الغلام مفقود أنه يموت . فينزل عبيدك شيبة عبدك أبينا بحزن إلى الهاوية . لأن عبدك ضمن الغلام لأبي قائلا إن لم أجيء به إليك أصر مذنباً إلى كل الأيام . فالآن يمكث عبدك عوضاً عن الغلام عبداً لسيدي ، ويصعد الغلام مع إخوته . لأني كيف أصعد إلى أبي والغلام ليس معي لئلا أنظر الشر الذي يصيب أبي)

ولنا على هذا النقل ملاحظة سريعة هي أن النص قيّد البدل بأنه يهوذا ، بينما النص القرآني ترك ليوسف الخيار في أن يأخذ من يشاء ، وهذا من تحريف النّساخ كما سنرى في آخر القصة .

وبعد أن اقترحوا أن يأخذ أحدهم مكانه أثنوا عليه ﴿ **إنا نراك من المحسنين** ﴾ أي إلينا فأتمم إحسانك ، أو بشكل مطلق أي من عادتك الإحسان فاجرِ على عادتك ولا تغيرها ﴿ **قال معاذ الله أن نأخذ** ﴾ أي نعوذ بالله معاذاً من أن نأخذ ﴿ **إلا من وجدنا متاعنا عنده** ﴾ إذ هو منطق العدل ، ولم يكن ذلك إلا كما قلتم واعترفتم وألزمتم به أنفسكم ﴿ **إنا إذاً لظالمون** ﴾ أي إن أخذنا بريئاً بمن وقع بمثل ما رأيتم ، أي إن أخذنا بدله ظلماً ، لأنه وجب على قضية فتواكم أخذ من وُجد الصاع في رحله ، واستعباده فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلماً في مذهبكم فلِمَ تطلبون ما عرفتم أنه ظلم ؟! ﴿ **فلما استيئسوا منه** ﴾ أي فلما يئسوا من يوسف وإجابته إياهم ، أو فلما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين ﴿ **خلصوا** ﴾ أي انفردوا عن الناس ﴿ **نجياً** ﴾ أي يتناجون فيما بينهم يدبرون أمرهم على أي صفة يذهبون ، وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم ﴿ **قال كبيرهم** ﴾ هل المراد هنا كبيرهم في السن فيكون رأوبين ؟ أو المراد به كبيرهم في الشأن ، والعقل والوفاء فيكون يهوذا ؟ وهو رواية التوراة الحالية ﴿ **ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله** ﴾ أي لتردنه إليه ، وقد تعذّر هذا ﴿ **ومن قبل ما فرطتم في يوسف** ﴾

أي مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه . والمعنى:ومن قبل هذا قصّرتم في شأن يوسف ولم تحفظوا عهد أبيكم ، أو ومن قبل هذا تفريطكم كائن في يوسف ، وبسبب هذا ﴿ **فلن أبرح الأرض** ﴾ أي فلن أفارق أرض مصر ﴿ **حتى يأذن لي أبي** ﴾ أي في الرجوع إليه راضياً عني ﴿ **أو يحكم الله لي** ﴾ إما بالخروج منها أو بالموت ، أو بتخليص بنيامين ، أو بالإيحاء إلى يعقوب ببراءتنا ﴿ **وهو خير الحاكمين** ﴾ لأنه لا يحكم إلا بالعدل ، ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع حتى يكون عذراً لهم عنده ،

ويتنصّلوا إليه ويبرؤا مما وقع ، فقال : ﴿ **ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا** ﴾ أي وما شهدنا عليه بالسرقة إلا بما علمنا من سرقته وتيقنا ، إذ الصواع استخرج من وعائه ﴿ **وما كُنا للغيب حافظين** ﴾ أي وما علمنا أنه سيسرق ، حين أعطيناك المواثيق ، وما كنا في الغيب عالمين أنه سرق له شيئاً عندما سألتنا جزاء السارق ، فقلنا ما قلنا ﴿ **واسأل القرية التي كُنا فيها** ﴾ أي مصر . أي أرسل إلى أهلها فاسألهم عن كنه القصة ﴿ **والعير التي أقبلنا فيها** ﴾ أي والقافلة التي رافقناها عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا ﴿ **وإنا لصادقون** ﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقته ﴿ **قال** ﴾ أي بعد أن رجعوا إليه ، وقالوا له ما قال لهم أخوهم ﴿ **بل سَوّلت لكم أنفسكم أمراً** ﴾ هذا مثل قوله لهم حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب ، اتهمهم بسبب سابقتهم وبدلالة حالهم . كأنه قال : من أدرى ذلك الرجل أن السارق يُسْتَرق لولا فتواكم وتعليمكم ﴿ **فصبر جميل** ﴾ أي لاشكوى معه ، ثم ترجّى من الله تعالى : أن يرد عليه أولاده الثلاثة : يوسف ، وبنيامين ، ومن بقي في مصر فقال ﴿ **عسى الله أن يأتيني بهم** ﴾ ولم يقل بهما لأنهم أصبحوا ثلاثة ﴿ **جميعاً إنه هو العليم** ﴾ بحالي في الحزن والأسى ﴿ **الحكيم** ﴾ في أفعاله وقضائه وقدره الذي لم يبتلني بذلك إلا لحكمة ﴿ **وتولى عنهم** ﴾ أي وأعرض عنهم كراهة لما جاؤوا به ﴿ **وقال يا أسفا** ﴾ أي يا أسفي ، والأسف : أشد الحزن والحسرة ﴿ **على يوسف** ﴾ جدّد له حزن الابنين الحزن الدفين الأول ، دل هذا على أن الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضّاً عنده وطرياً ﴿ **وابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم** ﴾ أي مملوء من الغيظ على أولاده ، ولا يظهر ما يسوؤهم وعلى هذا فمعنى كظيم : ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق . وفسّرها بعضهم بأنه كئيب حزين . ﴿ **قالوا تالله تفتأ** ﴾ أي لا تفتأ أي لا تزال ﴿ **تذكر يوسف** ﴾ أي لا تفارق تذكر يوسف ﴿ **حتى تكون حَرَضاً** ﴾ أي ضعيف القوة مشفياً على الهلاك ﴿ **أو تكون من الهالكين** ﴾ حقيقة أي إن استمر بك هذا الحال خشينا عليك العجز أو الهلاك . قالوا له هذا رقة له ، وشفقة عليه ، ورأفة به ، وهم في الظاهر سبب ما هو فيه ، دلّ ذلك على مبلغ حزنه . قال النسفي : ويجوز للنبي أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ لأن الإنسان مجبول على ألا يملك نفسه عند الحزن . ولذلك حمد صبره ﴿ **قال إنما أشكو بثي** ﴾ البث : أصعب الهمّ الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثه إلى الناس أي ينشره ﴿ **وحزني إلى الله** ﴾ أي إنما أشكو إلى ربي داعياً له ، وملتجئاً إليه فخلّوني وشكايتي ﴿ **وأعلم من الله مالا تعلمون** ﴾ أي وأعلم من رحمته أنه يأتيني

بالفرج من حيث لا أحتسب ، ولعلها إشارة إلى تيقنه أنه سيلقى يوسف ، ويحدث ما رأى يوسف في رؤياه ، أو لعله أشار إلى معرفته من قبل الوحي أن يوسف لم يمت ، ثم ندب بنيه إلى الذهاب في الأرض مستعلمين أخبار يوسف وأخيه ﴿ **يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه** ﴾ أي فتعرّفوا منهما ، وتطلّبوا خبرهما . والتحسس يكون في الخير ، والتجسس يكون في الشر ، ثم نهضهم وبشّرهم وأمرهم أن لا ييأسوا من رَوْح الله ، وألا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه ، فإنه لا يقطع الرجاء ولا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون فقال ﴿ **ولا تيأسوا من روح الله** ﴾ أي ولا تقنطوا من رحمة الله وفرجه ﴿ **إنه** ﴾ أي إن الأمر والشأن ﴿ **لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون** ﴾ لأن من آمن يعلم أنه متقلب في رحمة الله ونعمته ، وأما الكافر فلا يعرف رحمة الله ولا تقلبه في نعمته ، فييأس من رحمته ﴿ **فلمّا دخلوا عليه** ﴾ تقدير الكلام فذهبوا فدخلوا مصر ، ودخلوا على يوسف ﴿ **قالوا يا أيها العزيز مسّنا وأهلنا الضرّ** ﴾ أي الهزال من الشدة والجوع ، أو أنهم شكوا الضر من الجدب والقحط وقلة الطعام ﴿ **وجئنا ببضاعة مُزجاة** ﴾ أي مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً لها ﴿ **فأوْفِ لنا الكيل** ﴾ أي أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك ﴿ **وتصدّق علينا** ﴾ أي وتفضّل علينا بالمسامحة والإغماض عن رداءة البضاعة ، أو زدنا على حقنا ، أوهَبْ لنا أخانا ﴿ **إن الله يجزي المتصدّقين** ﴾ خاطبوه بلغة الإيمان . وعندئذ كشف لهم نفسه ﴿ **قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه** ﴾ أي هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف وأخيه ﴿ **إذ أنتم جاهلون** ﴾ لا تعلمون قبحه ، أو إذ أنتم في حد السفه والطيش . أو إذ أنتم عاصون . قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل . قال ابن كثير : والظاهر – والله أعلم – أنّ يوسف عليه السلام إنّما تعرّف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك . والله أعلم لما ضاق الحال واشتد الأمر ، فرّج الله تعالى من ذلك الضيق ﴿ **قالوا أئنك لأنت يوسف ؟** ﴾ والاستفهام هنا يدل على الاستعظام . أي إنهم تعجّبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من زمن وهم لا يعرفونه ، وهو مع هذا يعرفهم ، ويكتم نفسه ﴿ **قال أنا يوسف وهذا أخي** ﴾ وإنما ذكر أخاه وهم قد سألوه عن نفسه لأنه كان في ذكر أخيه بيان لما سألوه عنه ﴿ **قد منّ الله علينا** ﴾ بالألفة بعد الفرقة . ذكر نعمة الله بالسلامة والكرامة ، ولم يبدأ بالملامة والعتاب ﴿ **إنه من يتق** ﴾ الله بترك معصيته ، وفعل طاعته ﴿ **ويصبر** ﴾ على قضاء الله وقدره ، وعن المعاصي وعلى الطاعة ﴿ **فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ والسياق يدل على أن المحسن من

اجتمع له التقوى والصبر . وقد قالوا في تفسيرها : من يتق مولاه ، ويصبر على بلواه ، لا يضيع أجره في دنياه وعقباه ﴿ **قالوا** ﴾ معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخَلق والخُلق ، والسعة والملك ، والتصرف والنبوة أيضاً على قول من لم يجعلهم أنبياء . وأقروا له بأنهم أساؤوا إليه وأخطأوا في حقه ﴿ **تالله لقد آثرك الله علينا** ﴾ أي اختارك وفضّلك علينا ﴿ **وإن كنا لخاطئين** ﴾ أي وإن شأننا وحالنا أنّا كنا خاطئين متعمدّين للإثم ، لم نتق ولم نصبر ، ولسان الحال يقول : لاجرم أن الله أعزّك بالمُلك ، وأذلنا بالتمسكن بين يديك ﴿ **قال لا تثريب عليكم اليوم** ﴾ أي لا تأنيب عليكم ، ولا عُتب ، ولاتعيير ، وقوله اليوم يفيد أنني لا أثربكم اليوم ، وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب ، فما ظنكم بغيره من الأيام ، ثم زادهم الدعاء بالمغفرة فقال ﴿ **يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾ أي إذا رحمتكم وأنا الفقير القتور ، فما ظنكم بالغني الغفور ﴿ **اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً** ﴾ أي يصر بصيراً ، أو يأت إليّ وهو بصير ﴿ **وَأتوني بأهلكم أجمعين** ﴾ أي بجميع آل يعقوب . لينعموا بآثار ملكي كما اغتمّوا بأخبار هلكي ﴿ **ولما فصلت العير** ﴾ أي خرجت من مصر ﴿ **قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون** ﴾ أي لولا أن تنسبوني إلى الخرف والكبر ، إذ التفنيد النسبة إلى الفند : وهو الخرف وإنكار العقل ، والمعنى : لولا تفنيدكم إياي لصدّقتموني ﴿ **قالوا** ﴾ أي أسباطه ﴿ **تالله إنك لفي ضلالك القديم** ﴾ أي لفي خطئك القديم من حب يوسف ، أو لفي نفس ذهابك القديم عن الصواب في إفراط محبتك ليوسف ، وعلى كل فقد قالوا كلمة غليظة ما ينبغي أن تقال لأب ، فكيف إذا كان رسولاً ﴿ **فلمّا أن جاء البشير** ﴾ **أي** حامل القميص ﴿ **ألقاه على وجهه** ﴾ أي طرح البشير القميص على وجه يعقوب ﴿ **فارتدّ بصيراً** ﴾ أي فرجع مبصراً ﴿ **قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله مالا تعلمون** ﴾ إشارة إلى أقواله السابقة ﴿**إني لأجد ريح يوسف** ﴾أو ﴿ **لا تيأسوا من روح الله** ﴾ أو ﴿**إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لاتعلمون**﴾ ، فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفّقين : ﴿ **قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين** ﴾ أي سل الله مغفرةَ ما ارتكبنا في حقّك وحقّ ابنك ، إنا تُبنا واعترفنا بخطايانا ﴿ **قال سوف أستغفر لكم ربي** ﴾ أخر الاستغفار إما لوقت ، أو ليتعرف حالهم في صدق التوبة ، أو إلى أن يسأل يوسف هل عفا عنهم ﴿ **إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ أي من تاب إليه تاب عليه ﴿ **فلما دخلوا على يوسف آوى إليه** ﴾ أي ضم إليه ﴿ **أبويه** ﴾ أي يعقوب وزوجته ، أي خالته ، والخالة أم ﴿ **وقال** ﴾ ثم بعد ذلك ﴿ **ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين** ﴾

من الجور والقحط والجهد ﴿ **ورفع أبويه على العرش** ﴾ أي على السرير ، أي أجلسهما معه على سريره ﴿ **وخرّوا له سُجّداً** ﴾ أي سجد له أبواه وإخوته الباقون ، وكانوا أحد عشر رجلاً ﴿ **وقال يا أبت هذا تأويل** ﴾ أي تعبير وتفسير ﴿ **رؤياي من قبل** ﴾ وهي التي قصّها الله تعالى في ابتداء القصة ﴿ **قد جعلها ربي حقاً** ﴾ أي صادقة ﴿ **وقد أحسن بي** ﴾ أي إليّ ﴿ **إذ أخرجني من السجن** ﴾ ولم يذكر الجبّ لقوله لا تثريب عليكم ، وهذا من كمال ذوقه ولطفه ﴿ **وجاء بكم من البدو** ﴾ أي من البادية لأنهم كانوا أصحاب مواش ينتقلون في المياه والمناجع ﴿ **من بعد أن نزغ الشيطان** ﴾ أي أفسد ﴿ **بيني وبين إخوتي** ﴾ ﴿ **إن ربي لطيف لما يشاء** ﴾ أي لطيف التدبير لما يشاء ، أي إذا أراد أمراً قيّض له أسباباً ، وقدّره ويسّره ﴿ **إنه هو العليم** ﴾ أي بمصالح عباده ﴿ **الحكيم** ﴾ في أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره ويريده ، فإن أخّر الآمال إلى آجال فلحكمة ، أو حكم بالائتلاف بعد الاختلاف فلحكمة ، وكل أفعاله حكمة ، ثم دعا بعد أن تمت عليه النعمة باجتماعه بأبويه وإخوته وما منّ الله به عليه من النبوة والملك ﴿ **رب قد آتيتني من الملك** ﴾ أي السلطان ﴿ **وعلمتني من تأويل الأحاديث** ﴾ أي تعبير الرؤيا ، أو تفسير كتب الله ، واستعماله للفظ (من) في الحالين وهي تفيد التبعيض إشارة إلى أنه لم يؤت إلا بعض ملك الدنيا ﴿ **فاطر السموات والأرض** ﴾ أي يا خالق السموات والأرض ﴿ **أنت وليي في الدنيا والآخرة** ﴾ أي أنت تتولاني بالنعمة في الدارين ، بوصل الملك الفاني بالملك الباقي ، ﴿ **توفّني مسلماً** ﴾ طلب الوفاة على حال الإسلام مع أنه رسول معصوم ليقتدي به قومه ، ومن بعده ممن ليس بمأمون العاقبة ﴿ **وألحقني بالصالحين** ﴾ من آبائي أو على العموم . وهكذا انتهت القصّة ولم يبق من السورة إلا خاتمتها .

فوائد :

١ ــ هذا المشهد الطويل الأخير موجود في التوراة الحالية من الإصحاح (٤٢) إلى الإصحاح (٤٧) من سفر التكوين وتحريف النساخ والرواة في هذه الإصحاحات ظاهر ، فمثلاً تذكر رواية التوراة الحالية أن يوسف عليه السلام في الرحلة الأولى احتجز أحد إخوته وهو شمعون ، ويعتمد هذا بعض المفسّرين . يُذكر هذا في الإصحاح الثاني والأربعين ولكننا نلاحظ بعد ذلك أن الإصحاح الثالث والأربعين يذكر كيف أن الجوع عضّ يعقوب وأهله حتى أمرهم بالعودة إلى مصر فرفضوا إلا أن يأخذوا بنيامين ، وليس في هذا التباطؤ ما يشير إلى أن هناك أخاً يحتاج إلى إنقاذ . وفي هذا الإصحاح نجد هذا

النص (وخذوا أخاكم وقوموا ارجعوا إلى الرجل والله القدير يعطيكم رحمة أمام الرجل حتى يطلق لكم أخاكم الآخر وبنيامين وأنا إذا عدمت الأولاد عدمتهم) فما معنى أن يقول : حتى يطلق لكم أخاكم الآخر وبنيامين . مع أن بنيامين على حسب هذه الرواية لم يبرح بعد . والإصحاحات هذه لا تذكر إلا رحلتين ثم الجلاء العام إلى مصر . فهذا النقل الذي نقلناه يدل على التحريف الواقع ، وهو أن رحلة من الرحلات قد أغفلت . وهي الرحلة الثانية التي أخذ فيها بنيامين . فبقي بسبب ذلك أحد إخوته في مصر من أجله ، وخلط موضوع الرحلة الثانية في موضوع الرحلة الأولى والثالثة ، إذ الإصحاحات تذكر أنه بعد اكتشاف سرقة بنيامين مباشرة كشف يوسف نفسه ، فليس بين الإعلان عن عبودية بنيامين وكلام يهوذا له ، ثم كشفه لهم أنفسهم إلا دقائق فما الفائدة إذن من كل العملية التي عملها يوسف في وضع الصاع في رحل أخيه إذا كان الأمر كذلك ؟ ثم لا نجد إطلاقاً أي كلام عن شمعون الذي احتجزه يوسف في المرة الأولى على زعم رواية التوراة الحالية بعد العودة . كل هذا يدل على أن الزمن قد عمل في تحريف الرواية ، وأن أقلام النساخ الكاذبة قد عملت عملها ، والله عز وجل في القرآن قد صحّح الخطأ وبيّن لنا الحقيقة . وهذا النص الذي نقلناه وحده كاف ليرينا نوعاً من أنواع الإعجاز في هذا القرآن ، ومن ثم فإننا لا نستطيع أن نأخذ من هذه الإصحاحات شيئاً يعتدّ به ، بل على العكس نقول إن هذه الإصحاحات فيها من النقص والتحريف والإجمال ما أكمله القرآن وسدّده وفصّله ، فمثلاً تذكر الإصحاحات أنه بعد اكتشاف الصاع في رحل بنيامين (وحمل كل واحد على حماره ورجعوا إلى المدينة) فلا تذكر الجمال مع أن النص القرآني يقول ﴿ **أيتها العير إنكم لسارقون** ﴾ فهل من المعقول في رحلة كهذه أن يكون الحمار هو أداة الحمل ، الظاهر أن الحمار لركوبهم ولابد أن يكون معهم جمال ، وفي الإصحاحات كما رأينا في النقل عن خطاب يهوذا ليوسف اقتراح من يهوذا أن يحل محل بنيامين في العبودية ، والقرآن يذكر أن كبيرهم هو الذي بقي في مصر من أجل بنيامين ، وكبيرهم هو رأوبين ، مع أن التوراة تذكر أن الذي احتجز أول مرة هو شمعون ، ومع أن المفسرين المسلمين يحتملون أن يكون المراد بكلمة كبيرهم ، كبيرهم في الرأي ، أو رئيسهم في رحلتهم ، إلا أننا نؤثر ألا نجزم في هذا الموضوع برأي ونبقي النص القرآني على ظاهره . حتى إن ابن كثير يرفض رواية التوراة جملة في كون أم يوسف راحيل كانت ميتة عندما ورد يعقوب عليه السلام إلى مصر ، أخذاً بظاهر النص القرآني ﴿ **ورفع أبويه على العرش** ﴾ إلا أن مفسرين آخرين لا

فاستمع الصوت ، فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود فسأل عبد الله عن ذلك فقال : إن يعقوب أخّر بنيه إلى السَّحر بقوله ﴿ **سوف أستغفر لكم ربي** ﴾

٥ ـــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وخرّوا له سُجّداً** ﴾ قال ابن كثير :(وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم ، إذا سلّموا على الكبير يسجدون له ، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام ، فحرم هذا في هذه الملّة ، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى ، هذا مضمون قول قتادة وغيره . وفي الحديث أن معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم ، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ ، فقال : « ما هذا يا معاذ ؟ » فقال : إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم ، وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله ، فقال : « لو كنتُ آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها » . وفي حديث آخر : أن سلمان لقي النبي ﷺ في بعض طرق المدينة – وكان سلمان حديث عهد بالإسلام – فسجد للنبي ﷺ . فقال : « لاتسجد لي يا سلمان واسجد للحي الذي لا يموت » . والغرض أن هذا كان جائزاً في شريعتهم ، لهذا خرّوا له سُجّداً ، فعندها قال يوسف : ﴿ **يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً** ﴾ أي هذا مآل إليه الأمر ، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر كما قال تعالى : ﴿ **هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله** ﴾ (الأعراف : ٥٣) أي يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا به من خير وشر .

٦ ـــ يذكر ابن كثير روايات متعددة عن المفسرين في الزمن الذي كان بين إلقاء يوسف في الجبّ وبين لقائه بأبيه ، ومرجع هذه الروايات كلها روايات أهل الكتاب . وإذا رجعنا إلى التوراة الحالية فإن المدة التي يمكن استخلاصها هي اثنان وعشرون عاماً ، إذ ألقي في الجب وهو ابن سبع عشرة عاماً ، وخرج من السجن وهو ابن ثلاثين . وكانت سنو الشبع سبعاً ، وجاء يعقوب إلى مصر بعد سنتين من الجوع .

٧ ـــ بمناسبة قوله تعالى على لسان يوسف : ﴿ **توفّني مسلماً وألحقني بالصالحين** ﴾ . قال ابن كثير : (وهذا الدعاء يحتمل أن يكون يوسف عليه السلام قاله عند احتضاره ، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول : « اللهم في الرفيق الأعلى » ، ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا جاء أجله وانقضى عمره ، لا أنه سأله ذلك منجزاً ، كما يقول الداعي لغيره : أماتك الله على الإسلام ، ويقول الداعي : اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين . ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً ، وكان ذلك سائغاً في ملّتهم

كما قال قتادة : قوله (توفّني مسلماً وألحقني بالصالحين) لما جمع الله شمله ، وأقرّ عينه ، وهو يومئذ مغمور في الدنيا وملكها ونضارتها ، اشتاق إلى الصالحين قبله ، وكان ابن عباس يقول : ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف عليه السلام ، وكذا ذكر ابن جرير والسدي عن ابن عباس أنه أول نبي دعا بذلك ، وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الإسلام ، وكما أن نوحاً أول من قال : ﴿ **رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً** ﴾ (نوح : ٢٨) ويحتمل أنه أول من سأل إنجاز ذلك ، وهو ظاهر سياق قول قتادة ، ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا . روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ... عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كان ولابد متمنياً الموت فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي » . وأخرجاه في الصحيحين . وعندهما : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، إما محسناً فيزداد ، وإما مسيئاً فلعله يستعتب . ولكن ليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي » . وروى الإمام أحمد ... عن أبي أمامة قال : جلسنا إلى رسول الله ﷺ فذكّرنا ورقّقنا ، فبكى سعد بن أبي وقاص . فأكثر البكاء ، وقال ياليتني مت ، فقال النبي ﷺ : « يا سعد أعندي تتمنى الموت ؟ » وردد ذلك ثلاث مرات ، ثم قال :«يا سعد إن كنت خلقت للجنة فما طال من عمرك وحسن من عملك فهو خير لك » . وروى الإمام أحمد ... عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، ولا يدعُ به من قبل أن يأتيه ، إلا أن يكون قد وثق بعمله ، فإنه إذا مات أحدكم انقطع عنه عمله ، وإنه لا يزيد المؤمن عمله إلا خيراً » . وهذا فيما إذا كان الضر خاصاً به ، وأما إذا كان فتنة في الدين فيجوز سؤال الموت ، كما قال الله تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهددهم بالقتل ﴿ **قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً و توفنا مسلمين** ﴾(الأعراف : ١٢٦)وقالت مريم لما أجاءها المخاض - إلى جذع النخلة ﴿ **ياليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً** ﴾ (مريم : ٢٣) لما علمت من أن الناس يقذفونها بالفاحشة لأنها لم تكن ذات زوج وقد حملت ووضعت وقد قالوا : ﴿ **يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً ، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوءٍ وما كانت أمك بغياً** ﴾ (مريم : ٢٧ ، ٢٨) فجعل الله لها من ذلك الحال فرجاً ومخرجاً ، وأنطق الصبي في المهد بأنه عبد الله ورسوله ، فكان آية عظيمة ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه ، وفي حديث معاذ الذي رواه الإمام أحمد والترمذي في قصة المنام والدعاء ، الذي فيه « وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني

إليك غير مفتون » . وروى الإمام أحمد ... عن محمود بن لبيد مرفوعاً : أن النبي ﷺ قال : « اثنتان يكرههما ابن آدم : يكره الموت والموت خير للمؤمن من الفتنة ، ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب » فعند حلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت ، ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر خلافته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له ، ولا يزداد الأمر إلا شدة فقال : اللهم خذني إليك فقد سئمتهم وسئموني . وقال البخاري رحمه الله لما وقعت له تلك الفتنة وجرى له مع أمير خراسان ما جرى . قال : اللهم توفني إليك ، وفي الحديث : « إن الرجل يمر بالقبر — أي في زمان الدجال — فيقول ياليتني مكانك » لما يرى من الفتن والزلازل والبلابل والأمور الهائلة التي هي فتنة لكل مفتون) .

٨ — أكثر المفسرين على أن السبب الذي دعا يعقوب إلى توصية أبنائه في الدخول من أبواب متفرقة هو خشيته عليهم من العين وليس في ذلك نص عن رسولنا عليه الصلاة السلام إلا أن النصوص كثيرة في إثبات أن العين حق وفي كتاب الأساس في السنة وفقهها نجد تفصيل ذلك .

٩ — لايوجد شيء في التوراة الحالية يشير إلى ماهية السرقة التي اتهم بها يوسف والتي أشار إليها إخوته بقولهم : ﴿ فقد سرق أخ له من قبل ﴾ وليس عن رسولنا عليه الصلاة والسلام كلام في هذا الموضوع ، إلا أن ابن كثير ينقل عن محمد بن إسحق عن مجاهد القصة التالية – والله أعلم بصحتها ولا ندري من أين نقلها مجاهد : — قال مجاهد : « كان أول ما دخل على يوسف من البلاء فيما بلغني أن عمته ابنة إسحاق ، وكانت أكبر ولد إسحاق ، وكانت إليها منطقة[1] إسحاق وكانوا يتوارثونها بالكبر ، وكان من أختبأها ممن وليها كان له سَلَمًا لا ينازَع فيه ، يصنع فيه ما يشاء ، وكان يعقوب حين وُلد له يوسف قد حضنته عمته ، وكان لها به وَلَه ، فلم تحب أحداً حبها إياه ، حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات تاقت إليه نفس يعقوب عليه السلام فأتاها فقال : يا أُخيَّة سلمي إليَّ يوسف ، فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة ، قالت : فوالله ما أنا بتاركته ، ثم قالت : فدعه عندي أياماً أنظر إليه وأسكن عنه لعل ذلك يسليني عنه – أو كما قالت — فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت : فَقدتُ منطقة إسحاق عليه السلام ، فانظروا من أخذها ومن أصابها ؟ .

---

(١) المنطقة : كل ما شدّ به الوسط .

فالتمست ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف ، فقالت : والله إنه لي لسَلَم أصنع فيه ما شئت ، فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر ، فقال لها : أنت وذاك إن كان فعل ذلك فهو سَلَم لك ، ما أستطيع غير ذلك ، فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت ، قال : فهو الذي يقول إخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه ﴿ **إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل** ﴾

١٠ ــ بمناسبة الكلام عن يوسف عليه السلام تكثر الروايات الإسرائيلية التي ينقلها بعضهم على أنها أحاديث وهي ليست كذلك وابن كثير نقل الكثير منها ورده ولم نشأ أن نعرج عليه

١١ ــ من استعطاف إخوة يوسف ليوسف من أجل أخيهم وهم لا يعرفون أنه يوسف ندرك أن الشفاعة إلى الحاكم في محلها جائزة ، إلا أنها في الإسلام خصت بما دون الحدود ، أما الحدود إذا وصلت إلى السلطان فلا يجوز لأحد أن يشفع فيها وفي كتاب الأساس في السنة وفقهها مزيد بيان .

١٢ ــ من قصة يوسف عليه السلام ندرك طرفاً من حكمة الله في أفعاله ، فما من فعل لله إلا وهو عين الحكمة ، ولكن قصور النظر وسوء الفهم وعمى القلب تبعد عن رؤية حكمة الله في أفعاله ، فمن رأى المحن المتوالية التي أصابت يوسف عليه السلام وآله ، وما ترتّب على ذلك من دخول يعقوب إلى مصر لتنشأ أمة جديدة في ظروف مواتية ، ومن رأى كيف أن هذا كان عبرة للخلق جميعاً ، حتى قصّة الله في توراته وقرآنه ، أدرك كثرة الحِكَم .

١٣ ــ إن دروس قصة يوسف عليه السلام كثيرة ، ومن أهمها أنه لا عاقبة لكيد الظالمين ولا لخياناتهم ، وأن العاقبة للاستقامة في كل حال ، فليستقم العبد على أمر الله لتكون له العاقبة في الدنيا والآخرة .

١٤ ــ من خلال قصة يوسف عليه السلام ندرك كثيراً من الخصائص العالية والنازلة للنفس البشرية عامة

١٥ ــ بعض المفسرين ظن ــ كأثر عن تسمية يوسف بالعزيز ــ أنه حلّ محلّ سيده في منصبه ، إلا أننا نلاحظ أن المنصبين مختلفان . ورواية التوراة الحالية تذكر أن منصب سيد يوسف كان رئيس الشرطة ، بينما منصب يوسف كان شيئاً آخر يمكن أن يسمى أنه نائب الملك المفوض ، أو الوزير المفوض ، ومن ثم فإننا نرجّح أن كلمة العزيز كانت لقباً لكل ذي منصب خطير كلقب الباشا مثلاً في مصر قديماً .

١٦ — في كتاب مالك بن نبي (الظاهرة القرآنية) كلام عن قصة يوسف في القرآن مقارنة مع قصة يوسف في التوراة الحالية ، وتعليق عليها ، وكانت له ملاحظات قيمة ، ولكنه وقع في عدة أخطاء في هذا الفصل فاقتضى التنوية ، ومن ملاحظاته في هذا الفصل بعد أن قارن بين فقرات من الرواية التوراتية الحالية لقصة يوسف وبين آيات من القرآن : (إن سوق التاريخ واحد تماماً في كلتا الروايتين ، ومع ذلك فإن التأمل السريع يكشف لنا عن عناصر خاصة تميز كلتيهما على حدة ، فرواية القرآن تغمر في مسحة روحانية نشعر بها في صفات الشخصيات وكلماتها التي يتحرك بها المشهد القرآني ، فهناك قدر كبير من حرارة الروح في كلمات يعقوب ومشاعره في القرآن ، فهو نبي أكثر منه أباً ، وتبرز هذه الصفة على الأخص في طريقته في التعبير عن بأسه عندما يعلم باختفاء يوسف ، كما تتجلى في طريقته في تصوير أمله حين يدفع بنيه إلى أن يتحسسوا من يوسف وأخيه ، وامرأة العزيز نفسها تتحدث في الرواية القرآنية بلغة تليق بضمير إنساني وخزه الندم ، وأرغمته طهارة الضحية ونزاهتها على الاستسلام ، فإذا بالخاطئة تعترف في النهاية بغلطتها ، وتقر بخطيئتها ، وفي السجن يتحدث يوسف بلغة روحية محلقة ، سواء مع صاحبيه ، أم مع السجّان ، فهو يتحدث كنبي يؤدي رسالته إلى كل نفس يرجو صلاحها)[١] .

مختارات من تعليقات صاحب الظلال على قصة يوسف :

إن القصة تعرض شخصية يوسف — عليه السلام — وهي الشخصية الرئيسية في القصة — عرضاً كاملاً في كل مجالات حياتها ، بكل جوانب هذه الحياة ، وبكل استجابات هذه الشخصية في هذه الجوانب وفي تلك المجالات . وتعرض أنواع الابتلاءات التي تعرّضت لها تلك الشخصية الرئيسية في القصة ، وهي ابتلاءات متنوّعة في طبيعتها وفي اتجاهاتها .. ابتلاءات الشدة وابتلاءات الرخاء . وابتلاءات الفتنة بالشهوة ، والفتنة بالسلطان . وابتلاءات الفتنة بالانفعالات والمشاعر البشرية تجاه شتى المواقف وشتى الشخصيات ، ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلها نقياً خالصاً متجرداً في وقفته الأخيرة ، متجهاً إلى ربه بذلك الدعاء المنيب الخاشع كما أسلفنا في نهاية الفقرة السابقة .

---

[١] الظاهرة القرآنية - الطبعة الأولى ١٩٥٨ ص ٢٤٤ .

وإلى جانب عرض الشخصية الرئيسية في القصة تعرض الشخصيات المحيطة بدرجات متفاوتة من التركيز . وفي مساحات متناسبة من رقعة العرض ، ومن أبعاد متفاوتة من مركز الرؤية ، وفي أوضاع خاصة من الأضواء والظلال .. وتتعامل القصة مع النفس البشرية في واقعيتها الكاملة ، متمثلة في نماذج متنوعة : نموذج يعقوب الوالد المحب الملهوف والنبي المطمئن الموصول .. ونموذج إخوة يوسف وهواتف الغيرة والحسد والحقد والمؤامرة والمناورة ، ومواجهة آثار الجريمة ، والضعف والحيرة أمام هذه المواجهة ، متميزاً فيهم أحدهم بشخصية موحدة السمات في كل مراحل القصة ومواقفها . ونموذج امرأة العزيز بكل غرائزها ورغائبها واندفاعاتها الأنثوية ، كما تصنعها وتوجهها البيئة المصرية الجاهلية في بلاط الملوك ، إلى جانب طابعها الشخصي الخاص الواضح في تصرفها ووضوح انطباعات البيئة .. ونموذج النسوة من طبقة العلية في مصر الجاهلية والأضواء التي تلقيها على البيئة ، ومنطقها كما يتجلى في كلام النسوة عن امرأة العزيز وفتاها ، في إغرائهن كذلك ليوسف وتهديد امرأة العزيز له في مواجهتهن جميعاً . وما وراء أستار القصور ودسائسها ومناوراتها ، كما يتجلى في سجن يوسف بصفة خاصة .. ونموذج « العزيز » وعليه ظلال طبقته وبيئته في مواجهة جرائم الشرف من خلال مجتمعه . ونموذج « الملك » في خطفة يتوارى بعدها كما توارى العزيز في منطقة الظلال بعيداً عن منطقة الأضواء في مجال العرض المتناسق وتبرز الملامح البشرية واضحة صادقة بواقعية كاملة في هذا الحشد من الشخصيات والبيئات ، وهذا الحشد من المواقف والمشاهد . وهذا الحشد من الحركات والمشاعر . وظلت القصة صورة نظيفة للأداء الواقعي الكامل مع تنوع الشخصيات وتنوع المواقف :

● إخوة يوسف والأحقاد الصغيرة في قلوبهم تكبر وتتضخم حتى تحجب عن ضمائرهم هول الجريمة وبشاعتها ونكارتها وضخامتها . ثم تزين لهم « المحلل الشرعي » الذي يخرجون به من تلك الجريمة . ملاحظا في هذا واقعيتهم في بيئتهم الدينية — وهم أولاد نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم — عليهم صلوات الله وسلامه وانطباعات هذه البيئة في تفكيرهم ومشاعرهم وتقاليدهم ، وحاجتهم النفسية — من ثم — إلى مبرر للجريمة ، وإلى طريقة للتحلل من نكارتها وبشاعتها .

● .... وامرأة العزيز في صراع الشهوة التي تعمى عن كل شيء في اندفاعها الهائج الكاسح ، فلا تحفل حياء أنثوياً ولا كبرياء ذاتيا ، كما لا تحفل مركزاً اجتماعياً ولا فضيحة عائلية . والتي تستخدم — مع ذلك — كل مكر الأنثى وكيدها ، سواء في تبرئة نفسها

أو حماية من تهوى من جرائر التهمة التي ألصقتها به ، وتحديد عقوبة لا تودي بحياته . أو رد الكيد للنسوة من ثغرة الضعف الغريزي الشهوي الذي تعرفه فيهن من معرفتها لنفسها ، أو التبجح بشهوانيتها أمام انكشاف ضعف عزيمتها وكبريائها أمام من تهوى ، ووقوف نسوتها معها على أرض واحدة ، حيث تبدو فيها الأنثى متجرّدة من كل تجمّل المرأة وحيائها ، الأنثى التي لا تحس في إرواء هواتفها الأنثوية أمراً يُعاب أصلاً . ومع صدق التصوير والتعبير عن هذا النموذج البشري الخاص بكل واقعيتها . وعن هذه اللحظة الخاصة بكل طبيعتها .

ــ ... يوسف العبد الصالح ــ الإنسان ــ ...... وهو يواجه الفتنة بكل بشريته ــ مع نشأته في بيت النبوة وتربيته ودينه ــ وبشريته مع نشأته وتربيته ودينه يمثل بمجموعها واقعيته بكل جوانبها .. لقد ضعف حين همت به .... ، ولكن الخيط الآخر شده وأنقذه من السقوط فعلاً . ولقد شعر بضعفه إزاء كيد النسوة . ومنطق البيئة ، وجو القصور ، ونسوة القصور أيضاً . ولكنه تمسّك بالعروة الوثقى .. ليست هنالك نحة واحدة مزوّرة في واقعية الشخصية وطبيعتها ، وليس هنالك رائحة من مستنقعات الجاهلية ووحلها الفني . ذلك أن هذا هو الواقع السليم بكل جوانبه .

● والعزيز . وشخصيته بطبيعتها الخاصة . وبطبيعة سمت الإمارة ، ثم بضعف النخوة ، وغلبة الرياء الاجتماعي وستر الظواهر وإنقاذها وفيه تتم كل خصائص بيئته .

● والنسوة . نسوة هذا المجتمع بكل ملامحه .. اللّغط بسيرة امرأة العزيز وفتاها الذي راودته عن نفسه ، بعدما شغفها حباً والاستنكار الذي تبدو فيه غيرة النسوة من امرأة العزيز أكثر مما يبدو فيه استنكار الفعلة ، ثم وهلتهن أمام طلعة يوسف . ثم إقرارهن الأنثوي العميق بموقف المرأة التي كن يلغطن به ويستنكرن موقفها ، وإحساس هذه المرأة بهذا الإقرار الذي يشجعها على الاعتراف الكامل ، وهي آمنة في ظل استسلامهن لأنوثتهن كما تصنعها بيئتهن الخاصة وتوجهها . ثم ميلهن كلهن على يوسف بالإغراء والإغواء ، رغم ما أنطقتهن به الوهلة الأولى من نظافته وطهارته البادية من قولهن : ﴿ **حاش لله ما هذا بشرا ، إن هذا إلا ملك كريم** ﴾ نأخذ ذلك من قولة يوسف عليه السلام : ﴿ **قال رب السجن أحبّ إليّ مما يدعونني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين** ﴾ .. فلم تعد امرأة العزيز وحدها تراوده ، ولكن عادت نسوة تلك الطبقة بجملتها تطارده .

● والبيئة التي تتجلى سماتها من خلال ذلك كله . ثم من خلال ذلك التصرُّف في أمر

يوسف ، على الرغم مما بدا من براءته . ذلك التصرف المقصود به مواراة الفضيحة ودفن معالمها ؛ ولابهم أن يذهب بريء كيوسف ضحيتها : ﴿ **ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين** ﴾ .

— فإذا تابعنا شخصية يوسف — عليه السلام — فإننا لا نفتقد في موقف واحد من مواقف القصة ملامح هذه الشخصية ، المنبثقة من مقوماتها الذاتية البيئية الواقعية ، المتمثلة في كونه « العبد الصالح — الإنسان — بكل بشريته ، مع نشأته في بيت النبوة وتربيته ودينه » ..

فهو في السجن وظلماته — مع الظلم وظلماته — لا يغفل عن الدعوة لدينه ، في كياسة وتلطّف — مع الحزم والفصل — وفي إدراك لطبيعة البيئة ومداخل النفوس فيها .. كما أنه لا يغفل عن حسن تمثيله بشخصيته وأدبه وسلوكه لدينه هذا الذي يدعو إليه في سجنه . وهو — مع هذا كله — بشر ، فيه ضعف البشر فهو يتطلب الخلاص من سجنه ، بمحاولة إيصال خبره إلى الملك ، لعله يكشف المؤامرة الظالمة التي جاءت به إلى السجن المظلم . وإن كان الله — سبحانه — شاء أن يعلمه أن يقطع الرجاء إلا منه وحده : ﴿ **وقال للذي ظن أنه ناج منهما : اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه . فلبث في السجن بضع سنين** ... ﴾

ثم تطالعنا ملامح هذه الشخصية كذلك بعد بضع سنين ، وقد رأى الملك رؤياه ، فحار في تأويلها الكهنةُ والسدنةُ ، حتى تذكّر صاحب السجن يوسف — بعدما تمت التربية الربانية للعبد الصالح . فاطمأن إلى قدر الله به واطمأن إلى مصيره — حتى إذا ما طلب الملك — بعد تأويله لرؤياه — أن يأتوه به ، أجاب في هدوء المطمئن الواثق ؛ وتمنع عن مغادرة سجنه إلا بعد تحقيق تهمته وتبرئة سمعته :

....

ومنذ هذه اللحظة التي تجلت فيها شخصية يوسف مكتملة ناضجة واعية ، مطمئنة ساكنة واثقة ، نجد هذه الشخصية تنفرد على مسرح الأحداث وتتوارى تماماً شخصيات ننت والعزيز والنسوة والبيئة .

....

ومنذ هذه اللحظة نجد هذه الشخصية تواجه ألواناً أخرى من الابتلاءات ، تختلف في طبيعتها عن الألوان الأولى ، وتواجهها بذلك الاكتمال الناضج الواعي ، وبتلك الطمأنينة الساكنة الواثقة .

• نجد يوسف وهو يواجه - للمرة الأولى - إخوته بعد ما فعلوا به تلك الفعلة القديمة ؛ وهو في الموقف الأعلى - بالقياس إليهم - والأقوى .. ولكننا نجد سمة الضبط واضحة في انفعالاته وتصرفاته .

• ونجده وهو يدبر - بتدبير الله له - كيف يأخذ أخاه . فنلمح الشخصية الناضجة الواعية الحكيمة المطمئنة ، الضابطة الصابرة .

ثم نلتقي به وقد استوفت المحنة بيعقوب أجلها ، وقدر الله أن تنقضي الابتلاءات التي نزلت به وبنيه ، وحَنّ يوسف إلى أبويه وأهله ، ورقّ لإخوته والضُّر بادٍ بهم ، فكشف لهم عن نفسه في عتاب رقيق ، وفي عفو كريم ، يجيء في أوانه ، وكل الملابسات توحي به ، ونتوقعه من هذه الشخصية بسماتها تلك .

....

وفي النهاية يجيء ذلك الموقف الجليل الرائع .... موقف اللقاء الجامع ويوسف في أوج سلطانه ، وأوج تأويل رؤياه وتحقق أحلامه .. وإذا به ينسلخ من هذا كله وينتحي جانباً ينفرد بربه ، ويناجيه خالصاً له ، وذلك كله مطروح وراءه : ﴿ **رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث . فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة . توفني مسلماً وألحقني بالصالحين** ﴾ إنها شخصية موحّدة متكاملة ، بكل واقعيتها الممثلة لمقوماتها الواقعية في نشأتها وبيئتها .

....

• ويعقوب .. الوالد المحب الملهوف ، والنبي المطمئن الموصول ، وهو يواجه بالاستبشار والخوف معاً تلك الرؤيا الواعدة التي رآها يوسف ، وهو يرى فيها بشائر مستقبل مرموق ، بينما هو يتوجس خيفة من الشيطان وفعله في نفوس بنيه . فتتجلى شخصيته بواقعيتها الكاملة في كل جوانبها .

... ثم نجد هذه الشخصية كذلك بكل واقعيتها البشرية النبوية ، وبنوه يراودونه عن يوسف ثم وهم يفاجئونه بالفجيعة .

.... ثم نلتقي بهذه الشخصية - بكل واقعيتها تلك - وبنوه يراودونه مرة أخرى على السلوة الباقية له .. أخي يوسف .. وقد طلبه منهم عزيز مصر - يوسف - الذي لا يعرفونه في مقابل أن يعطيهم كيلا يقتاتون به في السنوات العجاف .

.... ثم نلتقي به في فجيعته الثانية ، والداً ملهوفاً ونبياً موصولاً .. ذلك بعد أن دبّر الله

ليوسف كيف يأخذ أخاه . فيختلف أحد أبناء يعقوب - صاحب الشخصية الخاصة فيهم - متوافياً مع سماته التي صاحبت مواقفه كلها في القصة . مشفقاً أن يقابل أباه بعد الموثق الذي آتاه إياه ، إلا أن يأذن له أبوه أو يحكم له الله .

وفي آخر مواقف المحنة الطويلة للشيخ المبتلىٰ نجد ذات الملامح وذات الواقعية وهو يشم ريح يوسف في قميصه ، ويواجه غيظ بنيه وتبكيتهم فلا يشك في صدق ظنه بربه

....

إنها الشخصية الموحدة الخصائص والملامح ، الواقعية المشاعر والتصرفات ، الممثلة لكل واقعية ذاتها وظروفها وبيئتها بلا تزوير ولانقص ولا تحريف .

....

والواقعية الصادقة الأمينة النظيفة السليمة في الوقت نفسه ، لاتقف عند واقعية الشخصيات الإنسانية التي تحفل بها القصة في هذا المجال الواسع ، في هذا المستوى الرائع . ولكنها تتجلىٰ كذلك في واقعية الأحداث والسرد والعرض وصدقها وطبيعتها في مكانها وزمانها ، وفي بيئتها وملابساتها . فكل حركة وكل خالجة وكل كلمة تجيء في أوانها ؛ وتجيء في الصورة المتوقعة لها . وتجيء في مكانها من مسرح العرض . متراوحة بين منطقة الظل ومنطقة الضوء بحسب أهميتها ودورها وطبيعة جريان الحياة بها .. الأمر الملحوظ في الشخصيات أيضاً كما قررنا من قبل هذا ..

حتى لحظات الجنس في القصة ومواقفه أخذت مساحتها كاملة - في حدود المنهج النظيف اللائق « بالإنسان » - في غير تزوير ولا نقص ولا تحريف للواقعية البشرية في شموها وصدقها وتكاملها - ولكن استيفاء تلك اللحظات لمساحتها المتناسقة مع بقية الأحداث والمواقف - لم يكن معناه الوقوف أمامها كما لو كانت هي كل واقعية الكائن البشري ؛ وكما لو كانت هي محور حياته كلها ، وهي كل أهداف حياته التي تستغرقها . كما تحاول الجاهلية أن تفهمنا أن هذا وحده هو الفن الصادق .

إن الجاهلية إنما تمسخ الكائن البشري باسم الصدق الفني . وهي تقف أمام لحظة الجنس كما لو كانت هي كل وجهة الحياة البشرية بجملتها ، فتنشيء منها مستنقعاً واسعاً عميقاً ، مزيناً في الوقت ذاته بالأزهار الشيطانية .

وهي لا تفعل هذا لأن هذا هو الواقع ، ولا لأنها هي مخلصة في تصوير هذا الواقع . إنما تفعله لأن « بروتو كولات صهيون » تريد هذا تريد تجريد « الإنسان » إلا

من حيوانيته حتى لا يوصم اليهود وحدهم بأنهم هم الذين يتجردون من كل القيم غير المادية ، وتريد أن تغرق البشرية كلها في وحل المستنقع كي تنحصر فيه كل اهتماماتها ، وتستغرق فيه كل طاقاتها ؛ فهذه أضمن سبيل لتدمير البشرية حتى تجثو على ركبتيها خاضعة لملك صهيون المرتقب الملعون . ثم تتخذ من الفن وسيلة إلى هذا الشر كله ، إلى جانب ما تتخذه من نشر المذاهب « العلمية » المؤدية إلى ذات الهدف . تارة باسم « الداروينية » وتارة باسم « الفرويدية » وتارة باسم « الماركسية » أو « الاشتراكية العلمية » وكلها سواء في تحقيق المخططات الصهيونية الرهيبة .

والقصة بعد ذلك تتجاوز الشخصيات والأحداث لترسم ظلال الفترة التاريخية التي تجري فيها أحداث القصة ، وتتحرك فيها شخصياتها الكثيرة ، وتسجّل سماتها العامة ، فترسم مسرح الأحداث بأبعاده العالمية في تلك الفترة التاريخية . ونكتفي ببعض اللمحات والسهام التي ترسم تلك الأبعاد :

● إن مصر في هذه الفترة لم يكن يحكمها الفراعنة من الأسر المصرية ؛ إنما كان يحكمها « الرعاة » الذين عاش إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام قريباً منهم ، فعرفوا شيئاً عن دين الله منهم : نأخذ هذا من ذكر القرآن للملك بلقب « الملك » في حين يسمي الملك الذي جاء على عهد موسى - عليه السلام - من بعده بلقبه المعروف « فرعون » ومن هذا يتحدد زمن وجود يوسف - عليه السلام - في مصر . فهو كان ما بين عهد الأسرة الثالثة عشرة والأسرة السابعة عشرة ، وهي أسر « الرعاة » الذين سماهم المصريون « الهكسوس » كراهية لهم ، إذ يقال : إن معنى الكلمة في اللغة المصرية القديمة : « الخنازير » أو « رعاة الخنازير » وهي فترة تستغرق نحو قرن ونصف قرن .

إن رسالة يوسف عليه السلام كانت في هذه الفترة . وهو كان قد بدأ الدعوة إلى الإسلام .. ديانة التوحيد الخالص .. وهو في السجن وقرر أنها دين آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وقررها في صورة واضحة كاملة دقيقة شاملة) اهـ .

كلمة في السياق

عندما تقرأ قصة يوسف - عليه السلام في القرآن ، وتقرؤها في التوراة الحالية المحرفة ، تجد نفسك أمام كلام في القرآن هو القمة في البلاغة والعذوبة ، وتجد كلاماً تدلك معانيه على أنه كلام الله من خلال ما يعطيك من عِبَر ومن عظات ومن دروس

ترفع النفس البشرية إلى درجات رفيعة ، بينما لا نحس هذا الإحساس أثناء قراءتك للتوراة الحالية المحرفة بسبب ما طرأ على هذه التوراة من تحريف ، ولأن الله جعل للقرآن الهيمنة على كل كتاب سابق ، فإذا وَجد الإنسان مثل هذا الكمال في العرض ، ومثل هذه الدقة في تفصيل حق ضاعت تفصيلاته حتى عند أهله ، ندرك كيف أنه بهذه السورة تقوم الحجة على الخلق في أن هذا القرآن من عند الله ، وهذا يؤكد مالاحظناه أن محور سورة يوسف هو قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ...** ﴾ وقد لاحظنا كيف أن السورة بدأت بقوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون نحن نقصّ عليك أحسن القصص .....** ﴾ فقصة يوسف في هذه السورة دليل على أن هذا القرآن منزل من عند الله على رسول الله محمد ﷺ ، وهذه السورة - لمن تأملها - تقطع دابر كل ريب في أي قلب راغب بالحق ، حريص عليه ، ويتكامل هذا المعنى في أذهاننا بعد استعراضنا لخاتمة السورة .

☆ ☆ ☆

خاتمة السورة

وتمتد من الآية (١٠٢) إلى نهاية الآية (١١٦) وهذه هي :

ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

التفسير :

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف عليه السلام والخطاب لرسول الله ﷺ

﴿ من أنباء الغيب ﴾ أي من أخبار الغيوب السابقة ﴿ نوحيه إليك ﴾ ونعلمك به لما فيه من العبرة والعظة وإقامة الحجة ﴿ وما كنت لديهم ﴾ حاضراً عندهم ولا مشاهداً لهم ﴿ إذ أجمعوا أمرهم ﴾ أي عزموا على ما همّوا به من إلقاء يوسف عليه السلام في البئر ﴿ وهم يمكرون ﴾ أي بيوسف ويبغون له الغوائل ، والمعنى : أن هذا النبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي ، لم تحضر بني يعقوب حين اتفقوا على إلقاء أخيهم في البئر ، ولست ممن درس ويدرس حتى تتعلّم مثل ذلك بواسطة الدراسة ، فلا كتب أهل الكتاب موجودة عندك ، ولا مترجمة ، ولا يوجد من تأخذ عنه ، إذ لو كان لعرف ، وليس هذا شائعاً عند قومك حتى تعرفه ، فقامت الحجة على كل أحد بأن هذا القرآن من عند الله يوحيه إليك ، ومع وضوح الحجة في هذا الأمر وقيام الدليل القطعي ، فالأمر ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت ﴾ أي ولو اجتهدت كل الاجتهاد على إيمانهم ﴿ بمؤمنين ﴾ لابسبب من قصور الحجة ، ولا بسبب من قصور الدليل ، ولكن لانطماس عين البصيرة وصمم القلب والكبر ، الذي يمنع من الانصياع للحق ، هذا مع أنك يا محمد متبرّع بتعليمهم لا تطالبهم على ذلك بأجر ، مع أنه لا علم في هذا العالم أشرف ولا أكرم ولا أعظم مما تعلمهم إياه وتدعوهم إليه ولذلك قال ﴿ وما تسألهم عليه﴾ أي على التبليغ أو على القرآن أو على الهدى ﴿ من أجر ﴾ مال أو غيره أي وما تسألهم على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من مكافأة ، وإنما تفعله ابتغاء وجه الله ، ونصحاً لخلقه ، وفي هذا دليل آخر على أنك رسول الله ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أي ما هو إلا عظة من الله للعالمين ، وحث على طلب النجاة بواسطة رسول من رسله من أجل أن يتذكروا ويهتدوا وينجوا في الدنيا والآخرة .

ملاحظة حول السياق :

نلاحظ في السورة السابقة على سورة يوسف أنه بعد ذكر القصص قال تعالى : ﴿ **ذلك من أنباء القرى نقصّه عليك منها قائم وحصيد وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء** ﴾ . فبعد أن ذكر هناك القصص ، ذكر الحكمة من إيرادها ، وهي إقامة الحجة على ضرورة عبادة الله ، وترك عبادة غيره ، إذ لم تنفع عبادة غيره هذه القرى ، بل دمّرتهم وهكذا يأتي اسم الإشارة (ذلك) ليبين الحكمة من إيراد هذه القصص في ما يحقق هدف السورة ضمن

محورها الأمر بالعبادة ، وههنا في قصة يوسف عليه السلام نلاحظ أنه بعد ما قصّ الله علينا قصة يوسف قال : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ، وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وماتسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين** ﴾ ليبين لنا ربنا الحكمة من إيراد هذه القصة بما يحقق الهدف من إيرادها ضمن المحور العام لها ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ....** ﴾ بما يقوم به الحجة على الخلق فلنتنبه إلى هذا المعنى الذي تستشعر فيه وحدة السورة ، مع وحدة الربط بينها وبين السياق القرآني العام

ولنعد إلى السياق :

لقد رأينا فيما مرّ من خاتمة السورة أن الحجة على الناس تقوم بذكر قصة يوسف في القرآن ، ولكن يحول دون الإيمان عمى عن الآيات ، ثم تأتي الآن آية لتبين أن عمى هؤلاء عن الآيات والحجج في السورة يجري على نسق واحد ، مع عماهم عن آيات الله في الأرض والسماء ، ومن ثم قال تعالى : ﴿ **وكأيّن من آية** ﴾ أي من علامة ودلالة على الخالق وصفاته ﴿ **في السموات والأرض يمرّون عليها** ﴾ على الآيات ﴿ **وهم عنها** ﴾ أي عن الآيات ﴿ **معرضون** ﴾ أي لا يعتبرون بها ، وإذا آمنوا فإن إيمانهم يرافقه شرك فقال : ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله** ﴾ وبأنه خلقهم وخلق السموات والأرض وما فيهما من آيات ﴿ **إلا وهم مشركون** ﴾ بوثن أو بشر أو حجر أو قمر أو شمس أو طبيعة أو غير ذلك ، فقد أقام الله الحجة على خلقه بهذا القرآن ، ومع ذلك لم يؤمن أكثرهم ، وأقام الحجة على خلقه بآياته في الكون ومع ذلك لم يلتفتوا إليها ، وأكثر من يلتفت إليها يؤمن بالله على شرك ، فليس القصور في الحجة ، ولكن في العمى والسلوك المنحرف ، ثم أنذر الله عز وجل هؤلاء فقال : ﴿ **أفأمنوا أن تأتيهم غاشية** ﴾ أي عقوبة تغشاهم وتشملهم ﴿ **من عذاب الله** ﴾ إن لم يؤمنوا واستمروا على شركهم ﴿ **أو تأتيهم الساعة** ﴾ أي القيامة ﴿ **بغتة** ﴾ أي فجأة ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ بإتيانها فإذا كان الأمر أنهم بين مداهمة عذاب الله ، أو مداهمة القيامة ، فكيف لا يؤمنون ، وكيف يشركون ، ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يعلن أمام جحودهم وأمام شركهم . ﴿ **قل هذه سبيلي** ﴾ أي طريقي ومسلكي وسنتي ، والإشارة في الآية إلى الدعوة السابقة المتمثلة بالإيمان والتوحيد والمعنى : هذه سبيلي التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد : ثم فسّر هذه السبيل بقوله ﴿ **أدعوا إلى الله على بصيرة** ﴾ أي أدعو إلى دينه

بحجة واضحة غير عمياء مع يقين وبرهان ﴿ أنا ومن اتبعني ﴾ أي أدعوا إلى سبيل الله أنا ، ويدعو إليه من اتبعني ، فهو ومن اتبعه عليه الصلاة والسلام يدعون إلى الله على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي ، أو المعنى : أن رسول الله ﷺ ومن اتبعه على حجة وبرهان لا على هوى ﴿ وسبحان الله ﴾ أي وأنزهه وأجلّه وأعظّمه وأقدّسه عن أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو ند أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير أو أن يكون معه فاعل ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ مع الله غيره ، فسبيله عليه الصلاة والسلام ، وسبيل أتباعه الدعوة إلى الإيمان والتوحيد على بصيرة ، مع تنزيههم الله وإخلاصهم في توحيده ، فإذا لم يجتمع للداعية إلى الله هذه المعاني لا يكون على قدم رسول الله ﷺ : الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، مع التلبس الكامل بالتنزيه والتحقق بالتوحيد ، مع الدعوة البصيرية المبصرة التي لا تلتبس حجتها الواضحة ، وما أقل من تجتمع له هذه المعاني في عصرنا ، وحتى في العصور التي جاءت بعد عصر السلف ، وهكذا أقام الله عز وجل الحجة لرسالة رسولنا ﷺ بمضمونها وبحاله عليه الصلاة والسلام حال أتباعه ، بعد أن أقام الحجة عليهم - كما رأينا - بمضمون قصة يوسف .

ومن الآية الأخيرة ندرك أن دعوة رسول الله ﷺ تقوم على الدعوة إلى الإيمان والتوحيد بالبرهان المبصر والحجة الواضحة ، مع التلبس بكمال التنزيه وكمال التوحيد ، واجتماع هذه المعاني هي سبيل رسول الله ﷺ ، ومشكلة عصرنا أن كثيراً من الدعاة إلى الله لا يعطون الدعوة إلى الإيمان والتوحيد مداها ، كما أن الكثيرين منهم يدعون إلى جوانب ليست الحجة فيها واضحة ، فمَن من الدعاة قد تحقق بالتنزيه الكامل لله إقراراً واستشعاراً ، ومَنْ من الدعاة من لا يسير إلا على ما قامت عليه الحجة العقلية أو النقلية ، ومَن من الدعاة يعطي الدعوة إلى التوحيد والإيمان مكانهما الصحيح الأول . ومَنْ من الدعاة لا يعارض الصحيح بالضعيف ويتلبس بما دلّ عليه حديث موضوع ، ويناقض عقلاً بناقل ، أو نقلاً بعقل .

نقول من الظلال :

نقل هنا ثلاثة نقول من الظلال : الأول حول قوله تعالى : ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون ﴾ . قال صاحب الظلال : (والآيات الدالة على الله وحدانيته وقدرته كثيرة مبثوثة في تضاعيف الكون . معروضة للأبصار والبصائر . في السموات وفي الأرض يمرّون عليها صباح مساء ، آناء الليل

وأطراف النهار . وهي ناطقة تكاد تدعو الناس إليها . بارزة تواجه العيون والمشاعر . موحية تحايل للقلوب والعقول ولكنهم لا يرونها ولا يسمعون دعاءها ولا يحسون إيقاعها العميق .

وإن لحظة تأمل في مطلع الشمس ومغيبها . لحظة تأمل في الظل الممدود ينقص بلطف أو يزيد . لحظة تأمل في الخضم الزاخر ، والعين الفوارة والنبع الروي . لحظة تأمل في النبتة النامية ، والبرعم الناعم ، والزهرة المتفتحة ، والحصيد الهشيم ، لحظة تأمل في الطائر السابح في الفضاء ، والسمك السابح في الماء ، والدود السارب ، والنمل الدائب ، وسائر الحشود والأمم من الحيوان والحشرات والهوام .. لحظة تأمل في صبح أو مساء في هدأة الليل أو في زحمة النهار .. لحظة واحدة يتسمّع فيها القلب البشري إلى إيقاعات هذا الوجود العجيب .. إن لحظة واحدة لكافية لارتعاش هذا القلب بقشعريرة الإدراك الرهيب والتأثر المستجيب . ولكنهم ﴿ **يمرون عليها وهم عنها معرضون** ﴾ لذلك لا يؤمن الأكثرون !

وحتى الذين يؤمنون ، كثير منهم يتدسس الشرك - في صورة من صوره - إلى قلوبهم . فالإيمان الخالص يحتاج إلى يقظة دائمة تنفي القلب أولا بأول كل خالجة شيطانية وكل اعتبار من اعتبارات هذه الأرض في كل حركة وكل تصرف لتكون كلها لله . خالصة له دون سواه ، والإيمان الخالص يحتاج إلى حسم كامل في قضية السلطان على القلب وعلى التصرف والسلوك فلا تبقى في القلب دينونة إلا لله سبحانه ولا تبقى في الحياة عبودية إلا للمولى الواحد الذي لا راد لما يريد)

والنقل الثاني من الظلال حول قوله تعالى : ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ .. قال صاحب الظلال :(مشركون قيمة من قيم هذه الأرض في تقديرهم للأحداث والأشياء والأشخاص . مشركون سببا من الأسباب مع قدرة الله في النفع أو الضر سواء . مشركون في الدينونة لقوة غير قوة الله من حاكم أو موجّه لا يستمد من شرع الله دون سواه . مشركون في رجاء يتعلق بغير الله من عباده على الإطلاق . مشركون في تضحية يشوبها التطلع إلى تقدير الناس . مشركون في جهاد لتحقيق نفع أو دفع ضر ولكن لغير الله . مشركون في عبادة يلحظ فيها وجه مع وجه الله .. لذلك يقول رسول الله - ﷺ - : « الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل » وفي الأحاديث نماذج من هذا الشرك الخفي ، روى الترمذي - وحسنه - من رواية ابن عمر ، « من

حلف بغير الله فقد أشرك » وروى أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ - : « إن الرقى والتمائم شرك » وفي مسند الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « من علق تميمة فقد أشرك »

وعن أبي هريرة - بإسناده - قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه » وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد بن أبي فضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله ، فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » .

وروى الإمام أحمد - بإسناده - عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا : وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟ قال : « الرياء . يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جاء الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء » ؟

فهذا هو الشرك الخفي الذي يحتاج إلى اليقظة الدائمة للتحرز منه ليخلص الإيمان . وهناك الشرك الواضح الظاهر ، وهو الدينونة لغير الله في شأن من شؤون الحياة الدنيوية في شرع يتحاكم إليه - وهو نص في الشرك لايجادل عليه ...

والأمر في مثل هذه الشؤون يتجاوز منطقة الإثم والذنب بالمخالفة حين يكون طاعة العبيد .. إنه عندئذ لا يكون ذنباً ولكنه شرك ، لأنه يدل على الدينونة لغير الله فيما يخالف أمر الله .. وهو من هذه الناحية أمر خطير .. ومن ثم يقول الله .. **﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾** ..

والنقل الثالث حول قوله تعالى :

﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ قال صاحب الظلال : (هذه طريقي فمن شاء فليتابع ، ومن لم يشأ فأنا سائر في طريقي المستقيم وأصحاب الدعوة إلى الله لابد لهم من هذا التميز ، لابد لهم أن يعلنوا أنهم أمة وحدهم يفترقون عمن لا يعتقد عقيدتهم ، ولا يسلك مسلكهم ، ولا يدين لقيادتهم ، ويتميزون ولا يختلطون ولا يكفي أن يدعو أصحاب هذا الدين إلى دينهم ، وهم متميّعون في المجتمع الجاهلي ، فهذه الدعوة لا تؤدي شيئاً ذا قيمة إنه لابد لهم منذ اليوم الأول أن يعلنوا أنهم شيء آخر غير الجاهلية وأن يتميزوا بتجمع خاص

آصرته العقيدة المتميزة وعنوانه القيادة الإسلامية .. لابد أن يميزوا أنفسهم من المجتمع الجاهلي وأن يميزوا قيادتهم من قيادة المجتمع الجاهلي أيضاً !

إن اندغامهم وتميعهم في المجتمع الجاهلي ، وبقاءهم في ظل القيادة الجاهلية يذهب بكل السلطان الذي تحمله عقيدتهم وبكل الأثر الذي يمكن أن تنشئه دعوتهم وبكل الجاذبية التي يمكن أن تكون للدعوة الجديدة

وهذه الحقيقة لم يكن مجالها فقط هو الدعوة النبوية في أوساط المشركين .. إن مجالها هو مجال هذه الدعوة كلما عادت الجاهلية فغلبت على حياة الناس .. وجاهلية القرن العشرين لا تختلف في مقوماتها الأصلية ، وفي ملامحها المميزة عن كل جاهلية أخرى واجهتها الدعوة الإسلامية على مدار التاريخ .

والذين يظنون أنهم يصلون إلى شيء ، عن طريق التميع في المجتمع الجاهلي والأوضاع الجاهلية والتدسس الناعم من خلال تلك المجتمعات ومن خلال هذه الأوضاع بالدعوة إلى الإسلام .. هؤلاء لايدركون طبيعة هذه العقيدة ولا كيف ينبغي أن تطرق القلوب ! ..

إن أصحاب المذاهب الإلحادية أنفسهم يكشفون عن عنوانهم وواجهتهم ووجهتهم أفلا يعلن أصحاب الدعوة إلى الإسلام عن عنوانهم الخاص ؟ وطريقهم الخاص ؟ وسبيلهم التي تفترق تماماً عن سبيل الجاهلية ؟) اهـ

ولنعد إلى السياق :

﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً** ﴾ لا ملائكة ﴿ **نوحي إليهم** ﴾ فلست بدعاً من الرسل حتى يستغرب الناس بعثتك ﴿ **من أهل القرى** ﴾ أي المدن لأنهم أحلم وأرق طباعاً وألطف ، وأكثر ألفة وتألفاً لكثرة العشرة والخلطة ، فإرسالك إذن على نفس السنة ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ أي من الأمم المكذبة للرسل كيف دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، فمن نظر اعتبر وآمن . فالله عزّ وجلّ يلفت نظر هؤلاء إلى مجموعة سنن له من تأمّلها آمن ، وانتفى ريبه وشكّه برسالة رسول الله وبالكتاب المنزل عليه ، وفي الوقت نفسه فمن نظر وتدبّر عاقبة الماضين في نجاة المؤمنين وإهلاك الكافرين اتعظ وآمن ﴿ **ولدار الآخرة خير للذين اتقوا** ﴾ الله ، بفعل طاعته واجتناب معصيته ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ عن الله آياته وسننه ، ثم بيّن الله سنته في نصرة رسله أنها لا تأتي بسرعة ، وفي قصة يوسف عليه السلام نموذج ﴿**حتى إذا**

استيئس الرسل ﴾ أي يئسوا من إيمان القوم ﴿ **وظنوا أنهم قد كُذبوا** ﴾ أي وظن أقوامهم أن الرسل قد أُخلفوا ما وعدوه ، أو وظن المرسَل إليهم أنهم كذبوا من جهة الرسل ، أي كذبتهم الرسل في أنهم ينصرون عليهم ولم يصدقوهم فيه ، وهناك قراءة بتشديد الذال ، ومعناها على هذا : وأيقن الرسل أن قومهم كذبوهم ﴿ **جاءهم نصرنا** ﴾ أي جاء الأنبياء والمؤمنين بهم النصرُ فجأة من غير احتساب ﴿ **فنُجّيَ من نشاء** ﴾ أي النبي ومن آمن به ﴿ **ولا يُردُّ بأسنا** ﴾ أي عذابنا ﴿ **عن القوم المجرمين** ﴾ أي الكافرين ﴿ **لقد كان في قَصَصِهم** ﴾ أي لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم وكيف جعلنا العاقبة لهم كما رأيت نموذج ذلك في قصة يوسف ﴿ **عبرة لأولي الألباب** ﴾ أي عظة لأصحاب العقول ، وقد رأينا في قصة يوسف كيف نقل من غيابة الجب إلى نهاية الحب ، ومن الحصير إلى السرير . فصارت عاقبة الصبر سلامة وكرامة ، ونهاية المكر وخامة وندامة ﴿ **ما كان حديثاً يُفترى** ﴾ أي ما كان القرآن حديثاً مفترى كما زعم الكفار ، ولا يتصور أن بالإمكان أن يفترى هذا القرآن على الله إلا مجنون ﴿ **ولكن تصديق الذي بين يديه** ﴾ أي من الكتب المنزلة من السماء فهو يصدّق ما فيها من الصحيح ، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير ، وقد رأينا في قصة يوسف نموذجاً ، وكتاب هذا شأنه منزل على الرسول الأمي ما كان ليكون إلا من عند الله ﴿ **وتفصيل كل شيء** ﴾ من تحليل وتحريم ، ومحبوب ومكروه ، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات ، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات ، والإخبار عن الأمور الجليلة ، وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية ، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات ، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات ، وبالجملة فإن القرآن تفصيل لكل شيء يحتاج إليه في الدين لأنه كما قال النسفي : القانون الذي تستند إليه السُّنة والإجماع والقياس ، ومن هذه الآية ومن قوله تعالى : ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء** ﴾ فهم العلماء أنه ما من قضية إلا ولله فيها حكم ، عرفه مَنْ عرفه ، وجهله مَنْ جهله ، وكتاب هذا شأنه لا يمكن أن يكون إلا من عند الله ﴿ **وهدى** ﴾ من الضلال ﴿ **ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ بالله وأنبيائه في الدنيا والآخرة .

وكتاب هذا شأنه فيه الهدى في كل أمر ، وفيه الرحمة في شأن الدنيا والآخرة ، في شأن الجسد والقلب ، في شأن الروح والعقل ، في شأن الفرد والمجتمع ، كتاب هذا شأنه لا يمكن أن يكون إلا من عند الله ، وهكذا حطّمت سورة يوسف الريب في سياقها العام ،

وأعطت في كل آية من آياتها دورساً لا تنتهي ، ومن دروسها العامة ما قاله النسفي : قال أبو منصور رحمه الله : في ذكر قصة يوسف عليه السلام وإخوته تصبير لرسول الله ﷺ على أذى قريش كأنه يقول : إن إخوة يوسف مع موافقتهم إياه في الدين ومع الأخوة عملوا بيوسف ما عملوا من الكيد والمكر ، وصبّر على ذلك ، فأنت مع مخالفتهم إياك في الدين أحرى أن تصبر على أذاهم ، ومن دروسها : أن على أهل الإيمان أن يثقوا بحسن العاقبة .

وبمناسبة قوله تعالى ﴿ حتى إذا استيئس الرسل ... ﴾

قال صاحب الظلال :

تلك سنة الله في الدعوات لابد من الشدائد ولابد من الكروب حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة . ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس . يجيء النصر من عند الله فينجو الذين يستحقون النجاة ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين ، وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون ويحل بأس الله بالمجرمين ، مدمّراً ماحقاً لا يقفون له ولايصده عنهم ولي ولا نصير .

ذلك كي لا يكون النصر رخيصاً فتكون الدعوات هزلاً . فلو كان النصر رخيصاً لقام في كل يوم دعيّ بدعوة لا تكلفه شيئاً أو تكلفه القليل . ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثاً ولا لعباً فإنما هي قواعد للحياة البشرية ومناهج ينبغي صيانتها وحراستها من الأدعياء .والأدعياء لا يحتملون تكاليف الدعوة لذلك يشفقون أن يدّعوها فإذا ادّعوها عجزوا عن حملها وطرحوها وتبين الحق من الباطل على محك الشدائد التي لا يصمد لها إلا الواثقون الصادقون الذين لا يتخلون عن دعوة الله ولو ظنوا أن النصر لا يجيئهم في هذه الحياة !

إن الدعوة إلى الله ليست تجارة قصيرة الأجل إما أن تربح ربحاً معيناً محدوداً في هذه الأرض وإما أن يتخلى عنها أصحابها إلى تجارة أخرى أقرب ربحاً وأيسر حصيلة ، والذي ينهض بالدعوة إلى الله في المجتمعات الجاهلية - والمجتمعات الجاهلية هي التي تدين لغير الله بالطاعة والاتباع في أي زمان أو مكان - يجب أن يوطن نفسه على أنه لا يقوم برحلة مريحة ولا يقوم بتجارة مادية قريبة الأجل ، إنما ينبغي له أن يستيقن أنه يواجه طواغيت يملكون القوة والمال ، ويملكون استخفاف الجماهير حتى ترى الأسود أبيض والأبيض أسود ، ويملكون تأليب هذه الجماهير ذاتها على الدعوة إلى الله ، باستثارة شهواتها وتهديدها بأن أصحاب الدعوة إلى الله يريدون حرمانها من هذه الشهوات !.. ويجب أن

يستيقنوا أن الدعوة إلى الله كثيرة التكاليف وأن الانضمام إليها في وجه المقاومة الجاهلية كثير التكاليف أيضاً وأنه من ثم لا تنضم إليها - في أول الأمر - الجماهير المستضعفة المستخفة إنما تنضم إليها الصفوة المختارة في الجيل كله التي تؤثر حقيقة هذا الدين على الراحة والسلامة ، وعلى كل متاع هذه الحياة الدنيا .

وأن عدد هذه الصفوة يكون دائماً قليلاً جداً ولكن الله يفتح بينهم وبين قومهم بالحق بعد جهاد يطول أو يقصر ، وعندئذ فقط تدخل الجماهير في دين الله أفواجاً . وفي قصة يوسف ألوان من الشدائد في الجب ، وفي بيت العزيز ، وفي السجن وألوان من الاستيئاس من نصرة الناس .. ثم كانت العاقبة خيراً للذين اتقوا - كما هو وعد الله الصادق الذي لا يخيب - وقصة يوسف نموذج من قصص المرسلين فيها عبرة لمن يعقل ، وفيها تصديق ما جاءت به الكتب المنزله من قبل ، على غير صلة دراسية بين محمد ﷺ وهذه الكتب فما كان ممكناً أن يكون ما جاء به حديثاً مفترى ، فالأكاذيب لا يصدّق بعضها بعضاً ولا تحقق هداية ولا يستروح فيها القلب المؤمن الروح والرحمة : ﴿ **لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يُفترىٰ ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ . اهـ

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ يذكر ابن كثير مجموعة من الأحاديث والآثار ينتظمها أنها في موضوع الشرك الخفي أو الظاهر . وكعادتنا في حذف الأسانيد والاكتفاء برواية من المكرر ننقل الروايات التالية :

(في الصحيحين : أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك) وفي صحيح مسلم : أنهم كانوا إذا قالوا : لبيك لا شريك لك قال رسول الله ﷺ : « قد قد » أي حسب حسب لا تزيدوا على هذا ، وقال الله تعالى : ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم** ﴾(لقمان : ١٣) وهذا هو الشرك الأعظم : يعبد مع الله غيره ، كما في الصحيحين : عن ابن مسعود قلت : يارسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » . وقال الحسن البصري في قوله : ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ قال : ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس وهو مشرك بعمله ذلك يعني قوله : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا**

قليلاً ﴾ (النساء : ١٤٢) وثَمَّ شرك آخر خفي لا يشعر به غالباً فاعله ، كما روى حماد ابن سلمة .... عن عروة قال : دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيراً فقطعه - أو انتزعه - ثم قال : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ . وفي الحديث : « من حلف بغير الله فقد أشرك » . رواه الترمذي وحسّنه . وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » . وفي لفظ لهما « الطيرة شرك ، وما منا إلا .. ، ولكن الله يذهبه بالتوكل » . وروى الإمام أحمد ... عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه ، قالت : وإنه جاء ذات يوم ، فتنحنح وعندي عجوز ترقيني من الحمرة ، فأدخلتها تحت السرير ، قالت : فدخل فجلس إلى جانبي فرأى في عنقي خيطاً ، فقال : ما هذا الخيط ؟ قال : قلت : خيط رقي لي فيه ، فأخذه فقطعه ، ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرقى والتمائم شرك » قالت : قلت له : لم تقول هذا وقد كانت عيني تقذف ، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها ، فكان إذا رقاها سكنت ، فقال : إنما ذاك من الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فإذا رقاها كفّ عنها ، إنمّا كان يكفيك أن تقولي كما قال النبي ﷺ : « أذهب الباس رب الناس اشف أنت الشافي لاشفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً » . وفي حديث آخر رواه الإمام أحمد .... عن عيسى بن عبد الرحمن قال : دخلت على عبد الله ابن عكيم وهو مريض نعوده ، فقيل له : لو تعلقت شيئاً ، قال : أتعلق شيئاً وقد قال رسول الله ﷺ : « من تعلق شيئاً وُكل إليه » . وفي مسند الإمام أحمد من حديث عقبة ابن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « من علّق تميمة فقد أشرك » . وفي رواية « من تعلّق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له » . وروى مسلم ... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » . وروى الإمام أحمد ... عن أبي سعيد بن أبي فضالة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » . وروى الإمام أحمد ... عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » . قالوا : وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟ قال : « الرياء ، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا

جاز الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ؟ » . وروى الإمام أحمد ... عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك » . قالوا : يا رسول الله ما كفارة ذلك ؟ قال : « أن يقول أحدهم : اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك » . وروى الإمام أحمد ... عن رجل من بني كاهل قال : خطبنا أبو موسى الأشعري فقال : يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل ، فقام عبد الله ابن حزن وقيس بن المضارب فقالا : والله لتخرجن مما قلت أو لنأتين عمر مأذوناً لنا أو غير مأذون ، قال : بل أخرج مما قلت خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : « يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل » . فقال له من شاء الله أن يقول : فكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال : « قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه » . وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وصححه النسائي من حديث يعلى بن عطاء سمعت عمرو بن العاص سمعت أبا هريرة قال : قال أبو بكر الصديق : يا رسول الله علمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعي ، قال : « قل : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي ، ومن شر الشيطان وشركه » . وزاد الإمام أحمد في رواية له في آخره « وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم » .

٢ ـ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى** ﴾ تثار قضيتان : الأولى : أنه لا نبوة ولا رسالة في النساء . والقضية الثانية : أنه لا نبوة في أهل البادية : وفي القضية الأولى يقول ابن كثير بمناسبة الآية : (يخبر تعالى أنه أرسل رسله من الرجال لا من النساء وهذا قول جمهور العلماء ، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة ، وأن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع ، وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل . وأم موسى . ومريم بنت عمران أم عيسى نبيات ، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، وبقوله : ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه** ﴾ الآية (القصص : ٧) ، وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى عليه السلام ، وبقوله تعالى : ﴿ **إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين** ﴾ (آل عمران : ٤٢) وهذا القدر حاصل لهن ، ولكن لا يلزم

من هذا أن يكنّ نبيّات بذلك ، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف فهذا لا شك فيه ، ويبقى الكلام معه في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوّة بمجرده أم لا ؟ الذي عليه أهل السنة والجماعة ، وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم : إنه ليس في النساء نبية ، وإنما فيهن صدّيقات كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال ﴿ **ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صدّيقة كانا يأكلان الطعام** ﴾ (المائدة : ٧٥) فوصفها في أشرف مقاماتها بالصدّيقية ، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام ، فهي صدّيقة بنص القرآن) .

وفي القضية الثانية نقول : من المعروف أن المدينة أكثر ملاءمة لنمو الأخلاق الاجتماعية ، والبلاغ على أهلها أسهل : ومن ثم كانت سنة الله ألا يرسل رسولاً من أهل البادية . قال قتادة في قوله تعالى : ﴿ **من أهل القرى** ﴾ لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمود ، فالقرية في الآية إذن تقابل البادية وليس شرطاً أن تكون القرية كبيرة ، وأما يعقوب عليه السلام فسُكْناه في البادية عارض ، ولذلك ذكّرهم يوسف عليه السلام بمنّة الله عليهم ، فقال : ﴿ **وجاء بكم من البدو** .... ﴾

٣ ـ ينقل ابن كثير كلاماً كثيراً للمفسرين في قوله تعالى : ﴿ **حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا** ﴾ إذ هذه الآية من الآيات التي يحتدم حول فهمها النقاش ، وما ذكرناه أثناء التفسير هو أجود ما يقال فيها فتأمله . ولنذكر هنا روايتين ذكرهما ابن كثير على نفس النسق الذي اعتمدناه .

روى الأعمش عن مسلم عن ابن عباس في قوله ﴿ **حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا** ﴾ قال : لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم ، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم جاءهم النصر على ذلك ﴿ **فنجّي من نشاء** ﴾ .

وروى ابن جرير بسنده عن إبراهيم بن أبي حمزة الجزري قال : سأل فتى من قريش سعيد بن جبير قال : أخبرنا يا أبا عبد الله كيف هذا الحرف ، فإني إذا أتيت عليه تمنيت أن لا أقرأ هذه السورة ﴿ **حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا** ﴾ قال : نعم حتى إذا استيئس الرسل من قومهم أن يصدقوهم ، وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا ، فقال الضحاك بن مزاحم : ما رأيت كاليوم قط رجلاً يدعى إلى علم فيتلكأ ، لو رحلت إلى اليمن في هذه كان قليلاً .

كلمة في سورة يوسف :

قلنا إن محور سورة يوسف في السياق القرآني العام هو قوله تعالى — والله أعلم — ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾

وقد جاءت سورة يوسف مبتدأة بقوله تعالى : ﴿ **الر تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآناً عربيا لعلكم تعقلون . نحن نقصُّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين** .﴾ ثم بدأت القصة ، ثم جاءت الخاتمة . ومن تأمّل مقدمة السورة وخاتمتها ، والقصة فيها ، علم يقيناً أن هذا القرآن من عند الله ، وانتفى لديه كل شك وريب ، وأن هذا القرآن منزل على محمد ﷺ الذي كان من قبل إنزاله عليه من الغافلين ، كما نصّت مقدمة السورة . فالسورة إذن من حيث ارتباطها بمحورها تحقق هدفاً عدا عن أهدافها الخاصة . وهكذا نجد أن كل سورة من السور تحقق بالنسبة للسياق القرآني العام الذي تتمثل به الوحدة القرآنية العظمى هدفاً مرتبطاً بهذا السياق ، عدا عما تحققه من أهداف في سياقها الجزئي .

☆ ☆ ☆

سورة الرعد

وهي السورة الثالثة عشرة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الرابعة من المجموعة الأولى من
قسم المثين ، وآياتها ثلاث وأربعون
وهي مكية

(وبعضهم يرى أنها مدنية)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله . والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا . إنك أنت السميع العليم

قال الألوسي في تقديمه لسورة الرّعد : (جاء من طريق مجاهد عن ابن عباس وعلي بن أبي طلحة : أنّها مكيّة وروي ذلك عن سعيد بن جبير قال سعيد بن منصور في سننه : حدّثنا أبو عوانة عن أبي بشر قال : سألت ابن جبير عن قوله تعالى : ﴿ **ومَن عنده علم الكتاب** ﴾ هل هو عبد الله بن سلام ؟ فقال : كيف وهذه السورة مكية . وأخرج مجاهد عن ابن الزبير وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس ، ومن طريق ابن جريج وعثمان عن عطاء عنه ، وأبو الشيخ عن قتادة : أنها مدنية إلا أن في رواية الأخير استثناء قوله تعالى : ﴿ **ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ..** ﴾ الآية فإنها مكية . وروي أن أولها إلى آخر ﴿ **ولو أن قرآناً** ﴾ الآية مدني ، وباقيها مكي . وفي الإتقان : يؤيد القول بأنها مدنية ما أخرجه الطبراني وغيره عن أنس : أن قوله تعالى ﴿ **الله يعلم ما تحمل كل أنثى** ﴾ إلى قوله ﴿ **وهو شديد المحال** ﴾ نزل في قصة إربد بن قيس ، وعامر بن الطفيل حين قدما المدينة على رسول الله ﷺ ، ثم قال والذي يجمع به بين الاختلاف أنها مكية إلا آيات منها . وهي ثلاث وأربعون آية في الكوفي .. ووجه مناسبتها لما قبلها أنه سبحانه قال فيما تقدم : ﴿ **وكأيّن من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون** ﴾ فأجمل سبحانه الآيات السماوية والأرضية ، ثمّ فصّل جلّ شأنه ذلك هنا أتمّ تفصيل، وأيضاً أنه تعالى قد أتى هنا مما يدل على توحيده عز وجل مايصلح شرحاً لما حكاه عن يوسف عليه السلام من قوله ﴿ **أأرباب متفرّقون خير أم الله الواحد القهار ..** ﴾ وأيضاً في كل من السورتين ما فيه تسلية له ﷺ ، هذا مع اشتراك آخر تلك السورة وأول هذه فيما فيه وصف القرآن كما لا يخفى ، وجاء في فضلها ما أخرجه ابن أبي شيبة والمروزي في الجنائز أنه كان يستحب إذا حضر الميت أن يقرأ عنده سورة الرعد ، فإن ذلك يخفف عن الميت ، وأنه أهون لقبضه وأيسر لشأنه) اهـ

وقال صاحب الظلال في سورة الرعد :

(هذه السورة من أعاجيب السور القرآنية التي تأخذ في نفس واحد ، وإيقاع واحد ، وجو واحد ، وعطر واحد من بدئها إلى نهايتها ، والتي تفعم النفس وتزحم بالصورة والظلال والمشاهد والخوالج والتي تأخذ النفس من أقطارها جميعاً ، فإذا هي مهرجان من الصور والمشاعر والإيقاعات والإشراقات ، والتي ترتاد بالقلب آفاقاً وأكواناً وعوالم وأزماناً وهو مستيقظ ، مبصر ، مدرك ، شاعر بما يموج حوله من المشاهد والموحيات . إنها ليست ألفاظاً وعبارات ، إنما هي مطارق وإيقاعات . صورها ظلالها . مشاهدها

موسيقاها . لمساتها الوجدانية التي تكمن وتتوزع هنا وهناك

....

وهذه السورة تطوف بالقلب البشري في مجالات وآفاق وآماد وأعماق ، وتعرض عليه الكون كله في شتّى مجالاته الأخاذة : في السموات المرفوعة بغير عمد ، وفي الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . وفي الليل يغشاه النهار . وفي الأرض الممدودة وما فيها من رواس ثابتة وأنهار جارية وجنات وزروع ونخيل مختلف الأشكال والطعوم والألوان ، ينبت في قطع من الأرض متجاورات ويسقى بماء واحد — وفي البرق يخيف ويطمع ، والرعد يسبح ويحمد ، والملائكة تخاف وتخشع ، والصواعق يصيب بها من يشاء ، والسحاب الثقال والمطر في الوديان . والزبد الذي يذهب جفاء ، ليبقى في الأرض ما ينفع الناس .

وهي تلاحق ذلك القلب أينما توجه : تلاحقه بعلم الله النافذ الكاشف الشامل ، يلم بالشارد والوارد ، والمستخفي والسارب ويتعقب كل حي ، ويحصي عليه الخواطر والخوالج . والغيب المكنون الذي لا تدركه الظنون مكشوفاً لعلم الله ، وما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد .

إنها تقرب لمدارك البشر شيئاً من حقيقة القوة الكبرى المحيطة بالكون ظاهره وخافيه جليله ودقيقه ، حاضره وغيبه . وهذا القدر الذي يمكن لمدارك البشر تصوره هائل مخيف ترجف له القلوب ، وذلك إلى الأمثال المصورة تتمثل في مشاهد حية حافلة بالحركة والانفعال إلى مشاهد القيامة . وصور النعيم والعذاب وخلجات الأنس في هذا وذلك . إلى وقفات على مصارع الغابرين وتأملات في سير الراحلين . وفي سنة الله التي مضت عليهم فإذا هم دائرون) .

كلمة في سورة الرعد ومحورها في السياق القرآني العام :

إن محور سورة الرعد من سورة البقرة هو قوله تعالى :

﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ◦ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾

والدليل على ذلك :

١ — نلاحظ أن مقدمة السورة كانت : **﴿ المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك**

من ربك الحق ولكن أكثر الناس لايؤمنون ﴾ فتأمل قوله تعالى : ﴿ والذي أنزل إليك من ربك الحق ﴾ من أول سورة الرعد وقوله ﴿ فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ من آيتي سورة البقرة

٢ ـ لاحظ قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ﴾ ثم لاحظ في سورة الرعد : ﴿ الله الذي رفع السموات .... ﴾ ﴿ وهو الذي مدّ الأرض .... ﴾ ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾ . ﴿ هو الذي يريكم البرق .... ﴾ ﴿ الله يبسط الرزق .... ﴾ لتجد أن الله يعرّفنا عليه جل جلاله في سورة الرعد كما عرفنا على ذاته الكريمة هناك .

٣ ـ لاحظ في سورة البقرة : ﴿ أن يضرب مثلاً ﴾ ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلاً ... ﴾ ولاحظ في سورة الرعد : ﴿ كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ .. ﴿ مثل الجنة التي وُعد المتقون ﴾ ويلاحظ بشكل بارز في سورة الرعد كثرة الأمثال .

٤ ـ لاحظ في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ فأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ وفي سورة الرعد ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ....﴾ ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب ...﴾ ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ...﴾ ولاحظ في سورة البقرة ﴿ فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ .

وفي سورة الرعد : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عُقبىٰ الدار . جنات عدن يدخلونها ومَن صلح من آبائهم وأزواجهم وذريّاتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار . ﴾

فأنت تلاحظ نقاط التشابه الكثيرة بين سورة الرعد وبين الآيتين اللتين قلنا إنهما محور سورة الرعد من سورة البقرة ، ثم هما يأتيان بعد قليل من قوله تعالى ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا** ﴾ والتي قلنا عنها إنها محور سورة يوسف ، كما أن سورة الرعد تأتي مباشرة بعد سورة يوسف . وعلى هذا فسورة الرعد تفصيل لقضايا مجملة في الآيتين من سورة البقرة ، فهي تعريف على الله ، وهي عرض لأقوال للكافرين ، وفيها أمثال كثيرة يضربها الله عز وجل ، وفيها تدليل على أن هذا القرآن حق ، وفيها تفصيل لسمات الذين يستحقون الاهتداء بهذا القرآن ، وفيها تفصيل لصفات الفاسقين ، وفيها وفيها مما ستراه من خلال التفسير ، مما يؤكد لك أن ما اتجهنا إليه في هذا التفسير صحيح ، إن في موضوع الوحدة القرآنية ، أو في محاور السور بناء على ذلك

ولعلنا لاحظنا أن نوعية التفصيل في القرآن تختلف عن أي نوع من أنواع التفصيل المعروف عند البشر ، لقد ظهر الله عز وجل في القرآن كما ظهر في هذا الكون ، فهو الظاهر بآياته ، سواء كانت آياته في الكون ، أو آياته في القرآن . وكما أنك ترى الكون أجزاءً وأجزاءً ، وكل جزء فيه يرجع إلى أصل كبير ، ثم تجد الأشياء كلها ترجع إلى نوع عجيب من الوحدة يعرفه العالمون . كما أشرنا إليه في كتابنا عن الله جل جلاله فكذلك هذا القرآن يظن الجاهل أنه لا رابطة بين آياته فضلاً عن سُوَره ، ولكن من فتح الله على قلبه يرى كيف أن هذا القرآن كهذا الكون ، تجده على أدق نظام ، وعلى أدق ترتيب ، وعلى أدق انسجام ، وعلى أعظم مظهر من مظاهر الوحدة الكلية التي تربط بين آياته وسوره ، مما لا يعرف حتى العالمون عنه إلا القليل . ونحب قبل أن نبدأ عرض سورة الرعد أن نلفت النظر إلى أن قضية الضلال والهداية وأسبابهما ، وهي من المعاني الرئيسية في سورة الرعد فليتنبه لذلك لأن فهم هذه القضية يشكل جزءاً عظيماً من أجزاء المعرفة الصحيحة . تتألف السورة من مقدمة هي آية واحدة ، وثلاثة مقاطع كما سترى .

المقدمة :

وهي آية واحدة وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

التفسير :

في هذه المقدمة ثلاثة معان :

١ ــ ﴿ **الٓمٓر تلك آيات الكتاب** ﴾ تلك إشارة إلى آيات هذه السورة ، والمراد بالكتاب – والله أعلم – في هذا المقام هذا الجزء منه ، وهو هذه السورة من باب ذكر العام وإرادة الخاص ، والإشارة بتلك تفيد التفخيم والتعظيم . والمعنى : تلك الآيات آيات السورة الكامنة العجيبة في بابها . فهذا هو المعنى الأول ، وفيه تنبيه على جلالة هذه السورة في هذا القرآن الجليل .

٢ ــ ﴿ **والذي أنزل** ﴾ أي القرآن كله ﴿ **إليك** ﴾ يا محمد ﴿ **من ربك** ﴾ الله ﴿ **الحق** ﴾ فالقرآن كله حق ، وهو مُنَزَّل من الله على محمد ﷺ ، فهذا هو المعنى الثاني

٣ ــ ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يؤمنون** ﴾ بأن هذا القرآن من عند الله أنزله على محمد عبده ورسوله ﷺ ، دلّ ذلك على أن الأقل هم الذين يؤمنون ، أربط ذلك بمحور سورة الرعد من سورة البقرة : ﴿ **فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم** ﴾ وهكذا جاءت المقدمة مشيرة إلى موضوع السورة ، ورابطة إياه بالمحور ، ثم بعد ذلك تأتي المقاطع الثلاثة في السورة ، داعية إلى الإيمان ، مبرهنة على أن هذا القرآن حق ، مقيمة الحجة على الكفر وأهله .

المقطع الأول

ويمتد من الآية (الثانية) حتى نهاية الآية (السابعة) وهذا هو :

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧)

التفسير :

﴿ الله الذي رفع السموات ﴾ أي خلقها مرفوعة ﴿ بغير عَمَد ترونها ﴾ أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها ، أي ترون السموات مرفوعة بغير عمد فلا حاجة إلى البرهان على ذلك مع الرؤية ، وذلك دليل قدرته عز وجل وحكمته ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ استواءً يليق بجلاله . قال ابن كثير : من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل . ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ لمنافع عباده ، ومصالح بلاده ، وذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر في الدلالة على التسخير الذي فيه المصلحة للخلق ﴿ كُلٌ يجري لأجل مسمّى ﴾ وهو انقضاء الدنيا بقيام الساعة ﴿ يدبّر الأمر ﴾ قال النسفي : أمر ملكوته وربوبيته ﴿ يفصّل الآيات ﴾ أي يُبيّنها ، وآياته هنا كتابه المنزل ﴿ لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ أي لعلكم توقنون بأن هذا المدبّر والمفصّل لابد لكم من الرجوع إليه ، وهكذا عرفنا أن الله عز وجل جعل تدبيره وتفصيل آياته علامتين تدلان على الرجوع إليه ، فمن لم ير في كمال تدبيره في خلقه ، وفي كمال تفصيله في آياته ، ما يدل على الرجوع إليه ، فإنه لم يعرف حكمة التدبير والتفصيل . وهكذا عرفنا أن التدبير والتفصيل علامتان على اليوم الآخر ، فلم يكن التدبير عبثاً ، ولم يكن التفصيل عبثاً ، بل من أجل أن تعرف أيها الإنسان أنك راجع إليه فمحاسب .

﴿ وهو الذي مدّ الأرض ﴾ قال ابن كثير : أي جعلها متسعة ممتدّة في الطول والعرض ﴿ وجعل فيها رواسي ﴾ أي جبالاً راسيات ، أي ثابتات في أمكنتهن ﴿ وأنهاراً ﴾ أي وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون ﴿ ومن كل الثمرات ﴾ أي وجعل فيها من كل الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح ﴿ جعل فيها زوجين اثنين ﴾ أي ومن كل الثمرات جعل فيها الصغير والكبير ، والحلو والحامض ، هكذا فسّر النسفي في هذا المقام الزوجية ، وقال ابن كثير : أي من كل شكل صنفان . ولم يفسّر ما المراد بالصنف . وفي فوائد هذا المقطع كلام عن هذا الموضوع فإنه من المواضيع التي لثقافة العصر تأثير في تبيانها ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ أي يلبسه مكانه فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً ، وقد رأينا في سورة الأعراف كيف دلّ مثل هذا التعبير على دوران الأرض ﴿ إن في ذلك ﴾ أي في الأرض بما هي عليه والجبال ورسوّها ، والأنهار وجريانها ، والثمرات والزوجية فيها ، وغشيان الليل النهار ﴿ لآيات ﴾ أي لدلالات وعلامات على أن لها صانعاً عليماً حكيماً قادراً ﴿ لقوم

يتفكّرون ﴾ أما الذين لا يتفكرون فإنهم عمي عن رؤية الآيات ﴿ **وفي الأرض قطع متجاورات** ﴾ أي أراض يجاور بعضها بعضاً ، ثمّ هي مع التجاور مختلفة ، فهذه طيبة تنبت ما ينفع الناس ، وهذه سبخة مالحة لا تنفع الناس ، وهذه تربتها حمراء ، وهذه بيضاء ، وهذه صفراء ، وهذه سوداء ، وهذه محجرة ، وهذه سهلة ، وهذه مرملة ، وهذه سميكة ، وهذه رقيقة ، بقاع مختلفة مع كونها متجاورة متلاحقة ، ما بين كريمة إلى زهيدة ، وما بين صلبة إلى رخوة ، وذلك دليل على قادر مريد مدبّر موقع لأفعاله على وجه دون وجه ﴿ **وجنات من أعناب** ﴾ أي وفي الأرض حدائق وبساتين من أعناب ﴿ **وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان** ﴾ الصنوان : جمع صنو وهي الشجرة لها رأسان وأصلها واحد ، فالصنوان : هو الأصول المجتمعة في منبت واحد ، كالرمّان والتين وبعض النخيل ونحو ذلك ، وغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار ، أي وفي الأرض أنواع الزروع ، وأنواع النخيل ذات الساق الواحدة ، أو السيقان المتعددة ﴿ **يُسقى بماء واحد ونُفضّل بعضها على بعض في الأُكل** ﴾ أي في الثمر ، فهذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع في أشكالها وألوانها ، وطعومها وروائحها وأوراقها ؛ فهذا في غاية الحلاوة ، وهذا في غاية الحموضة ، وهذا في غاية المرارة ، وهذا بين بين ، وهذا اجتمع فيه هذا وهذا ، وهذا أصفر ، وهذا أبيض ، وهذا أسود ، وكذلك الزهورات مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء ، ثم يكون هذا الاختلاف الكثير ، الذي يكاد لا ينحصر ولا ينضبط ﴿ **إن في ذلك** ﴾ أي في اختلاف الأراضي وجنات الأعناب والزروع والنخيل المتعدد الأصل وغير المتعدد ، واختلاف الثمرات مع كون الماء الذي به نماء النبات واحداً ﴿ **لآيات** ﴾ لدلالات على الخالق المختار المريد العظيم ﴿ **لقوم يعقلون** ﴾ أما الذين لا عقول لهم فإنهم لا يرون هذه الآيات رؤية عاقلة ، تدلهم على الله ، ثمّ إنّه بعد أن أقام النص القرآني الحجة على وجود الله ، وعلى قدرته ، وعلى اليوم الآخر ، فإنه بعد ذلك يعرض علينا بطريقة القرآن المعجزة ثلاثة مواقف للكافرين هي : إنكارهم لليوم الآخر ، واستعجالهم العذاب ، واقتراحهم الآيات ، وهذه المواقف الثلاثة تعرض بعد أن تقدّم الردّ عليها فيما سبق من الآيات ، فالله المدّبر للأمر المفصّل للآيات ، الرافع للسموات ، المسيطر على العرش ، المسخّر للشمس والقمر ، الجاعل الأرض على ما هي عليه ، الخالق للجبال بما تؤدي به مهمتها ، الخالق الأنهار ، الخالق الثمار ، الخالق الليل والنهار ، الجاعل الأرض أنواعاً ، المخرج من الماء الواحد أنواع الثمار ، هذا الإله لا يعجزه أن يعيد خلق الإنسان وأن يبعثه

من جديد ، ولا يعجزه أن يعاقب من كفر بأنواع العذاب الدنيوي ، ثم إن آياته أكثر وأكبر وأبهر من أن يقترح عليه آيات أخرى تدل عليه ، كيف ومن آياته ما رأيناه لمن تفكر وعقل ، فإذا اتضح هذا فلنر كيف عرض القرآن هذه المواقف للكافرين في السياق الذي تبطل فيه هذه المواقف قبل عرضها

الموقف الأول :

﴿ **وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد** ﴾ أي فقولهم هذا حقيق بأن يُتَعجب منه ؛ لأن من قدر على إنشاء ما عُدّد عليك كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره ، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب ، كيف وقد شاهدوا من آياته وآثار صفاته ما هو أعجب مما كذّبوا به ، وهكذا بيّن لنا القرآن أن البعث بديهية من البديهيات لمن عرف الله وعرف آياته ، ثم بيّن أن هؤلاء الذين يستبعدون البعث ولا يؤمنون باليوم الآخر إنما هم كفّار بالله أصلاً ، ومن ثم قال : ﴿ **أولئك الذين كفروا بربهم** ﴾ إذ لو كانوا يؤمنون بالله ويعرفونه حق المعرفة لآمنوا بالبعث ، دلّ ذلك على أن الإيمان بالله يستتبع - بالضرورة - الإيمان باليوم الآخر ، فمن عرف قدرة الله لا يستكثر عليها أن تعيد الخلق ، ومن عرف عدله عرف ضرورة وجود اليوم الآخر ، ومن عرف حكمته عرف ضرورة وجود اليوم الآخر ، ومن عرف عزته وانتقامه وكرمه ورحمته عرف ضرورة اليوم الآخر ، ﴿ **وأولئك الأغلال في أعناقهم** ﴾ جزاءً لهم على كفرهم بالله واليوم الآخر ﴿ **وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ أي ماكثون فيها أبداً ، لا يحولون عنها ولا يزولون ، وقد دلّ تكرار (أولئك) على تعظيم الأمر . هذا هو الموقف الأول من مواقف الكافرين ، وقد رأينا كيفية عرضه ، وعرفنا أن العجب هو عدم الإيمان باليوم الآخر وليس الإيمان به ، وأي عجب أعجب من أن يدعي الإنسان معرفة الله ثم لا يرتب على ذلك ما تقتضيه هذه المعرفة .

الموقف الثاني :

﴿ **ويستعجلونك** ﴾ أي هؤلاء الكافرون المكذبون ﴿ **بالسيئة** ﴾ أي بالعقوبة ﴿ **قبل الحسنة** ﴾ أي قبل العافية ، من شدة كفرهم ﴿ **وقد خلت من قبلهم المثلات** ﴾ أي عقوبات أمثالهم من المكذبين ، فمالهم لم يعتبروا بها ؟ والمَثُلَة : العقوبة ، لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة ، لقد أوقع الله نقمته بالأمم المكذبة الخالية ، وجعلهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم ، ومع ذلك فهؤلاء يستعجلون العذاب وما استعجالهم إلا لعدم إيمانهم ولكفرهم .

﴿ **وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم** ﴾ أي إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس، مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار، وهذا سر عدم إيقاع ما رغبوا به من الاستعجال بالعقوبة ﴿ **وإن ربك لشديد العقاب** ﴾ ومن ثم فإنه لا يفوته هارب ولا مسيء، فهو يمهل ولا يهمل.

الموقف الثالث :

﴿ **ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه** ﴾ فهم لا يكتفون بالآيات المنزلة على رسول الله ﷺ عناداً مع كثرتها، وكفى بهذا القرآن معجزة تضمنت معجزات لاتنتهي، ومن ثم قيل لرسول الله ﷺ في مقابلة اقتراحاتهم المتعنّتة ﴿ **إنما أنت منذر** ﴾ أي أنت رجل أرسلت منذراً مخوّفاً لهم من سوء العاقبة، وناصحاً كغيرك من الرسل، وما عليك إلا الإتيان بما يصح به أنك رسول منذر، وصحة ذلك حاصلة بأي آية كانت، والآيات كلها سواء في حصول صحة الرسالة بها ﴿ **ولكل قوم هاد** ﴾ أي من الأنبياء يهديهم إلى الدين ويدعوهم إلى الله بآية خُصّ بها، لا بما يريدون، فلست بدعاً من الرسل، إذن فكما أن كل أمة أرسل لها رسول فأنت رسول لهذه الأمة، ويحتمل أن يكون المراد بالهادي في الآية (الله عز وجل) فهو الذي يهدي من يستحق الهداية، وإنما مهمة الرسول ﷺ الإنذار، فهؤلاء الذين لم يؤمنوا ويقترحوا الآيات، عليك إنذارهم، والله هو الهادي من يستحق الهداية، وهؤلاء لا يستحقون الهداية، وهذا الاتجاه الثاني في التفسير هو الذي نرجّحه لانسجامه مع محور المقطع في سورة البقرة كما سنرى.

فوائد :

١ ـ في كتابنا عن الرسول ﷺ أثناء الكلام عن المعراج قلنا إن السماء في القرآن تطلق ويراد بها مطلق العلو، وتطلق ويراد بها الكون ممّا سوى الأرض، وتطلق ويراد بها السمٰوات السبع التي سقفها عرش الرحمن، وفي سورة البقرة عند قوله تعالى ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسوّاهنّ سبع سمٰوات ...** ﴾ رجّحنا أن المجرات والنجوم قد خلقت قبل الأرض، وأن الأرض قد خلقت قبل السمٰوات السبع التي هي غيبية - على الأكثر - وفي سورة هود بينا أن أول مخلوق هو العرش ثم الماء، وههنا في سورة الرعد بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **الله الذي رفع السمٰوات بغير عمد ترونها** ﴾ نرجّح أن المراد في السمٰوات هنا ليست السمٰوات السبع الغيبية التي نؤمن بها غيباً، ولكن المراد بها ما سوى الأرض بقرينة ﴿ **ترونها** ﴾ فنحن لا

نرى إلا هذه النجوم والمجرات والكواكب ، وقد رجّحنا من قبل أن هذه مخلوقة قبل الأرض والسموات السبع ، وللموضوع تتمة ستأتي في مناسباتها .

٢ ـ في كتابنا عن الله عز وجل : إنّ في ظاهرة الحكمة ، أو في ظاهرة الإرادة ، أو في ظاهرة العناية ، فصّلنا بما يخدم قوله تعالى : ﴿ **وسخر الشمس والقمر** ﴾ وبما يرينا كيف أن مثل هذا التسخير المدهش لصالح الحياة على الأرض دليل على الخالق عز وجل بما لا يقبل شكاً ولا نقضاً . فليراجع

٣ ـ قد يفهم كثير من الخاطئين قوله تعالى ﴿ **وهو الذي مَدّ الأرض** ﴾ فهماً خاطئاً ، فيظن أن المراد بالمد هنا التسطيح الذي يقابل الكروية ، والكروية ثابتة في القرآن في أكثر من آية - كما نرى في هذا التفسير - فاقتضى التنبيه . وقد رأينا كيف فسّر ابن كثير المدّ في الآية ، وفي كتابنا عن الله عز وجل نقلنا ما يدلّ على أنّ الأرض لو كانت أصغر مما هي عليه لما أمكن في قوانين هذا الكون أن تنشأ عليها الحياة ، فالله عز وجل يشير إلى هذه النعمة التي هي مظهر علمه وحكمته وقدرته في هذا المقام ؛ ليدلّل بآثار صفاته على صفاته وأسمائه التي تدل على ذاته جلّ جلاله

٤ ـ في عصرنا هذا أدرك الإنسان - أكثر من أي عصر مضى - معنى قوله تعالى : ﴿ **وجعل فيها رواسي** ﴾ إذ كتب الجغرافيا والجيولوجيا مليئة بالنّص على أنه لولا الجبال لكانت القشرة الأرضية مُعرّضة بشكل هائل للتشققات والزلازل والاضطرابات بما يستحيل معه نشوء الحياة وهو موضوع سيمر معنا في محله بشكل أكثر تفصيلًا

٥ ـ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين** ﴾ قال صاحب الظلال : (والمشهد الأول يتضمن حقيقة لم تعرف للبشر من طريقة علمهم وبحثهم إلا قريباً ، هي أن كل الأحياء - وأولها النبات - تتألف من ذكر وأنثى ، حتى النباتات التي كان مظنوناً أن ليس لها من جنسها ذكور ، تبين أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر ، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة في زهرة ، أو متفرقة في العود وهي حقيقة تتضامن مع المشهد في إثارة الفكر إلى تدبر أسرار الخلق بعد تملي ظواهره .)

٦ ـ عند قوله تعالى ﴿ **وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم** ﴾ قال النسفي (وهي أرجى آية في كتاب الله حيث ذكر المغفرة مع الظلم وهو بدون التوبة ، فإن التوبة تزيلها وترفعها) اهـ ولنلاحظ أنه اجتمع في الآية اقتران ذكره المغفرة بشدة العقاب لتربية الرجاء والخوف في القلب ، فهما جناحا القلب في سَيره إلى الله . روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ **وإن ربك لذو مغفرة**

للناس على ظلمهم ﴾ الآية قال رسول الله ﷺ : « لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحداً العيش ، ولولا وعيده وعقابه لا تكل كلُّ أحد » .

٧ – عند قوله تعالى : ﴿ **ونُفضّل بعضها على بعض في الأُكُل** ﴾ يذكر ابن كثير حديثاً رواه الترمذي بإسناد حسن غريب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : ﴿ **ونفضل بعضها على بعض في الأكل** ﴾ قال : « الدقل والفارسي والحلو والحامض » .

٨ – رجّحنا أن السموات المذكورة في قوله تعالى : ﴿ **الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها** ﴾ أن المراد ما سوى الأرض ، وليس المراد فيها السموات السبع ، خصوصاً لأننا لانراها ، وقد ذهب ابن كثير أن المراد بها السموات السبع وسننقل لك من قوله لنرى تصوره للسموات السبع ، ثم نرى من خلال ذلك صحة ما ذهبنا إليه :

قال : « فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض ، وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها ، وأرجائها ، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء ، وبُعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام ، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام ، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت ، وبينهما من بُعد المسير خمسمائة عام ، وسمكها خمسمائة عام ، وهكذا الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة كما قال تعالى : ﴿ **الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن** ﴾ الآية (الطلاق : ١٢) وفي الحديث : « ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، والكرسي في العرش المجيد . كتلك الحلقة في تلك الفلاة » . وفي رواية : « والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل » ا هـ .

فإذا كانت السموات السبع كما ذكر والله عز وجل قال ﴿ **ترونها** ﴾ وهو يرجح أن ترونها عائدة إلى السموات فهو يقول : أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها ، وهذا هو الأكمل في القدرة . ونحن لا نرى هذه السموات السبع التي ذكرها ، وإنما نرى ما سوى الأرض من الأكوان المنظورة ، فدلّ ذلك على أنّ ما ذهبنا إليه هو الأرجح ، والذي نحب أن نلفت نظرك إليه هنا أنك ترى ابن كثير كغيره من المفسرين يرون أن ما بين الأرض والسماء الدنيا خمس مائة سنة ، وهكذا النسبة بين كل سماء ، وهذا يرجّح ماذهبنا إليه أن المراد بالسموات السبع المذكورة ، والتي يتحدث عنها القرآن والسنة ، ويتكلم عنها المفسرون ، أنها سموات غيبية مغيّبة عنا ، إذ لولم تكن كذلك وكانت النجوم والمجرات داخل السماء الدنيا – كما يذهب بعضهم – لكان البعدين الأرض والسماء أكثر من خمسمائة سنة ، مهما كان نوع السنة التي يقاس بها هذا البُعدُ ، وهو

موضوع سنرى حيثياته فيما يأتي من هذا التفسير .

٩ - فهم الحسن البصري من قوله : ﴿ **وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب ....** ﴾ الآية : أن الآية تلفت النظر إلى معنى آخر غير المعنى الحرفي ، واعتبر أن في الآية مثلا بدليل ختمها بقوله تعالى ﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ فقد مثل اختلاف القلوب في آثارها وأنوارها وأسرارها باختلاف قطع الأرض في أنهارها وأزهارها وثمارها

كلمة في السياق :

نلاحظ أن هذا المقطع عرّفنا على الله بلفت نظرنا إلى أفعاله - عز وجل - ومظاهر قدرته ، ثمّ عدّد لنا مواقف للكافرين تتنافى مع معرفة الله عز وجل ، وختم المقطع بقوله تعالى ﴿ **ويقول الذين كفرو لولا أنزل عليه آية من ربه** ﴾ فإذا تذكّرنا قوله تعالى من سورة البقرة ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ...** ﴾ وتذكّرنا أن هذا النص تأسيس لموضوع الآية اللاحقة من سورة البقرة ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ...** ﴾ ثمّ تأمّلنا معاني سورة الرّعد ، فإننا نجد أن المقطع الأول من سورة الرعد تأسيس لمعاني المقطعين اللاحقين بما يفصّل آيتي سورة البقرة ، إذ سورة الرّعد كلها تعريف على الله وأفعاله ، وعرض لأقوال الكافرين ومواقفهم ، وردّ عليها ، وتبيان لقضية الضلال والهداية ، ومن يستحق الهداية ، ومن يستحق الضلال ، وإقامة حجة على مسارب الضالين . والمقطع الأول من سورة الرّعد يضع أساساً في إقامة الحجة على منكري ، البعث وعلى المستعجلين بالعذاب ، وعلى مقترحي الآيات ، فليس لهؤلاء حجة ، بل الحجة قائمة عليهم ، فالمقطع الأول في سورة الرعد يفصّل معاني في الآية الأولى من الآيتين اللتين تُشكّلان محور سورة الرعد من سورة البقرة ، لكنّه تفصيل على طريقة القرآن المعجزة في التفصيل ، ولنر المقطع الثاني في سورة الرّعد ، وسنجد فيه تفصيلاً واضحاً لمحور السورة من سورة البقرة :

☆ ☆ ☆

المقطع الثاني من سورة الرّعد

ويمتد من الآية (٨) إلى نهاية الآية (٢٥) وهذا هو :

ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ

وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ
شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ
السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ
يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ
فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ
وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا
بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) أَفَمَن يَعْلَمُ
أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ
(١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ
اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ
وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ
بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ
آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ
عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ
مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ

﴿ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ (٢٥)

التفسير :

كما بدأ المقطع الأول بالتعريف على الله ، ثم بنى على هذه المعرفة ، كما هو الحال في الآيتين اللتين هما محور هذه السورة من سورة البقرة ، وبما فصّل بعضاً من معاني الآيتين فكذلك هذا المقطع : فتأمّله : ﴿ **الله يعلم ماتحمل كل أنثى** ﴾ يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لايخفى عليه شيء ، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات ، سواء كانت تحمل ذكراً أو أنثى ، تماماً أو خداجاً ، حسناً أو قبيحاً ، طويلاً أو قصيراً إلى غير ذلك ﴿ **وما تغيض الأرحام** ﴾ أي وما تغيضه الأرحام أي وما تنقصه ﴿ **وما تزداد** ﴾ أي وزيادتها ويحتمل الغيض والزيادة بعدد الولد ، فإنها تشتمل على واحد واثنين وثلاثة وأربعة ، وأحياناً يكون سقطاً . ويحتمل أن يكون الغيض والزيادة بجسد الولد ، فإنه يكون تاماً ومخدجاً ، ويحتمل أن يكون الغيض والزيادة بمدّه الولادة ، فإنها تكون أقل من تسعة أشهر وأزيد عليها إلى سنتين عند الحنفية وإلى أربع عند الشافعي ، وإلى خمس عند مالك ، ويحتمل أن يكون المعنى ويعلم غيض الأرحام وازديادها بمعنى قلتها وكثرتها ﴿ **وكل شيء عنده بمقدار** ﴾ أي بقدر وحَدٍّ لا يجاوزه ولا ينقص عنه ، ومن كان هذا شأنه فإنه يعلم الحق ويهدي إليه ﴿ **عالم الغيب** ﴾ أي ما غاب عن الخلق ﴿ **والشهادة** ﴾ أي مايشاهده الخلق أي يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ، ومما يغيب عنهم ، ولا يخفي عليه منه شيء ﴿ **الكبير** ﴾ العظيم الشأن الذي كل شيء دونه ، فهو أكبر من كل شيء ﴿ **المتعال** ﴾ على كل شيء ﴿ **سواء** ﴾ أي في علمه ﴿ **منكم من أسرَّ القول ومن جهر به** ﴾ أي سواء في علمه من أسرَّ قوله أو جهر به ، فإنه يسمعه ويعلمه لايخفى عليه شيء ﴿ **ومن هو مستخفٍ بالليل** ﴾ أي متوارٍ مختفٍ في مَقَرّ بيته في ظلام الليل ﴿ **وسارب بالنهار** ﴾ أي ذاهب في سربه نهاراً ، أو ذاهب في طريقه ووجهه نهاراً ، فكلاهما في علم الله سواء ، المختفي في ظلام الليل والظاهر الماشي في بياض النهار وضيائه ﴿ **له** ﴾ أي لمن أسَرّ ومن جهر ، ومن استخفى ومن سرب ﴿ **معقبات** ﴾ أي جماعات من الملائكة تعتقب في حفظه . ﴿ **من بين يديه ومن خلفه** ﴾ أي قدّامه ووراءه ﴿ **يحفظونه** ﴾ فمهمتهم إذن الحفظ ﴿ **من أمر الله** ﴾ أي من أجل أن الله تعالى أمرهم بحفظه ، والتقدير على هذا : له

أمر الله يحفظونه ، أي له معقّبات من نظام هذا العالم - الذي هو بأمره - يحفظونه ، فللإنسان معقبات يحفظونه بأمر الله ، قال أبو أمامة : ما من آدمي إلا ومعه ملك يذود عنه حتى يسلمه للذي قدّر له ﴿ إن الله لا يُغيّر ما بقوم ﴾ من العافية والنعمة ﴿ حتى يُغيّروا ما بأنفسهم ﴾ من الحال الجميلة بكثرة المعاصي ، فحفظ الملائكة نعمة يغيّرها الله إذا تغيّرت الأنفس نحو الشر ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءً ﴾ أي عذاباً ﴿ فلا مَرَدَّ له ﴾ أي لا يدفعه شيء ﴿ وما لهم من دونه ﴾ أي من دون الله ﴿ من والٍ ﴾ أي من يلي أمرهم ويدفع عنهم ، وإذا كان هذا شأن الله فإنه يعلم الحق ويهدي إليه ويطالب به ﴿ هو الذي يريكم البرق ﴾ قال ابن كثير : البرق وهو ما يُرى من النور اللامع ساطعاً من خلل السحاب ﴿ خوفاً وطمعاً ﴾ أي خائفين من وقوع الصواعق عند لمع البرق ، وطامعين في الغيث . ﴿ وينشىء السحاب الثقال ﴾ بالماء أي ويخلقها منشأة جديدة وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض ﴿ ويسبّح الرعد بحمده ﴾ كما يسبّح له كل شيء ﴿ والملائكة من خيفته ﴾ أي ويسبّح الملائكة من هيبته وإجلاله ﴿ ويرسل الصواعق ﴾ الصاعقة معروفة ﴿ فيصيب بها من يشاء ﴾ أي يرسلها نقمة ينتقم بها ممن يشاء ، كما قال ابن كثير ، ﴿ وهم يجادلون في الله ﴾ أي يشكّون في عظمته وأنه لا إله هو ﴿ وهو شديد المحال ﴾ أي شديد الأخذ أو شديد القوة ، والمماحلة في الأصل : شدة المماكرة والمكايدة ، ومنه تمحّل لكذا إذا تكلّف لاستعمال الحيلة واجتهد فيه ، وإذن فالمعنى الحرفي : أنه شديد المكر والكيد لأعدائه ، يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون في مقابلة مكرهم وكيدهم ﴿ له دعوة الحق ﴾ الحق ضد الباطل والمعنى : أن الله سبحانه يُدعى فيستجيب الدعوة ، ويعطي الداعي سؤاله ، بخلاف مالا ينفع ولا يجدي دعاؤه ، ويحتمل أن يكون المراد بدعوة الحق دعوة التوحيد ، فدعوة التوحيد دعوته وحده ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ أي والآلهة الذين يدعونهم الكفار من دون الله ، أو ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿ لا يستجيبون لهم بشيء ﴾ من طلباتهم ﴿ إلا كباسط كفّيه إلى الماء ليبلغ فاه ﴾ أي فمه ﴿ وما هو ببالغه ﴾ أي وما الماء ببالغ فاه والتقدير : والذين يدعون من دونه لا يستجيبون إلا كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه ، أي كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه ، والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته إليه ، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه ، وكذلك ما يدعونه من جماد لا يحس بدعائهم ، ولا يستطيع إجابتهم ، ولا يقدر على نفعهم قال مجاهد : (كباسط كفيه : يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبداً) . تصوّر الآن

رجلاً فوق بئر عميق يمد يده إلى الماء من بعيد فهل يستجيب له الماء ليشرب ؟ ! فكذلك دعاء هؤلاء لآلهتهم ، أو فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً آخر ، لا ينتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة ، ولهذا ختم الآية بقوله : ﴿ **وما دعاء الكافرين إلا في ضلال** ﴾ أي في ضياع لا منفعة فيه ، لأنهم إن دعوا الله لم يجبهم ، وإن دعوا غيره لم يستطع الاستجابة ، ثم أخبر تعالى عن سلطانه الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء ، ولهذا يسجد له كل شيء . فقال : ﴿ **ولله يسجد من في السمٰوات والأرض** ﴾ سجود تعبّد وانقياد ﴿ **طوعاً** ﴾ أي طائعين كسجود الملائكة والمؤمنين ﴿ **وكرهاً** ﴾ أي وكارهين كما يفعل المنافقون والكافرون في حال الشدة والضيق ، أو بخضوعهم لقهر الله وسننه ﴿ **وظلالهم** ﴾ أي تسجد معهم لله ﴿ **بالغدو** ﴾ أي بالبُكَر ﴿ **والآصال** ﴾ جمع أصيل : وهو آخر النهار ، فظلالهم خاضعة لسنن الله ، وفي ذلك سجودها ، فمن كان هذا شأنه في خلق البرق والرعد ، وإنشاء السحاب وإرسال الصواعق ، وشدة المحال ، واستجابة الدعاء ، وخضوع كل شيء له ، فإنه يعلم الحق ويهدي إليه ، ويطالب به ، وهو حريٌ أن يُعبد ويطاع ، ويتّبع شرعه ورسله ، ثمّ قرّر الله تعالى أنه لا إله إلا هو ، وأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السمٰوات والأرض وهو ربّها ومدبّرها ، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء ، يعبدونهم ، وأولئك الآلهة لا تملك لنفسها ولا لعابديها - بطريق الأولى - نفعاً ولا ضراً ، فهي لا تحصّل لهم منفعة ، ولا تدفع عنهم مضرة ، فهل يستوي من عَبَد هذه الآلهة مع الله ، ومن عَبَد الله وحده لا شريك له ! ، فهذا على نور من ربه ومن ثم قال : ﴿ **قل من رب السمٰوات والأرض قل الله** ﴾ هذا هو الجواب الوحيد على السؤال ، إذ من الواضح أن السمٰوات والأرض مربوبة مقهورة مسيّرة مسخّرة ، فمن ربها ومسيّرها وقاهرها ومسخّرها ، إنه ليس إلا جواب واحد هو : أن فاعل ذلك هو الله ، ولأنه لاجواب إلا هذا الجواب ، أجاب به ، وأقام الحجّة عليهم به ، لأنه من الواضح والظاهر أنه ما من شيء مما يعبدون يمكن أن يكون رباً للسمٰوات والأرض ﴿ **قل أفاتخذتم من دونه أولياء** ﴾ أي أبعد أن علمتموه رب السمٰوات والأرض اتخذتم من دونه آلهة ﴿ **لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً** ﴾ أي لا يستطيعون أن ينفعوا أنفسهم أو يدفعوا ضرراً عنها ، فكيف يستطيعونه لغيرهم ! فكيف آثرتموهم على الخالق الرازق المثيب المعاقب ؟ فما أبين ضلالتكم ﴿ **قل هل يستوي الأعمى والبصير** ﴾ أي الكافر والمؤمن ؟ أو من لا يبصر شيئاً ومن لا يخفى عليه شيء ؟ ﴿ **أم هل تستوي الظلمات والنور** ﴾ أي مِلَل الكفر بأنواعه واتجاهاته ،

ودين الله ، وشرعه وهدايته ؟ ﴿ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ﴾ أي أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في القدرة على الخلق ، بسبب من اشتباه مخلوق الله بمخلوق الشركاء حتى يقولوا : قدر هؤلاء على الخلق ، كما قدر الله عليه ، فاستحقوا العبادة ، فنتخذهم له شركاء ، ونعبدهم كما يُعبد ؟ وإذ لم يكن الأمر كذلك - من أنه ليس لله شركاء خلقوا مثل خلق الله - فقد قامت عليهم الحجة إذ اتخذوا له شركاء عاجزين لايقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلاً أن يقدروا على ما يقدر عليه الخالق ، فالاستفهام إنكاري ﴿ قل الله خالق كل شيء ﴾ فلا خالق غيره ، ولا يستقيم في منطق الحق أن يكون له شريك في العبادة ، وليس له شريك في الخلق ، وهذا من أعظم الأدلة لأهل السنة والجماعة على أن الله خالق أفعال العباد ، لا كما يقول المعتزلة ، فمن قال إن الله لم يخلق أفعال الخلق وهم خلقوها فإنه يلزم على قوله أن يتشابه الخلق على المخلوقين ﴿ وهو الواحد ﴾ أي المتوحّد بالربوبية ﴿ القهّار ﴾ أي الذي يَغْلِب ولا يُغالَب ، والذي ما عداه مربوب ومقهور ، ومن كان هذا شأنه فهو الحري وحده بالطاعة والعبادة ، فهو وحده يعلم الحق ويقرره ويبيّنه ويُطالِبُ به ، ويُلْزِمُ به ، ويُعاقِبُ عليه . وهذا كله مقتضى ربوبيته ووحدانيته وقهره ، ومن ثم قال تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماءً ﴾ قال النسفي في معناها : أنزل من السحاب مطراً ﴿ فسالت أودية بقدرها ﴾ أي كل وادٍ بحسبه ، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء ، وهذا صغير وسع بقدره ، والأودية جمع واد : وهو الموضع الذي يسيل فيه الماء بكثرة ، وفي تنكير الأودية نكتة : وذلك أن المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع ، فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض . قال ابن كثير عن هذا المثل : وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها ، فمنها ما يسع علماً كثيراً ، ومنها من لايسع الكثير من العلوم بل يضيق عنها ﴿ فاحتمل السيل زبداً رابياً ﴾ أي فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبد عالٍ عليه ، والزبد : هو ما على وجه الماء من الرغوة ، والرابي : هو المنتفخ المرتفع على وجه السيل . هذا هو المثل الأول في هذه الآية ، إذ اشتملت هذه الآية على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه ، والباطل في اضمحلاله وفنائه ، والمثل الثاني قوله تعالى ﴿ ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ﴾ هذا هو المثل الثاني وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ابتغاء حلية ، أي ليجعل حلية ، أو ابتغاء متاع من الحديد والنحّاس والرّصاص يتخذ منها الأواني وما يتمتع به في الحضر والسفر ، فإنه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه ، والحلية : هي الزينة من ذهب أو

فضة ... والمعنى:أن هذه الفلذات عند غليانها زبداً مثل زبد الماء ﴿ **كذلك يضرب الله الحق والباطل** ﴾ أي كذلك يضرب الله مثل الحق والباطل ﴿ **فأما الزَّبد فيذهب جفاءً** ﴾ أي متلاشياً أي لا يُنتفع به ، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح ، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس ، يذهب ولا يرجع منه شيء ﴿ **وأما ما ينفع الناس** ﴾ من الماء والحليّ والأواني ﴿ **فيمكث في الأرض** ﴾ أي فيثبت ﴿ **كذلك يضرب الله الأمثال** ﴾ أي ليظهر الحق من الباطل ، قال ابن كثير : قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ **أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها** ﴾ الآية . هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكّها ، فأما الشك فلا ينفع معه العمل ، وأما اليقين فينفع الله به أهله وهو قوله ﴿ **وأما الزبد** ﴾وهو الشك ﴿ **فيذهب جُفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض** ﴾ وهو اليقين ، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار ، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك . قال النسفي :(قال الجمهور : وهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن والقلوب ، والحق والباطل ، فالماء القرآن نزل لحياة الجنان كالماء للأبدان ، والأودية للقلوب ، ومعنى بقدرها بقدر سعة القلب وضيقه ، والزبد هواجس النفس ووساوس الشيطان ، والماء الصافي المنتفع به مثل الحق ، فكما يذهب الزبد باطلًا ويبقى صفو الماء ، كذلك تذهب هواجس النفس ويبقى الحق كما هو ، وأما حلية الذهب والفضة فمثل للأحوال السنية والأخلاق الزكية ، وأما متاع الحديد والنحاس والرصاص فمثل للأعمال الممدة بالإخلاص المعدة للخلاص ، فإن الأعمال جالبة للثواب دافعة للعقاب ، كما أن تلك الجواهر بعضها أداة النفع للكسب ، وبعضها آلة الدفع في الحرب ، وأما الزبد فالرياء والخلل والملل والكسل) .

كلمة في السياق :

لقد قلنا : إن محور سورة الرعد هو آيتا سورة البقرة : ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلًا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلًا يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يُوصَل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ بدأت هاتان الآيتان بالحديث عن الله وضربه الأمثال ، وموقف الناس من المثل ، وانقسامهم بذلك إلى قسمين : مهتدين ،

وضالين ، وأن الذين استحقوا الضلال هم الموصوفون بالصفات المذكورة ، وههنا في سورة الرعد بدأ المقطع الثاني بالحديث عن الله ، وعلمه المحيط ، وعظمته وعنايته بالإنسان ، وقانونه العادل في خلقه . ثم تحدّث عن مظاهر من قدرته وعظمته وانتقامه ، ثم ضرب مثلاً لمن يعبده ويعبد غيره ، ثم قرّر خضوع الخلق كلهم له ، ثمّ قرّر ربوبيته ووحدانيته وقهره ، ثم ضرب مثلاً للحق الذي أنزله ووقعه في القلوب ، وحال القلوب معه ، واستحقاق هذا الحق للبقاء والمكث في الأرض ، ليوصلنا بذلك كله إلى ما أعدّ للمسلمين له ، وما أعدّ للرافضين هداه ، ثم ليقارن بين الذين علموا الحق والذين لا يعلمونه ، وبين صفات الذين علموا الحق واستجابوا له ، وصفات الذين رفضوا الحق ولم يستجيبوا له ، وهي نفس الصفات المذكورة في سورة البقرة ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ... ﴾ فالمقطع إذن تفصيل لآيتي سورة البقرة اللتين هما محور هذه السورة ، إن معرفة الله توصل إلى أنه هو وحده الذي يعلم الحق ، وهو الذي ينزله ويبيّنه . ولكنّ الناس يختلفون في موقفهم منه ، فيقبله بعضهم ويرفضه آخرون ، والبقاء الحقيقي للحق وحده ، والثواب الحقيقي والجزاء الصارم إنما يكونان يوم القيامة ، والذين يستجيبون للحق لهم مواصفاتهم ، والذين لا يستجيبون لهم مواصفاتهم . فلنر كيف عرضت المعاني فيما تبقى من المقطع :

﴿ **للذين استجابوا لربهم الحسنى** ﴾ أي : الجنة ورضوان الله تعالى للذين أطاعوا الله ورسوله ، وانقادوا لأوامره وصدّقوا وحيه ﴿ **والذين لم يستجيبوا له** ﴾ برفضهم هديه ﴿ **لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به** ﴾ أي لو ملكوا أموال الدنيا وملكوا معها مثلها لبذلوه ليدفعوا عن أنفسهم عذاب الله ، وأنّى لهم ذلك ، ومع بُعد ذلك عنهم فإن الله لا يتقبّل منهم ﴿ **أولئك لهم سوء الحساب** ﴾ أي في الدار الآخرة ، أي يناقشون على النقير والقطمير والجليل والحقير ، ومن نوقش الحساب عُذّب ﴿ **ومأواهم جهنم** ﴾ أي ومرجعهم بعد المحاسبة النار ﴿ **وبئس المهاد** ﴾ أي وبئس المكان الممهّد جهنم ، ثم قارن الله عز وجل بين الفريقين فقال : ﴿ **أفمن يعلم أنما أُنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى** ﴾ أي لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي أنزل إليك يا محمد من ربك هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه ، بل هو كله حق يُصدّق بعضه بعضاً ، لا يضادّ شيء منه شيئاً آخر ، فأخباره كلها حق ، وأوامره ونواهيه عدل ، لايستوي من كان كذلك ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه ، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدّقه

ولا اتبعه ، أفهذا كهذا ؟ لا استواء . فالاستفهام في الآية إنكاري ، أي إنه لمستنكر بعد كل هذا وبعد ما ضرب الله من المثل وما جاء به من الهدى أن تقع شبهة لا يعرف فيها الحق ، إنه ليس إلا العمى وحده هو السبب في عدم رؤية الحق ، ثم ختم الله الآية بقوله : ﴿ **إنما يتذكّر أولوا الألباب** ﴾ أي إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولوا العقول السليمة الصحيحة الذي يعملون على قضايا عقولهم فينظرون ويستبصرون ، فمن لا عقل له لا يتذكر ، ومن لم يتذكر فهو أعمى ، وقد دلّ ذلك على أن العقول السليمة مركوز فيها الحق ، فإذا نزل عليها الوحي تذكرت ، أما القلوب التي لا تتذكر فإنها وصلت إلى العمى الكامل ، ولذلك كله علاماته ، ومن ثم فإن الله عز وجل ذكر بعد هذه الآية خصائص الفريقين ، مقدّماً صفات أهل الحق ، فمن وجد من نفسه صفات أهل الحق فإنه من المهتدين ، ومن وجد من نفسه صفات أهل الباطل فإنه من الظالمين . أول هذه الصفات : ﴿ **الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق** ﴾ وعهد الله ما أوثقوه على أنفسهم من الشهادة بربوبيته ، فهم يفون لله بعهده أنه الرب وهم عبيد ، ثمّ هم لا ينقضون ما أوثقوه على أنفسهم من المواثيق بينهم وبين الله ، أو بينهم وبين العباد . خصص الوفاء بعهد الله ثم عمّم ليدخل فيه كل عهد واجب الوفاء شرعاً . وثاني هذه الصفات : ﴿ **والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل** ﴾ ويدخل في ذلك صلة الأرحام والإحسان إليهم ، وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف . قال النسفي : (ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله ﷺ ، وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان .. إنما المؤمنون إخوة ، بالإحسان إليهم على حسب الطاقة ، ونصرتهم والذب عنهم ، والشفقة عليهم ، وإفشاء السلام عليهم ، وعيادة مرضاهم ، ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر) الصفة الثالثة : ﴿ **ويخشون ربهم** ﴾ لمعرفتهم به وبجلاله . الصفة الرابعة : ﴿ **ويخافون سوء الحساب** ﴾ في الدار الآخرة فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسَبوا ، ويراقبون الله فيما يأتون ويذرون من الأعمال ، فيكون أمرهم على السداد والاستقامة ، في جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم . الصفة الخامسة : ﴿ **والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم** ﴾ صبروا عن المحارم والمآثم ، وصبروا على المصائب في النفوس والأموال ومشاق التكاليف لله وحده ، لا ليقال ما أصبره وأحمله للنوازل ، وأوقره عند الزلازل ، ولا لئلا يعاب في الجزع ، قال صاحب الظلال : (والصبر ألوان . وللصبر مقتضيات . صبر على تكاليف الميثاق من عمل وجهاد ودعوة واجتهاد ..... الخ ، وصبر على النعماء والبأساء . وقلّ من يصبر على النعمة فلا يبطر ولا يكفر . وصبر على

حماقات الناس وجهالاتهم وهي تضيق الصدور .. وصبر وصبر وصبر .. كله ابتغاء وجه ربهم لا تحرّجاً من أن يقول الناس : جزعوا ، ولاتجملًا ليقول الناس : صبروا . ولا رجاء في نفع من وراء الصبر . ولا دفعاً لضر يأتي به الجزع . ولا لهدف واحد غير ابتغاء وجه الله والصبر على نعمته وبلواه . صبر التسليم لقضائه والاستسلام لمشيئته والرضى والاقتناع ..) الصفة السادسة : ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ أي داوموا على إقامتها بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي . الصفة السابعة : ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم ﴾ أي على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب ، من فقراء ومحاويج ومساكين ﴿ سرّاً وعلانية ﴾ أي في السر والجهر لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال آناء الليل وأطراف النهار . وصدقة السرِّ في النفل أفضل ، وصدقة الجهر في الفرض أفضل نفياً للتهمة . الصفة الثامنة : ﴿ ويدرءون بالحسنة السيئة ﴾ أي يدفعون القبيح بالحسن ، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً واحتمالًا وصفحاً وعفواً ، يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيء غيرهم ، وإذا حُرموا أعطوا ، وإذا ظُلموا عفوا ، وإذا قُطعوا وصلوا ، وإذا أذنبوا تابوا ، وإذا هربوا أنابوا ، وإذا رأوا منكراً أمروا بتغييره ، قال صاحب الظلال : (والمقصود أنهم يقابلون السيئة بالحسنة في المعاملات اليومية لا في دين الله ، ولكن التعبير يتجاوز المقدمة إلى النتيجة . فمقابلة السيئة بالحسنة تكسر شرة النفوس ، وتوجهها إلى الخير وتطفيء جذوة الشر وترد نزغ الشيطان ، ومن ثم تدرأ السيئة وتدفعها في النهاية . فعجّل النص بهذه النهاية وصدر بها الآية ترغيباً في مقابلة السيئة بالحسنة وطلباً لنتيجتها المرتقبة .. ثم هي إشارة خفية إلى مقابلة السيئة بالحسنة عندما يكون في هذا درء السيئة ودفعها لا إضعافها واستعلاؤها فأما . حين تحتاج السيئة إلى القمع وتحتاج الشر إلى الدفع فلا مكان لمقابلتها بالحسنة لئلا ينتفش الشر ويتجرأ ويستعلي ، ودرء السيئة بالحسنة يكون غالباً في المعاملة الشخصية بين المتماثلين فأما في دين الله فلا .. إن المستعلي الغاشم لا يجدي معه إلا الدفع الصارم ، والمفسدين في الأرض لا يجدي معهم إلا الأخذ الحاسم ، والتوجيهات القرآنية متروكة لتدبر المواقف واستشارة الألباب والتصرف بما يرجح أنه الخير والصواب) وبعد فهذه مجموعة صفات ذكرها الله عز وجل ، فمن استجمع هذا الصفات والخصائص فهو الجدير بالحق ، البصير به ، المهتدي بهداية الله ، المستحق لما أعده الله لأهل الحق ﴿ أولئك لهم عقبى الدار ﴾ أي عاقبة الدنيا وهي الجنة ؛ لأنها التي أرادها الله أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها ﴿ جنات عدن ﴾ أي جنات إقامة يخلدون فيها ﴿ يدخلونها

﴿ وَمَن صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ قال ابن كثير : (أي يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها ، من الآباء والأهلين والأبناء ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين لتقر أعينهم بهم ، حتى أنه تُرفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتناناً من الله وإحساناً من غير تنقيص للأعلى عن درجته ..) قال النسفي : (ووصفهم بالصلاح ليعلم أن الأنساب لا تنفع بنفسها . والمراد (أي بقوله : من آبائهم) أبَوَا كل واحد منهم ، فكأنه قيل من آبائهم وأمهاتهم) ﴿ والملائكة يدخلون عليهم ﴾ بالهدايا وبشارات الرضا ﴿ من كل باب ﴾ قائلين ﴿ سلام عليكم بما صبرتم ﴾ أي هذا الثواب بسبب صبركم عن الشهوات وعلى أمر الله . دلّ ذلك على أن الصبر هو الخلُق الجامع ﴿ فنعم عُقبى الدار ﴾ أي الجنة . قال ابن كثير في تفسير الآية : (أي وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا للتهنئة بدخول الجنة ، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلّمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام والإقامة في دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام) وبهذا تمّ وصف أهل الحق وخصائصهم ومواصفاتهم : الذين يتذكرون ، والذين يهتدون ويقبلون هدى الله ، والذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة ، وتأتي الآية الأخيرة في المقطع لتحدد صفات الأشقياء العُمي الذين لا يعرفون الحق ولا يهتدون إليه ؛ بسبب من أعمالهم التي هي على النقيض من أعمال أولئك ﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾أي من بعد ما أوثقوه به من الاعتراف والقبول ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يُوصَل ﴾ من رحم وإيمان ﴿ ويفسدون في الأرض ﴾ بالكفر والظلم ، وتطبيق شرائع الجاهلية والصدّ عن سبيل الله ﴿ أولئك لهم اللعنة ﴾ وهي الإبعاد من الرحمة ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ أي سوء عاقبة الدنيا إن أريد بالدار الدنيا ، ويحتمل أن يراد جهنم وبسوئها عذابها .

فائدة :

بمناسبة قوله تعالى ﴿ أفمن يعلم أنما أُنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ قال صاحب الظلال : (إن هنالك علاقة وثيقة بين الفساد الذي يصيب حياة البشر في هذه الأرض وبين ذلك العمى عن الحق الذي جاء من عند الله لهداية البشر إلى الحق والصلاح والخير ، فالذين لا يستجيبون لعهد الله على الفطرة ، ولا يستجيبون للحق الذي جاء من عنده ويعلمون أنه وحده الحق .. هم الذين يفسدون في الأرض ؛ كما أن الذين يعلمون أنه الحق ويستجيبون له هم الذين يصلحون في الأرض وتزكو بهم الحياة : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما

يتذكر أولوا الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار﴾إن حياة الناس لا تصلح إلا بأن يتولى قيادتها المبصرون أولوا الألباب الذين يعلمون أن ماأنزل إلى محمد - ﷺ - هو الحق . ومن ثم يوفون بعهد الله على الفطرة وبعهد الله على آدم وذريته ، أن يعبدوه وحده فيدينوا له وحده ، ولا يتلقوا عن غيره ، ولا يتبعوا إلا أمره ونهيه . ومن ثم يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم فيخافون أن يقع منهم مانهى عنه وما يغضبه ، ويخافون سوء الحساب ، فيجعلون الآخرة في حسابهم في كل خالجة وكل حركة ، ويصبرون على الاستقامة على عهد الله ذاك بكل تكاليف الاستقامة ، ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله سراً وعلانية ، ويدفعون السوء والفساد في الأرض بالصلاح والإحسان .

إن حياة الناس في الأرض لا تصلح إلا بمثل هذه القيادة المبصرة التي تسير على هدى الله وحده والتي تصوغ الحياة كلها وفق منهجه وهديه .. إنها لا تصلح بالقيادات الضالة العمياء التي لا تعلم ما أنزل على محمد ﷺ هو الحق وحده والتي تتبع - من ثم - مناهج أخرى غير المنهج الذي ارتضاه للصالحين من عباده .. إنها لا تصلح بالإقطاع والرأسمالية كما أنها لا تصلح بالشيوعية والاشتراكية العلمية أنها كلها من مناهج العُمي الذين لا يعلمون أن ما أنزل على محمد - ﷺ - هو وحده الحق الذي لا يجوز العدول عنه ولا التعديل فيه .. إنها لا تصلح بالثيوقراطية كما أنها لا تصلح بالديكتاتورية أو الديموقراطية فكلها سواء في كونها من مناهج العُمي الذين يقيمون من أنفسهم أرباباً من دون الله ، تصنع هي مناهج الحكم ومناهج الحياة وتشرع للناس مالم يأذن به الله ، وتعبدهم لما تشرع فتجعل دينونتهم لغير الله .. وآية هذا الذي نقوله استمداداً من النص القرآني - هو هذا الفساد الطامي الذي يعم وجه الأرض اليوم في جاهلية القرن العشرين وهو هذه الشقوة النكدة التي تعانيها البشرية في مشارق الأرض ومغاربها .. سواء في ذلك أوضاع الإقطاع والرأسمالية ، وأوضاع الشيوعية والاشتراكية العلمية .. وسواء في ذلك الأشكال الديكتاتورية في الحكم أو الديموقراطية إنها كلها سواء فيما تلقاه البشرية من خلالها من فساد وخلل ، ومن شقاء ومن قلق ، لأنها كلها سواء من صنع العُمي الذين لا يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ من ربه هو الحق وحده ولا تلتزم - من ثم - بعهد الله وشرعه ، ولا تستقيم في حياتها على منهجه وهديه .

إن المسلم يرفض - بحكم إيمانه بالله وعلمه بأن ما أنزل على محمد ﷺ هو الحق - كلّ منهج للحياة غير منهج الله وكل مذهب اجتماعي ، أو اقتصادي ، وكل وضع كذلك سياسي غير المنهج الوحيد ، والمذهب الوحيد ، والشرع الوحيد ، الذي سنّه الله وارتضاه للصالحين من عباده

ومجرد الاعتراف بشرعية منهج أو وضع أو حكم من صنع غير الله هو بذاته خروج من دائرة الإسلام لله ، فالإسلام لله هو توحيد الدينونة له دون سواه

إن هذا الاعتراف - فوق أنه بالضرورة مفهوم الإسلام الأساسي - فهو في الوقت ذاته لا يسلم الخلافة في هذه الأرض للعُمْي الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض .. فهذا الفساد في الأرض مرتبط كل الارتباط بقيادة العُمي !..

ولقد شقيت البشرية في تاريخها كله وهي تتخبّط بين شتى المناهج وشتى الأوضاع وشتى الشرائع بقيادة أولئك العُمي ، يلبسون أردية الفلاسفة والمفكرين والمشرّعين والسياسيين على مدار القرون فلم تسعد قط ولم ترتفع « إنسانيتها » قط ، ولم تكن في مستوى الخلافة عن الله في الأرض قط إلا في ظلال المنهج الرباني في الفترات التي فاءت فيها إلى ذلك المنهج القويم .)

كلمة في السياق :

وهكذا فصّل هذا المقطع نوع تفصيل بعض الإجمال الموجود في الآيتين اللتين هما محور هذه السورة من سورة البقرة . لماذا يهتدي المهتدون ؟ لماذا يضل الضالون ؟ كيف يستقبل القلب الضال هدى الله ؟ كيف يستقبل القلب المهتدي هدى الله ؟ ماذا يترتب على الإيمان بالله ومعرفته ؟ كل ذلك نجد جوابه في هذا المقطع . ولنعقد مقارنة بين الآيتين اللتين هما محور سورة الرعد من سورة البقرة وبين هذا المقطع : في آيتي سورة البقرة نجد قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلًا ما بعوضة فما فوقها** ﴾ وفي هذا المقطع من سورة الرعد نجد : ﴿ **الله يعلم ما تحمل كل أنثى ....** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **كذلك يضرب الله الأمثال** ﴾ ونجد في هذه الفقرة أكثر من مثل ﴿ **إلا كباسط كفّيه إلى الماء ...** ﴾ ..﴿ **أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها** ﴾ وعندما نتأمل آية سورة البقرة وهذه الفقرة من المقطع نجد فيهما ما يزيدنا معرفة بالله وما ينبغي أن يُبتنى على هذه المعرفة ، وفي آيتي سورة البقرة نجد : ﴿ **فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه**

الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ وفي هذا المقطع من سورة الرعد نجد : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾ ثم في آيتي سورة البقرة نجد : ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ . وفي هذا المقطع من سورة الرعد نجد : ﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق .... ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ وهكذا نجد كيف أن هذا المقطع كان نوع تفصيل لآيتي سورة البقرة ، وهو وإن لم يكن تفصيلاً على الطريقة المعهودة للبشر لكنّه تفصيل يفوق كلّ تفصيل ، وإذا كان محور السّورة قد فصّل في صفات من يستحق الضلال ، فإن المقطع ههنا قد فصّل في صفات من يستحق الهداية ومن يستحق الضلال ، هذا مع إقامة الحجة على الضالين ، ولقد عمّق المقطع عندنا معاني هي : أن الله المحيط علماً بكل شيء ينزل وحياً ويضرب مثلاً ، وأن على خلقه أن يستجيبوا ، كما عرفنا أن معرفة الله تقتضي تنزيهاً وخشية واستجابة له ، وعرّفنا أن سبب الضلال والهداية يعود إلى استعدادات القلوب وصفات الإنسان ، وعرّفنا أن لأهل الحق العاقبة في الدنيا والآخرة ، وأن الحق وحده هو الذي يبقى ، كما عرّفنا أنّ الباطل يتعدد ويتجدد كما يتعدد الزبد ويتجدد ولكن عينه لا تبقى ، وأمّا الحق فإنّ عينه باقية ، وفي ذلك بشارة لمن يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ من ربه عز وجل هو الحق ، وهي معان تطويها كلها آيتا البقرة ، وسورة الرعد تفصّلها هذا التفصيل الرائع ، بمقاطعها الثلاثة وقد رأينا كيف فصّل المقطع الأول بعض ما في الآيتين نوع تفصيل ، وكذلك المقطع الثاني ، وسنرى بعد ذكر فوائد هذا المقطع كيف يفصّل المقطع الأخير بعض ما انطوى في آيتي سورة البقرة نوع تفصيل .

الفوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ له مُعقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ نذكر الأحاديث والآثار التالية :

أ - في الصحيح عن رسول الله ﷺ قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم - وهو أعلم بكم - كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون » .

ب ــ وروى الإمام أحمد ومسلم عن رسول الله ﷺ قال : « ما منكم من أحد إلا وقد وُكّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة » قالوا وإياك يارسول الله ؟ قال : « وإياي ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير » .

ج ــ قال ابن كثير : وقال أبو مجلز : جاء رجل من مراد إلى علي رضي الله عنه وهو يصلي فقال : احترس فإن ناساً من مراد يريدون قتلك فقال : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر ، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه ، ألا إنّ الأجل جُنة حصينة .

٢ ــ وفي قوله تعالى : ﴿ مِنْ أمر الله ﴾ كلام كثير للمفسرين ، والذي نذهب إليه أن المعنى : أن تسخير ملائكة لحفظ الإنسان جزء من النظام الكلي المحكوم بالقدر ، جاء في الحديث أنهم قالوا : يارسول الله أرأيت رقى نسترقي بها هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ فقال : « هي من قدر الله » فالكون في شقيه الغيبي والمشاهد قد جعل الله له نظاماً بأمره ، هذا النظام يربط به الحسي بالغيبي ، والغيبي بالغيبي ، والحسي بالحسي بما لا يعلمه إلا الله عز وجل ، وكجزء من هذا النظام تسخير الله ملائكة لحفظ الإنسان ، لا من قدر قدّره الله عليه ، ومن ثم تجد حالات عجيبة تجري في هذا الكون يحس بها الإنسان أن مجريات الأمور كانت تقتضي شيئاً لكنه لم يقع كما تقتضيه هذه المجريات

٣ ــ في قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ﴾ بيان لسنة من سنن الله إدراكها مُهم لكل إنسان ، وخاصة لمن يشتغلون في التربية والتوجيه والسياسة والاجتماع ، ومن ثَم جعلتها جمعية العلماء في الجزائر في زمن عبد الحميد بن باديس شعار العمل لها ، ولقد أُلفت المؤلفات الكثيرة في مضمونها ، فبدون تغيير للنفس لا يطمع الإنسان بأحسن ، وبدون تغيير لأنفس الأمة لا تطمع الأمة بأحسن ، كما أن التغير نحو الأسوأ لابدّ أن يرافقه تغيير في الحال ، إلا إذا شاء الله أن يعفو ، فالأنفس التي ألفت الذلة وعاتبها إذا لم تُربّ على الجهاد لا تطمع بتغيير الحال ، والأنفس التي ألفت الفوضى إذا لم تُربّ على النظام لا تطمع بتغيير الحال ، والأمة التي ألفت السيادة إذا لم تحتفظ بالحالة النفسية لها عندما حصلت السيادة لن تدوم لها ، ومن ألف التوفيق مع الله وهو طائع إذا واقع المعصية ولم يقلع عنها فلا يطمع باستمرار التوفيق . نقل ابن كثير عن ابن أبي حاتم بسنده إلى جهم عن إبراهيم : قال : أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحوّلون منها إلى معصية الله إلا حوّل الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون ، ثم قال : إن تصديق ذلك في كتاب الله ﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ﴾ .

٤ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ويسبّح الرعد بحمده** ﴾ نقول : في هذا المقام يذكر المفسرون اتجاهاً في التفسير ، هذا الاتجاه يذكر أن الرعد ملَك ، وأن البرق سوطه الذي يسوق به السحاب ، والذي نقوله في تفسير هذا الموضوع إذا صحّت الروايات فيه هو : إن بعض الأسباب الحسّية ربطها الله بأسباب غيبية ، كالموت سببه الحسي المرض ، وسببه الغيبي سحب الروح من قِبل المَلَك ، والجميع بأمر الله وقدرته ، فعندما يثبت بالدليل الشرعي أن سبباً حسياً مرتبط بسبب غيبي فقد وجب الإيمان في هذه الحالة بكل من السببين : الغيبي والحسي ، ولا يجوز نفي أحدهما بحال ، ومما وقع فيه كثير من الإسلاميين في الخطأ سببه النفي أو الإثبات القاصر ، وفي هذا المقام - مقام هذه الآية - نقول : إن للرعد سبباً حسّياً ، وللبرق سبب حسي هو ما يتكلم عنه علماء الطبيعة ، ولتصريف السحاب أسباب غيبية الله أعلم بها ، فعلماء المسلمين يذكرون أن المكلف بأمر الأرزاق ميكائيل ، فإذا ورد حديث صحيح حول موضوع الرعد والبرق وصلة الملائكة به ، فإنه محمول على ذكر السبب الغيبي الذي لا ينفي السبب الحسي ، فإذا أدركت هذا الموضوع عرفت قاعدة مهمة تستطيع أن تفهم بها كثيراً من النصوص ، وبمناسبة هذه الآية ننقل هذه الآثار التي ذكرها ابن كثير .

ــ روى الإمام أحمد : حدثنا يزيد حدثنا إبراهيم بن سعد أخبرني أبي كنت جالساً إلى جنب حميد بن عبد الرحمن في المسجد ، فمر شيخ من بني غفار ، فأرسل إليه حميد فلما أقبل قال : يا ابن أخي وسّع الله فيما بيني وبينك فإنه قد صحب رسول الله ﷺ ، فجاء حتى جلس فيما بيني وبينه ، فقال له حميد : ما الحديث الذي حدثتني عن رسول الله ﷺ فقال له الشيخ سمعت عن شيخ من بني غفار أنه سمع النبي ﷺ يقول : « إن الله ينشيء السحاب ، فينطق أحسن النطق ، ويضحك أحسن الضحك » والمراد والله أعلم أن نطقها الرعد وضحكها البرق ؛ وقال موسى بن عبيدة عن سعد بن إبراهيم قال : يبعث الله الغيث فلا أحسن منه مضحكاً ولا آنس منه منطقاً ، فضحكه البرق ، ومنطقه الرعد وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الحجاج حدثنا أبو مطر عن سالم عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال : « اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك »

أقول : إنّ المسلم مع بحثه عن القانون العلمي ، والحقيقة العلمية الكونية ، ومع إثباته لها ، فإنه له إحساساته الإيجابية التي تجعله يرى في هذا الكون ما لا يراه الكافر ، فيذكّره ذلك بالله تذكيراً يعبّر عنه بذكر أو دعاء أو خشية أو أُنس .

٥ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء** ﴾ ننقل أولاً ما ذُكر كسبب نزول لها ، ثم نثني بذكر حديث حول كثرة الصواعق في آخر الزمان :

أ ــ روي في سبب نزول هذه الآية ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً مرة إلى رجل من فراعنة العرب فقال : « اذهب فادعُهُ لي » قال فذهب إليه فقال : يدعوك رسول الله ﷺ ، فقال : له من رسول الله ؟ وما الله ؟ أمِنْ ذهب هو أم من فضة هو أم من نحاس هو ؟ قال : فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال يارسول الله : قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك قال لي كذا وكذا فقال لي : « ارجع إليه الثانية » فذهب فقال له مثلها . فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك فقال « ارجع إليه فادعه » فرجع إليه الثالثة قال : فأعاد عليه ذلك الكلام فبينا هو يكلّمه إذ بعث الله عز وجل سحابة حيال رأسه فرعدت فوقعت منها صاعقة فذهبت بقحف[1] رأسه فأنزل الله عز وجل ﴿ **ويرسل الصواعق** ﴾ الآية

ب ــ روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال : « تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة ، حتى يأتي الرجل القوم فيقول : من صُعق قبلكم الغداة ؟ فيقولون : صعق فلان وفلان وفلان »

٦ ــ بمناسبة ضرب الله المثل حول الزبد في السيل والمعادن المذابة قال ابن كثير : (وقد ضرب الله سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين نارياً ومائياً ، وهما قوله ﴿ **مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله** ﴾ الآية ثم قال ﴿ **أو كصيّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق** ﴾ الآية وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين (أحدهما) قوله : ﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب** ﴾ الآية والسراب إنما يكون في شدة الحر ، ولهذا جاء في الصحيحين فيقال لليهود يوم القيامة فما تريدون ؟ فيقولون : أي ربنا عطشنا فاسقنا فيقال : ألا تردون ؟ فيردون النار فإذا هي كسراب يحطم بعضها بعضاً . قال تعالى ثم في المثل الآخر : ﴿ **أو كظلمات في بحر لجي** ﴾ الآية وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكان منها طائفة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ؛ فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان

---

(١) القحف : هو أعلى الدماغ .

لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به ، فعلم وعلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » فهذا مثل مائي وقال في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد ... عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفَرَاش وهذه الدواب التي يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها - قال - : فذلكم مثلي ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلُمَّ عن النار ، فتغلبوني فتقتحمون فيها » وأخرجاه في الصحيحين أيضاً فهذا مثل ناري .

٧ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ ذكر ابن كثير مجموعة أحاديث وآثار ننقلها جميعاً مع حذف السند : (قال الإمام أحمد ... عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم . قال : « أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسدّ بهم الثغور ،وتُتّقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم ، فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك : وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلّم عليهم ؟ قال : إنهم كانوا عباداً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، وتسدّ بهم الثغور وتُتّقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لايستطيع لها قضاء - قال : فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب » ﴿ **سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ ورواه أبو القاسم الطبراني ... عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « أول ثلة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره ، وإذا أُمروا سمعوا وأطاعوا ، وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تقض ، حتى يموت وهي في صدره ، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول : أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي ، وأوذوا في سبيلي ، وجاهدوا في سبيلي ؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولاحساب ، وتأتي الملائكة فيسجدون ويقولون : ربنا نحن نسبح بحمدك الليل والنهار ونقدّس لك ، مَن هؤلاء الذين آثرتهم علينا ؟ فيقول الرب عز وجل : هؤلاء عبادي الذين جاهدوا في سبيلي ، وأوذوا في سبيلي ، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » وقال عبد الله بن المبارك عن بقية بن الوليد حدثنا أرطاة بن المنذر سمعت رجلاً من مشيخة الجند يقال له أبو الحجاج يقول : جلست إلى أبي أمامة فقال : إن

المؤمن ليكون متكئاً على أريكته إذا دخل الجنة وعنده سماطان(١) من خدم ، وعند طرف السماطين باب مبوب ، فيقبل الملك فيستأذن ، فيقول أقصى الخدم للذي يليه « ملك يستأذن »ويقول الذي يليه للذي يليه : « ملك يستأذن » حتى يبلغ المؤمن ، فيقول : ائذنوا . فيقول أقربهم إلى المؤمن : ائذنوا ، ويقول الذي يليه للذي يليه : ائذنوا ، حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب ، فيفتح له ، فيدخل فيسلم ، ثم ينصرف . رواه ابن جرير ورواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن عياش عن أرطاة بن المنذر عن أبي الحجاج يوسف الألهاني قال سمعت أبا أمامة فذكر نحوه وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول فيقول لهم « سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان

٨ ــ من السياق ، ومن الآيات التي وصفت أهل الحق وأهل الضلال نعرف أنه بمقدر التحقق بصفات أهل الخير ، وبصفات أهل الشر ، يكون استحقاق الإنسان للهداية ، أو للضلال ، أو للجزاء ، أو للعقاب . فليكثر الإنسان من تأمّل هذه الصفات ، وليسعَ للتحلّي والتخلّي مع الترقي في المقامات الصالحة ، فإنّ كلّ مقام يحتاج إلى أن يبذل الإنسان جهداً ليتمكن فيه ، وبعض المقامات تحتاج إلى مران كثير كالصبر ابتغاء وجه الله ، وكدرء السيئة بالحسنة .

٩ ــ مظاهر الإعجاز والكمال في هذا القرآن لا تنتهي ، وهناك حد أدنى من هذه المظاهر موجود في كل كلمة ، وفي كل جملة ، وفي كل آية ، وفي كل مجموعة آيات ، وفي كل مقطع ، وفي كل قسم ، وفي كل سورة ، وفي القرآن كله ، وقد يكون الإعجاز أكثر ظهوراً في كلمة أو في آية أو في سورة تأمّل قوله تعالى : ﴿ **ويدرءون بالحسنة السيئة** ﴾ فههنا صورة إنسان يتترّس بالحسنات من السيئات التي توجّه إليه ، فكلمّا وجّهت إليه سيئة دفعها بحسنة ، إنّ من تأمل هذه الصورة يدرك مظهراً من مظاهر الإعجاز الواضح في الكلمة القرآنية .

☆ ☆ ☆

---

(١) أي صفان من الخدم .

المقطع الثالث والأخير من سورة الرّعد

ويمتد من الآية (٢٦) إلى نهاية الآية (٤٣) وهذا هو :

ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ بِظَٰهِرٍ مِّنَ

الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ
فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا
لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) وَالَّذِينَ
آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ
إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَٰلِكَ
أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ
اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا
وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨)
يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ
الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا
أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ
سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ
كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ
مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)

ملاحظة حول المضمون والسياق :

نلاحظ أنه كما بدأ المقطعان السابقان بلفظ الجلالة (الله) فقد بدأ هذا المقطع بذلك : ﴿ **الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع** ﴾ .

ثم نلاحظ أن الآية الثانية في المقطع هي قوله تعالى : ﴿ **ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب** ﴾

كما أن آخر آية في المقطع هي قوله تعالى : ﴿ **ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومَن عنده علم الكتاب** ﴾ .

فانظر إلى الآيتين اللتين هما محور سورة الرعد من سورة البقرة تجد أن بينهما وبين ما ورد في المقطع تشابهاً : ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلًا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأماالذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلًا يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ....** ﴾ إنه لمن الواضح أن هناك تشابهاً بين قوله تعالى في سورة الرعد ﴿ **ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب** ﴾ وبين قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلًا يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ إن هذا التشابه ليؤكد الصلة بين السورة ومحورها ، بما نستطيع به الجزم أن سورة الرّعد تفصيل لكلتا الآيتين ، ففيها أقوال للكافرين ورد عليها ، وإقامة حجة ، وفيها تفصيل لظاهرتي الهداية والضلال ، وفيها تعريف على الله ، ولذلك كله صلة بآيتي سورة البقرة

تفسير المقطع الثالث :

يبدأ المقطع بالتذكير أن الله هو الذي يوسّع الرزق على من يشاء ، ويقتّر على من يشاء ؛ لما له في ذلك من الحكمة والعدل ، ثمّ بيّن أن الكافرين يفرحون بما أوتوا من الحياة الدنيا ، وليس ما أوتوا منها إلا استدراجاً لهم وإمهالًا ، وفي هذا السياق حقّر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادّخره تعالى لعباده المؤمنين في الآخرة قال تعالى : ﴿ **الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ أي ويضيّق على من يشاء ، والمعنى : الله وحده هو الذي يوسّع الرزق ويضيّقه دون غيره ، وفي هذا تعريف على الله بأنه هو القابض الباسط ،

وفي هذا كذلك تدليل على وجود الله إذ ظاهرة القبض والبسط في هذا الكون إنْ في موضوع المال ، أو فيما يتأتى فيه معنى القبض والبسط في عالم الأرواح والأجساد لا يمكن أن يعللها ذو فطرة سليمة إلا بوجود ذات خلقت وجعلت كل شيء في محله ﴿ **وفرحوا بالحياة الدنيا** ﴾ أي وفرحوا بما بُسط لهم من الدنيا فرح بطر وأشر ، لا فرح سرور بفضل الله وإنعامه عليهم ، ولم يقابلوه بالشكر حتى يؤجروا بنعيم الآخرة ﴿ **وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع** ﴾ أي إلا شيئاً نزراً يتمتع به كعجلة الراكب ، وهو ما يتعجّله من تمرات أو شربة سريعة ، وهذا مما يغفل عنه الكافرون ، ويتذكره المؤمنون ، وفي هذا المقام يذكر ابن كثير حديثين :

أ ـــ روى الإمام أحمد ومسلم عن المستورد أخي بني فهر قال : قال رسول الله ﷺ : « ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع » وأشار بالسبابة .

ب ـــ قال ابن كثير : وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ مر بجدي أسك ميت (والأسك الصغير الأذنين) فقال : « والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه » . أ هـ .

....

﴿ **ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه** ﴾ إن الكافرين يقترحون الآيات من أجل أن يؤمنوا في زعمهم ، وكأنّ أدلة الإيمان ناقصة أو غير كافية ، إنه إن كان اقتراحهم الآيات من أجل أن يؤمنوا بالله ، فالأدلة على وجود الله أكثر من كل كثير ، أو من أجل أن يؤمنوا برسوله ﷺ ، فهذا القرآن أعظم آية ، أو من أجل أن يؤمنوا بالقرآن ففيه من الإعجاز والآيات مالا يُحاط به ، ومن ثم كان الجواب ﴿ **قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب** ﴾ أي ويرشد إلى دينه من رجع إليه بقلبه ، وعلامتهم ما سيأتي من أوصافهم ، والمعنى أنه هو المضلّ والهادي ، سواء جاءهم الرسول ﷺ بآية على وفق ما اقترحوا ، أو لم يجبهم إلى سؤالهم ، فإن الهداية والإضلال ليسا منوطين بذلك .

ملاحظة حول السياق :

في آيتي سورة البقرة اللتين هما محور هذه السورة قوله تعالى ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ وهنا قال تعالى : ﴿ **ويهدي إليه من أناب** ﴾ هناك بيّن سبب إضلاله لمن

ضلّ ، وهنا بيّن سبب هدايته لمن اهتدى ، وهناك فصّل في صفات من استحق الإضلال حتى لا تلتبس ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ....** ﴾ وهنا بيّن صفات من يستحقون الهداية ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب** ﴾ ومن ثم ندرك كيف أن سورة الرعد تفصيل لمحورها من سورة البقرة ، ولكنه ليس التفصيل المعتاد في طرائق البشر أو الداخل تحت طوقهم ، ولكنه تفصيل معجز لا يمكن أن يكون إلا من الله المحيط علماً بكل شيء ، فإذا ما عرفنا أن سورة البقرة مدنية ، وسورة الرعد مكية على القول الراجح : وإذا ما رأينا أن سورة البقرة جعلت في أول القرآن ثم جاءت السور الأخرى مفصّلة على هذه الشاكلة المعجزة .... مع كون هذا القرآن نزل مفرقاً منجماً على رجل أمي في أمة أمية ، إن هذا وحده كاف للتدليل على أنه من عند الله ، فكيف إذا كان هذا واحداً من مظاهر إعجازه ، وكيف إذا كان إعجازه واحداً من معجزاته ؟ نسأل الله ألا يضلنا ، ونسأله أن يتوفانا على كمال الإيمان وأن يلحقنا بالصالحين .

ولنعد إلى السياق :

لقد وصف الله عز وجل من يستحق هدايته بأنه من أناب أي رجع إلى الله واستعان به وتضرّع إليه ، ثم وصف هؤلاء فقال : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله** ﴾ كالتسبيح والتهليل والاستغفار أو بالقرآن ، فقلوبهم تطيب وتركن إلى جانب الله ، وتسكن عند ذكره ، وترضى به مولى ونصيراً ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ أي بسبب ذكره تطمئن قلوب المؤمنين ، ثم بشّر أهل الإيمان فقال : ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم** ﴾ أي أصابوا خيراً وطيباً ﴿ **وحسن مآب** ﴾ أي وحسن مرجع .

وهكذا بيّن الله عز وجل من يستحق هدايته وبشّرهم ، وفي ذلك رد على الكافرين الذين يقترحون الآيات ، وإقامة حجة عليهم أن ضلالهم ليس بسبب عدم كفاية الآيات ؛ بل لمرض فيهم وقصور عندهم عن الخير ، ذلك هو أول ردّ عليهم ، وفيما يأتي من المقطع ردود أخرى كما سنرى : ﴿ **كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم** ﴾ أي مثل ذلك الإرسال أرسلناك ، إرسالاً له شأن وفضل على سائر الإرسالات ، وقد فسّر كيف أرسله بقوله ﴿ **في أمة قد خلت من قبلها أمم** ﴾ أي أرسلناك في أمة قد تقدمتها أمم كثيرة فهي آخر الأمم ، وأنت خاتم الأنبياء ﴿ **لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك** ﴾ أي لتقرأ عليهم الكتاب العظيم فتبلغهم رسالة الله ﴿ **وهم يكفرون بالرحمن** ﴾

أي بعثناك وحال هذه الأمة أنهم يكفرون بالرحمن الذي هو البليغ الرحمة ، الذي وسعت رحمته كل شيء ، فهم يكفرون بالرحمن ولا يقرّون به ، ويأنفون من وصف الله به كما أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم ، وقالوا ما ندري ما الرحمن الرحيم ﴿ قل هو ربي لا إله إلا هو ﴾ أي هذا الذي تكفرون به أنا مؤمن به ، معترف له مقرّ بالربوبية والألوهية هو ربي لا إله إلا هو ﴿ عليه توكلت ﴾ أي في جميع أموري ﴿ وإليه متاب ﴾ أي وإليه أرجع وأنيب فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه ﴿ ولو أن قرآناً سُيِّرت به الجبال ﴾ أي عن مقارّها ﴿ أو قُطِّعت به الأرض ﴾ حتى تتصدع وتتزايل قطعاً ﴿ أو كُلِّم به الموتى ﴾ فتسمع وتجيب لكان هذا القرآن ؛ لكونه غاية في التذكير ، ونهاية في الإنذار والتخويف ، قال ابن كثير في تفسيرها : (أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها ، أو تقطع به الأرض وتنشق ، أو تكلم به الموتى في قبورها ، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره ، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك ، لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ، ولا بسورة من مثله ، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون جاحدون له .) اهـ

ويحتمل أن يكون المعنى : ولو أن قرآناً وقع به تسيير الجبال ، وتقطيع الأرض ، وتكليم الموتى ، وتنبيههم لما آمنوا به ولما تنبهوا عليه ، وإنما حذف الجواب ليذهب الفكر أكثر من مذهب ، فإذا كان الرسول ﷺ قد بعث كما بعث غيره من الرسل ، وتلا هذا القرآن ، وكان القرآن بهذه المثابة ، فأي آية يطلب الكافرون ليؤمنوا . ؟ !

قال صاحب الظلال : (ولقد صنع هذا القرآن في النفوس التي تلقته وتكيفت به أكثر من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وإحياء الموتى . لقد صنع في هذه النفوس خوارق أضخم وأبعد آثاراً في أقدار الحياة بل أبعد أثراً في شكل الأرض ذاته فكم غير الإسلام والمسلمون من وجه الأرض - إلى جانب ما غيروا من وجه التاريخ ؟

إن طبيعة هذا القرآن ذاتها . طبيعته في دعوته وفي تعبيره . طبيعته في موضوعه وفي أدائه ، طبيعته في حقيقته وفي تأثيره .. إن طبيعة هذا القرآن لتحتوي على قوة خارقة نافذة يحسها كل من له ذوق وبصر وإدراك للكلام ، واستعداد لإدراك ما يوجّه إليه ويوحي به ، والذين تلقوه وتكيفوا به سيّروا ما هو أضخم من الجبال ، وهو تاريخ الأمم والأجيال ، وقطعوا ما هو أصلب من الأرض ، وهو جمود الأفكار وجمود التقاليد .

وأحيوا ما هو أجمد من الموتى ، وهو الشعوب التي قتل روحها الطغيان والأوهام ، والتحول الذي تمَّ في نفوس العرب وحياتهم فنقلهم تلك النقلة الضخمة دون أسباب ظاهرة إلا فعل هذا الكتاب ومنهجه في النفوس والحياة أضخم بكثير من تحول الجبال عن رسوخها . وتحول الأرض عن جمودها وتحول الموتى عن الموات) اهـ .

﴿ **بل لله الأمر جميعاً** ﴾ أي مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل ، ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، ومن يهد الله فلا مضل له ، وإذ كان الأمر كذلك فلا يستغرب المؤمنون عدم إيمان الكافرين ، ومن ثم قال الله تعالى : ﴿ **أفلم ييأس الذين آمنوا** ﴾ أي من إيمان جميع الخلق ، ويعلموا أو يتبينوا ﴿ **أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً** ﴾ ولكنه جل جلاله لا يهدي إلا من يستحق الهداية ، وسبقت له من الله العناية . وقد استعمل اليأس في الآية بمعنى العلم لتضمّنه معناه ؛ لأن اليائس عن الشيء عالم بأنه لا يكون ، كما استعمل النسيان في معنى الترك لتضمّنه ذلك ، وإذن فطلب هؤلاء الآية ليهتدوا ليس في محله ، إذ الآية موجودة ، والطريق إلى الإيمان معروف ، وما عليهم إلا أن يسلكوا ﴿ **ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة** ﴾ أي داهية تقرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت ، من صنوف البلايا والمصائب ، في نفوسهم وأولادهم وأموالهم ﴿ **أو تحل قريباً من دارهم** ﴾ أي أو تحل القارعة قريباً منهم فيفزعون ويتطاير عليهم شررها ، ويتعدى إليهم شرورها ، والمعنى : لاتزال القوارع تصيب الكافرين بسبب تكذيبهم ، أوتصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا ، وهذا وحده آية مستمرة لمن كان له قلب ، فكيف يطلبون الآيات ، ثم بيّن الله عز وجل استمرار إنزاله القوارع بالكافرين ومن حولهم فقال ﴿ **حتى يأتي وعد الله** ﴾ أي يوم القيامة ﴿ **إن الله لا يخلف الميعاد** ﴾ أي لا خلف في موعده .

وبهذا تمّ الردّ الثاني على اقتراح الكافرين آية ، وكما توجّه الخطاب في الرد الأول والثاني لرسول الله ﷺ : ﴿ **قل إن الله يضل من يشاء ..** ﴾ ﴿ **كذلك أرسلناك** ﴾ فإن الرد الثالث يبدأ بتوجيه الخطاب لرسول الله ﷺ كذلك . وفي الرد الثالث تسلية لرسول الله ﷺ وتعزية له . ﴿ **ولقد استهزىء برسل من قبلك** ﴾ أي فلك فيهم أسوة وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ في تكذيب من كذّبه واقتراحهم عليه الآيات ﴿ **فأمليت للذين كفروا** ﴾ أي أنظرتهم وأجلتهم ﴿ **ثم أخذتهم فكيف كان عقاب** ﴾ قال النسفي : (وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله ﷺ

استهزاءً به ، وتسلية) فقد فهم النسفي إذن أن هذا رَدّ على اقتراحهم المذكور في بداية هذا المقطع ، فطلب الآية فيه التنقيص للرسول ﷺ والاستهزاء بصدقه ، ومن ثم لفت الله نظرهم إلى هذا ، ولفت نظرهم إلى ما أنزله الله من عقوبات بأمثالهم ليريهم خطأ هذا الذي هم عليه ، وأنه إن كانت سنته الإملاء ، فسنته بعد الإملاء الأخذ ، وفي ذلك تهديد ووعيد وردّ ، ثمّ تأتي الآية اللاحقة وفيها ذكر قيوميته تعالى ، وذكر استحقاقهم العقوبة بشركهم ، وذكر سنته فيمن يريد إضلاله ، وفي ذلك آيات لمريد الإيمان : ﴿ **أفمن هو قائم** ﴾ أي حفيظ عليم رقيب ﴿ **على كل نفس** ﴾ صالحة أو طالحة ﴿ **بما كسبت** ﴾ من خير أو شر لا تخفى عليه خافية ، والتقدير : أفمن هو كذلك هل هو كالأصنام التي يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ولا تملك نفعاً لأنفسها ولا لعابديها ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها ؟ وقد حذف هذا الجواب اكتفاءً بدلالة السياق عليه وهو ما يأتي ﴿ **وجعلوا لله شركاء** ﴾ أي أصناماً وأنداداً وأوثاناً ﴿ **قل سمّوهم** ﴾ أي أعلمونا بهم ، واكشفوا عنهم حتى يُعْرَفوا ، فإنهم لا حقيقة لهم ، ولذلك قال : ﴿ **أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض** ﴾ أي بل اتنبئونه بشركاء لا يعلمهم في الأرض ، وهو العالم بما في السمٰوات والأرض فإذا لم يعلمهم ، عُلِم أنهم ليسوا بشيء ، والمراد نفي أن يكون له شركاء ، والمعنى : أتخبرونه في حالة تسميتهم آلهة بما لا وجود له ؛ لأنه لو كان لها وجود في الأرض لعلمها ، لأنه لا تخفى عليه خافية ﴿ **أم بظاهر من القول** ﴾ أي بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة ، فأي سخف هذا السخف ؟ أن يُعطىٰ لشيء اسم ليس له حقيقة ، ويعامل على أساس أن اسمه حقيقة ﴿ **بل زُيّن للذين كفروا مكرهم** ﴾ أي كيدهم للإسلام ، أي ماهم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار ﴿ **وصُدّوا عن السبيل** ﴾ أي عن سبيل الله ، فالله لا يوفقهم لسلوك سبيله جزاءً لهم على ماهم عليه ﴿ **ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾ أي من أحد يقدر على هدايته ، وفي هاتين الآيتين ردّ ضمني على اقتراحهم الآيات بإقامة الحجة عليهم ببطلان ما هم فيه ، من تسويتهم الله بخلقه ، وسيرهم في غير طريقه ، وصدّهم عن سبيله ، فاستمرارهم على ما هم عليه من الباطل ، ورفضهم لدعوة الرسول ﷺ فيه الدليل على سفههم ، وقد علمنا من خلال العرض سبباً من أسباب استحقاق الإنسان الضلال ، وهو اتخاذه لله شريكاً ، وبعد إقامة الحجة يأتي الإنذار : ﴿ **لهم** ﴾ أي الكافرين ﴿ **عذاب في الحياة الدنيا** ﴾ بالقتل والأسر بأيدي المؤمنين ، أو بأنواع المحن والبلايا ﴿ **ولعذاب الآخرة** ﴾ أي المدّخر لهم ﴿ **أشق** ﴾ أي

أشد من عذاب الدنيا بكثير ، لدوامه وشدته ، فإنّ عذاب الدنيا له انقضاء وذاك دائم أبداً ، ونار جهنم بالنسبة إلى نار الدنيا سبعون ضعفاً ، وفيها من صنوف العذاب الكثير : ﴿ **وما لهم من الله من واق** ﴾ أي من حافظ من عذابه ، ثم تأتي بشارة لأهل التقوى وإنذار لأهل الكفر بآية واحدة ﴿ **مثل الجنة التي وُعد المتقون** ﴾ أي صفتها ونعتها ﴿ **أكُلها دائم** ﴾ أي ثمرها دائم الوجود لا ينقطع ﴿ **وظلّها** ﴾ أي دائم لا ينسخ كما ينسخ في الدنيا بالشمس ففواكهها ومطاعمها ومشاربها ورَوْحها كل ذلك لا انقطاع ولا فناء ﴿ **ذلك عُقبىٰ الذين اتقوا** ﴾ أي الجنة الموصوفة عقبى المتقين أي منتهى أمرهم ﴿ **وعُقبىٰ** ﴾ أي ومنتهى أمر ﴿ **الكافرين النار** ﴾ نعوذ بالله من ذلك . ثم يستكمل الرد الثالث على اقتراح الآيات بآيتين فيهما ردّ ضمني على الاقتراح ، وفيهما رد على نوع آخر من الكافرين ﴿ **والذين آتيناهم الكتاب** ﴾ وهم قائمون بمقتضاه ﴿ **يفرحون بما أنزل إليك** ﴾ أي من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به كفرح النجاشي وقسيسيه بالقرآن يوم قرأه عليهم جعفر ﴿ **ومن الأحزاب من ينكر بعضه** ﴾ أي ومن أحزابهم – وهم كفرتهم الذين يتحزّبون ضد هذا الدين – من ينكر بعضه ويقر بعضه ، كما يفعل المبشرون والمستشرقون في عصرنا ، لا ينكرون الأقاصيص وبعض الأحكام والمعاني مما هو ثابت في كتبهم ، ولكنهم يجعلونه مستمداً من كتبهم ، وينكرون نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وغير ذلك ممّا حرّفوه وبدّلوه من الشرائع ، ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء جميعاً ﴿ **قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به** ﴾ ومن كان مضمون الوحي الذي أنزل إليه ذلك ، فذلك دليل على أنه حق ، والإنكار له إنكار لعبادة الله وتوحيده ﴿ **إليه أدعو** ﴾ أي إلى الله أدعو ﴿ **وإليه** ﴾ أي وإلى الله لا إلى غيره ﴿ **مآب** ﴾ أي مرجعي ، وإذ كان هذا دأبي وعملي ودعوتي ، فكيف تُردّ هذه الدعوة وتكفر ، وهي دعوة كل رسول ومن ثم قال : ﴿ **وكذلك أنزلناه حُكْماً عربياً** ﴾ أي حكمة عربية مترجمة بلسان العرب ، والمعنى – كما قال ابن كثير – : (وكما أرسلنا قبلك المرسلين ، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء ، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكماً معرباً شرّفناك به ، وفضّلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي) وقال النسفي في معناها : (ومثل ذلك الإنزال أنزلناه ، مأموراً فيه بعبادة الله وتوحيده ، والدعوة إليه وإلى دينه ، والإنذار بدار الجزاء) فإذا كان مضمون هذا الوحي كمضمون كل وحي سابق ، فكيف يُنكر هذا الدين ، وكيف يُكفر بهذا الرسول ! ، وهكذا قامت الحجة على مقترحي الآيات في هاتين الآيتين مرتين ، مرة بموقف قسم من أهل

الكتاب من هذه الرسالة ، ومرة بمضمونها بعد أن بدأ الرد الثالث بتسفيه ما هم عليه ، وعلى هذا فإن الرد الثالث كان رداً بالمضمون ، المضمون الباطل الذي هم عليه ، والمضمون الحق الذي هو هذه الدعوة ، فمن أين يحق لهم بعد هذا أن يطلبوا آية ، وفي ثنايا الرد على مقترحي الآيات رد على أحزاب أهل الكتاب الكافرين بوحدة رسالات الله ، ووحدة مضمونها الظاهرين في هذه الدعوة ، ثم ختم الله الرد الثالث بتثبيت رسول الله ﷺ على الحق الموحى إليه ، وأن عليه ألا يبالي باقتراحاتهم وإنكارهم ومجادلاتهم فقال : ﴿ **ولئن اتبعت أهواءهم** ﴾ أي آراءهم ﴿ **بعد ما جاءك من العلم** ﴾ الثابت من الله المؤيد بالحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة ﴿ **مالك من الله من ولي** ﴾ أي من ناصر ينصرك ﴿ **ولاواق** ﴾ يقيك منه ، وهذا من باب التهييج والبعث للسامعين على الثبات في الدين ، وألا يزلزل المؤمن عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة ، وإلا فإن رسول الله ﷺ من شدة الثبات بمكان ، وفيه وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة ، بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والحجة المحمدية ، وبهذا انتهى الرد الثالث في سياق هذا المقطع على مقترحي الآيات ليأتي الرد الرابع :

﴿ **ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله** ﴾ لاحظ قوله تعالى ﴿ **أن يأتي بآية** ﴾ ولاحظ ماذكرناه من أن هذه المجموعات كلها رد على قول الكافرين في الآية الثانية من هذا المقطع : ﴿ **ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه** ﴾ نجد ارتباطاً بين المجموعة الجديدة ، وسياق المقطع ﴿ **ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك** ﴾ فلست بدعاً من الرسل ، بل أنت واحد منهم ، يجري عليك ما يجري عليهم ﴿ **وجعلنا لهم أزواجاً وذرية** ﴾ أي نساء وأولاداً لأنهم بشر وهم قدوة ، وفي ذلك رد على التصورات الخاطئة في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام ﴿ **وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله** ﴾ أي ليس في وسعه إتيان الآيات على ما يقترحه قومه ؛ وإنما ذلك إلى الله ﴿ **لكل أجل** ﴾ أي لكل وقت ، أو لكل زمن ، أو لكل مدة ﴿ **كتاب** ﴾ ينزله الله عز وجل ليحكم هذه المدة ، ويفرض على أهل هذا الزمن اتباعه ، فالتوراة والزبور والإنجيل لزمن ، وهذا القرآن لباقي الزمان ومن ثم قال الله تعالى : ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت** ﴾ أي يمحو الله ما يشاء منها فينسخه ، ويثبت ما شاء منها فيقبضه ، حتى نسخت كلها بالقرآن الحكيم الذي أنزله الله تعالى على محمد ﷺ ﴿ **وعنده** ﴾ أي وعند الله ﴿ **أم الكتاب** ﴾ أي أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ لأن كل كائن مكتوب فيه فهو الذي

والآخرة ، وبهذا التهديد والوعيد ختم الرد على مقترحي الآيات . ثم يختم المقطع ، وتختم السورة كلها بهذه الآية . ﴿ **ويقول الذين كفروا لست مُرسلاً** ﴾ أي لم يرسلك الله فأنت مُدَّعٍ ﴿ **قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم** ﴾ أي حسبي الله هو الشاهد عليّ وعليكم ، شاهد عليّ بما بلغت من الرسالة ، وشاهد عليكم بما تفترونه من الكذب ، وقد أنزل عليّ ، وأظهر على يديّ من الأدلة على رسالتي ما قامت به الحجة ﴿ **ومَن عنده علم الكتاب** ﴾ يشهد على رسالتي كذلك ، والمراد بهم من أسلم من أهل الكتاب ، فإسلامهم دليل على صحة رسالته ، لأنهم لم يسلموا إلا لما علموه من التبشير في كتبهم ، وقد كتبنا في كتابنا (الرسول ﷺ) فصلاً خاصاً عن البشارات برسولنا ﷺ في الكتب الدينية العالمية .

كلمة في السياق :

كانت الآية الأولى في المقطع الأخير حديثاً عن الله ، ثم جاءت الآية الثانية فيه ﴿ **ويقول الذين كفروا ....** ﴾ وجاءت الآية الأخيرة : ﴿ **ويقول الذين كفروا .....** ﴾ وبين ذلك ومع ذلك ، وقبل ذلك ردود متعددة على الكافرين ، فقد بدأت السورة بقوله تعالى : ﴿ **المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون** ﴾ فهذه البداية تقرر أن القرآن آيات ، فالمقدمة ترد من البداية على مقترحي الآيات بأن الآيات هي القرآن ، وتقرر أن هذا القرآن حق ، وأن أكثر الناس لا يؤمنون ، ثم تتابع السورة أقوال الكافرين وتردها ، وتعلل سبب عدم إيمان الناس ، ففيما بين المقدمة والخاتمة ، وما بين المقاطع نفسها ، وما بين ذلك كله ومحور السورة في السياق القرآني من اتصال ما قد رأيت ، فسبحان الله مُنزّل هذا القرآن ، وخالق هذا الكون ظاهرهما أجزاء وباطنهما وحدة متكاملة .

فوائد :

١ ـــ في تفسير كلمة طوبى كلام كثير للمفسرين قال ابن كثير : (قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس (في تفسير طوبى) فرح وقُرّة عين ، وقال عكرمة : نِعْمَ مالهم . قال الضحاك :غبطة لهم . وقال إبراهيم النخعي : خير لهم ، وقال قتادة : هي كلمة عربية يقول الرجل طوبى لك أي أصبت خيراً ، وقال في رواية طوبى لهم حسنى لهم . ﴿ **وحسن مآب** ﴾ أي مرجع ، وهذه الأقوال شيء واحد لامنافاة بينها ، وقال سعيد ابن جبير عن ابن عباس (طوبى لهم) قال : هي أرض الجنة بالحبشية . وقال سعيد بن

مسجوع : طوبى اسم الجنة بالهندية . وكذا روى السدي عن عكرمة طوبى لهم أي الجنة ، وبه قال مجاهد . وقال العوفي عن ابن عباس : لما خلق الله الجنة وفرغ منها قال ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب** ﴾ وذلك حين أعجبته .....)

٢ ـ بمناسبة قوله ﴿ **وهم يكفرون بالرحمن** ﴾ يذكر ابن كثير الحديث الصحيح الذي رواه مسلم : قال رسول الله ﷺ :« إنّ أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » .

٣ ـ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولو أن قرآناً سُيِّرت به الجبال** ﴾ يذكر ابن كثير أن لفظ القرآن ، قد يطلق على كل من الكتب المتقدمة ، ويستشهد على ذلك بحديث رواه الإمام أحمد والبخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خفف على داود القرآن فكان يأمر بدابته أن تسرج فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته ، وكان لا يأكل إلا من عمل يده » . فالمراد بالقرآن في هذا الحديث الزبور ، ومن ثم يكون معنى الآية ، ولو أن كتاباً سيرت به الجبال أو قطِّعت به الأرض أو كلّم به الموتى ....

لكان هذا القرآن ، إلا أن قتادة قدّر المحذوف في الآية تقديراً آخر فقال : لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم لفعل بقرآنكم .. وما اعتمده ابن كثير والنسفي ونقلناه في صلب التفسير وهو الأولى

٤ ـ وبمناسبة الكلام عن عظمة القرآن ، وأنه به تقوم الحجة أثناء الكلام عن آية ﴿ **ولو أن قرآناً ....** ﴾ قال ابن كثير : فإنه ليس ثمّة حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس من هذا القرآن الذي لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله .

٥ ـ وفي سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ولو أن قرآنا سُيِّرت به الجبال** ..... ﴾ ذكر ابن كثير ما ذكره ابن أبي حاتم بسنده عن عطية العوفي قال : قلت له : ﴿ **ولو أن قرآنا سيرت به الجبال** ... ﴾ الآية قالوا لمحمد ﷺ لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها ، أو قطِّعت بنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح ، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه . فأنزل الله هذه الآية .

قال : قلت : هل ترون هذا الحديث عن أحد أصحاب النبي ﷺ ؟ قال : نعم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ وكذا روي عن ابن عباس والشعبي وقتادة وغير واحد في سبب نزول هذه الآية . والله أعلم .

٦ - في قوله تعالى : ﴿ **ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحلُّ قريباً من دارهم** ﴾ أكثر من قول للمفسرين أحدها : ما ذكرناه في صلب التفسير وهو ما ينزله الله بالكافرين من بأس ، وبعضهم فسّرها بغزو رسول الله ﷺ والمؤمنين لعقر دار الكفر وجوارها . روى أبو داود الطيالسي بسنده إلى سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة** ﴾ قال سرية ﴿ **أو تحلّ قريباً من دارهم** ﴾ قال محمد ﷺ ﴿ **حتى يأتي وعد الله** ﴾ قال فتح مكة . والذي نراه في هذا المقام أن سُنّة الله أن ينزل بعقر دار الكافرين وما جاورها قوارعه المستمرة إلى يوم القيامة ، إما كعذاب أو كتسليط عليهم ، وقد كان تسليط رسول الله ﷺ على قريش نموذجاً على جزء من هذه السُنّة .

٧ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ....** ﴾ يذكر ابن كثير حديث الصحيحين : « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » . ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾ .

٨ ــ قراءة حفص التي شرحناها عند قوله تعالى : ﴿ **بل زُيّن للذين كفروا مكرهم وصُدوا عن السبيل** ﴾ تضم الصاد ، وهناك قراءات متواترة تفتح الصاد فيكون المعنى : لقد صدّ هؤلاء الكافرون عن سبيل الله كما زُيّن لهم المكر والكيد للإسلام وأهله فاستحقوا بشركهم وكيدهم وصدّهم عن سبيل الله الضلال ، فعقوبة الإضلال من الله لا تكون بلا سبب .

٩ ــ عند قوله تعالى : ﴿ **مثل الجنة التي وُعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أُكلها دائم وظلّها تلك عُقبىٰ الذين اتقوا** ﴾ ينقل ابن كثير مجموعة أحاديث نَنقلها جميعاً مع حذف الأسانيد (قال ابن كثير : وفي الصحيحين : من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف وفيه قالوا : يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ، ثم رأيناك تكعكعت . فقال : « إني رأيت الجنة - أو أُريت الجنة - فتناولت منها عنقوداً ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا » . وقال الحافظ أبو يعلى ... عن جابر قال : بينا نحن في صلاة الظهر إذ تقدّم رسول الله ﷺ فتقدّمنا ، ثم تناول شيئاً ليأخذه ثم تأخر ، فلما قضى الصلاة قال له أُبي بن كعب : يا رسول الله صنعت اليوم في الصلاة شيئاً ما رأيناك كنت تصنعه فقال : « إني عرضت عليّ الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة فتناولت منها قطفاً من عنب لآتيكم

به ، فحيل بيني وبينه ، ولو أتيتكم به لأكل منه مَنْ بين السماء والأرض لا ينقصونه » وروى مسلم من حديث أبي الزبير عن جابر شاهداً لبعضه ، وعن عتبة بن عبد السلمي أن أعرابياً سأل النبي ﷺ عن الجنة فقال فيها عنب ؟ قال : « نعم » قال : فما عظم العنقود ؟ قال : « مسيرة شهر للغراب الأبقع ولا يفتر » رواه الإمام أحمد . وقال الطبراني ... عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ « إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى » وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « يأكل أهل الجنة ويشربون ولا يتمخطون ولا يتغوّطون ولا يبولون ، طعامهم ذلك جشاء كريح المسك ، ويُلهَمون التسبيح والتقديس كما يُلهَمون النفس » رواه مسلم ، وروى الإمام أحمد والنسائي من حديث الأعمش عن ثمام بن عقبة سمعت زيد بن أرقم قال : جاء رجل من أهل الكتاب فقال يا أبا القاسم : تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ؟ قال « نعم والذي نفس محمد بيده إن الرجل منهم ليعطَى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة » قال : إن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس في الجنة أذى ، قال : « تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كريح المسك فيضمر بطنه » . رواه الإمام أحمد والنسائي . وقال الحسن بن عرفة ... عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : « إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فيخرُّ بين يديك مشوياً » وجاء في بعض الأحاديث « أنه إذا فرغ منه عاد طائراً كما كان بإذن الله تعالى » وقد قال الله تعالى : ﴿ **وفاكهة كثيرة . لا مقطوعة ولا ممنوعة** ﴾ (الواقعة : ٣٢ ، ٣٣) وقال : ﴿ **ودانية عليهم ظلالها وذُلّلت قطوفها تذليلًا** ﴾ (الإنسان : ١٤) وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص كما قال تعالى : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً** ﴾ ....) أهـ .

أقول : رأينا في بداية هذه الفائدة النصوص التي تذكر أن الجنة دنت لرسول الله ﷺ ورآها ، وهذه النصوص من جملة ما استندنا إليه في أنّ السمٰوات السبع والعرش من المخلوقات المغيّبة عنا ، فالملائكة سكان السمٰوات غيب ، والجنة -وهي فوق السماء السابعة- غيب ، ودليل ذلك أن رسول الله ﷺ دنت إليه ورآها ولم يرها غيره ، فالسمٰوات السبع - والله أعلم - لاتخرج عن هذه الطبيعة فهي موجودة ولكنها مغيّبة عنا

١٠ ـــ بمناسبة الكلام عن الظل الدائم في الجنة في قوله تعالى : ﴿ **أكُلها دائم وظلها** ﴾

يذكر ابن كثير حديث الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب المجد الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها » ثم قرأ ﴿ **وظل ممدود** ﴾

١١ ــ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية** ﴾ يذكر ابن كثير حديث الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « أما أنا فأصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآكل اللحم وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » كما يذكر الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي عنه عليه الصلاة والسلام « أربع من سنن المرسلين : التعطّر والنكاح والسواك والحنّاء » أي لشيب الرأس واللحية .

١٢ ــ من الآيات التي دار حولها نقاش كثير بين العلماء واختلفوا في فهمها على أقوال متعددة ، آية ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** ﴾ وقد ذكرنا في صلب التفسير أرجح ما ترجّح عندنا ، ولزيادة الفائدة نذكر هنا تلخيص ابن كثير لهذه الأقوال ننقله بحاله ماعدا الأسانيد ، قال ابن كثير بعد أن ذكر القول الذي رجّحناه : (قوله : ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** ﴾ اختلف المفسرون في ذلك فقال الثوري ووكيع وهشيم عن ابن أبي ليلى عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : يدبّر أمر السّنة فيمحو الله ما يشاء ، إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت ، وفي رواية ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت** ﴾ قال كل شيء إلا الموت والحياة والشقاء والسعادة فإنهما قد فرغ منهما ، وقال مجاهد ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت** ﴾ إلا الحياة والموت ، والشقاء والسعادة فإنهما لا يتغيران ، وقال منصور سألت مجاهداً فقلت : أرأيت دعاء أحدنا يقول : اللهم إن كان اسمي في السعداء فاثبته فيهم ، وإن كان في الأشقياء فامحه عنهم واجعله في السعداء . فقال حسن ، ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر فسألته عن ذلك فقال : ﴿ **إنا أنزلناه في ليلة مباركة** ﴾ الآيتين قال يقضي في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو مصيبة ، ثم يقدّم ما يشاء ويؤخر ما يشاء ، فأما كتاب السعادة والشقاء فهو ثابت لا يُغير ، وقال الأعمش عن أبي وائل شقيق بن سلمة إنه كان كثيراً يدعو بهذا الدعاء : اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامحه واكتبنا سعداء ، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب . رواه ابن جرير وقال ابن جرير ... عن أبي عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال – وهو يطوف بالبيت وهو يبكي – : اللهم إن كنت كتبت علي شقوة أو ذنباً فامحه ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب فاجعله سعادة ومغفرة .

وقال حماد ... عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يدعو بهذا الدعاء أيضاً ورواه شريك عن هلال بن حميد عن عبد الله بن عليم عن ابن مسعود بمثله ، وقال ابن جرير ... عن إبراهيم أن كعباً قال لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة ، قال : وما هي ؟ قال : قول الله تعالى ﴿ **يمحو الله ما يشاء** ﴾ الآية ومعنى هذه الأقوال : أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها ويثبت منها ما يشاء ، قد يستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد ... عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، ولا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر » ورواه النسائي وابن ماجه من حديث سفيان الثوري به وثبت في الصحيح أن صلة الرحم تزيد في العمر . وفي حديث آخر « إن الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض » وقال ابن جرير ... عن ابن عباس قال إن لله لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام ، من درة بيضاء ، لها دفتان من ياقوت - والدفتان لوحان - لله عز وجل كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . وقال الليث بن سعد ... عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « يفتح الذكر في ثلاث ساعات يبقين من الليل ، في الساعة الأولى منها ينظر في الذكر الذي لا ينظر فيه أحد غيره ، فيمحو ما يشاء ويثبت » وذكر تمام الحديث . رواه ابن جرير وقال الكلبي يمحو الله ما يشاء يثبت وقال : يمحو من الرزق ويزيد فيه ، ويمحو من الأجل ويزيد فيه ، فقيل له من حدثك بهذا ؟ فقال أبو صالح عن جابر بن عبد الله بن رباب عن النبي ﷺ ،ثم سئل بعد ذلك عن هذه الآية فقال يكتب القول كله حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب ، مثل قولك أكلت وشربت دخلت وخرجت ونحو ذلك من الكلام وهو صادق ، ويثبت ما كان فيه الثواب وعليه العقاب ، وقال عكرمة عن ابن عباس : الكتاب كتابان : فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وقال العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** ﴾ يقول : هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو ، والذي يُثبت الرجل يعمل بمعصية الله وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله وهو الذي يثبت . وروي عن سعيد بن جبير أنها بمعنى ﴿ **يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير** ﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت** ﴾ يقول : يبدّل ما يشاء فينسخه ، ويثبت ما يشاء فلا يبدله ﴿ **وعنده أم الكتاب** ﴾ وجملة ذلك عنده في أم

الكتاب الناسخ وما يبدل وما يثبت ، كل ذلك في كتاب ، وقال قتادة في قوله ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت** ﴾ كقوله ﴿ **ما ننسخ من آية أو ننسها** ﴾ الآية ، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت** ﴾ قال قالت كفار قريش لما نزل ﴿ **وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله** ﴾ ما نرى محمداً يملك شيئاً وقد فرغ الأمر ، فأنزلت هذه الآية تخويفاً ووعيداً لهم ، إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا ونحدث في كل رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت مايشاء من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم ومايقسم لهم ، وقال الحسن البصري ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت** ﴾ قال من جاء أجله يذهب ، ويثبت الذي هو حي يجري إلى أجله ، وقد اختار هذا القول ابن جرير رحمه الله وقوله ﴿ **وعنده أم الكتاب** ﴾ قال الحلال والحرام ، وقال قتادة أي جملة الكتاب وأصله ، وقال الضحاك ﴿ **وعنده أم الكتاب** ﴾ قال كتاب عند رب العالمين ، وقال سنيد بن داود حدثني معتمر عن أبيه عن يسار عن ابن عباس أنه سأل كعباً عن أم الكتاب فقال : علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون ، ثم قال : لعلمه كن كتاباً فكان كتاباً . وقال ابن جريج عن ابن عباس ﴿ **وعنده أم الكتاب** ﴾ قال : الذكر)

أقول : لقد رجّحنا أنّ المراد بالآية ﴿ **يمحو الله ما يشاء** ﴾ من شرائعه ﴿ **ويثبت** ﴾ ما يشاء منها ﴿ **وعنده أم الكتاب** ﴾ أي اللوح المحفوظ ، وقد ذهب بعض علماء التوحيد أن ما يطرأ عليه المحو هو صحف الملائكة التي كتبت فيها أحداث السنة ، وأمّا اللوح المحفوظ فلا يطرأ عليه جديد لأنه مظهر من مظاهر علم الله .

١٣ ــ حمل بعضهم قوله تعالى : ﴿ **ومن عنده علم الكتاب** ﴾ أن المراد به عبد الله ابن سلام قاله مجاهد . قال ابن كثير : (وهذا القول غريب لأن هذه الآية مكية) والذين اتجهوا إلى أن المراد به عبد الله بن سلام إما أنهم جعلوا الآية مدنية ، أو أنهم جعلوا إسلام عبد الله بن سلام متقدماً على الهجرة إلى المدينة ، والذي نرجحه ما رجحه ابن كثير من كونها عامة في كل من أسلم من اليهود والنصارى ، وأنها مكية ، وما يروى خلاف ذلك فليس من القوة بحيث يعتمد .

١٤ ــ ونختم هذه الفوائد بفائدة من حقها التقديم ولكنها أخرت لاعتقادنا أنها مهمة هذه الفائدة لها علاقة بالدعوة إلى الله والتربية ، لقد رأينا أن هذه السورة أحد مضامينها الرئيسية تعليل ظاهرة الهداية والضلال ، ومما قاله تعالى : ﴿ **ويهدي إليه من أناب . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ ومن ثم فإن

الدعاة إلى الله ينبغي أن يلاحظوا هذا في الدعوة والتربية ، فيركزوا موضوع التوبة والإنابة ، وموضوع الإيمان بالله والإكثار من ذكره ، وبقدر ما ينجح الداعية في هذه البداية يكون نجاحه في النهايات ، ومن ثم فإننا نلاحظ أن أنجح الناس في نقل الإنسان من حال إلى حال هم صالحوا الصوفية ، لأنهم يبدأون مع المريد هذه البداية ، إذ يأمرونه بالاستغفار والذكر ، ويركزون على المذاكرة في معرفة الله وعيوب النفس ، ومن ثم فإننا نوصي كل مسلم بالإكثار من الصلاة ، لأنها أعلى من كل ذكر ، وبالإكثار من الأذكار ، وليلتزم المسلم بحد أدنى من الأذكار المأثورة لا يتخلى عنها في صيف أو شتاء أو سفر أو حضر ، ويزيد عليها ما شاء إذا واتته الهمة ، وليكن له حظه اليومي من الاستغفار والصلاة على رسول الله ﷺ ، والتهليل والتسبيح والتحميد والتكبير وليحافظ على أذكار الصلاة وقيام الليل وسنة الضحى

كلمة في محل سورة الرعد :

سورة الرعد هي السورة الرابعة من هذه المجموعة من هذا القسم من أقسام القرآن . وقد غطت هذه السور الأربع الآيات الأولى من سورة البقرة حتى الآية (٢٧) فهي تقابل من حيث التغطية آل عمران والنساء والمائدة في القسم الأول ، إلا أن نوع التغطية والتفصيل يختلف . والابتداء في سورة الرعد بـ (الۤمۤر) يشبه الابتداء في القسم الأول بـ (الۤمۤ) من حيث الاحتواء على حرف زائد على (الۤمۤ) وهو الراء هنا وهو الحرف المميز في هذا القسم وكما كان بعد (الۤمۤ) في القسم الأول سورتا الأنفال وبراءة وهما تغطيان معنى في أعماق سورة البقرة ، فإن ما بعد سورة الرعد سورة هي سورة إبراهيم تغطي معنى في أعماق سورة البقرة كما سنرى ، وبسورة إبراهيم تنتهي هذه المجموعة ، فتكون خمس سور لتأتي المجموعة الثانية ، وهي مبدوءة بسورة الحجر المبدوءة بـ (الۤر) وهي كذلك خمسة ، ثمّ تأتي المجموعة الثالثة والأخيرة من قسم المئين الذي ينتهي بسورة القصص وسنرى بعد عرض سورة إبراهيم وقبل سورة الحجر ما هي الأسباب التي جعلتنا نعتبر أن سورة إبراهيم هي نهاية المجموعة الأولى ، فإلى عرض سورة إبراهيم عليه السلام

☆ ☆ ☆



سورة إبراهيم

وهي السورة الرابعة عشرة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الخامسة والأخيرة من المجموعة الثانية
من قسم المئين ، وآياتها اثنتان
وخمسون آية وهي
مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

قال الألوسي في تقديمه لسورة إبراهيم عليه السلام :

(أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير أنها نزلت بمكة ، والظاهر أنهما أرادا أنها كلها كذلك ، وهو الذي عليه الجمهور ، وأخرج النحاس في ناسخه عن الخبر أنها مكية إلا آيتين منها فإنهما نزلتا بالمدينة وهما ﴿ **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ..** ﴾ الآيتين نزلتا في قتلى بدر من المشركين . وأخرج نحوه أبو الشيخ عن قتادة . وقال الإمام : إذا لم يكن في السورة ما يتصل بالأحكام فنزولها بمكة والمدينة سواء إذ لا يختلف الغرض فيه ، إلا أن يكون فيها ناسخ أو منسوخ فتظهر فائدته . يعني أنه لا يختلف الحال وتظهر ثمرته إلا بما ذكر ، فإن لم يكن ذلك فليس فيه إلا ضبط زمان النزول وكفى به فائدة ....

وارتباطها في السورة التي قبلها واضح جداً ؛ لأنه قد ذكر في تلك السورة من مدح الكتاب ، وبيان أنه مغن عما اقترحوه ما ذكر ، وافتتحت هذه بوصف الكتاب والإيمان ، إلى أنه مغن من ذلك أيضاً ، وإذا أريد (بمن عنده علم الكتاب) الله تعالى ناسب مطلع هذه ختام تلك أشدّ مناسبة ، وأيضاً قد ذكر في تلك إنزال القرآن حكماً عربياً ولم يصرح فيها بحكمة ذلك ، وصرح بها هنا ، وأيضاً تضمنت تلك الإخبار من قبله تعالى بأنه ما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ، وتضمنت هذه الإخبار من جهة الرسل عليهم السلام وأنهم قالوا : ما كان لنا أن نأتي بسلطان إلا بإذن الله ، وأيضاً ذكر هناك أمره عليه الصلاة والسلام بأن « عليه توكلت » وحكى هنا عن إخوانه المرسلين عليهم السلام توكلهم عليه سبحانه ، وأمرهم بالتوكل عليه جل شأنه ، واشتملت تلك على تمثيل للحق والباطل ، واشتملت هذه على ذلك أيضاً بناء على بعض ما ستسمعه إن شاء الله في قوله سبحانه ﴿ **ضرب الله مثلاً كلمة طيبة** ﴾ إلى آخره ، وأيضاً ذكر في الأولى من رفع السماء ومدّ الأرض وتسخير الشمس والقمر إلى غير ذلك مما ذكر ، وذكر هنا نحو ذلك ، إلا أنه سبحانه اعتبر ما ذكر أولاً آيات ، وما ذكر ثانياً نعماً ، وصرح في كل بأشياء لم يصرح بها في الأخرى ، وأيضاً قد ذكر هناك مكر الكفرة ، وذكر هنا أيضاً ، وذكر من وصفه ما لم يذكر هناك ، وأيضاً قال الجلال السيوطي : إنه ذكر في الأولى قوله تعالى : ﴿ **ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم** ﴾ وذلك مجمل في أربعة مواضيع : الرسل ، والمستهزئين ، وصفة الاستهزاء ، والأخذ ، وقد فصلت الأربعة في قوله تعالى ﴿ **ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح ...** ﴾ الآيات وقد اشتركت السورتان – مما عدا افتتاح كل منهما بالمتشابه – بأن

كلّا قد افتتح بالألف واختتم بالباء ...)

كلمة في سورة إبراهيم ومحورها :

عندما نتأمل سورة البقرة لنجد فيها محوراً لسورة إبراهيم يتفق مع معناها وجرسها وروحها ، فإننا نجده محوراً بعيداً جداً عن محور سورة الرعد حتى ليكاد يكون في آخر سورة البقرة والمحور الذي نعثر عليه هو : ﴿ **الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ .

تأمل هاتين الآيتين ، وتأمل بداية سورة إبراهيم : ﴿ **الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ....** ﴾ .

ثم تأمل قوله تعالى فيها ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتناأن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ....** ﴾ وكما أنه بعد الآية التي ذكر فيها الظلمات والنور جاءت آية مبدوءة بقوله تعالى (ألم تر) في سورة البقرة فإنك ترى في سورة إبراهيم هذه الكلمة تتكرر .

﴿ **ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق ....** ﴾

﴿ **ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة .....** ﴾

﴿ **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا ....** ﴾

وكما كان في الآية الثانية من المحور كلام عن إبراهيم فإن كلاماً عن إبراهيم يأتي كذلك في السورة ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً** ﴾

....

فسورة إبراهيم تفصّل في موضوع الإخراج من الظلمات إلى النور ، وتلفت النظر إلى كل ما يساعد عليها ، وتضرب مثلا على أنواع من الخروج من الظلمات إلى النور ، ثم توجّه الخارجين من الظلمات إلى النور إلى معان من ظلمات الحياة فتخرجهم منها إلى النور .

وقد دللنا على أن هذه هي نهاية المجموعة الأولى من قسم المثين المعاني ، فإن سورة الحجر وما بعدها تبدأ بتغطية سورة البقرة من بدايتها

....

تتألف سورة إبراهيم من ثمان مجموعات وخاتمة هي آية واحدة ، وهي بمجموعها تشكّل مقطعاً واحداً ، ينتظم هذه المجموعات كلها محور واحد . وتخدم كل مجموعة هذا المحور بشكل من الأشكال

وكل مجموعة توصل إلى ما بعدها ، وكل مجموعة لاحقة تتصل بما قبلها

فلنر السورة من خلال العرض .

المجموعة الأولى

وهي أربع آيات وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾

التفسير :

﴿ **الر كتاب** ﴾ أي هذا الكتاب ﴿ **أنزلناه إليك** ﴾ يا محمد ﴿ **لتخرج الناس** ﴾ به بالدعوة إليه والتربية عليه ﴿ **من الظلمات إلى النور** ﴾ أي من الضلالة والغي إلى الهدى والرشد ، من ظلمات الشهوة والجهل والكفر ، والشرك والشك ، إلى نور الإسلام ﴿ **بإذن ربهم** ﴾ أي بتيسيره وتسهيله وتوفيقه لمن قدر له الهداية على يدي رسوله ﷺ المبعوث عن أمره بهذا القرآن ﴿ **إلى صراط العزيز** ﴾ أي الذي لا يمانع ولا يغالب ، بل هو القاهر لكل ما سواه ﴿ **الحميد** ﴾ أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره ونهيه ﴿ **الله الذي له ما في السموات وما في الأرض** ﴾ خلقاً وملكاً ﴿ **وويل للكافرين من عذاب شديد** ﴾ أي ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك وكذبوك .
وبعد أن ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، توعَّد الكافرين بالويل الذي هو نقيض النجاة ، وهو اسم معنى كالهلاك ، ثم وصف الكافرين فقال : ﴿ **الذين**

يستحبُّون الحياة الدنيا على الآخرة ﴾ أي يختارونها ويؤثرونها ويقدمونها عليها ، ويعملون للدنيا وينسون الآخرة ، ويتركونها وراء ظهورهم ﴿ **ويصدون عن سبيل الله** ﴾ أي عن دينه والدعاة إليه ﴿ **ويبغونها عوجاً** ﴾ أي ويطلبون لسبيل الله زيغاً واعوجاجاً ، وما هم بواجدين فيها شيئاً من ذلك ، ولكنه الحقد عليها واللؤم من طبائعهم ، قال ابن كثير في تفسيرها : (أي ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً أي مائلة حائلة ، وهي مستقيمة في نفسها ، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها ، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق لا يُرجى لهم - والحالة هذه - صلاح) ومن ثم ختم الله الآية بقوله ﴿ **أولئك في ضلال بعيد** ﴾ أي عن الحق ، وقد وصف الضلال بالبعد مع أن البعد للضال ، لأنه هو الذي يباعد صاحبه عن طريق الحق ، ولأن فعل الضلال ملازم له لا يفارقه ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه** ﴾ أي إلا متكلماً بلغتهم ، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ، أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم ليفهموا منهم ما يريدون ، وما أرسلوا به إليهم ﴿ **ليبيّن لهم** ﴾ ما هو مبعوث له وبه ، فلا يكون لهم حجة على الله ، ولا يقولون له لم نفهم ما خوطبنا به ﴿ **فيضل الله من يشاء** ﴾ من آثر سبب الضلالة ﴿ **ويهدي من يشاء** ﴾ من آثر سبب الاهتداء بعد البيان وإقامة الحجة ﴿ **وهو العزيز** ﴾ فلا يغالب على مشيئته ﴿ **الحكيم** ﴾ في أفعاله فيضل من يستحق الإضلال ، ويهدي من هو أهل لذلك ، ولا يخذل إلا أهل الخذلان ، ويوفق من يستحق التوفيق بفضله ومَنّه .

كلمة في السياق :

رأينا أن محور سورة إبراهيم عليه السلام هو قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ وقد بدأت سورة إبراهيم بأن بينت أن الله عز وجل قد أنزل هذا القرآن على محمد ﷺ من أجل أن يُخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، فإذا كان الله عز وجل قد أجمل في سورة البقرة موضوع الإخراج من الظلمات إلى النور ، فههنا فصّل ذاكراً الأسباب ، إن عملية الإخراج من الظلمات إلى النور إنما تتم بالقرآن بواسطة رسول الله ﷺ ، وأن الإخراج إلى النور إنما يكون بالسير في صراط الله عز وجل ، فالنور هو صراطه المستقيم ، ومن هذه البداية ندرك أن السورة فيها تفصيل لموضوع الخروج من الظلمات إلى النور .

فوائد :

١ ــ لقد وصف الله الكافرين في الآيات بثلاث صفات :

أ ــ الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة .

ب ــ ويصدون عن سبيل الله .

ج ــ ويبغونها عوجاً .

وهي صفات يشترك فيها كل كافر ، فكل كافر يعتبر الحياة الدنيا أصلاً ويجعلها الميزان لكل تصرّف ، وكل كافر يصد عن السبيل في الحقيقة ، وكل كافر يحرص على أن يجد ثغرات في سبيل الله ليهاجمها ، ويحرص على أن يحرف سبيل الله ويعوجها – إن استطاع – باستعماله كل الوسائل حتى لا تبقى سبيل الله مستقيمة .

٢ ــ إذا جمعنا قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم** ﴾ مع قوله تعالى ﴿ **وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾ نفهم منهما أنه ما من أمة لها لسان خاص إلا وقد بعث الله لها رسولاً ، فما يفهمه بعض الناس أن الرسل لم يبعثوا إلا في المنطقة العربية ، أو في منطقة بلاد الشام ، وما جاورها فإنّه ليس صحيحاً . فكل أمة لها لسانها بعث الله لها رسولاً منها بلغتها . وروى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يبعث الله عز وجل نبياً إلا بلغة قومه » . والحكمة في ذلك هي : ألا يكون لهم على الله حجة ؛ فلا يقولون له لم نفهم ما خوطبنا به ، فإن قال قائل : إن محمداً ﷺ بعث إلى الناس جميعاً بل إلى الإنس والجن وهم على ألسنة مختلفة فالجواب : إن هذا القرآن إما أن ينزل بجميع الألسنة ، أو بواحد منها ، ولا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك فتعيّن أن ينزل بلسان واحد ، وكان لسان قومه أولى بالتعيين لأنهم أقرب إليه

٣ ــ دلتنا الآيات أن صراط الله هو النور ، وأن الخروج إليه يكون بالرسول والقرآن . والقرآن موجود والسنة موجودة ، وورّاث رسول الله ﷺ موجودون ينوبون مناب الرسول ﷺ في الإخراج من الظلمة إلى النور كما دلتنا الآيات أن بالبيان تقوم الحجة ، وأن إضلال الله وهدايته أثر عن عدله وفضله ، وأثر عن الاستحقاق بسبب الخصائص والصفات . فالخروج من الظلمات إلى النور لا يكون إلا بالله ، والله عز وجل جعل لذلك سُنناً وأسباباً ، وقد حدد الله عز وجل في هذه الآيات هذه السنن

والأسباب بشكل عام ، وبعد أن عرفنا في هذه الآيات الأربع أسبابَ الخروج من الظلمات إلى النور ، تأتي الآن آيات أربع ، تتحدث عن موسى عليه السلام وتكليفه من الله أن يخرج قومه من الظلمات إلى النور ، وبعض السنن التي لها علاقة في هذا الموضوع ، مما يفهم منه أن إخراج الناس من الظلمات إلى النور بواسطة الرسول هو سنة الله في كل زمان ، فلنر آيات المجموعة الثانية

☆ ☆ ☆

المجموعة الثانية

وتمتد من الآية (الخامسة) إلى نهاية الآية (الثامنة) وهذه هي :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

التفسير :

﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور** ﴾ قال ابن كثير في تفسيرها : (وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم ، وتدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور ، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا) . وإذن إخراج الناس بمحمد ﷺ والقرآن من الظلمات إلى النور يشبهه إخراج بني إسرائيل من الظلمات إلى النور بموسى عليه السلام والتوراة . وقد فهمنا أن التكليف الأول لموسى عليه السلام في هذه الآية هي الإخراج من الظلمات إلى النور ، والتكليف الثاني هو : ﴿ **وذكّرهم بأيام الله** ﴾ أي وأنذرهم بوقائعه التي أوقعها بالأمم أو بنعمه التي أنعمها عليهم . قال ابن كثير : (أي بأياديه ونعمه عليهم في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه ، وإنجائه إياهم من عدوهم وفلقه لهم البحر ، وتظليله إياهم الغمام ، وإنزاله عليهم المن والسلوى إلى غير ذلك من النعم) . ثم ذكر ابن كثير حديثاً رواه عبد الله بن الإمام أحمد عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ **وذكّرهم بأيام الله** ﴾ قال : « بنعم الله » . ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم ﴿ **إن في**

ذلك ﴾ أي في أيام الله ﴿ **لآيات لكل صبّار** ﴾ على البلايا والضراء ﴿ **شكور** ﴾ على العطايا والسراء . ثم قصّ الله علينا نماذج من فعل موسى عليه السلام في الإخراج والتذكير بأيام الله ﴿ **وإذ قال موسى لقومه** ﴾ مذكراً لهم بأيام الله كما أمره الله ﴿ **اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم** ﴾ أي ويتركون إناثكم أحياء ﴿ **وفي ذلكم** ﴾ أي وفي ذلك الإنجاء ﴿ **بلاء من ربكم عظيم** ﴾ أي نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك أنتم عاجزون عن القيام بشكرها ، ومما قاله موسى عليه السلام لبني إسرائيل كذلك ﴿ **وإذ تأذّن ربكم** ﴾ أي وآذن ربكم إيذاناً بليغاً تنتفي عنده الشكوك والغفلة ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾ أي لئن شكرتم يا بني إسرائيل ما خوّلتكم من نعمة الإنجاء وغيرها لأزيدنكم نعمة إلى نعمة ﴿ **ولئن كفرتم** ﴾ أي كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها ﴿ **إن عذابي لشديد** ﴾ وذلك بسلبها عنهم وعقابه إياهم على كفرها في الدنيا والآخرة ﴿ **وقال موسى** ﴾ كذلك لبني إسرائيل ﴿ **إن تكفروا أنتم** ﴾ يا بني إسرائيل ﴿ **ومن في الأرض جميعاً** ﴾ أي والناس كلهم ﴿ **فإن الله لغني** ﴾ عن شكركم ﴿ **حميد** ﴾ أي محمود وإن لم يحمده من كفره .

فوائد :

١ ـــ أيام الله فسرها الحديث بأنها نعم الله ، ولكن نعمة الله في هذا المقام ترافقها نقمة ، فنعمة الله على بني إسرائيل بإنجائهم من فرعون ترافقها نقمة الله على فرعون ، ومن ثم فأيام الله يدخل فيها نِعَمُه على قوم ونِقَمُه على قوم .

٢ ـــ قوله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور** ﴾ يفيد أنه لا يأخذ العبرة من أيام الله إلا من اجتمع له صفتا الصبر والشكر ، وقد ورد في الحديث « الصبر نصف الإيمان » . أقول : والشكر نصفه الثاني . قال النسفي : (إذ الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر) . وإذن فكأن الله قال : إن في ذلك لآيات لكل مؤمن ظهرت عليه ثمرتا الإيمان الرئيسيتان : الصبر ، والشكر . قال قتادة : نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر ، وإذا أعطي شكر . وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن أمر المؤمن كله عجب لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له » .

٣ ـــ قول موسى عليه السلام لقومه في هذه الآيات الأربع نجدها في الإصحاحات

التاسع والعشرين ، والثلاثين من سفر التثنية ، مع سطر من نهاية الإصحاح الثامن والعشرين ، ننقلها هنا لنرى كيف أن هذا القرآن إعجازاته لا تنتهي ، فما تحويه آيات ثلاث منه تحتاج إلى الصفحات من غيره ، كما ننقله لهدف آخر ستراه عندما نبدأ الحديث عن الآيات اللاحقة لهذه الآيات ، ثمّ إننا ننقله استئناساً لنرى كيف خاطب موسى عليه السلام قومه ، فنرى تفصيل ما أجمله القرآن ، مع ملاحظة ما ذكرناه من قبل حول أمثال هذه النصوص

في نهاية الإصحاح الثامن والعشرين جاء هذا النص : (هذه هي كلمات العهد الذي أمر الرب موسى أن يقطعه مع بني إسرائيل في أرض موآب فضلاً عن العهد الذي يقطعه معهم في حوريب)

ثم جاء بعد ذلك الإصحاحان التاسع والعشرون ، والثلاثون وهذان هما :

الإصحاح التاسع والعشرون

ودعا موسى جميع إسرائيل وقال لهم أنتم شاهدتم ما فعل الرب أمام أعينكم في أرض مصر بفرعون وبجميع عبيده ، وبكل أرضه التجارب العظيمة التي أبصرتها عيناك وتلك الآيات والعجائب العظيمة ولكن لم يعطكم الرب قلباً لتفهموا وأعينا لتبصروا وآذاناً لتسمعوا إلى هذا اليوم فقد سرت بكم أربعين سنة في البرية لم تبل ثيابكم عليكم ونعلك لم تبل على رجلك لم تأكلوا خبزاً ولم تشربوا خمراً ولا مسكراً لكي تعلموا أني أنا الرب إلهكم ولما جئتم إلى هذا المكان خرج سيحون ملك حشبون وعوج ملك باشان للقائنا للحرب فكسرناهما وأخذنا أرضهما وأعطيناها نصيباً لرأوبين وجاد ونصف سبط منسى فاحفظوا كلمات هذا العهد واعملوا بها لكي تفلحوا في كل ما تفعلون أنتم واقفون اليوم جميعكم أمام الرب إلهكم رؤساؤكم أسباطكم شيوخكم وعرفاؤكم وكل رجال إسرائيل وأطفالكم ونساؤكم وغريبكم الذي في وسط محلتكم ممن يحتطب حطبكم إلى من يستقي ماءكم لكي تدخل في عهد الرب إلهك وقسمه الذي يقطعه الرب إلهك معك اليوم لكي يقيمك اليوم لنفسه شعباً وهو يكون لك إلهاً كما قال لك وكما حلف لآبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب وليس معكم وحدكم أقطع أنا هذا العهد وهذا القسم بل مع الذي هو هنا معنا واقفاً اليوم أمام الرب إلهنا ومع الذي ليس هنا معنا اليوم لأنكم قد عرفتم كيف أقمنا في أرض مصر وكيف اجتزنا في وسط الأمم الذين مررتم بهم ورأيتم أرجاسهم وأصنامهم التي عندهم من خشب وحجر وفضة وذهب لئلا يكون فيكم رجل أو امرأة

أو عشيرة أو سبط قلبه اليوم منصرف عن الرب إلهنا لكي يذهب ليعبد آلهة تلك الأمم لئلا يكون فيكم أصل يثمر علقما وأفسنتينا فيكون متى سمع كلام هذه اللعنة يتبرك في قلبه قائلًا يكون لي سلام إني بإصرار قلبي أسلك لإفناء الريان مع العطشان لا يشاء الرب أن يرفق به بل يدخن حينئذ غضب الرب وغيرته على ذلك الرجل فتحل عليه كل اللعنات المكتوبة في هذا الكتاب ويمحو الرب اسمه من تحت السماء ويفرزه الرب للشر من جميع أسباط إسرائيل حسب جميع لعنات العهد المكتوبة في كتاب الشريعة فيقول الجيل الأخير بنوكم الذين يقومون بعدكم والأجنبي الذي يأتي من أرض بعيدة حين يرون ضربات تلك الأرض وأمراضها التي يمرضها بها الرب كبريت وملح كل أرضها حريق لا تزرع ولا تنبت ولا يطلع فيها عشب ما كانقلاب سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم التي قلبها الرب بغضبه وسخطه ويقول جميع الأمم لماذا فعل الرب هكذا بهذه الأرض لماذا حمو هذا الغضب العظيم . فيقولون لأنهم تركوا عهد الرب إله آبائهم الذي قطعه معهم حين أخرجهم من أرض مصر وذهبوا وعبدوا آلهة أخرى وسجدوا لها آلهة لم يعرفوها ولا قسمت لهم .

فاشتعل غضب الرب على تلك الأرض حتى جلب عليها كل اللعنات المكتوبة في هذا السفر واستأصلهم الرب من أرضهم بغضب وسخط وغيظ عظيم وألقاهم إلى أرض أخرى كما في هذا اليوم السرائر للرب إلهنا والمعلنات لنا ولبنينا إلى الأبد لنعمل بجميع كلمات هذه الشريعة .

الإصحاح الثلاثون

ومتى أتت عليك كل هذه الأمور البركة واللعنة اللتان جعلتهما قدامك فإن رددت في قلبك بين جميع الأمم الذين طردك إلهك إليهم ورجعت إلى الرب إلهك وسمعت لصوته حسب كل ما أنا أوصيك به اليوم أنت وبنوك بكل قلبك وبكل نفسك يرد الرب إلهك سبيك ويرحمك ويعود فيجمعك من جميع الشعوب الذين بددك إليهم الرب إلهك إن يكن قد بددك إلى أقصاء السموات فمن هناك يجمعك الرب إلهك ومن هناك يأخذك ويأتي بك الرب إلهك إلى الأرض التي امتلكها آباؤك فتمتلكها ويحسن إليك ويكثرك من آبائك ويختن الرب إلهك قلبك وقلب نسلك لكي تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك لتحيا ويجعل الرب إلهك كل هذه اللعنات على أعدائك وعلى مبغضيك الذين طردوك وأما أنت فتعود تسمع لصوت الرب وتعمل بجميع وصاياه التي أنا أوصيك بها

اليوم فيزيدك الرب إلهك خيراً في كل عمل يدك في ثمرة بطنك وثمرة بهائمك وثمرة أرضك لأن الرب يرجع ليفرح لك بالخير كما فرح لآبائك إذا سمعت لصوت الرب إلهك لتحفظ وصاياه وفرائضه المكتوبة في سفر الشريعة هذا . إذا رجعت إلى الرب إلهك بكل قلبك وبكل نفسك .

إن هذه الوصية التي أوصيك بها اليوم ليست عسرة عليك ولا بعيدة منك ليست هي في السماء حتى تقول من يصعد لأجلنا إلى السماء ويأخذها لنا ويسمعنا إياها لنعمل بها ولا هي في عبر البحر حتى تقول من يعبر لأجلنا البحر ويأخذها لنا ويسمعنا إياها لنعمل بها بل الكلمة قريبة منك جداً في فمك وفي قلبك لتعمل بها .

انظر قد جعلت اليوم قدامك الحياة والخير والموت والشر بما أني أوصيتك اليوم أن تحب الرب إلهك وتسلك في طرقه وتحفظ وصاياه وفرائضه وأحكامه لكي تحيا وتنمو ويباركك الرب إلهك في الأرض التي أنت داخل إليها لكي تمتلكها فإن انصرف قلبك ولم تسمع بل غويت وسجدت لآلهة أخرى وعبدتها فإني أنبئكم اليوم أنكم لا محالة تهلكون . لا تطيل الأيام على الأرض التي أنت عابر الأردن لكي تدخلها وتمتلكها أشهد عليكم اليوم السماء والأرض . قد جعلت قدامك الحياة والموت والبركة واللعنة فاختر الحياة لكي تحيا أنت ونسلك . إذ تحب الرب إلهك وتسمع لصوته وتلتصق به لأنه هو حياتك والذي يطيل أيامك لكي تسكن على الأرض التي حلف الرب لآبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب أن يعطيهم إياها .

٤ ـــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد** ﴾ ذكر النسفي بعض الحكم منها (الشكر قيد الموجود وصيد المفقود) ومنها (إذا سمعت النعمة نغمة الشكر تأهبت للمزيد) ومما ذكره ابن كثير بمناسبة الآية الحديث : « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » أقول : ويفهم من الآية أن المعصية كفران عمليّ للنعم .

٥ ـــ وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد** ﴾ يذكّر ابن كثير ببعض الحديث القدسي الذي رواه الإمام مسلم عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : « يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب

رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر » .

٦ ــ البلاء في اللغة العربية من أسماء الأضداد ، فقد يراد به النعمة ، وقد يراد به النقمة والاختبار ، وقد رجّحنا أثناء التفسير أن المراد به في النص هنا النعمة ، وأشرنا هنا إلى هذا لاحتمال النصّ الوجه الثاني .

كلمة في السياق :

بينت السورة أن محمداً ﷺ أنزل عليه القرآن ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وأن موسى عليه السلام بعث من أجل هذا ، ومن أجل التذكير بنعم الله ، ولاحظنا أن مما ركز عليه موسى موضوع الشكر على النعم ، والتحذير من الكفران ، فدلّ ذلك على أن من صراط الله الشكر على النعم . وفهمنا كذلك من الآيات أن من صراط الله الصبر والشكر بل هما مفتاحا الهداية ، وعرفنا من السياق أن أدب الداعية إلى الله الإلحاح على التذكير بالنعم ، والإلحاح على موضوع الصبر والشكر ، والتخويف من الكفر ، وهكذا فإن السورة توضح لنا موضوع الخروج من الظلمات إلى النور شيئاً فشيئاً ، ولقد عرفنا حتى الآن أن من الظلمات الكفر ، ومحبة الدنيا ، والصد عن سبيل الله ، والرغبة في انحرافها ، والكفر بنعم الله ، والهلع ، وإذ استقرت هذه المعاني يتجه الآن الخطاب لهذه الأمة من أجل إخراجها من الظلمات إلى النور ، من خلال تذكيرها بأيام الله في المخالفين للرسل ، وذلك موضوع المجموعة الثالثة

☆ ☆ ☆

المجموعة الثالثة

وتمتد هذه المجموعة من الآية (٩) حتى الآية (١٨)

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا
يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا
إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ
رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ
وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا
كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ
مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ
هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا
فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ
ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾
مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ

ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

التفسير :

﴿ **ألم يأتكم نبأ** ﴾ أي خبر ﴿ **الذين من قبلكم** ﴾ هل هذا خطاب من موسى عليه السلام لقومه أوخبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة ؟ ذهب ابن جرير إلى الأول ورجّح ابن كثير الثاني ؛ بسبب أن قصة عاد وثمود ليست في التوراة . فلو كان هذا من كلام موسى عليه السلام لقومه وقصصه عليهم لكانت هاتان القصتان في التوراة ، هذه حجة ابن كثير في كون هذا الخطاب مستأنفاً لهذه الأمة ، وقد رأينا فيما نقلناه من كلام التوراة الحالية مما له علاقة في مقام الخطاب المذكور في الآيات السابقة ما يرجح ما ذهب إليه ابن كثير ، وهذا من الأسباب التي حملتنا على نقل ما نقلناه ﴿ **قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله** ﴾ هذا تفسير للأمم التي أراد الله أن نتذكر أخبارها ، والمعنى أن هذه الأمم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله ﴿ **جاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ أي بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات ومنها المعجزات ﴿ **فردوا أيديهم في أفواههم** ﴾ أي أخذوا أناملهم بأسنانهم تعجيباً ، أو عضوا عليها تغيظاً ، أوأنهم بهذه العملية أشاروا إلى الرسل يأمرونهم بالسكوت ، أوأنهم ردوا أيديهم في أفواه الرسل كي لا يتكلموا ، أوأنهم ردوا أيديهم إلى أفواههم من أجل ألا يجيبوا الرسل جواباً إيجابياً . ورجّح ابن كثير قول مجاهد : وهو أنهم كذّبوهم وردّوا عليهم قولهم بأفواههم . وعلى هذا القول يكون المعنى ، فردّ الأقوام أيادي الرسل أي نعمهم بأفواههم ، أوردّ الأقوام قدراتهم وجعلوها في أفواههم بمعنى أن كل طاقاتهم سخروها للرد اللساني ابتداءً ﴿ **وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به** ﴾ من الإيمان والتوحيد والعبادة ﴿ **وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب** ﴾ أي موقع في الريبة ﴿ **قالت رسلهم أفي الله شك** ﴾ الاستفهام للإنكار أي إن وجود الله وإلاهيته لا يحتملان الشك لظهور الأدلة ﴿ **فاطر السموات والأرض** ﴾ أي خالقهما ﴿ **يدعوكم** ﴾ أي إلى الإيمان والعبادة ﴿ **ليغفر لكم من ذنوبكم** ﴾ أي إذا آمنتم ﴿ **ويؤخركم إلى أجل مسمّىً** ﴾ أي

إلى وقت في الدنيا قد سماه وبيّن مقداره . ﴿ **قالوا** ﴾ أي كل قوم من الأقوام المكذبة ﴿ **إن أنتم** ﴾ أي ما أنتم ﴿ **إلا بشر مثلنا** ﴾ أي لا فضل بيننا وبينكم ، ولا فضل لكم علينا ، فلم تُخصون بالنبوة دوننا ، وكيف نتبعكم ونحن متساوون معكم في البشرية ؟ ﴿ **تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين** ﴾ أي بحجة بينة . وقد جاءتهم رسلهم بالبينات وإنما أرادوا آية يقترحونها تعنتاً ﴿ **قالت لهم رسلهم إن** ﴾ أي ما ﴿ **نحن إلا بشر مثلكم** ﴾ أي صحيح أنا بشر مثلكم في البشرية ﴿ **ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده** ﴾ أي بالرسالة والنبوة كما منّ علينا ﴿ **وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان** ﴾ أي على وفق ما سألتم ﴿ **إلا بإذن الله** ﴾ أي بعد سؤالنا إياه ، وإذنه لنا في ذلك . والمعنى:أن الإتيان بالآية التي قد اقترحتموها ليس إلينا ولا باستطاعتنا ، وإنما هو أمر يتعلق بمشيئة الله ﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ في جميع أمورهم . هذا الأمر من الرسل للمؤمنين كافة بالتوكل ، وقصدوا به أنفسهم قصداً أولياً كأنهم قالوا : ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وإيذائكم ثم قال الرسل : ﴿ **وما لنا ألا نتوكّل على الله وقد هدانا سُبلنا** ﴾ أي وأي عذر في ألا نتوكّل عليه وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه وهو التوفيق لهداية كل منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين ، وما يمنعنا من التوكل عليه وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ﴿ **ولنصبرنّ على ما آذيتمونا** ﴾ أي من الكلام السيء والأفعال السخيفة . وهذا من الرسل حلف على الصبر على أذى أقوامهم وألا يمسكوا عن دعائهم ﴿ **وعلى الله فليتوكل المتوكلون** ﴾ أفاد التكرار التثبيت على مقام التوكل . والمعنى : فليثبت المتوكلون على توكلهم .

وهنا لجأ الأقوام إلى التهديد بإخراج الرسل من أوطانهم ونفيهم : ﴿ **وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنّكم من أرضنا** ﴾ أي من ديارنا ﴿ **أو لتعودُنّ في ملّتنا** ﴾ أي في ديننا أي ليكونن أحد الأمرين : إخراجكم أو عودكم ، وحلفوا على ذلك ﴿ **فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم** ﴾ هذا وعد من الله بإهلاك الظالمين واستخلاف المؤمنين إذا تحققوا بصفتين ﴿ **ذلك** ﴾ أي الإهلاك والإسكان ﴿ **لمن خاف مقامي** ﴾ أي موقفي وهو موقف الحساب ، أو خاف قيامي عليه بالعلم ﴿ **وخاف وعيد** ﴾ أي عذابي ، أي وعيدي ، هذا لمن خاف مقامه بين يدي يوم القيامة وخشي من وعيدي وهو تخويفي وعذابي ، والمعنى أن إهلاك الأعداء واستخلاف الأولياء منوطان بوجود التقوى ﴿ **واستفتحوا** ﴾ أي واستنصر الرسل على أعدائهم ، أو واستفتح الكفار على الرسل ظناً منهم بأنهم على الحق والرسل على الباطل ، أو واستنصر

الجميعُ الله ﴿ **وخاب كل جبّار عنيد** ﴾ منهم أي بأن لم يفلح باستفتاحه وهم مكذبو الرسل ، والجبار : هو المتجبر في نفسه ، والعنيد : هو المعاند للحق ، وكيف لا يخيب ويخسر حين يجتهد الأنبياء في الابتهال إلى الله ربهم العزيز المقتدر ، ومع خيبة الجبارين المعاندين في الاستفتاح في الدنيا فإن أمامهم عذاب النار ﴿ **من ورائه جهنم** ﴾ وراء هنا بمعنى أمام أي من أمام الجبار العنيد جهنم ، أي هي له بالمرصاد يسكنها مخلداً يوم المعاد ، ويعرض عليها غدوا وعشياً إلى يوم التناد ، وهو إما وصف لحاله في الدنيا لأنه مرصد لجهنم فكأنها بين يديه ، وهو على شفيرها ، وإما وصف لحاله في الآخرة حين يبعث ويوقف ﴿ **ويُسقىٰ من ماء صديد** ﴾ إذا ألقي في النار ، والصديد هو ما يسيل من جلود أهل النار ﴿ **يتجرعه** ﴾ أي يشربه جرعة جرعة أي يتغصصه ويتكرهه ﴿ **ولا يكاد يسيغه** ﴾ أي ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الإساغة ؟ ﴿ **ويأتيه الموت من كل مكان** ﴾ أي إن أسباب الموت تأتيه من كل جهة ، أو من كل مكان ، وهذا تصوير لما يصيبه من الآلام ، أي لو كان ثمة موت لكان كلّ واحد منها مهلكاً ﴿ **وما هو بميّت** ﴾ لأنه لو مات لاستراح ولا راحة لهم بل عذاب ﴿ **ومن ورائه** ﴾ أي ومن بين يديه ﴿ **عذاب غليظ** ﴾ أي في كل وقت يستقبله يتلقى عذاباً أشد مما قبله ، أو أغلظ ، أي وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ ، أي مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله ، وأدهى وأمرّ ، ثم ضرب الله مثلاً لأعمال الكفار عامة الذين عبدوا معه غيره ، وكذبوا رسله ، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح فانهارت ، وعدموها أحوج ما كانوا إليها ﴿ **مثل الذين كفروا بربهم** ﴾ هذه جملة على تقدير سؤال سائل يقول : كيف مثلهم ؟ ﴿ **أعمالهم كرمادٍ اشتدت به الريح في يوم عاصف** ﴾ أي ذي ريح شديدة عاصفة قوية ، والمعنى : مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء فلم يجدوا شيئاً ، ولا ألفوا حاصلاً إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ، فلا يقدرون على شيء من أعمالهم التي كسبوها في الدنيا إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في مثل هذا اليوم ، وأعمال الكفرة : المكارم التي كانت لهم ، من صلة الأرحام ، وعتق الرقاب ، وفداء الأسرى ، وإطعام الأضياف ، وغير ذلك ،شبهها الله في حبوطها – لبنائها على غير أساس الإيمان بالله تعالى ورسله ـــ برماد طيّرته الريح العاصف ﴿ **لا يقدرون مما كسبوا على شيء** ﴾ أي لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء ، أي لا يرون له أثراً من ثواب كما لا يُقدَر من الرّماد المطيّر في الريح على شيء ﴿ **ذلك** ﴾ أي سعيهم وعملهم على

غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه ﴿ **هو الضلال البعيد** ﴾ عن طريق الحق ، أو عن الثواب .

نقل :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لرسلهم : لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودنّ في ملتنا** ﴾ قال صاحب الظلال :(هنا تتجلّى حقيقة المعركة وطبيعتها بين الإسلام والجاهلية .. إن الجاهلية لا ترضى من الإسلام أن يكون له كيان مستقل عنها . ولا تطيق أن يكون له وجود خارج عن وجودها . وهي لاتسالم الإسلام حتى لو سالمها . فالإسلام لابد أن يبدو في صورة تجمّع حركي مستقل ، بقيادة مستقلة وولاء مستقل ، وهذا ما لا تطيقه الجاهلية . لذلك لا يطلب الذين كفروا من رسلهم بجرد أن يكفوا عن دعوتهم ولكن يطلبون منهم أن يعودوا في ملّتهم ، وأن يندمجوا في تجمُّعهم الجاهلي ، وأن يذوبوا في مجتمعهم ، فلا يبقى لهم كيان مستقل وهذا ماتأباه طبيعة هذا الدين لأهله وما يرفضه الرسل من ثم ويأبونه ، فما ينبغي لمسلم أن يندمج في التجمع الجاهلي مرة أخرى .. وعندما تسفر القوة الغاشمة عن وجهها الصلد لا يبقى مجال لدعوة ، ولا يبقى مجال لحجة ولا يسلم الله الرسل إلى الجاهلية

إن التجمّع الجاهلي ـــ بطبيعة تركيبه العضوي ـــ لا يسمح لعنصر مسلم أن يعمل من داخله . إلا أن يكون عمل المسلم وجهده وطاقته لحساب التجمع الجاهلي والتميع في تشكيلاته وأجهزته . هذه الطبيعة التي ترغم كل فرد داخل المجتمع يعمل لحساب هذا المجتمع ولحساب منهجه وتصورة .. لذلك يرفض الرسل الكرام أن يعودوا في ملة قومهم بعد إذ نجاهم الله منها

وهنا تتدخل القوة الكبرى فتضرب ضربتها المدمّرة القاضية التي لا تقف لها قوة البشر المهازيل وإن كانوا طغاة متجبرين :

﴿ **فأوحىٰ إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد** .. ﴾

لابد من أن ندرك أن تدخُّل القوة الكبرىٰ للفصل بين الرسل وقومهم ، إنما يكون دائماً بعد مفاصلةالرسل لقومهم .. بعد أن يرفض المسلمون أن يعودوا إلى ملة قومهم ، بعد إذ نجاهم الله . وبعد أن يصروا على تميزهم بدينهم وبتجمعهم الإسلامي الخاص بقيادته الخاصة . وبعد أن يفاصلوا قومهم على أساس العقيدة

فينقسم القوم إلى أمتين مختلفتين عقيدة ومنهجاً وقيادة وتجمعاً .. عندئذ تتدخل القوة الكبرى لتضرب ضربتها الفاصلة ولتدمر على الطواغيت الذين يهددون المؤمنين ، وتمكن للمؤمنين في الأرض ، ولتحقق وعد الله لرسله بالنصر والتمكين ولا يكون هذا التدخل أبداً والمسلمون متميعون في المجتمع الجاهلي عاملون من خلال أوضاعه وتشكيلاته ، غير منفصلين عنه ولا متميزين بتجمع حركي مستقل وقيادة إسلامية مستقلة .

الفوائد :

١ ــ من قوله تعالى : ﴿ **والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله** ﴾ فهم المفسرون أن المعرفة الدقيقة للتاريخ متعذرة ، وبذلك شككوا بالكثير مما يذكره بعضهم من أنساب متصلة ضاربة في القدم . قال ابن كثير : وقال ابن إسحق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله أنه قال في قوله تعالى : ﴿ **لا يعلمهم إلا الله** ﴾ كذب النسابون . وقال عروة بن الزبير ما وجدنا أحداً يعرف ما بعد معد بن عدنان .

٢ ــ قال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ **أفي الله شك** ﴾ : (وهذا يحتمل شيئين (أحدهما) أي أفي وجوده شك فإن الفطر شاهدة بوجوده ، ومجبولة على الإقرار به ، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصّل إلى وجوده ، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه ﴿ **فاطر السموات والأرض** ﴾ الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال ، فإن سبق شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما ، فلابد لها من صانع وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء وإلهه ومليكه ؛ والمعنى الثاني في قولهم ﴿ **أفي الله شك** ﴾ أي أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك ، وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ، فإن غالب الأمم كانت مُقرة بالصانع ، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى)

أقول : الملاحظ أنه في العصور المتأخرة أصبح نفي وجود الله - بله الشك به - هو الفلسفة التي تتبناها دول من أكبر دول العالم ، وتروج لها وتزخرفها آلاف الكتب وملايين النشرات وتبني عليها مذاهب وتقوم عليها تكتلات ، وعلى أهل الإيمان أن يقابلوا ذلك بما يكافئه

٣ ــ ذكر ابن كثير بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فأوحى إليهم ربهم لنهلكنّ الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد** ﴾ ذكر بهذه

المناسبة بعض الآيات التي تشبهها في المعنى فقال : كما قال تعالى : ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون ....** ﴾ (الصافات : ١٧١ - ١٧٣) ﴿ **ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون** ﴾ (الأعراف : ١٣٧) اهـ

ومن خلال النظر في هذه الآيات تدرك أن الله عز وجل من سننه أن تكون العاقبة للمتقين ، وأنه ربّى المسلمين على أن يعرفوا هذه السنة ويعتقدوها ، فهي جزء من معرفة الله ، وهي من النور الذي يخرج الله إليه عباده كما يفهم من السياق .

٤ ـ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ويُسقىٰ من ماء صديد** ﴾ يذكر ابن كثير أنواع عذاب أهل النار وأن الماء الصديد واحد من هذه الأنواع ، وله كلام نفيس بمناسبة هذه الآية وما بعدها ننقله مع حذف الأسانيد . قال :(﴿ **ويسقى من ماء صديد** ﴾ أي في النار ليس له شراب إلا من حميم وغساق ، فهذا حار في غاية الحرارة ، وهذا بارد في غاية البرد والنتن كما قال تعالى : ﴿ **هذا فليذوقوه حميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج** ﴾ (ص : ٥٧ ، ٥٨) وقال مجاهد وعكرمة : الصديد من القيح والدم ، وقال قتادة : هو ما يسيل من لحمه وجلده ، وفي رواية عنه : الصديد ما يخرج من جوف الكافر قد خالط القيح والدم ، وفي حديث شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : قلت : يا رسول الله ما طينة الخبال ؟ قال : « صديد أهل النار » . وفي رواية « عصارة أهل النار » . وقال الإمام أحمد ... عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله ﴿ **ويسقى من ماء صديد يتجرعه** ﴾ قال: « يقرّب إليه فيتكرهه ، فإذا أدني منه شوى وجهه ، ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطّع أمعاءه حتى يخرج من دبره » يقول الله تعالى : ﴿ **وسُقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم** ﴾ (محمد : ١٥)ويقول ﴿ **وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه** ﴾ الآية (الكهف : ٢٩) . وهكذا رواه ابن جرير من حديث عبد الله بن المبارك به ، ورواه ابن أبي حاتم من حديث بقية بن الوليد عن صفوان بن عمرو به ، وقوله (يتجرعه) أي يتغصصه ويتكرهه أي يشربه قهراً وقسراً لا يضعه في فمه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد كما قال تعالى : ﴿ **ولهم مقامع من حديد** ﴾(الحج :٢١) . ﴿ **ولا يكاد يسيغه** ﴾ أي يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته وبرده الذي لا يستطاع ﴿ **ويأتيه الموت من كل مكان** ﴾ أي يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه ، قال عمر بن ميمون بن مهران : من كل عظم وعصب وعرق ، وقال عكرمة : حتى من أطراف شعره ، وقال إبراهيم التيمي : من

موضع كل شعرة أي من جسده حتى من أطراف شعره ، وقال ابن جرير ﴿ **ويأتيه الموت من كل مكان** ﴾ أي من أمامه وخلفه ، وفي رواية وعن يمينه وشماله ، ومن فوقه ومن تحت أرجله ، ومن سائر أعضاء جسده ، وقال الضحاك عن ابن عباس : ﴿ **ويأتيه الموت من كل مكان** ﴾ قال : أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه لو كان يموت ولكن لايموت لأن الله تعالى قال : ﴿ **لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها** ﴾ (فاطر : ٣٦)ومعنى كلام ابن عباس رضي الله عنه أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت ، ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال ، ولهذا قال تعالى ﴿ **ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت** ﴾ وقوله ﴿ **ومن ورائه عذاب غليظ** ﴾ أي وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ مؤلم شديد أغلظ من الذي قبله ، وأدهى وأمرّ ، وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم ﴿ **إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ۔ طلعها كأنه رؤوس الشياطين ۔ فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ۔ ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم ۔ ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم** ﴾ (الصافات : ٦٤ - ٦٨) فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم ، وتارة في شرب حميم ، وتارة يردون إلى جحيم ، عياذاً بالله من ذلك ، وهكذا قال تعالى ﴿ **هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ۔ يطوفون بينها وبين حميم آن** ﴾ (الرحمن : ٤٣ ، ٤٤)وقال تعالى : ﴿ **إن شجرة الزقوم ۔ طعام الأثيم ۔ كالمهل يغلي في البطون ۔ كغلي الحميم ۔ خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ۔ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ۔ ذق إنك أنت العزيز الكريم ۔ إن هذا ما كنتم به تمترون** ﴾ (الدخان : ٤٣ - ٥٠) وقال ﴿ **وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ۔ في سموم وحميم ۔ وظل من يحموم ۔ لا بارد ولا كريم** ﴾ . (الواقعة : ٤١ - ٤٤)وقال تعالى : ﴿ **هذا وإن للطاغين لشر مآب ۔جهنم يصلونها فبئس المهاد ۔ هذا فليذوقوه حميم وغساق ۔ وآخر من شكله أزواج** ﴾ (ص : ٥٥ - ٥٨) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم وتكراره وأنواعه وأشكاله مما لا يحصيه إلا الله عز وجل جزاء وفاقاً ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ . (فصلت : ٤٦)اهـ كلام ابن كثير ولننتقل إلى المجموعة الرابعة :

☆ ☆ ☆

المجموعة الرابعة

وتمتد من الآية (١٩) حتى نهاية الآية (٢٣) وهذه هي :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾

التفسير :

﴿ **ألم تر** ﴾ أي ألم تعلم والخطاب - كما قال النسفي - لكل أحد ﴿ **أن الله خلق السموات والأرض بالحق** ﴾ أي بالحكمة والأمر ولم يخلقهما عبثاً ﴿ **إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد** ﴾ أي هو قادر على أن يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقاً آخر على شكلهم ، أو على خلاف شكلهم ، إعلاماً بأنه قادر على إعدام الموجود وإيجاد المعدوم ﴿ **وما ذلك على الله بعزيز** ﴾ أي بعظيم ولا متعذر ولا ممتنع بل هو سهل عليه ، ذكرنا الله بهاتين الآيتين بما ينفي الشك به ، كما أخبرنا عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة ، ومن ثم ينقلنا إلى عرض مشهد من مشاهد يوم القيامة :

﴿ **وبرزوا لله جميعاً** ﴾ أي برزت الخلائق كلها برها وفاجرها لله الواحد القهار ، أي اجتمعوا له في براز من الأرض ، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً ، ومعنى بروزهم لله – والله تعالى لايتوارى عنه شيء يبرز له – : أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خافٍ على الله ، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم ، وعلموا أن الله لا تخفى عليه خافية ، وأخرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه ﴿ **فقال الضعفاء** ﴾ أي في الرأي وهم السفلة والأتباع ﴿ **للذين استكبروا** ﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له ، وعن موافقة الرسل وهم السادة والرؤساء الذين استضعفوهم وصدوهم عن الاستماع إلى أنبيائهم واتباعهم ﴿ **إنا كُنّا لكم تبعاً** ﴾ أي تابعين ، فمهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا ﴿ **فهل أنتم مُغنون عنّا من عذاب الله من شيء** ﴾ أي فهل تقدرون على دفع شيء مما نحن فيه ؟ ، ﴿ **قالوا** ﴾ أي فقالت القادة لهم ﴿ **لو هدانا الله لهديناكم** ﴾ وليس هذا جواباً مباشراً ولكن لما كان قول الضعفاء ، توبيخاً لهم وعتاباً على استغوائهم لأنهم علموا أنهم لا يقدرون على الإغناء عنهم قالوا لهم مجيبين معتذرين ﴿ **لو هدانا الله لهديناكم** ﴾ أي لو هدانا الله إلى الإيمان في الدنيا لهديناكم إليه ، أو لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم أي : لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة ﴿ **سواء علينا أجزعنا أم صبرنا** ﴾ أي مستويان علينا الجزع والصبر ، لا هذا يفيدنا ولا هذا . قال ابن كثير : (والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها) ﴿ **ما لنا من محيص** ﴾ أي من منجى ومهرب جزعنا أم صبرنا ، وهل هذا من كلام المستكبرين أو من كلام الجميع ؟ قولان للمفسرين ، والظاهر أنه من كلام المستكبرين ، ثم أخبر تعالى عما خطب به إبليس أمام أتباعه بعد ما قضى الله بين عباده فأدخل المؤمنين الجنات ، وأسكن الكافرين الدركات ، فقام فيهم إبليس – لعنه الله – يومئذ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم وغبناً إلى غبنهم وحسرة إلى حسرتهم ، قال تعالى : ﴿ **وقال الشيطان لما قُضي الأمر** ﴾ أي لما حكم بالجنة والنار لأهليهما ، ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ﴿ **إن الله وعدكم وعد الحق** ﴾ وهو البعث والجزاء على الأعمال على ألسنة رسله الذين جعل في اتباعهم النجاة والسلامة ، وعداً حقاً وفّى الله به ﴿ **ووعدتكم** ﴾ أي بأن لا بعث ولا حساب ولا جزاء ﴿ **فأخلفتكم** ﴾ أي كذبتكم ﴿ **وما كان لي عليكم من سلطان** ﴾ أي من تسلّط واقتدار ولا دليل ولا حجة ﴿ **إلا أن دعوتكم** ﴾ أي لكني دعوتكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني ﴿ **فاستجبتم لي** ﴾ أي فأسرعتم إلى جانبي أي بمجرد الدعوة ، هذا

وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿ **فلا تلوموني** ﴾ لأنني عدوكم فكيف ألام إذا دعوتكم إلى أمر قبيح وقد حذركم الله مني ؟ ﴿ **ولوموا أنفسكم** ﴾ حيث اتبعتموني بلا حجة ولا برهان ، فإن الذنب ذنبكم لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿ **ما أنا بمصرخكم** ﴾ أي بمغيثكم ﴿ **وما أنتم بمصرخي** ﴾ أي بمغيثيَّ أي : فلا ينجي بعضنا بعضاً من عذاب الله ولا يغيثه ، ما أنا بنافعكم ومنقذكم مما أنتم فيه ، وما أنتم بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال ﴿ **إني كفرت بما أشركتمون من قبل** ﴾ أي كفرت اليوم بإشراككم إياي مع الله من قبل هذا اليوم أي في الدنيا ومعنى كفره بإشراكهم إياه : تبرؤه منه ، واستنكاره له ، ومعنى إشراكهم الشيطان بالله : طاعتهم له فيما كان يزينه لهم من عبادة غير الله ﴿ **إن الظالمين لهم عذاب أليم** ﴾ هل هذا من تتمة كلام إبليس يحكيه الله لنا ، أو هو كلام مستأنف ؟ قولان للمفسرين . ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال ، عطف بمآل السعداء فقال : ﴿ **وأدخل** ﴾ أي أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار** ﴾ سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا ﴿ **خالدين فيها** ﴾ أي ما كثين أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿ **بإذن ربهم** ﴾ الإدخال من الملائكة ، والإذن من الله ﴿ **تحيتهم فيها سلام** ﴾ المراد به إما تسليم بعضهم على بعض في الجنة ، أو تسليم الملائكة عليهم .

نقل :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً . فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء** ﴾ قال صاحب الظلال :

(والضعفاء هم الضعفاء هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه وجعلوا أنفسهم تبعاً للمستكبرين والطغاة ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله . والضعف ليس عذراً ، بل هو الجريمة ، فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفاً ، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به . والعزة لله ، وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعاً عن نصيبه في الحرية - التي هي ميزته . ومناط تكريمه - أو ينزل كارها . والقوة المادية ــ كائنة ما كانت ــ لا تملك أن تستعبد إنساناً يريد الحرية ، ويستمسك بكرامته الآدمية فقصارى

ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد تؤذيه وتكبله وتحبسه . أما الضمير . أما الروح . أما العقل . فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال :

من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعاً للمستكبرين في العقيدة وفي التفكير وفي السلوك ؟ من ذا الذي يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه ؟ لا أحد . لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة فهم ضعفاء لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة ولا لأنهم أقل جاهاً أو مالاً أو منصباً أو مكاناً .. كلا إن هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفاً يلحق صفة الضعف بالضعفاء ، إنما هم ضعفاء لأن الضعف في أرواحهم وفي قلوبهم وفي نخوتهم وفي اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان .

إن المستضعفين كثرة . والطواغيت قلة . فمن ذا الذي يخضع الكثرة للقلة ، وماذا الذي يخضعها ؟ إنما يخضعها ضعف الروح ، وسقوط الهمة وقلة النخوة ، والتنازل الداخلي عن الكرامة التي وهبها الله لبني الإنسان !

إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير ،فهي دائماً قادرة على الوقوف لهم لو أرادت فالإرادة هي التي تنقص هذه القطعان !

إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء .. وهذه القابلية هي وحدها التي يعتمد عليها الطغاة .)

كلمة في السياق :

بدأت السورة بتبيان الحكمة من إنزال الكتاب وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ثم جاء كلام عن موسى عليه السلام ، وتكليفه بإخراج قومه من الظلمات إلى النور ، وتذكيرهم بأيام الله ، وما قاله لهم ، وبذلك عرفنا أنّ مهمّة الرسل الإخراج من الظلمات إلى النور ، والتذكير بأيام الله ، ثم يتوجه الخطاب إلى هذه الأمة بتذكيرها بأيام الله ، وفعل الله للرسل ، وفعله بالمكذبين بالرسل في الدنيا والآخرة .

وفي المجموعة الثالثة رأينا خطاب الرسل لأقوامهم في عملية الإخراج من الظلمات إلى النور ، وموقف أقوامهم منهم ، كما رأينا في المجموعة الرابعة عملية الإخراج من النور إلى الظلمات التي يقوم بها الشيطان ، كما عرضها هو وقبيله في النار . وقد عرفنا من السياق أن الشك في الله من الظلمات ، وأن الإيمان من النور ، وأن التوكل على الله من النور ،

وأن الصبر من النور ، وأن إيذاء الرسل من الظلمات ، وأن معرفة أن الله خلق السمٰوات والأرض بالحق طريق إلى النور ، وأن معرفة أن الله قادر على استبدال الخلق بخلق آخر طريق إلى النور ، وأن طريق الشيطان إلى الظلمات مجرد الوسوسة المزخرفة الكاذبة ، وأن الإيمان والعمل الصالح طريق إلى النور والجنة .

فوائد :

١ – ذكر الشيخ أحمد الزروق في كتابه (قواعد التصوف)أن مما يذهب بالشك أن يكرر الإنسان قوله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله خلق السمٰوات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز** ﴾

وكنت أتساءل عن دليل هذا القول حتى اشتغلت بتفسير سورة إبراهيم فلاحظت أن مجيء هاتين الآيتين آت في سياق دعوة الرسل وشك أقوامهم فيما يدعونهم إليه ، ومن ثمّ فالآيتان دواء للشك ودواء من الوسوسة ، ثم هما آيتان في الوسط بين مشهدين من مشاهد يوم القيامة بصفان مآل الكافرين الشاكين المستجيبين للشيطان

٢ – بمناسبة قوله تعالى حكاية عن أهل النار ﴿ **سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص** ﴾ ينقل ابن كثير قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : إن أهل النار قال بعضهم لبعض : تعالوا فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله عز وجل ، تعالوا نبك ونتضرع إلى الله ، فبكوا وتضرعوا ، فلما رأوا أنه لا ينفعهم قالوا : إنما أدرك أهل الجنة بالصبر تعالوا حتى نصبر فصبروا صبراً لم ير مثله ، فلم ينفعهم ذلك فعند ذلك قالوا ﴿ **سواء علينا أجزعنا أم صبرنا** ﴾ الآية .

٣ – هل الخطبة التي ألقاها إبليس تكون قبل دخول الكافرين النار أو بعد ذلك ؟ يرجح ابن كثير وغيره أنها بعد دخول النار ، مستشهداً بكثير من الآيات ، وبقوله تعالى في الآيات ﴿ **وقال الشيطان لما قضي الأمر** ﴾ أي بدخول أهل الجنة الجنة ، ودخول أهل النار النار ، إلاأنه لرفع العهدة فيما يبدو يذكر اتجاهاً آخر وهو أن هذه الخطبة كانت بعد فصل القضاء وقبل دخول النار قال :

(ولكن قد ورد في حديث رواه ابن أبي حاتم وهذا لفظه وابن جرير من رواية عبد الرحمن بن زياد : حدثني دخين الحجري عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ، فقضى بينهم ، ففرغ من القضاء قال المؤمنون قد

قضى بيننا ربنا فمن يشفع لنا ؟ فيقولون : انطلقوا بنا إلى آدم ، وذكر نوحاً ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، فيقول عيسى أدلكم على النبي الأمي ، فيأتوني فيأذن الله لي أن أقوم إليه ، فيثور من مجلسي من أطيب ريح شمّها أحد قط ، حتى آتي فيشفعني ويجعل لي نوراً من شعر رأسي إلى أظفر قدمي ، ثم يقول الكافرون : هذا قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ؟ ما هو إلا إبليس هو الذي أضلنا ، فيأتون إبليس فيقولون : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فإنك أنت أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمّها أحد قط ثم يعظم نحيبهم ﴿ **وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم** ﴾) .

٤ ـــ يلاحظ النسفي ملاحظة وهي أن الله عز وجل إذا خاطب الكفار واعداً إياهم بالتوبة من ذنوبهم إذا آمنوا يذكر كلمة (من) قبل الذنب ، كما ورد في هذه السورة ﴿ **ليغفر لكم من ذنوبكم** ﴾ وكما ورد في سورة نوح ﴿ **واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم** ﴾ وكما ورد في سورة الأحقاف ﴿ **يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم** ﴾ بينما لا تذكر كلمة (من) في نفس المقام في خطاب المؤمنين ، فمثلاً في سورة الصف بعد قوله تعالى : ﴿ **هل أدلكم على تجارة ....** ﴾ يأتي قوله تعالى ﴿ **يغفر لكم ذنوبكم** ﴾ قال : وغير ذلك مما يعلم بالاستقراء ، وكأن ذلك للتفرقة بين الخطابين ولئلا يسوّى بين الفريقين في الميعاد)

مرّ معنا حتى الآن من هذه السورة أربع مجموعات :

المجموعة الأولى : مقدمة السورة .

والمجموعة الثانية : الكلام عن موسى عليه السلام .

والمجموعة الثالثة : المبدوءة بـ ﴿ **ألم يأتكم ....** ﴾ المنتهية بقوله تعالى ﴿ **ذلك هو الضلال البعيد** ﴾

والمجموعة الرابعة : المبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق ....** ﴾ وكل من المجموعة الثالثة والرابعة مبدوءة بخطاب ﴿ **ألم يأتكم** ﴾ ﴿ **ألم تر** ﴾ والآن يأتي خطاب ثالث مبدوء بـ ﴿ **ألم تر ....** ﴾ وفيه ذكر لطريق من طرق الخروج من الظلمات إلى النور تتضمنه المجموعة الخامسة .

☆ ☆ ☆

المجموعة الخامسة

وتمتد من الآية (٢٤) إلى نهاية الآية (٢٧) وهذه هي :

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

التفسير :

﴿ **ألم تر** ﴾ أي ألم تعلم ﴿ **كيف ضرب الله مثلاً** ﴾ وقد فسر هذا المثل بقوله ﴿ **كلمة طيبة** ﴾ هي لا إله إلا الله ﴿ **كشجرة طيبة** ﴾ كالنخلة وغيرها من الشجر المثمر ﴿ **أصلها ثابت** ﴾ في الأرض ضارب بعروقه فيها ﴿ **وفرعها في السماء** ﴾ أي أعلاها ، و رأسها في السماء ﴿ **تؤتي أكلها كل حين** ﴾ أي تعطي ثمرها في كل وقت وقته الله لإثمارها ﴿ **بإذن ربها** ﴾ أي بتيسير خالقها وتكوينه ﴿ **ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون** ﴾ فيتعظون لأن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني ﴿ **ومثل كلمة خبيثة** ﴾ هي كلمة الكفر والشرك والضلال ﴿ **كشجرة خبيثة** ﴾ وهي كل شجرة لا يطيب ثمرها ولا أصل ثابت لها كشجرة الحنظل ﴿ **اجتُثت من فوق الأرض** ﴾ أي استؤصلت من فوق الأرض ﴿ **ما لها من قرار** ﴾ أي لا أصل لها ولا ثبات ، كذلك الكفر لا أصل له في الفطرة البشرية ولا فرعاً صالحاً ولا ثمراً طيباً ، ومن ثم لا يصعد للكافر عمل ولا يتقبل ، وهكذا شبه كل قول كافر لا يعضد بحجة بأنه داحض غير ثابت .

﴿ **يُثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت** ﴾ هو قول لا إله إلا الله ، أي يديمهم على

الإيمان بسبب كلمة التوحيد ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ فإذا فتنهم أعداء الله أو وسوس لهم شياطين الإنس والجن لم يزالوا ثابتين ﴿ وفي الآخرة ﴾ الجمهور على أن المراد به في القبر بتلقين الجواب وتمكين الصواب ﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ فلا يهديهم ولا يثبتهم على القول الثابت في مواقف الفتن وتزل أقدامهم أول شيء وهم في الآخرة أضل وأزل بسبب اتصافهم بصفة الظلم التي يدخل فيها الشرك الذي هو أعظم أنواع ظلم الإنسان لنفسه ﴿ ويفعل الله ما يشاء ﴾ فمشيئته مطلقة لا يسئل عما يفعل ، ومن ثم فلا اعتراض عليه في تثبيت المؤمنين وإضلال الظالمين .

نقل :

بمناسبة قوله تعالى ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة ﴾ قال صاحب الظلال : (إن الكلمة الطيبة ـــ كلمة الحق ـــ لكالشجرة الطيبة . ثابتة سامقة مثمرة .. ثابتة لا تزعزعها الأعاصير ولا تعصف بها رياح الباطل ولا تقوىٰ عليها معاول الطغيان ... - وإن خيل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق في بعض الأحيان ـــ سامقة متعالية ، تطل على الشرك والظلم والطغيان من عل ـــ وإن خيل إلى البعض أحياناً أن الشر يزحمها في الفضاء ـــ مثمرة لا ينقطع ثمرها ، لأن بذورها تنبت في النفوس المتكاثرة آناً بعد آن .

وإن الكلمة الخبيثة ـــ كلمة الباطل ـــ لكالشجرة الخبيثة ، وقد تهيج وتتعالىٰ وتتشابك ويخيل إلى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوىٰ . ولكنها تظل نافشة هشة وتظل جذورها في التربة قريبة حتى لكأنها على وجه الأرض .. وما هي إلا فترة ثم تجتث من فوق الأرض فلا قرار لها ولا بقاء .

ليس هذا وذاك مجرد مثل يضرب ولا مجرد عزاء للطيبين وتشجيع إنما هو الواقع في الحياة ولو خفي في بعض الأحيان .

والخير الأصيل لا يموت ولا يذوي مهما زحمه الشر وأخذ عليه الطريق والشر كذلك لا يعيش إلا ريثما يستهلك بعض الخير المتلبس به ـــ فقلما يوجد الشر الخالص ـــ وعندما يستهلك ما يلابسه من الخير فلا تبقىٰ فيه منه بقية فإنه يتهالك ويتهشم مهما تضخم واستطال .)

فوائد :

١ – قال النسفي : (والكلمة الطيبة كلمة التوحيد ، أصلها تصديق بالجنان ، وفرعها إقرار باللسان ، وأكلها عمل الأركان ، وكما أن الشجرة شجرة وإن لم تكن حاملًا ، فالمؤمن مؤمن وإن لم يكن عاملًا ، ولكن الأشجار لا تراد إلا للثمار ، فما أقوات النار إلا الثمار من الأشجار إذا اعتادت الإخفار في عهد الإثمار) .

٢ – رأينا أن الكلمة الطيبة وهي « لا إله إلا الله » وأن القول الثابت هو « لا إله إلا الله » والفطرة هي الأرض ، فلا إله إلا الله جذورها ضاربة عميقة في الفطرة ، وثمارها كل عمل صالح ، وكل خلق طيب ، وساقها وورقها وكل شيء فيها يستفاد منه ، وبهذه الكلمة يثبت الله الذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ومن ثم فبقدر فهمها وتردادها تقوى جذورها ، وتبسق فروعها ، ويطيب أكلها ، ففي حديث الصحيح عن رسول الله ﷺ : « جددوا إيمانكم قيل : يا رسول الله كيف نجدد إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول لا إله إلا الله » . وأخرج ابن أبي حاتم بسنده عن قتادة أن رجلًا قال : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور ، فقال « أرأيت لو عمد إلى متاع الدنيا فركب بعضه على بعض أكان يبلغ السماء ؟ أفلا أخبرك بعمل أصله في الأرض وفرعه في السماء ؟ قال : ما هو يا رسول الله ؟ قال : « تقول لا إله إلا الله والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، عشر مرات ، في دبر كل صلاة ، فذاك أصله في الأرض ، وفرعه في السماء » .

٣ – هل الشجرة الطيبة التي ضرب الله بها مثلًا شجرة بعينها ، أو كل شجرة متصفة بما ذكر القرآن ؟ ، قولان للمفسرين ، وهل كل شجرة خبيثة تتصف بما وصف الله تدخل تحت قوله الشجرة الخبيثة أو أنها شجرة بعينها ؟ . قولان للمفسرين ، والنصوص تشير إلى النخلة والحنظلة . فهل الأحاديث النبوية تحدد أو تمثل ؟ قولان . وعلى كل فالشجرتان : النخلة والحنظلة نموذجان كاملان للمثلين

– روى أبو يعلى بسنده عن أنس أنّ رسول الله ﷺ أتي بقناع عليه بسر فقال : « مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » فقال « هي النخلة » (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار) قال : « هي الحنظل » قال شعيب : فأخبرت بذلك أبا العالية فقال : كذلك كنا نسمع »

ــ وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال : أخبروني عن شجرة تشبه ــ أو ــ كالرجل المسلم لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاء ، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » قال ابن عمر فوقع في نفسي أنها النخلة ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان ،فكرهت أن أتكلم ، فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ : « هي النخلة » فلما قمنا قلت لعمر : يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة . قال ما منعك أن تتكلم ؟ قلت لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم وأقول شيئاً ، قال عمر : لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا .

٤ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾ يذكر ابن كثير أحاديث كثيرة نجتزىء منها ما يلي :

قال البخاري : حدثنا أبو الوليد ... عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله تعالى : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾ ورواه مسلم أيضاً وبقية الجماعة كلهم من حديث شعبة به ، وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ... عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يُلحَد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله ، كأن على رؤوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت به في الأرض ، فرفع رأسه فقال : « استعيذوا بالله من عذاب القبر » مرتين أو ثلاثاً ثم قال : « إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء ، بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط[1] من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مدّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت ، حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الطيبة ، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السّقاء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن ، وفي ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها يعني – على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب ؟

فيقولون : فلان ابن فلان ، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا ، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح فيشيّعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي

---

(١) الحنوط : ما يطيب به الميت .

تليها ، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة ، فيقول الله : اكتبوا كتاب عبدي في عِلّيين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى . قال فتعاد روحه في جسده ، فيأتيه ملكان ، فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله ، فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول ديني الإسلام . فيقولان : له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله . فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت ، فينادي مناد من السماء ، أن صدق عبدي فافرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة ، قال فيأتي من رَوْحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مد بصره ، ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسرك ، هذا يومك الذي كنت تُوعَد ، فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح فيقول : رب أقم الساعة ، رب أقم الساعة ، حتى أرجع إلى أهلي ومالي . قال : وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء ، سود الوجوه ، معهم المسوح [1] ، فجلسوا منه مدّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت ، فيجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة ، اخرجي إلى سخط من الله وغضب ، قال : فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتى يجعلوها في تلك المسوح ، فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها ، على ملأ من الملائكة ، إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون : فلان ابن فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يُسمىٰ بها في الدنيا ، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ **لا تفتّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط** ﴾ (الأعراف : ٤٠) فيقول الله اكتبوا كتابه في سجين ، في الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحاً ثم قرأ ﴿ **ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أوتهوي به في الريح في مكان سحيق** ﴾ (الحج : ٣١) فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول هاه هاه لا أدري . فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول هاه هاه لا أدري ، فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي فافرشوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره ، حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر

---

(١) - المسوح : جمع مسح : كساء من الشعر .

بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعد . فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر فيقول : أنا عملك الخبيث فيقول : رب لا تقم الساعة » . ورواه أبو داود من حديث الأعمش والنسائي وابن ماجه من حديث المنهال بن عمرو به .

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق ... عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة فذكر نحوه . وفيه بالنسبة للمؤمنين « حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض ، وكل ملك في السماء ، وفتحت أبواب السماء ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله عز وجل أن يعرج بروحه منه قبلهم » . وفي آخره « ثم يقيض له - أي للكافر - أعمى أصم أبكم ، وفي يده مِرْزبة ، لو ضرب بها جبل لكان تراباً ، فيضرب به ضربة فيصير تراباً ، ثم يعيده الله عز وجل كما كان ، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين » . قال البراء : ثم يفتح له باب إلى النار ويمهد له من فرش النار) .

.... وقال الإمام عبد بن حميد رحمه الله في مسنده ... عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العبد إذا وضع في قبره ، وتولى عنه أصحابه ، - وإنه ليسمع قرع نعالهم - فيأتيه ملكان ، فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ قال : فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله قال : فيقال له انظر مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة » . قال نبي الله ﷺ : « فيراهما جميعاً » قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً ، ويملأ عليه خضراً إلى يوم القيامة . رواه مسلم عن عبد بن حميد به وأخرجه النسائي من حديث يونس بن محمد المؤدب به .

وقال الإمام أحمد حدثنا يحيىٰ بن سعيد عن ابن جريج أخبرني الزبير أنه سأل جابر بن عبد الله عن فتاني القبر فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن هذه الأمة تُبتلى في قبورها ، فإذا أُدخل المؤمن قبره ، وتولى عنه أصحابه ، جاء ملك شديد الانتهار ، فيقول له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول المؤمن : أقول : إنه رسول الله وعبده ، فيقول الملك : انظر إلى مقعدك الذي كان لك في النار ، قد أنجاك الله منه ، وأبدلك بمقعدك الذي ترى من النار مقعدك الذي ترى من الجنة ، فيراهما كليهما ، فيقول المؤمن : دعوني أُبشّر أهلي فيقال له : اسكن ، وأما المنافق فيقعد إذا تولى عنه أهله فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري ، أقول كما يقول الناس ، فيقال له : لا دَرَيْت ، هذا مقعدك الذي كان لك في الجنة أبدلت مكانه مقعدك من النار » . قال جابر فسمعت النبي ﷺ يقول : « يبعث كل عبد في القبر على مامات ، المؤمن على

إيمانه ، والمنافق على نفاقه » . إسناده صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

.... وقال ابن حبان في صحيحه ... عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إن المؤمن إذا قُبض أتته ملائكة الرحمة ، بحريرة بيضاء ، فيقولون : اخرجي إلى رَوْح الله ، فتخرج كأطيب ريح مسك ، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً يشمونه ، حتى يأتوا به باب السماء ، فيقولون : ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من قِبَل الأرض ؟ ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك ، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين ، فَلَهُم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم . فيقولون : ما فعل فلان ؟ فيقولون : دعوه حتى يستريح ، فإنه كان في غم ، فيقول : قدمات أما أتاكم ؟ فيقولون : ذُهب به إلى أمه الهاوية ، وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح ، فيقولون : اخرجي إلى غضب الله فتخرج كأنتن ريح جيفة فيذهب به إلى باب الأرض » .

... وقال الحافظ أبو عيسى الترمذي رحمه الله ... عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا قبر الميت - أو قال أحدكم - أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما منكر ، والآخر نكير ، فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : ما كان يقول - أي قبل أن يموت - هو عبد الله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا ، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً ، في سبعين ، وينور له فيه ثم يقال له : نم . فيقول : أرجع إلى أهلي فأخبرهم ، فيقولان : نم نومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك ، وإن كان منافقاً قال : سمعت الناس يقولون : فقلت مثلهم ، لا أدري ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا ، فيقال للأرض التئمي عليه ، فتلتئم عليه حتى تختلف أضلاعه ، فلا يزال فيها مُعذَّباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » . ثم قال الترمذي هذا حديث حسن غريب .

...وقال الإمام أحمد رحمه الله ... عن محمد بن المنكدر قال : كانت أسماء - يعني بنت الصديق - رضي الله عنها تحدث عن النبي ﷺ قالت : قال « إذا دخل الإنسان قبره ، فإذا كان مؤمناً أحفّ به عمله : الصلاة والصيام قال : فيأتيه الملك من نحو الصلاة فترده ، ومن نحو الصيام فيرده ، قال . فيناديه : اجلس . فيجلس فيقول له : ماذا تقول في هذا الرجل ؟ يعني النبي ﷺ قال : من ؟ قال محمد ، قال أشهد أنه رسول الله ، قال وما يدريك ، أدركته ؟ قال : أشهد أنه رسول الله ، قال : يقول : على ذلك عشت، وعليه مت ، وعليه تُبعث ، وإن كان فاجراً أو كافراً جاءه الملك ليس

بينه وبينه شيء يرده ، فأجلسه فيقول له ماذا تقول في هذا الرجل ؟ قال أي رجل ؟ قال محمد ، قال يقول والله ما أدري ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته ، قال له الملك على ذلك عشت ، وعليه مت ، وعليه تبعث ، قال ويسلط عليه دابة في قبره ، معها سوط ثمرته جمرة مثل عُرْف البعير – تضربه ما شاء الله ، صماء لا تسمع صوته فترحمه »

.... وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذي في كتابه (نوادر الأصول) ... عن عبد الرحمن بن سمرة قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن في مسجد المدينة فقال : « إني رأيت البارحة عجباً ، رأيت رجلًا من أمتي جاء ملك الموت ليقبض روحه فجاء بِرُّه بوالديه فردّ عنه ، ورأيت رجلًا من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر ، فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك ، ورأيت رجلًا من أمتي قد احتوشته الشياطين ، فجاءه ذكر الله فخلّصه من بينهم ، ورأيت رجلًا من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، ورأيت رجلًا من أمتي يلهث عطشاً ، كلما ورد حوضاً منع منه ، فجاءه صيامه فسقاه وأرواه ، ورأيت رجلًا من أمتي والنبيون قعود حلقاً حلقاً ، كلما دنا لحلقة طردوه ، فجاءه اغتساله من الجنابة فأخذه بيده فأقعده إلى جنبي ، ورأيت رجلًا من أمتي بين يديه ظلمة ، ومن خلفه ظلمة ، وعن يمينه ظلمة ، وعن شماله ظلمة ، ومن فوقه ظلمة ، ومن تحته ظلمة وهو متحير فيها فجاءته حجته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه النور ، ورأيت رجلًا من أمتي يكلم المؤمنين فلا يكلمونه ، فجاءته صلة الرحم ، فقالت : يا معشر المؤمنين كلموه فكلموه ، ورأيت رجلًا من أمتي يتقي وهج النار وشررها بيده عن وجهه ، فجاءته صدقته فصارت له ستراً على وجهه ، وظلًا على رأسه ، ورأيت رجلًا من أمتي أخذته الزبانية من كل مكان ، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذاه من أيديهم ، وأدخلاه مع ملائكة الرحمة ، ورأيت رجلًا من أمتي جاثياً على ركبتيه بينه وبين الله حجاب ، فجاءه حُسنُ خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل ، ورأيت رجلًا من أمتي قد هوت صحيفته من قبل شماله ، فجاءه خوفه من الله فأخذ صحيفته ، فجعلها في يمينه ، ورأيت رجلًا من أمتي قد خفّ ميزانه ، فجاءته أفراطه[1] فثقّلوا ميزانه ، ورأيت رجلًا من أمتي قائماً على شفير جهنم ، فجاءه وجله من الله فاستنقذه من ذلك ومضى ، ورأيت رجلًا من أمتي هوى في النار فجاءته دموعه التي بكى من خشية الله في الدنيا ، فاستخرجته

(١) من مات من أبنائه قبل البلوغ

من النار ، ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السَّعفة فجاء حسن ظنه بالله فسكن رعدته ومضى ، ورأيت رجلاً من أمتي على الصراط يزحف أحياناً ويحبو أحياناً ، فجاءته صلاته عليَّ فأخذت بيده فأقامته ومضى على الصراط ، ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى باب الجنة فغلقت الأبواب دونه ، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة » . قال القرطبي بعد إيراد هذا الحديث من هذا الوجه هذا حديث عظيم ذكر فيه أعمالاً خاصة تنجي من أهوال خاصة أورده هكذا في كتابه التذكرة .

.....قال أبو داود ... عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ إذ فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال : « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل » . تفرّد به أبو داود .)

● ـــ رأينا أن محور هذه السورة هو قوله تعالى : ﴿ **الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات** ﴾

وقد رأينا في هذه المجموعة أن (لا إله إلا الله) هي وسيلة الوصول إلى النور في الدنيا والآخرة ، ومن ثَم فإن علينا أن نُكثر من قول لا إله إلا الله .

وقد فهمنا من الآية أن : لا إله إلا الله لها ثمارها في كل زمن ، وفي كل عصر ، وفي كل مكان ، وعند كل مؤمن ، ولا يزال الناس يأكلون من هذه الثمار خُلقاً طيباً وإحساناً كثيراً

ولننتقل إلى المجموعة السادسة وفيها كذلك ذكر لوسائل الخروج من الظلمات إلى النور

☆ ☆ ☆

المجموعة السادسة

وتمتدُّ من الآية (٢٨) إلى نهاية الآية (٤١) وهذه هي :

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ
يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟
فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا
رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ
لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟
نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ
هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ
ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ
أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ
﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ

وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

التفسير :

﴿ **ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً** ﴾ أي بدّلوا شكر نعمة الله كفراً ، وذلك لأن شكرها الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفراً ، فكأنهم غيّروا الشكر إلى الكفر ، وبدّلوا تبديلاً ، واللفظ يعم كل الكفار ، وهو في حق بعض الأقوام أظهر ، كالعرب في عصرنا ، وأهل مكة ، إذ بدّلوا دين إبراهيم ﴿ **وأحلّوا قومهم دار البوار** ﴾ أي دار الهلاك والصيغة تدل على أن الكلام في القادة والرؤساء الذين يسيرون بمن تابعهم إلى الهلاك ﴿ **جهنم** ﴾ هي دار البوار ﴿ **يصلونها** ﴾ أي يدخلونها ﴿ **وبئس القرار** ﴾ أي وبئس المقر جهنم ﴿ **وجعلوا** ﴾ أي هؤلاء الذين دخلوا جهنم ﴿ **لله أنداداً** ﴾ أي شركاء عبدوهم معه ودعوا الناس إلى ذلك ، جعلوهم له أمثالاً أو في التسمية ﴿ **ليضلوا عن سبيله** ﴾ قال البيضاوي : وليس الضلال ولا الإضلال غرضهم في اتخاذ الأنداد ولكن لما كان نتيجته جعل كالغرض ﴿ **قل تمتعوا** ﴾ هذا تهديد ووعيد من الله لهم ، أي مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا ، فمهما يكن من شيء ﴿ **فإن مصيركم إلى النار** ﴾ فإن مرجعكم ومآلكم إليها ، والأمر بالتمتع هنا يفيد الخذلان والتخلية ، والتمتع كما فسره ذو النون المصري أن يقضي العبد ما استطاع من شهوته ﴿ **قل لعبادي الذين آمنوا** ﴾ أضاف عباده إلى نفسه تشريفاً لهم ، ووصفهم بأعلى أوصافهم وهو الإيمان ﴿ **يقيموا الصلاة** ﴾ بالمحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها ﴿ **وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية** ﴾ يدخل في ذلك أداء الزكوات ، والنفقة على القربات ، والإحسان إلى الأجانب في الخفية والجهر ، وإخفاء التطوع أفضل ، وإعلان الواجب أفضل ، إلا لمصلحة في الحالتين ﴿ **من قبل أن يأتي يوم** ﴾ هو يوم القيامة ﴿ **لا بيع فيه ولا خلال** ﴾ أي لا انتفاع فيه بمبايعة ولا مخالّة فالخلال المخالّة أي الصداقة فليبادرْ العبد في الدنيا بالصلاة والإنفاق لخلاص نفسه ﴿ **الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء** ﴾ قال النسفي : من السحاب ﴿ **ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم** ﴾

فمن كان كذلك تستحق له العبادة بالصلاة ويجب أن يطاع بالإنفاق مما رزق ﴿ **وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار** ﴾ وكل ذلك فيه رزق لكم فاشكروه بالصلاة والإنفاق مما رزقكم ﴿ **وسخر لكم الشمس والقمر دائبين** ﴾ أي يدأبان في حركتهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات ، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات ، وهذا كله يقتضي شكراً بالصلاة والإنفاق ﴿ **وسخر لكم الليل والنهار** ﴾ يتعاقبان لمعاشكم وسباتكم ﴿ **وآتاكم من كل ما سألتموه** ﴾ أي وهيأ لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مماتسألونه بحالكم ، فهو يعلم احتياجكم قبل خلقكم ، ويعلم ما تسألونه قبل وجودكم ، فخلقه وسهّله لكم ﴿ **وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ أي لا تطيقون عدّها ، وبلوغ آخرها ، حتى على سبيل الإجمال ، فكيف على سبيل التفصيل ﴿ **إن الإنسان** ﴾ المراد به الجنس ﴿ **لظلوم** ﴾ يظلم النعمة بإغفال شكرها ﴿ **كفّار** ﴾ شديد الكفران للنعمة ، أو ظلوم في الشدة يشكو ويسخط ، كفار في النعمة يجمع ويمنع .

ثم بعد هذه الآيات ستأتي آيات تحدثنا عن إبراهيم عليه السلام ودعائه للبلد الحرام بتجنيبه الأصنام ، وغير ذلك من دعواته كما سنراها ، فما صلة ذلك بالآيات قبلها :

إذا تذكرنا بداية هذه المجموعة ﴿ **ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً ...** ﴾ وأن المفسرين يحملون هذا - كما سنراه - على أهل مكة ، أدركنا الصلة بين قصة إبراهيم عليه السلام وما سبقها ، وإذا رأينا من دعاء إبراهيم ﴿ **رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ....** ﴾

ورأينا فيما مر ﴿ **قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ...** ﴾ عرفنا الصلة بين ما مرّ وما سيأتي ، وإذا رأينا في كلام إبراهيم ﴿ **واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيراً من الناس** ﴾ وتذكرنا قوله تعالى فيما مر ﴿ **وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله ...** ﴾ أدركنا كذلك الصلة بين الفقرتين ، فإذا تأملنا هذه المجموعة كلها من آخرها فما سبقه ، من قصة إبراهيم عليه السلام ، إلى نعم الله في السموات والأرض ، نعرف كيف أن زعماء مكة بدّلوا نعمة الله كفراً وأشركوا به ، وكيف أن الأمر لرسول الله ﷺ أن يأمر عباد الله بالصلاة والإنفاق هو وضع للأمر في نصابه الصحيح الذي رغّب فيه إبراهيم عليه السلام . وإنما فصلنا بهذه الكلمة بين الفقرتين في المجموعة السادسة ليقبل القارىء وفي ذهنه صورة عن صلة قصة إبراهيم عليه السلام بما قبلها ،

فقصة إبراهيم عليه السلام تذكير بكل الحقائق التي غفلت عنها قريش والناس ، والتي لفتت الآيات السابقة النظر إليها وأمرت بها .

﴿ وإذ قال إبراهيم ﴾ أي واذكر إذ قال إبراهيم ﴿ رب اجعل هذا البلد ﴾ أي البلد الحرام مكة ﴿ آمناً ﴾ أي ذا أمن ﴿ واجنبني وبنيّ ﴾ أي أولادي وذريتي ﴿ أن نعبد الأصنام ﴾ ومعنى جنّبني أي أبعدني أي ثبّتني وأدمني على اجتناب عبادتها ﴿ ربّ ﴾ ﴿ إنهن ﴾ أي الأصنام ﴿ أضللن كثيراً من الناس ﴾ جُعلن مضلات على طريق التسبيب ؛ لأن الناس ضلوا بسببهن فكأنهن أضللنهم ﴿ فمن تبعني ﴾ أي على ملتي ، وكان حنيفاً مسلماً مثلي ﴿ فإنه مني ﴾ أي هو بعضي لفرط اختصاصه ﴿ ومن عصاني ﴾ فيما دون الشرك ﴿ فإنك غفور رحيم ﴾ تغفر وترحم لمن تاب وآمن ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي ﴾ أي بعض أولادي وهم إسماعيل ومن سيلد منه ﴿ بوادٍ ﴾ هو وادي مكة ﴿ غير ذي زرع ﴾ أي لا يكون منه شيء من زرع قط ، ﴿ عند بيتك المحرم ﴾ المراد به بيت الله ، وسُمّي محرماً لأن الله تعالى حرّم التعرض له والتهاون به ، وجعل حوله حرماً لمكانه ، أو لأنه لم يزل ممتنعاًيهابه كل جبار ، أو لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكها ﴿ ربنا ليقيموا الصلاة ﴾ أي ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرّم ، ويعمروه بذكرك وعبادتك . فما أعظم الصلاة وما أغلى قيمتها عند الله ورسله ﴿ فاجعل أفئدة ﴾ أي قلوباً ﴿ من الناس ﴾ أي من قلوب الناس ﴿ تهوي إليهم ﴾ أي تسرع إليهم من البلاد الشاسعة ، وتطير نحوهم شوقاً ﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ أي مع سكناهم وادياً ليس فيه شيء منها ، بأن تجلب إليهم من البلاد القريبة والشاسعة ، وقد كان ذلك كله ﴿ لعلهم يشكرون ﴾ النعمة إذ تهوي إليهم الأفئدة ، وإذ يرزقون أنواع الثمرات في واد ليس فيه شجر ولا ماء ﴿ ربنا ﴾ في تكرار النداء التضرع واللجوء إلى الله ﴿ إنك تعلم ما نُخفي وما نُعلن ﴾ أي تعلم السر كما تعلم العلن ﴿ وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ هل هذا من كلام إبراهيم ، أو من كلام الله تصديقاً لإبراهيم عليه السلام؟ قولان للعلماء ومعنى وما يخفى على الله من شيء أي وما يخفى على الله شيء ما ﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق ﴾ تذكر التوراة الحالية المحرّفة أن إسماعيل ولد لإبراهيم وعمره ابن ست وثمانين سنة ، وأن إسحق ولد له وعمره مئة سنة ، وإنما ذكر حال الكبر لأن المنّة بهبة الولد فيه أعظم ، لأنها حال وقوع اليأس من الولادة والظفر بالحاجة ، من أجل النعم ، ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم ﴿ إن

ربي لسميع الدعاء ﴾ أي لمجيب الدعاء ﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ﴾ أي وبعض ذريتي ، وإنما بعّض لأنه علم بإعلام الله له أنه يكون في ذريته كفار ﴿ ربنا وتقبّل دعاء ﴾ أي واستجب دعائي أو تقبل عبادتي ﴿ ربنا اغفر لي ولوالديَّ ﴾ أي آدم وحواء ، أو قاله قبل النهي واليأس من إيمان أبيه ﴿ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ أي يوم يثبت الحساب أو يوم يقوم أهل الحساب من قبورهم ، وبهذا انتهت المجموعة السادسة من هذه السورة

فوائد :

١ ــ ساق ابن كثير أسانيد كثيرة إلى علي وعمر وابن عباس في تفسير قوله تعالى ﴿ الذين بدّلوا نعمة الله كفراً ﴾ بأنهم قريش ، وبنو المغيرة يوم بدر ، وبنو أمية يوم أحد ، قال ابن كثير بعد تصحيحه هذا القول : وإن كان المعنى يعم الكفار فإن الله بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين ، ونعمة للناس ، فمن قام بشكرها دخل الجنة ، ومن ردّها وكفرها دخل النار

٢ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ نذكر ما قاله ابن حبيب رحمه الله (إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد ، ولكن أصبحوا تائبين وأمسُوا تائبين)

وما رواه البخاري : أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اللهم لك الحمد غير مكفي ولا مودع ولا مستغنىً عنه ربنا » . وبمناسبة هذه الآية نقول : إن الشكر هو المخلص من مقام الظلم والكفران ، ولكن الشكر نفسه هو من نعم الله فهو يحتاج إلى شكر

قال الشافعي : (الحمد لله الذي لا يؤدىٰ شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها) ومن ثم فالشكر الذي يخلّص من الكفران هو أن تحمد وتعمل ، وتعترف لله بالفضل وعلى نفسك بالتقصير

٣ ــ في قوله تعالى على لسان إبراهيم ﴿ فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ قال ابن كثير (وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى لا تجويز وقوع ذلك) أي لا تجويز وقوع المغفرة على الشرك . أقول : إن أهل السنة والجماعة يفرقون في كتبهم بين الجائز العقلي في حق الله ، وبين الجائز الشرعي ، فعندهم يجوز عقلاً أن يغفر الله كل ذنب ، ولكن لإخباره أنه لا يغفر الشرك فإنه من الواجب الاعتقاد أن

غفران الشرك مستحيل الوقوع، وقول إبراهيم هنا وقول عيسى عليهما السلام ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ يؤيد هذا التقسيم.

٤ — روى عبد الله بن وهب بسنده إلى عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام ﴿ **رب إنهن أضللن كثيراً من الناس** ﴾ الآية. وقول عيسى عليه السلام ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك** ﴾ الآية. ثم رفع يديه ثم قال: «اللهم أمتي، اللهم أمتي، اللهم أمتي وبكى. فقال الله: اذهب يا جبريل إلى محمد – وربك أعلم – وسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ ما قال. فقال: اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك»

٥ — يلاحظ أن الله تعالى قال في سورة البقرة: ﴿ **رب اجعل هذا بلداً آمناً** ﴾ بتنكير البلد وهنا ﴿ **رب اجعل هذا البلد آمناً** ﴾ بتعريف البلد فما حكمة التعريف والتنكير؟ نكّره حيث أراد أن يجعله آمناً من جملة البلدان الآمنة، وعرّفه حيث أراد أن يخصّه بالخروج من الخوف إلى الأمن الدائم.

٦ — يلاحظ أن من سنة إبراهيم عليه السلام الدعاء لنفسه ولوالديه وللمؤمنين وللذرية، كما يلاحظ حرصه على استمرار الخير في ذريته وذلك خلق ينبغي أن يتحقق فيه كل مسلم.

٧ — بمناسبة قوله تعالى: ﴿ **فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم: لو قال أفئدة الناس لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم ولكن قال: من الناس فاختص به المسلمون.

٨ — فسّرنا قوله تعالى: ﴿ **إن ربي لسميع الدعاء** ﴾ بمعنى مجيب الدعاء، وذلك من باب قولك: سمع فلان كلام فلان إذا تلقاه بالإجابة والقبول، ومنه سمع الله لمن حمده.

٩ — بمناسبة قوله تعالى: ﴿ **رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي** ﴾

نقل النسفي عن ابن عباس قوله: لا يزال من ولد إبراهيم ناس على الفطرة إلى أن تقوم الساعة.

كلمة في السياق :

رأينا أن المجموعة الأولى في هذه السورة تبين الحكمة من إنزال الكتاب على محمد ﷺ وهي إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وأن المجموعة الثانية بينت أن موسى عليه السلام قد كلف بما كلف به محمد ﷺ وأنّ الثالثة والرابعة ذكرت بالأقوام السابقين ، وما كان بينهم وبين رسلهم ، وعاقبة الكافرين في الدنيا والآخرة ، وأن المجموعة الخامسة ذكرت بآثار كلمة التوحيد وكلمة الكفر على أصحابها وعلى الناس ، وأن المجموعة السادسة لفتت النظر إلى فعل الكافرين بتبديل نعمة الله ، والآن تأتي مجموعتان كل منهما مبدوءة بنهي « ولا تحسبن » « فلا تحسبن »

☆ ☆ ☆

المجموعة السابعة

وتمتد من الآية (٤٢) الى نهاية الآية (٤٦) وهذه هي

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

التفسير :

﴿ **ولا تحسبنَّ الله غافلاً عمَّا يعمل الظالمون** ﴾ قال ابن كثير : يقول تعالى : ولا تحسبن الله يا محمد غافلاً عما يعمل الظالمون أي لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجّلهم أنه غافل مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم ، بل هو يحصي ذلك عليهم ويعدّه عليهم عدّاً ﴿ **إنما يؤخرهم** ﴾ أي يؤخر عقوبتهم الكاملة ﴿ **ليوم تشخصُ فيه الأبصار** ﴾ أي لا تقرّ أماكنها من شدة هول ما ترى ، ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر فقال : ﴿ **مهطعين** ﴾ أي مسرعين ﴿ **مقنعي رؤوسهم** ﴾ أي رافعيها ﴿ **لا يرتد إليهم طرفهم** ﴾ أي لا يرجع إليهم نظرهم فينظرون إلى أنفسهم . قال ابن كثير : أي أبصارهم ظاهرة شاخصة مديمون النظر ، لا يطرفون لحظة ، لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة ، لما يحل بهم عياذاً بالله العظيم من ذلك ولهذا قال : ﴿ **وأفئدتهم هواء** ﴾ أي وقلوبهم خاوية خالية ، ليس فيها شيء لكثرة الوجل والخوف ، يقال : قلب فلان هواء إذا كان جباناً لا قوة في قلبه ولا جراءة ، ثم قال الله لرسوله ﷺ ﴿ **وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب** ﴾ أي يوم القيامة ، أي أنذرهم يوم القيامة ﴿ **فيقول الذين ظلموا** ﴾ أي عند معاينة العذاب والذين ظلموا هم الكافرون ﴿ **ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجبْ دعوتك ونتبع الرسل** ﴾ أي رُدّنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أمد وحدّ من الزمان قريب ؛ نتدارك ما فرّطنا فيه من إجابة دعوتك واتباع رسلك فيقال لهم : ﴿ **أو لم تكونوا أقسمتم من قبل** ﴾ أي حلفتم في الدنيا ﴿ **ما لكم من زوال** ﴾ أي أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه ، وأنه لا معاد ولا جزاء ، ويحتمل أن يكون المراد بيوم يأتيهم العذاب يوم هلاكهم بالعذاب العاجل ، ويحتمل أنه أريد به يوم موتهم معذبين بشدة السكرات ، ولقاء الملائكة بلا بشرى بينما كانوا في وهمهم يعيشون ، كأنهم خالدون ﴿ **وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم** ﴾ أي وقررتم في مساكن من سبقكم من الكفار مطمئنين طيبي النفوس سائرين سيرة من قبلكم في الظلم والفساد ، لا تحدّثونها بما لقي الأولون من أيام الله ، وكيف كان عاقبة ظلمهم فتعتبرون وترتدعون ﴿ **وتبيَّن لكم** ﴾ بالأخبار أو المشاهدة للآثار ﴿ **كيف فعلنا بهم** ﴾ إذ أهلكناهم وانتقمنا منهم ﴿ **وضربنا لكم الأمثال** ﴾ أي صفات ما فعلوا ، وما فعل بهم ، وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة ، والمعنى : أنهم قدرأوا ، وبلغهم ما أحل الله بالأمم المكذبة قبلهم ، ومع هذا لم يكن لهم فيهم معتبر ، ولم يكن فيما أوقع الله بهم لهم مزدجر ومن ثم قال ﴿ **وقد مكروا مكرهم** ﴾ أي مكروا مكر الأقوام

السابقين الذين استفرغوا فيه جهدهم ، وهو ما فعلوه من تأييد الكفر وإبطال الإسلام ﴿ **وعند الله مكرهم** ﴾ أي ومكتوب عند الله مكرهم فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه ، أو عند الله مكرهم الذي يمكرهم به وهو عذابهم الذي يأتيهم من حيث لا يشعرون ﴿ **وإن كان مكرهم** ﴾ أي وما كان مكرهم ﴿ **لتزول منه الجبال** ﴾ أي ليزول منه الإيمان وأهله شبّه أهل الإيمان بالجبال

الفوائد :

١ ـ هذه المجموعة تنهى الدعاة عن ظن السوء بالله ، بأن يظنوا الغفلة بالله عن عمل الظالمين ، والمؤمن لا يقع في مثل هذا ، ولكن عليه أن يتذكر رقابة الله دائماً ، كما تأمر المجموعة بالإنذار باليوم الآخر ، وفي هذا لفت نظر للدعاة أن يكونوا يقظين منذرين

٢ ـ رأينا تفسير قراءة حفص في قوله تعالى : ﴿ **وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال** ﴾ وهناك قراءة متواترةأخرى قرأبها الكسائي وهي بفتح لام « لتزول » ﴿ **وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال** ﴾ أي وإنه كان مكرهم يزيل الجبال . وهذا وصف لمكرهم بالشدة والكبر ، ومع ذلك فإن الله يفسده ، ومن رأى مكر الكافرين في عصرنا عرف معنى هذه القراءة عملياً . ومن رأى ثبات المؤمنين في عصرنا عرف معنى قراءة حفص عملياً .

☆ ☆ ☆

المجموعة الثامنة

وتمتدُ من الآية (٤٧) إلى نهاية الآية (٥١) وهذه هي :

فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾

التفسير :

﴿ **فلا تحسبنّ الله مخلف وعده رسله** ﴾ من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، والتقدير مخلف رسله وعده ، وإنما أخرّ الرسل وقدّم الوعد ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته ﴿ **إن الله عزيز** ﴾ أي ذا عزة لا يمتنع عليه شيء أراده ، وغالب لا يغالب ولا يماكر ﴿ **ذو انتقام** ﴾ لأوليائه من أعدائه ﴿ **يوم تُبدّل الأرضُ غير الأرض** ﴾ أي وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴿ **والسموات** ﴾ أي وتبدل السموات غير السموات ﴿ **وبرزوا** ﴾ أي وخرجوا من قبورهم ﴿ **لله الواحد القهار** ﴾ ذكر الوحدانية بجانب القهارية هنا ليعلم أن الملك يومئذ لواحد غلاب لا يغالب ، فلا مستغاث لأحد إلى غيره ، وهذا يفيد أن الأمر يومئذ في غاية الشدة ﴿ **وترى المجرمين** ﴾ أي الكافرين المفسدين ﴿ **يومئذ** ﴾ أي يوم القيامة ﴿ **مقرّنين** ﴾ أي قرن بعضهم مع بعض أو مع الشياطين ، أو قرنت أيديهم إلى أرجلهم مغللين ﴿ **في الأصفاد** ﴾ والأصفاد هي القيود والأغلال ﴿ **سرابيلهم** ﴾ أي قمصهم وثيابهم التي يلبسونها ﴿ **من قطران** ﴾ وهو مادة معروفة تتحلب من شجر يسمّى الأبهل ، فيطبخ فيهنأ به الإبل الجربى ليحترق الجرب بحدته وحره ، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار ، وهو أسود اللون ، منتن الريح ، فيطلى به جلود أهل النار ، حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل ليجتمع عليهم لذع القطران وحرقته

وإسراع النار في جلودهم ، واللون الوحش ونتن الريح . على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين . وكل ما وعده الله أو أوعد به في الآخرة فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقدر ، وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامي والمسمّيات ثمة نعوذ بالله من سخطه وعذابه » اهـ النسفي

﴿ **وتغشى وجوههم النار** ﴾ أي وتعلوها باشتعالها ، وخُصّ الوجه لأنه أعز موضع في ظاهر البدن كالقلب في باطنه ﴿ **ليجزيَ الله كل نفس ما كسبت** ﴾ أي يفعل بالمجرمين ما يفعل ليجزي كل نفس مجرمة ما كسبت أو كل نفس من مجرمة ومطيعة سيجازيها لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم ، فسيثيب المؤمنين على طاعتهم ﴿ **إن الله سريع الحساب** ﴾ أي يحاسب جميع العباد في أسرع من لمح البصر .

فوائد :

١ ــ هذه المجموعة توجّه الداعية نحو الثقة المطلقة بوعد الله في النصرة في الآخرة وفي الدنيا ؛ لأن مقتضى اتصافه بأسمائه : العزيز ، ذي الانتقام ، الواحد ، القهّار ، يقتضي أن يكون ما أخبر عنه حاصلًا ، ومقتضى عدله أن يجازي الأنفس على عملها ، ومن ثم فالثقة بوعد الله سمة رئيسية من سمات الداعية ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

٢ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يوم تُبدَّل الأرض غير الأرض والسمٰوات** ﴾

قال ابن كثير :(جاء في الصحيحين من حديث أبي حازم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي[1] ليس فيها معلم لأحد » وقال الإمام أحمد ... عن عائشة أنها قالت : أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ **يوم تُبدّل الأرض غير الأرض والسمٰوات** ﴾ قالت : قلت أين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال : « على الصراط » . وقال قتادة عن حسان ابن بلال المزني عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن قول الله : ﴿ **يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسمٰوات** ﴾ قال : قالت : يا رسول الله فأين الناس يومئذ ؟ قال : « لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد من أمتي ، ذاك أن الناس على جسر جهنم »)

---

(١) قرصة النقي : خبز لنخل مرة بعد مرة .

وبمناسبة هذه الآية يثور سؤال : هل التبديل - الذي هو التغيير - تغيير ذات ، أو تغيير أوصاف ؟ قولان قال النسفي : (واختلف في تبديل الأرض والسماوات فقيل : تبدل أوصافها ، وتسير عن الأرض جبالها ، وتفجر بحارها وتسوى ولا ترى فيها عوجا ولا أمتا . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : هي تلك الأرض وإنما تغير . وتبدل السماء بانتثار كواكبها وكسوف شمسها ، وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبواباً وقيل : تخلق بدلها أرض وسماوات أخر

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : يحشر الناس على بيضاء لم يخطىء عليها أحد خطيئة ...)

وقال الألوسي : (والتبديل قد يكون في الذات كما في بدّلت الدراهم دنانير ومن قوله تعالى : ﴿ بدلناهم جلوداً غيرها ﴾ وقد يكون في الصفات كما في قولك : « بدّلت الحلقة خاتماً » إذا غيّرت شكلها ومنه قوله سبحانه : ﴿ يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ والآية الكريمة ليست بنص في أحد الوجهين)

ثمّ ذكر الألوسي أقوالًا كثيرة للمفسرين عن هذا التبديل ثمّ قال : ولا مانع أن يكون هنا تبديلات على أنحاء شتى ، وعلّقه على الحديث الذي رواه مسلم والذي فيه « هم في الظلمة دون الجسر » : ولعلّ المراد من هذا التبديل نحو خاص منه)

٣ - قال الألوسي عن القطران :

(هو ما يحلب من شجر الأبهل فيطبخ وتهنأ به الإبل الجربى فيحرق الجرب بما فيه من الحرة الشديدة ، وقد تصل حرارته إلى الجوف ، وهو أسود منتن يسرع فيه اشتعال النار حتى قيل إنه أسرع الأشياء اشتعالًا . وفي التذكرة أنّه نوعان ... وأنّه إن سلّ بنفسه يقال زفت وإن كان بالصناعة فقطران)

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ سرابيلهم من قطران ﴾ يذكر ابن كثير هذين الحديثين :

- روى الإمام أحمد والإمام مسلم عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « أربع في أمتي من أمر الجاهلية ، لا يتركونهن : الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة على الميت ، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب » .

— وفي حديث القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ رفعه : « النائحة إذا لم تتب توقف في طريق بين الجنة والنار سرابيلها من قطران وتغشى وجهها النار » .

☆ ☆ ☆

خاتمة السورة

وهي آية واحدة وهي الآية (الثانية والخمسون) وهذه هي :

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

التفسير :

﴿ **هذا** ﴾ أي الذي ورد في السورة ﴿ **بلاغ للناس** ﴾ أي كفاية في التذكير والموعظة ، وبه تقوم الحجة الكاملة عليهم ﴿ **ولينذروا به** ﴾ أي بهذا البلاغ ﴿ **وليعلموا أنما هو إله واحد** ﴾ بمجموع ما جاء في السورة ﴿ **وليذكر أولوا الألباب** ﴾ أي ذوو العقول فيخرجون بهذا البلاغ من الظلمات إلى النور .

وبمناسبة هذه الآية قال صاحب الظلال :

(إن الشرك بالله ـــ المخالف لشهادة أن لا إله إلا الله ـــ يتمثل في كل وضع وفي كل حالة لا تكون فيها الدينونة في كل شأن من شؤون الحياة خالصة لله وحده ، ويكفي أن يدين العبد لله في جوانب من حياته بينما هو يدين في جوانب أخرى لغير الله . حتى تتحقق صورة الشرك حقيقة وتقديم الشعائر ليس إلا صورة واحدة من صور الدينونة الكثيرة ، والأمثلة الحاضرة في حياة البشر اليوم تعطينا المثال الواقعي للشرك في أعماق طبيعته . إن العبد الذي لا يتوجه لله بالاعتقاد في ألوهيته وحده ثم يدين لله في الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لشرائع من عند غير الله ، ويدين في قيمه وموازينه الاجتماعيه لتصورات واصطلاحات من صنع غير الله . ويدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته وأزيائه لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والعادات والتقاليد والأزياء – مخالفة لشرع الله وأمره ـــ إن هذا العبد يزاول الشرك (الخفي أو الجلي) في أخص حقيقته ويخالف عن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله في أخص حقيقتها هذا ما يغفل عنه الناس اليوم فيزاولونه في ترخيص وتميُّع ، وهم لا يحسبونه

الشرك الذي كان يزاوله المشركون في كل زمان ومكان .

والأصنام .. ليس من الضروري أن تتمثل في تلك الصورة الأولية الساذجة .. فالأصنام ليست سوى شعارات للطاغوت ، يتحقق وراءها لتعبيد الناس باسمها ـ وضمان دينونتهم له من خلالها

إن الصنم لم يكن ينطق أو يسمع أو يبصر .. إنما كان السادن أو الكاهن أو الحاكم يقوم من ورائها يتمتم حولها بالتعاويذ والرقى .. ثم ينطق باسمها بما يريد هو أن ينطق لتعبيد الجماهير وتذليلها

فاذا رفعت في أي أرض وفي أي وقت شعارات ينطق باسمها الحكام والكهان ويقررون باسمها ما لم يأذن به الله من الشرائع والقوانين والقيم والموازين والتصرفات والأعمال ... فهذه هي الأصنام في طبيعتها وحقيقتها ووظيفتها !

إذا رفعت « القومية» شعاراً أو رفع « الوطن » شعاراً أو رفع « الشعب » شعاراً أو رفعت « الطبقية » شعاراً .. ثم أريد الناس على عبادة هذه الشعارات من دون الله وعلى التضحية لها بالنفوس والأموال والأخلاق والأعراض . بحيث كلما تعارضت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعليماته مع مطالب تلك الشعارات ومقتضياتها ، نُحيت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعاليمه ونفذت إرادة تلك الشعارات ـ أو بالتعبير الصحيح الدقيق : إرادة الطواغيت الواقفة وراء هذه الشعارات كانت هذه هي عبادة الأصنام من دون الله .. فالصنم ليس من الضروري أن يتمثل في حجر أو خشبة . ولقد يكون الصنم مذهبا أو شعاراً

إن الإسلام لم يجيء لمجرد تحطيم الأصنام الحجرية والخشبية ولم تبذل فيه تلك الجهود الموصولة من موكب الرسل الموصول ولم تقدم من أجله تلك التضحيات الجسام وتلك العذابات والآلام لمجرد تحطيم الأصنام من الأحجار والأخشاب .

إنما جاء الإسلام ليقيم مفرق الطريق بين الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن ، وبين الدينونة لغيره في كل هيئة وفي كل صورة .. ولابد من تتبع الهيئات والصور في كل وضع وفي كل وقت لإدراك طبيعة الأنظمة والمناهج القائمة ، وتقرير ما إذا كانت توحيداً أم شركا ؟ ودينونة لله وحده أم دينونة لشتى الطواغيت والأرباب والأصنام !

والذين يظنون أنفسهم في « دين الله » لأنهم يقولون بأفواههم « نشهد أن لا إله إلا

الله وأن محمداً رسول الله » ويدينون لله فعلاً في شؤون الطهارة والشعائر والزواج والطلاق والميراث .. بينما هم يدينون فيما وراء هذا الركن لغير الله ــ ثم هم يبذلون أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وأخلاقهم ــ أرادوا أم لم يريدوا ــ ليحققوا ما تتطلبه منهم الأصنام الجديدة . فإذا تعارض دين أو خلق أو عرض مع مطالب هذه الأصنام نبذت أوامر الله فيها ونفذت مطالب هذه الأصنام ...

الذين يظنون أنفسهم « مسلمين » وفي « دين الله » وهذا حالهم .. عليهم أن يستفيقوا لما هم فيه الشرك العظيم !!!

إن دين الله ليس بهذا الهزال ، إن دين الله منهج شامل لجزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها ، والدينونة لله وحده في كل تفصيل وكل جزئية من جزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها ــ فضلاً على أصولها وكلياتها ــ هي دين الله ــ وهي الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه .

وإن الشرك بالله لا يتمثل - فحسب - في الاعتقاد بألوهية غير الله ولكنه يتمثل ابتداءً في تحكيم أرباب غيره معه .

وإن عبادة الأصنام لا تتمثل في إقامة أحجار وأخشاب بقدر ما تتمثل في إقامة شعارات لها كل ما لتلك الأصنام من نفوذ ومقتضيات .

ولينظر الناس في كل بلد لمن المقام الأعلى في حياتهم ؟ ولمن الدينونة الكاملة ؟ ولمن الطاعة والاتباع الامتثال ؟ فإن كان هذا كله لله فهم في دين الله ، وإن كان لغير الله - معه أو من دونه ــ فهم في دين الطواغيت والأصنام .. والعياذ بالله ..!

﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به ، وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾ ..)

فائدة :

لخصت هذه الآية مقاصد السورة بأنها البلاغ ، والإنذار ، والعلم بوحدانية الله ، والتذكير ، فهي بلاغ للناس بأن هذا القرآن وحده هو الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور ، وهي إنذار بما تهدّد الله به الكافرين في القرآن ، وعلى لسان موسى عليه السلام ، وبما فعل الله بالمكذبين ، وبما حدثنا الله عنه من شأن الكافرين ، وهي إنذار لمن بدّل نعمة الله كفراً ، وهي إنذار للظالمين بما أعد لهم .

وهي كذلك لتعليم الناس الوحدانية ، فالله عز وجل واحد في ذاته ، واحد في صفاته ، واحد في أفعاله ، فهي تعلّم الناس الوحدانية من خلال ظاهرة الخلق ، ومن خلال آثار الوحدانية في الحياة البشرية ، ومن خلال بعثة الرسل ونصرتهم ، ومن خلال دعوتهم وحالهم .

وهي تذكرّ أولي الألباب في الطريق إلى النور من خلال الخطاب المباشر ﴿ ألم يأتكم ﴾ ﴿ ألم تر ﴾ ﴿ ألم تر ﴾ ﴿ ألم تر ﴾ ﴿ ولا تحسبن ﴾ ﴿ فلا تحسبن ﴾ ومن خلال انفعالهم بأوامر الرسول ﷺ ، ومن خلال القدوة بالرسل ، وبمجموع مقاصد السورة نعرف كيف تتم عملية الخروج من الظلمات إلى النور بالبلاغ والإنذار ، والتركيز على التوحيد والتذكير .

كلمة في سورة إبراهيم :

رأينا أن محور سورة إبراهيم هو قوله تعالى : ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ وسورة إبراهيم تحدد بم يكون الإخراج ، فالإخراج بالقرآن ، وسبب الخروج محمد ﷺ ، والسورة توجّه ، وتبين آلية الخروج وبم تتم :

فالمخرج تقول :

﴿ ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ .... ﴾

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلًا كلمة طيبة .... ﴾

﴿ ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً .. ﴾

﴿قل لعبادي الذين آمنوا ... ﴾

﴿ ولا تحسبنّ الله غافلًا .... ﴾

﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب .... ﴾

﴿ فلا تحسبنّ الله مخلف وعده رسله ... ﴾

فهذه مجموعة أمور توجه عملية الإخراج من الظلمات إلى النور ولتتم به .

إن سورة إبراهيم عليه السلام تفصّل في محورها ، ومع ذلك فإن لها سياقها الخاص :

تبدأ بذكر الحكمة من إنزال القرآن ، وتثني بأن ذلك كان هو الهدف من بعثة موسى عليه السلام ، ثمّ تخاطب المكلّفين ألا يرفضوا ، ثمّ تلفت النظر إلى قدرة الله لتصل إلى مشهد من مشاهد يوم القيامة ، ثمّ تذكّر بكلمة التوحيد ، ثمّ تأمر بالصلاة والزكاة ، ثم تذكّر بحقوق الحرم ، فهي بذلك تذكّر بأن الطريق إلى النور هو : كلمة التوحيد ، والصلاة ، والإنفاق ، والحج ، وإذ كان الكثيرون من الناس سيرفضون دعوة الله فإن المجموعتين الأخيرتين في السورة تذكّران رسول الله ﷺ بأن الله يمهل ولا يهمل ، وأن وعده آت لا محالة ، ثمّ تأتي خاتمة السورة مذكّرة بأغراض السورة

وهكذا شأن كل سورة من سور القرآن ، لها سياقها الخاص ، ولها محورها الذي تفصّل فيه ، وكل سورة لها محلها في السياق القرآني العام

كلمة في المجموعة الأولى من قسم المثين :

إنّ التكامل واضح في سور المجموعة الأولى من قسم المئين ، كما أن التكامل واضح بين هذه المجموعة وبين المجموعتين الأخيرتين من قسم المئين كما سنرى :

جاءت سورة يونس في هذه المجموعة فنفت الريب عن القرآن ، وأكّدت أنه هدى ، ثمّ جاءت سورة هود فدلّت على الطريق إلى الله ، وعلى الطريق للاهتداء بكتابه والطريق هو العبادة لله وحده ، ثمّ جاءت سورة يوسف فعمّقت الإيمان بالقرآن وعمقّت ضرورة الاهتداء به ، ثم جاءت سورة الرعد فبينت أن للاهتداء وللضلال سنناً ، فمن تجنّب سنن الضلال وتبع طرق الهداية فإنه يهتدي ، وحتى لا يظن ظان أن الهداية تكون بلا هاد ، وحتى يتعمق معنى السير في طريق الهداية ، فقد جاءت سورة إبراهيم لتفصّل في ذلك كله .

وهكذا نجد أن المجموعة الأولى من قسم المئين تشكّل وحدة متكاملة فيما بينها ، وتظهر لك هذه الوحدة على كمالها لو أنك وضعت محاور سور المجموعة من سور البقرة بجانب بعضها .

ونحن سنضع هذه المحاور بجانب بعضها لنتأمل الصلة بين الآيات ، ثمّ لتدرك ما ذكرناه من تكامل ، ثمّ لنتذكر ما قلناه من قبل إن محاور القسم – أو المجموعة في القسم – من سورة البقرة تشكّل مع بعضها وحدة موضوعية .

﴿ الٓمٓ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ﴾ ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ ﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ، ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون . ﴾ ﴿ الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾

هذه هي محاور سور المجموعة الأولى من قسم المئين ، ولو أنك تأملتها لوجدت معاني يكمّل بعضها بعضاً ، فكذلك سور المجموعة ، إذ ترسم طريق الهداية من بدايته إلى نهايته ، وهي بهذا تضع الأساس الذي ستبني عليه المجموعة الثانية من قسم المئين كما سترى .

....

في هذه المجموعة من قسم المئين يصل النور إلى القلب ، ويزداد اليقين وتتضمّن صفات الخير ، ويتخلص الإنسان من صفات الشر ، وبذلك يصبح عنده استعداد للتلقي في أمور أخرى ، وذلك هو موضوع المجموعة الثانية من قسم المئين .

ستأتي المجموعة الثانية في قسم المئين لتعالج موضوع الاهتداء ببعض الكتاب وإهمال بعض ، ولتعالج موضوع الاستسلام المطلق لله بالاستسلام له في كل ما شرع ، ولتعالج احتمالات الانحراف في هذه الأمة ، ولتعالج موضوع التسليم لله في رزقه لعباده ، الرزق الحسي والرزق المعنوي ، ولتعالج موضوع الاختلاف في الكتاب ، وكلها مواضيع مهمة في حياة الإنسان ، وحياة الأمم . وإنما تأتي المجموعة الثانية لتعالج هذه المواضيع بعد أن وضعت المجموعة الأولى من قسم المئين الأساس النظري والعملي للتلقي الكامل في هذه الشؤون ، والأمر أوسع من ذلك بكثير ولكنا نحرص ألا يتشعب بنا البحث فيفوتنا توضيح المسرى العام للتكامل القرآني

☆ ☆ ☆

فهرس المجلد الخامس

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆